الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

الكلية : العلوم الإنسانية والاجتماعية.

القسم : التاريـــخ

أطروحة

لنيل شهادة الدكتوراه علوم

الشعبة: التـــاريخ الوسيـــط

من إعـداد:

رواق رحمة

بعنوان

دور المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت المقدس (491-583هـ/ 1096-1187م)

بتاريخ:**13** نوفمبر **2024**م أمام لجنة المناقشة المكونة من: المشرف : أ.د كمال بن مارس

الاسم واللقب	الرتبة		
أ.د عـطابي سنـاء	أستاذ تعليـــم عـــالي	بجامعة 8 ماي 1945 –قالمة–	رئيسا
أ.د كمال بن مارس	أستـاذ تعليـــم عـــالي	بجامعة 8 ماي 1945 –قالمة–	مشرفا ومقررا
أ.د رابح أولاد أضياف	أستـاذ تعليـــم عـــالي	بجامعة 8 ماي 1945 –قالمة–	عضوا
د.يوسف أحـلام	أستاذ محاضر – أ–	بجامعة . 8 ماي 1945 –قالمة–	عضوا
أ.د علي عشي	أستاذ تعليـــم عـــالي	بجامعة الحاج لخضـر – باتنة –	عضوا
أ.د بولعراس خميسي	أستاذ تعليـــم عـــالي	بجامعة محمد لمين دباغين – سطيف–.	عضوا

السنة الجامعية: 1444–1445هـ/ 2023–2024م

République Algérienne Démocratique et Populaire
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
Université 8 Mai 1945 Guelma

Faculté : Sciences Humaines et Sociales
Département :Histoire

THÈSE

En Vue De L'obtention Du Diplôme De Doctorat En Sciences

Filière : Histoire de moyen âge

Présentée par

Rouag Rahma

Intitulée

Le Rôle de la Femme dans la Société Croisée Au Levant depuis La première Croisade jusqu'à la chute de Jérusalem (491-583H / 1096–1187ad)

Soutenue le : **Kamel benmarce** Devant le Jury composé de :

Mrs Sana attabi	**professeur**	Univ. de guelma	Président
Mr Kamel benmarce	**professeur**	Univ. de guelma	Rapporteur
Mr Rabeh wlad dhyaf	**professeur**	Univ. de guelma	Examinateur
Mrs Ahlem yousef	**Maitre conference A**	Univ. de guelma	Examinateur
Mr khmissi boulaaras.	**professeur**	Univ. de setif	Examinateur
Mr Ali achi	**professeur**	Univ. de batna	Examinateur

Année Universitaire : 1444-1445 H./ 2023-2024 ad

People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of 8 Mai 1945Guelma

Faculty: Humanities and Social Sciences
Department: History.

Thesis

Submitted in Candidacy for the Degree of *Doctorate inSciences*

Field: History

Presented by :
Rouag Rahma

Title

The Role of Women in Crusader society in the Levant From The First Crusade until The Fall of Jerusalem (491- 583H / 1096-1187ad)

Defended on : **Kamel benmarce** Before the jury composed of:

Full name	Rank	University	
Mrs Sana attabi	**professeur**	Univ. of guelma	President
Mr Kamel benmarce	**professeur**	Univ. of guelma	Supervisor
Mr Rabeh wlad dhyaf	**professeur**	Univ. of guelma	Examiner
Mrs Ahlem yousef	**Maitre conference A**	Univ. of guelma	Examiner
Mr khmissi boulaaras	**professeur**	Univ. of setif	Examiner
Mr Ali achi	**professeur**	Univ. of batna	Examiner

Academic year : 1444-1445 H./ 2023-2024 ad

بســـــــــــــــــم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعمَالًا ۞ الذِينَ ضَلَّ سَعيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُنيَا وَهُم يَحسِبُونَ أَنهُمْ يُحْسِنُونَ صُنعًا ﴾

سورة الكهف

الآية 103 – 104

شكر و تقدير

انطلاقا من قول النبي ﷺ:" لا يشكر الله من لا يشكر الناس" يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والعرفان إلى من سعدت بالتتلمذ على يده، لمن منحني من فكره الرشيد ورأيه السديد ما أعانني على إخراج هذه الرسالة العلمية إلى النور، فكل الشكر والوفاء والتقدير إلى أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور كمال بن مارس الذي سعدت بإشرافه على، فجزاه الله عني خير الجزاء و جعل ذلك في ميزان حسناته .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأعضاء اللجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة الرسالة .

وفي الأخير أتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساعدني من قريب أو بعيد لإكمال دراستي العلمية خاصة أسرتي التي يعود لها كل الفضل في دعمي و تشجيعي على البحث العلمي.

رحمـــــة

الإهداء

إلى والدي الكريمين برًا بهما و امتنانًا لهما.

إلى زوجي عونًا و سندًا و عضدًا.

إلى أولادي أريج و يحيى و جوري

إلى اخوتي و أخواتي

أهدي ثمرة هذا الانجاز العلمي حبًا و تقديرًا لكم .

رحمـــــة

قائمة المختصرات

الكلمة	الرمـــز
توفي	ت
الجزء	ج
دون تاريخ نشر	د.ت.ن
دون مكان نشر	د.م.ن
دون ناشر	د.ن
الطبعة	ط
دون طبعة	د.ط
العدد	ع
مجلد	مج
ميلادي	م
هجري	هـ
الصفحة	ص
تحقيق	تح
ترجمة	تر
page	P
volum	Vol
(**L.opira citatoe**) **in the work**	Op.cit

مقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه فهو ولي كل توفيق وملهم كل خير والهادي إلى كل حق والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين وبعد:

1-التعريف بالموضوع:

لقد سعى الصليبيون منذ الوهلة الأولى التي استوطنوا فيها بلاد الشام إلى تكوين مجتمع مستقل بذاته لديه عاداته وتقاليده وطقوسه المختلفة برغم ما كانت عليه جموع المشاركين في الحروب الصليبية من اختلاف وتباين، فقد كان قوام المجتمع الصليبي خليطا من الأجناس والقوميات واللغات والأديان ما بين غربيين وشرقيين مع تفاوت بينهم في المظاهر الاجتماعية والدرجة الثقافية .

إن مشاركة النساء في الحملات الصليبية أو جلبهن من قبل الرجال يؤكد أنهم كانوا يريدون تكوين كيان صليبي ومجتمع جديد في بلاد الشام، وكان من الضروري إحضار النساء للقيام بالأعمال المختلفة والحفاظ على النسل والاستقرار النهائي في الشرق، لذا فقد استقدمت النساء من أوروبا مع الحملات الصليبية لتأسيس كيان صليبي ستكون المرأة من الأطراف المساهمة في بنائه.

وباعتبار المرأة هي روح المجتمع فقد تمكنت المرأة الصليبية من لم شتات المجتمع الصليبي وصبغه بروح صليبية واحدة، وجعله يبدو للعيان مجتمعا موحدا رغم تشتته واختلاف عناصره، وكان ذلك من خلال تربية الأجيال التي نشأت على أرض الشام على السلم والحرب والسراء والضراء والفروسية وحسن التدبير والسعي للحفاظ على ما حققه الصليبيون الأوائل في الحملة الصليبية الأولى، لا بل والتوسع على حساب المسلمين إلى أبعد من ما يمكن.

لقد فتحت المرأة الصليبية عيناها على الصراع بين الشرق الفتي المتحضر والغرب الواهن الفقير الذي تخلف عن درب الحضارة، فأرادت أن تصطنع لقومها رقيا، وأن تقتبس من حضارة الشرق وثرائه لتنير درب مجتمعها الصليبي، فصهرت لذلك قوتها مع قوة الرجل وشاركته في صنع القرار وحاربت معه في المعارك وساهمت في البناء لترسيخ أقدام قومها في البلاد الشامية.

وقد استعملنا في دراستنا لموضوع "دور المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام " مصطلح " المرأة الصليبية " الذي نقصد به المرأة الأوروبية، نظرا لما شاع في فترة الحروب الصليبية من إطلاق مصطلح الصليبيين على كل نازح من أوروبا سواء لأسباب سياسية أو دينية أو اقتصادية أو اجتماعية كما وضعت بعض النساء الأرمينيات والبيزنطيات في نفس كفة المصطلح، لأنهن قد انخرطن في ذات المجتمع الصليبي عن طريق الزواج أو المصاهرة.

كان اختيارنا لتاريخ 491هـ/ 1096م كبداية لفترة دراستنا لأوضاع المرأة الصليبية، باعتبارها بداية لاستقرار الصليبيين في بلاد الشام وتكوينهم مجتمعا منفصلا عن المجتمع الأوروبي على أرض إسلامية غريبة عنهم، أما تاريخ 583هـ/ 1187م فهو تاريخ نجاح صلاح الدين الأيوبي في استرداد بيت المقدس وقد اخترناه ليكون نهاية للبحث، لأنه بعد فتح بيت المقدس أعقب ذلك انتقال حاضرة المملكة الصليبية من بيت المقدس إلى عكا، هذه الأخيرة التي قام بها مجتمع صليبي له نمطه الجديد المختلف عما كان عليه في بيت المقدس، فتغير بذلك دور المرأة في هذا المجتمع

الجديد الذي جمع أشتات الصليبيين من كل المدن التي سقطت في أيدي المسلمين، هذا ما جعلنا نفصل بين المرحلتين ونخص بالدراسة فقط المرحلة الأولى التي برز فيها دور ومكانة المرأة في المجتمع الصليبي المستقر الذي بقي لمدة طويلة بعيدا عن الصراع الإسلامي، أما بالنسبة للإطار المكاني فهو سائر بلاد الشام لاسيما الممالك الصليبية في الرها و أنطاكية و بيت المقدس ما لحق بهم من إقطاع.

2- أسباب ودوافع اختيار الموضوع:

ومن دوافع و أسباب اختيارنا لموضوع "دور المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام" هو أن أحوال المرأة ودورها في المجتمع الصليبي في البلاد الشامية لم يلق اهتماما كبيرا من المؤرخين اللاتين والعرب، إذ لا تتعدى إشارات متناثرة في بعض المصادر وفي إطار عام ما جعل من الضرورة جمعها واخراجها في إطار دراسة علمية تبرز مكانة المرأة الصليبية والدور الذي لعبته في قيام تلك المجتمعات وتماسكها وحفاظها على قيمها وتقاليدها وأعرافها.

بالاضافة إلى رغبتنا في ابراز الجهود التي بذلتها المرأة الصليبية منذ بداية الحملات الصليبية إلى غاية تكوين مجتمع صليبي دخيل في بلاد الشام تمكن من تثبيت جذوره وضم شمله والاندماج في مجتمع واحد رغم ما كان يحتويه من أسباب الضعف التي قدمت معه منذ الوهلة الأولى، حيث دعمت المرأة الصليبية الحملات الصليبية بل وشاركت في السياسة والحكم والإدارة وفي الحياة الدينية وحتى الأعمال العسكرية، ورغم أن الدعوة للحروب الصليبية لم تشمل النساء وفرضت فقط على الرجال إلا أن أعداد كبيرة منهن قد لبين نداء البابوية وخرجن مع الجيوش الصليبية ،وأصبحن بعد ذلك النواة الأولى التي أنجبت الجيل الأول من الصليبيين وغرسن فيه حب الأرض المقدسة وضرورة الحفاظ عليها .

اظهار التأثيرات الشرقية على تفاصيل حياة المرأة الصليبية، حيث سعت الكثير منهن إلى تقليد النساء المسلمات في الملبس والمأكل وفي الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى.

3- إشكالية الموضوع :

* ولدراسة موضوع دور المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام ارتأينا طرح الإشكالية الرئيسية التالية :

هل كان للمرأة الصليبية دور اجتماعي وتربوي فقط في المجتمع الصليبي أم كانت لها امتدادات و مشاركات سياسية و عسكرية ؟ وتتفرع من هذه الإشكالية الرئيسية عدة إشكاليات لعل منها:

- كيف كان للدعاية الصليبية التي وجهتها البابوية للمجتمعات الأوروبية دور في مشاركة المرأة الأوروبية في الحملات الصليبية، وما هو موقف المرأة الصليبية منها؟
- ما طبيعة مشاركة المرأة الصليبية في الحملات العسكرية على بلاد الشام ؟ وكيف تمكنت من مساعدة الرجال في تثبيت وغرس جذور هذا الكيان الدخيل على أرض بلاد الشام وتأسيس إمارات صليبية مستقلة قادرة على مجابهة الخطر الإسلامي لمدة طويلة ؟

- هل كل ما بذلته المرأة الصليبية من جهود لتثبيت الوجود الصليبي في الشرق رفع من مكانتها وغير من وضعها في المجتمع الصليبي مقارنة بوضعها في المجتمع الغربي الأوروبي؟
- لماذا لم تلق المرأة الصليبية اهتماما في المصادر التاريخية اللاتينية وحتى الإسلامية إلا باحتشام، رغم ما أسدته لمجتمعها الصليبي في أحلك الظروف؟
- ما الدور الذي لعبته المرأة الصليبية في إعداد الجيل الذي كان عليه المحافظة على المملكة الصليبية في بلاد الشام .
- هل يمكن القول أن المرأة التي تعتبر روح المجتمع الصليبي والتي ثبتت جذوره في البلاد الشامية، ما إن عاشت في الرخاء وتشربت من الانحلال الذي كان منتشرا في المجتمعات الصليبية حتى أصبحت من أهم أسباب التفرقة والتشتت والضعف، فمهدت بذلك الطريق لاجتثاث تلك الجذور التي غرستها.
- ما المكانة التي حظيت بها المرأة في المجتمع الصليبي والتي كفلتها لها أنظمة الحكم والأجهزة القضائية للمملكة الصليبية ؟ وكيف وصلت المرأة النبيلة للسلطة وما الظروف التي عاشتها والمصاعب التي واجهتها.

4- الدراسات السابقـة :

من أهم الدراسات السابقة نجد مجموعة من الرسائل الجامعية والمقالات التي تناولت موضوع المرأة الصليبية ومنها، رسالة ماجستير غير منشورة لسمر مُحَمَّد مُحَمَّد أبو سلمية بعنوان "دور المرأة ومكانتها زمن الصراع الإسلامي الفرنجي (491-691هـ/ 1098-1291م) "، وما كتبه طه الطراونة في مقال بعنوان "**المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام**" ومقال آخر لنبيلة إبراهيم خليل، "**حقوق المرأة الصليبية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية 1097-1291**"، وما كتبه جمال مُحَمَّد حسن الزنكي، "**تطلع المرأة الصليبية للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية (524-556هـ/ 1130-1161م) في ضوء ما كتبه المؤرخ الصليبي وليام الصوري**"، إضافة إلى **أسامة زكي زيد، " ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي "**، ومقال جلال حسني سلامة، دور النساء الأوروبيات في الحملة الصليبية الأولى على الأرض المقدسة (488هـ/ 1095م) ،غير أن كل هذه الدراسات لا ترقى أن تكون بحثا أصيلا ومعمقا عن المرأة الصليبية ودورها في مجتمعها، فأغلبها اهتم بجزئية وأهمل الجوانب الأخرى، حتى أن كتاب **حسن عبد الوهاب حسن ،مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية** ،ورغم أنه أشار لوضع المرأة في الشرق اللاتيني كعنوان لواحدة من المقالات الموجودة في الكتاب إلا إن دراسته كانت مختزلة ولم تهتم سوى بمدى تأثر المرأة الفرنجية بالشرق اللاتيني ،وحق المرأة في القضاء الصليبي.

ومن الأهمية أن نشير أن هذه الدراسات وغيرها تفتقر إلى التعرض لدراسة مكانة المرأة ودورها في المجتمع الصليبي ، فالجديد في هذه الدراسة أنها دراسة شاملة ومُلمة بأهم ما ميز المرأة الصليبية عن غيرها ،وتسليط الضوء على الدور والمكانة التي اكتسبتها في المجتمع الصليبي مع بدايات تأسيسه على الأرض الشامية حتى سقوط بيت المقدس الذي كان لها يد فيه، بسبب دخولها بشكل كبير في القرار السياسي.

5- **خطة الدراسة:**

على ضوء المادة العلمية التي تحصلنا عليها ولغرض اعطاء صورة واضحة ومفصلة عن دور المرأة الصليبية أمكننا جمع الموضوع ولم شتاته في أربع فصول رئيسية وخاتمة .

تناول الفصل الأول الموسوم بـ "دور المرأة في تأسيس المجتمع الصليبي" وضع المرأة في المجتمع الأوروبي **في القرن 5هـ**/ 11م و نظرة المجتمع الغربي لها، إضافة إلى مظاهر الحياة الاجتماعية للمرأة في غرب أوروبا حسب الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها ومشاركة النساء الأوروبيات جنبا إلى جنب مع الرجال في رحلات الحج منذ الوهلة الأولى، فقد تعلقت قلوبهن بالأراضي المقدسة في فلسطين طلبا للغفران وتكفير الذنوب، كما مهدت رحلات الحج المتوالية التي قامت بها النساء الأوروبيات إلى بيت المقدس منذ وقت مبكر إلى زيادة تعلقهن بالأماكن المقدسة واستجابتهن للدعاية الصليبية ورغبتهن الكبيرة وحماسهن الشديد للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى لتجسيد مشروع تحرير القبر المقدس، فساندت الرجال في الاستيلاء على عديد المدن الشامية والاستحواذ على بيت المقدس .

وتضمن الفصل الثاني الموسوم "بالحياة الاجتماعية للمرأة الصليبية في بلاد الشام" عادات الزواج في المجتمع الصليبي وطريقة تخير الزوج حيث أن الأمر كان أكثر تحررا عند نساء الطبقة المتوسطة بينما كان مقيدا بالنسبة لفتيات الطبقة الأرستقراطية اللاتي يرثن العرش أو يمتلكن الإقطاعات حيث كانت مصائرهن بيد الأوصياء أو الملوك، كما كان توثيق العلاقات بين الإمارات الصليبية وجيران الصليبيين سواء كانوا بيزنطيين أو أرمن أو غيرهم يكون عن طريق المصاهرة لتحقيق مكاسب سياسية أو منافع اقتصادية للطرفين ،إضافة إلى ذلك فقد تضمن هذا الفصل الخوض في تفاصيل الزواج الأخرى كالصداق وحفلات الزواج وصولا إلى الأسرة الصليبية وعلاقة المرأة بأبنائها و زوجها و القوانين المنظمة لعلاقة الزوجين و الحقوق و الواجبات المقررة على كل منهما وصولا إلى عادات الطلاق في المجتمع الصليبي و اختلافه بين طلاق اجباري وطلاق اختياري، كما تضمن هذا الفصل مختلف المظاهر الاجتماعية للمرأة في المجتمع الصليبي من مأكل ومشرب وألبسة وأدوات الزينة واستحمام والتأثيرات الشرقية عليها، إضافة إلى اظهار تفشي الآفات الاجتماعية في المجتمع الصليبي ومدى التدني والانحطاط الخلقي لكثير من النساء اللاتي صحبن الحملات الصليبية وكيف انغمسن في الرذيلة بمجرد وصولهن إلى الشرق و افتقاد رجالهن للغيرة على النساء.

أما الفصل الثالث الموسوم "بالمرأة الصليبية ودورها في الحياة السياسية" فقد تضمن دور المرأة في النزاعات الداخلية والخارجية، أما نزاعاتها السياسية الداخلية فكانت عن وراثة العرش أو الوصاية على وريث العرش وقد شمل الصراع السياسي للنساء جميع الإمارات الصليبية بما فيهم المملكة اللاتينية في بيت المقدس، وإمارة أنطاكية وطرابلس

وحتى إمارة الرها، أما عن دورها في النزاعات السياسية الخارجية فقد برز خاصة مع جيرانها إما من الجانب الإسلامي أو البيزنطي أو حتى مع الأرمن، حيث أخذ ذلك الدور يتشكل تبعا لطبيعة العلاقات مع جيران الإمارات الصليبية وما اتسمت به تلك العلاقات من تعاد أو توافق .

وقد تضمن الفصل الرابع والأخير والموسوم "بمساهمة المرأة في الحياة العسكرية والدينية للصليبيين في بلاد الشام" الحياة العسكرية للمرأة كمقاتلة في ميادين القتال أمام المسلمين، إلى جانب دورها الاستخباراتي حيث ساهمت في إمداد المسلمين بالمعلومات اللازمة أو التآمر معهم لتحقيق بعض الطموحات الشخصية داخل الإمارات الصليبية أو لتحقيق مكسب مادي معين، كما اعتمد الصليبيون على بعض النساء الصليبيات من أجل التجسس وأعمال المخابرات لصالح الفرنج، إضافة إلى ابراز أوضاع الأسيرات الصليبيات وطرق معاملتهم، أما الحياة الدينة للصليبيات فقد تطرقنا إلى أوضاع الراهبات الصليبيات في المجتمع الصليبي وعلاقتهن برجال الدين .

وقد قدمت في الخاتمة ملخصا لأهم النتائج التي أفرزتها الدراسة، ثم مجموعة من الملاحق التي تخدم موضوع البحث وجملة من المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

6- منهج الدراسة :

وقد التزمت بالمنهج الوصفي والتحليلي للأحداث التاريخية وذلك من خلال جمع المعلومات والروايات التاريخية المتنوعة من مصادر ومراجع عربية وأجنبية ودراستها وتحليلها ومقارنتها بما يخدم موضوع الدراسة وإنجازها بشكل علمي وموضوعي.

7- الصعوبات:

أما فيما يخص الصعوبات التي واجهتنا أثناء بحثنا في هذا الموضوع فهي قلة المصادر والمراجع التي قد تناولت بالبحث موضوع المرأة الصليبية، فأغلب المصادر كانت تسلط الضوء على أعمال الرجال والمعارك الانتصارات بينما كان نصيب المرأة في المجتمع الصليبي من الدراسة بعض الإشارات في بطون المصادر عن الأميرات أو الملكات، أما نساء العامة وحياتهن وأعمالهن فلم تتطرق إليهن المصادر لا من قريب ولا من بعيد، كما واجهنا صعوبة كبيرة في كثرة المصادر الغير معربة والتي اعتمدنا عليها في أغلب فصول البحث والتي وجب ترجمتها والبحث فيها بدقة عن دور الصليبيات في بلاد الشام.

وفي الأخير أذكر ما قاله الأصفهاني معترفا بنقص العمل البشري " إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النفص على البشر".

فالكمال لله وحده، ولا يسعني إلا أن أذكر قول الله تعالى " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا "، فما كان في هذه الدراسة من توفيق فهو من جليل نعم الله علي، وما كان فيها من زلل فمن النفس، وأدعوا الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا لخدمة المسيرة العلمية وأن يتقبل عملنا خالصا لوجهه.

دراسة نقدية للمصادر و المراجع :

أ-المصادر التاريخية:

1- وليام الصوري walliam of Tyre (1130م- 1185م / 524هـ- 581هـ)، مؤلفه تاريخ أعمال ما وراء البحر" « Ahistory of Deed done Beyond the see » ويعرف كذلك "بتاريخ الحروب الصليبية"، وهو من أهم المصادر المعاصرة لفترة الحروب الصليبية وأول دراسة تكاد تكون شاملة لتاريخ الحروب الصليبية ابتداء بالحملة الصليبية الأولى وانتهاء بمعركة الرملة سنة 1177م/ 573م والتي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها نجد في مقدمتهم كتاب " تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس" للمؤرخ المجهول، كذلك ما ذكره فوشيه الشارتري، بجانب تأثره تأثيرا كبيرا بكتابات ريموناجيل في تلك المرحلة، وقد استعان بوثائق ومراجع عربية لم يورد أسماءها، بجانب شهود عيان تلك الفترة، وقد أفادنا هذا المصدر في جميع فصول الأطروحة، ويعد بذلك من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها من خلال ما توافر فيه من معلومات عن نساء الأسر الحاكمة الصليبية، نخص بالذكر ملكات بيت المقدس وأميرات الإمارات الصليبية وأميرات الإقطاعات الأخرى، وحتى الراهبات وزوجات الأمراء وزوجات التجار إلى غير ذلك من النساء اللاتي ورد ذكرهن عرضا في تاريخه، وقد أفادنا خاصة في الفصل الثالث، فأوضح لنا تفاصيل فترة وراثة الملكة ميليسند لعرش بيت المقدس، ووصايتها على ابنها بلدوين الثالث، ومطامع الأميرة أليس في عرش أنطاكية ورغبتها في تنحية ابنتها كونستانس، إضافة إلى بيان فترة وصاية كونستانس على ابنها بوهيمند الثالث، إلى غير ذلك من الأحداث.

2- **هرقل (ت: 1277م/ 686هـ) ومؤلفه "تاريخ هرقل والاستيلاء على أراضي ما وراء البحر" l'estoir d'Eracles et de conquest de la terre d'outremere** ، وتكمن أهمية هذا المصدر في كونه عالج فترة طويلة وهامة لتاريخ الحروب الصليبية والتي امتدت ما بين سنة (1184 -1277م/ 580-686هـ)، ومن ثم فإن هذا المصدر يلي في الأهمية كتاب وليام الصوري، فجاء كتابا مكملا له حين غطى الفترة اللاحقة لكتاب وليام الصوري، فجاء كتابه جامعا شاملا لكل أحداث تلك الفترة، وقد أفادنا خاصة في الفصل الثالث من البحث، من خلال ما أورده عن الظروف التي صاحبت اختيار "سبيلا" كوريثة للعرش بعد موت أخيها الملك "بلدوين الرابع"، ثم الملابسات التي توجت كلا من "سيبيلا" وزوجها "جاي لوزجنان" ملكان على عرش بيت المقدس، كما زودنا هذا المصدر بدقة عن هجمات "صلاح الدين الأيوبي" على الصليبين خاصة حصاره لطبرية وأميرتها "إشيفيا"، وأعطانا مادة وافرة عن مؤامرة الأميرة "سبيل" على زوجها "بوهيمند الثاث" أمير أنطاكية وكيف حدث ذلك بالاتفاق مع الأمير "ليو الثاني" الأرميني.

3- **أرنول (ت: 1187م/ 583هـ) , ومؤلفه "حولية أرنول وبرنارد وكيل الخزانة "** La chronique d' Ernoul et de Bernard Le Trèsorier Sociètè de l'Histoire de France ، ويبدأ هذا المصدر بسرد تاريخ بيت المقدس حتى سنة 1187م/ 583هـ ولكن بشكل غير منتظم، ثم يسرد الكتاب

تاريخ الأعوام الأربعين التالية بشكل مركز ومكثف على الحملات الصليبية، وقد أفادنا هذا المصدر خاصة في الفصل الثالث والرابع من الدراسة في التعرف على الظروف التي أحاطت بزواج الملكة "سبيلا" من "جاي دي لوزجنان"، ثم تلك الخصومة الضاربة بين ب"لدوين الرابع" و"جاي دي لوزجنيان".

إلى جانب المصادر اللاتينية فقد أفادنا كذلك من المصادر السريانية والأرمينية في البحث و لعل أهمها :

4- ميخائيل السرياني (ت: 596 هـ/ 1199م) مؤلفه "حولية ميخائيل السرياني الكبير"، والذي شغل منصب البطريرك اليعقوبي لأنطاكية من 1166م/ 562هـ إلى غاية 1199م / 596هـ ويعد هذا المصدر منبعا هاما لتاريخ سوريا بصفة عامة عن تلك الحقبة، وقد استخدم ميخائيل السرياني في كتاباته المصادر الدينية الأصلية للفترة المتقدمة على عصره، وقد أفادنا هذا الكتاب في الفصل الثاني والثالث من الدراسة حيث سلط الضوء على عدة نقاط تخص المرأة الصليبية أهمها: فترة وصاية "كونستانس" أميرة أنطاكية على ابنها "بوهيمند الثالث"، وتلك العلاقة التي كانت بين الملكة "ثيودورا كومنين" و"أندرونيكوس"،كما زودنا بمعلومات هامة تخص زواج "جوسلين كورتناي" من أخت "ليون الأول" ملك أرمينيا.

5- ابن العبري (ت: 685هـ/1286م) وكتابه "تاريخ الزمان"، وهو من أهم المصادر السريانية، وترجع أهمية هذا المصدر إلى كونه مكملا لتاريخ ميخائيل السرياني الكبير وحتى عام 1286م/ 685هـ، وقد تميز ابن العبري في كتاباته بالموضوعية وعدم التحيز الذي تصادفه عند غيره من المؤرخين، ومن النقاط التي أفادنا فيها هذا المصدر هي في الفصل الرابع من خلال وصفه لمعاملة صلاح الدين لأسيرات بيت المقدس أبان الفتح الإسلامي له، وما كان منه حين سمح للملكة "سيبيلا" بالخروج إلى طرابلس لتمكث بجوار زوجها " جاي دي لوزجنان "، كما ذكر ابن العبري العديد من أخبار صلاح الدين ورفقه بالنساء ومن ذلك تصرفه مع الملكة "ماريا كومينينا" حين سمح لها بالخروج بعد أن أعطاها الأمان، كما شملت معاملته الكريمة راهبة بيزنطية كانت ابنة لأحد الملوك البيزنطيين، فسمح لها بالخروج مصطحبة كل أتباعها وشمامستها.

6- **متى الرهاوي (ت 1144م / 539هـ)**، مؤلفه " **حولية متى الرهاوي** " من أهم المصادر الأرمينية، وقد أفادنا في نقاط عديدة في البحث خاصة في الفصل الثاني والثالث ومنه ما ذكره عن محاولة الأميرة "أليس" إقصاء ابنتها "كونستانس" من وراثة العرش، وكذا طبيعة العلاقة بين الأميرة "سيسيليا" وزوجها الأمير "تنكرد" حين طلب من زوجته وهو يحتضر أن تتزوج من الأمير "بونز كونت طرابلس"، كما وافانا بمعلومات قيمة عن حرص الأمراء اللاتين في توطيد علاقتهم بالأرمن حين أفاض بتفاصيل زواج "بلدوين الأول" من الأميرة الأرمينية "أردا"، كذلك زواج "بلدوين دي بورج" من الأميرة الأرمينية "مورفيا".

7- **جريجوار الكاهن**" Grégoire le prêtre" (ت: 1163م/ 455 هـ) **مؤلفه "حولية الكاهن جريجوار** " Chronique de Grégoire le prêtre" ، من أهم المصادر الأرمينية يعد تكملة لما ألفه متى الرهاوي، ويبدأ المؤرخ من حيث انتهى سلفه فهو يبدأ من عام 1138م/ 440هـ وينتهي بعام 1163م/ 455 هـ ، وقد

أفادنا هذا المصدر في الفصل الثاني في نقاط عديدة وخاصة فيما يتعلق بزواج الملكة "ثيودورا كومنين" من الملك "بلدوين الثالث" حيث أعطانا وصفا تفصيليا عن مراسيم الزواج، ثم أحوال الملكة "ثيودورا" بعد وفاة زوجها وعلاقتها الغرامية مع "أندرونيكوس".

أما المصادر العربية الإسلامية فيأتي في مقدمتها :

– ابن الأثير:عز الدين أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت:630هـ/1233م) ، مؤلفه هو "الكامل في التاريخ "، يعد ابن الأثير مصدرا معاصرا لأحداث الغزو الصليبي، وقد اعتمدنا خاصة على الجزء التاسع والعاشر من المؤلف، وقد أفادنا خاصة في الفصل الرابع فيما يتعلق بدور المرأة الاستخباراتي، ودورها كمقاتلة، وكل ما يخص الأحداث العامة والحروب بين المسلمين والصليبيين.

– **ابن القلانسي: أبو يعلى بن أسد بن علي بن مُحَمَّد التميمي (ت:555هـ/1160م)**،مؤلفه "تاريخ دمشق" أو المعروف باسم "ذيل تاريخ دمشق "، كان كاتبا وأديبا، تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين، فجمع بين كتابة الإنشا (ديوان الرسائل) وكتابة الحساب (ديوان الخراج)، ويعد كتابه من الكتب القيمة التي تعالج فترة هامة في تاريخ المسلمين وهي فترة الحروب الصليبية، وتعود أهمية هذا المصدر لكون مؤلفه كان معاصرا للأحداث وشاهد عيان عليها فزودنا بالمعلومات التي جمعها إما عن القوى الإسلامية أو مملكة بيت المقدس، وقد أفادنا خاصة في الفصل الرابع من الدراسة بتقديمه لإشارات قيمة عن الدور العسكري للنساء الصليبيات.

كما ذكرت العديد من المصادر الإسلامية الدور العسكري للنساء الصليبيات، ومشاركتهن في الحروب إلى جانب الرجال و على رأسهم الأصفهاني في كتابه "الفتح القسي في الفتح القدس "، وابن شداد "النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية" وابن واصل في كتابه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" و ابن كثير في كتابه" البداية و النهاية" و غيرهم ممن شهد على ذلك أو سمع به.

ب– كتب الرحلة :

وهي مجموع ما شاهده أو سمعه الرحالة الجغرافيون وقيدوه في مصنفاتهم، وهذه المصادر لا تقل أهمية عن سابقيها ومن أهمها:

– **ابن جبير مُحَمَّد بن أحمد الأندلسي (ت:614هـ/1217م)،مؤلفه "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف "برحلة ابن جبير"** سجل ابن جبير كل ما شاهده في بلاد الشام في كتابه من خلال زيارته لتلك البلاد سنة 580هـ/1184م ،وهو رحالة أندلسي معاصر لزمن صلاح الدين أفادتنا رحلته خاصة في الفصل الثاني في وصف بعض المظاهر الاجتماعية مثل العرس الذي حضره في مدينة صور وترك لنا وصفا دقيقا لعادات وتقاليد الفرنجة في مثل هذه المناسبات وطرق احتفالهم ولباسهم، لكنه استهجن عادات الصليبيين في مثل تلك المناسبات، واندهش لما لاحظه عليهم من اختلاط ومجون وانتشار للفتن والفواحش، كما وصف لنا لباس المرأة الصليبية وزينتها.

- **أسامة بن منقذ (ت:584هـ/1188م)**،مؤلفه "**كتاب الاعتبار**" وعُد هذا المصدر من أهم المصادر العربية في البحث، لأنه قدم تصورا هاما للعديد من صور الحياة في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فقد كان شاهد عيان للأحداث بل وشارك في بعضها، وكان أسامة بن منقذ أميرا عربيا ورحالة وفارسا وشاعرا من إمارة شيزر، زار بيت المقدس وتعرف على الكثير من الفرسان الصليبيين وأصبحوا أصدقاءه، ما ساعده على أن يصف المجتمع الصليبي والنساء الصليبيات كما أنه استقى المعلومات الأخرى وعرفها من مصادرها الأصلية، وقد اتسمت كتاباته بالصدق والموضوعية ودقة الملاحظة، وقد أفادنا هذا المصدر خاصة في الفصل الثاني في معرفة بعض عادات وتقاليد المرأة الصليبية.

*أما الرحالة الأوروبيون خلال فترة الحروب الصليبية، فقد اطلعنا على مؤلفاتهم، كما رجعنا إلى كتب هؤلاء الرحالة من خلال مرجع مُحَمَّد مؤنس عوض "الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس"، إلا أننا لم نجد ما تطرق له هؤلاء حول المرأة الصليبية أو وصف لها أو لأعمالها، بل كانت أغلب كتاباتهم حول وصف الطرق المؤدية للحج إلى بيت المقدس وزيارتهم للأماكن الروحانية فيها، وأهم الفئات السكانية في المجتمع الصليبي والحركة الاقتصادية والتجارية في المنطقة، وذلك يعود لغلبة التكوين الديني لأغلب الرحالة الغربيين وغلبة الظاهرة الدينية في ذلك العصر.

جـ- **المراجع الأجنبية والعربية:**

قدمت الكتب والمراجع الحديثة معلومات قيمة ومادة غزيرة أغنت الأطروحة من خلال تحليلات وآراء واستنتاجات في النواحي الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية والعسكرية للمرأة الصليبية، ولعل أهمها ما كتبه الغربيون حول موضوع دراستنا منها:

- Helen J.nicholson , women and the crusades.

والتي قدمت لنا معلومات وافرة خاصة في الفصل الأول والثاني حول مشاركة النساء الأوروبيات في الحملات الصليبية وحياة المرأة الفرنجة في المجتمع الصليبي، وكل ما يخص الجانب الاجتماعي، إضافة إلى أعمال الملكات والأميرات الصليبيات.

- Natasha R. hodgson , women crusading and the holy land.

وقد أفادنا هذا الكتاب في أغلب فصول الدراسة خاصة الفصل الثاني الخاص بالمظاهر الاجتماعية للمرأة الصليبية في المجتمع الصليبي، ومختلف التأثيرات الشرقية عليها.

- Mayer ,H., Studies in the History of Queen Melisend of Jerusalem

وكان استخدام هذا المرجع خاصة في الفصل الثالث والرابع، حيث ساعدنا في معرفة الدور الذي لعبته الملكة مليسند أهم ملكات بيت المقدس في تسيير دفة الحكم في المملكة اللاتينية لسنوات طويلة، وكذا أهمية دورها في الجانب الديني وما قدمته من ممتلكات للهيئات الدينية الصليبية.

* إضافة إلى بعض المراجع الأجنبية الأخرى التي اختصت فقط في دراسة موضوع الزواج والطلاق والعلاقات الجنسية لدى الصليبين، والتي أفادتنا خاصة في الفصل الثاني للأطروحة ومنها :

Charles Donahue,Jr. Law, Marriage and Society in The Later Middel Age

والذي أفاد الدراسة في تحديد القواعد والقوانين التي كانت تحكم المجتمعات الغربية عامة والمجتمع الصليبي خاصة في ما يخص مسألة الزواج وأهم الزيجات التي حصلت زمن العصور الوسطى.

- James A , Brundage , Marriage Law in the Latin Kingdom of Jerusalem

يعتبر من أهم الدراسات الحديثة والقيمة التي اغنت البحث في جانب قوانين الزواج والطلاق في المملكة اللاتينية، ومختلف تلك المصالح التي بني عليها الزواج خاصة تلك المصاهرات مع الجيران من أرمن وبيزنطيين وغيرهم .

أما كتابه الآخر المعنون ب Law , Sex , and Christian Society in Medieval Europ فقد أفادنا خاصة في الفصل الثاني في مسألة انتشار الرذيلة والزنا والفسق والفجور في المجتمع الصليبي.

* وهنا يمكن أن نوضح بأن هذه المراجع الغربية في أغلبها كانت تميل للجانب الصليبي وتنحاز لصفه وتبرر تصرفاته شأنها شأن أغلب المؤرخين المستشرقين، فقد سعوا في كتاباتهم عن المرأة الصليبية أن يمجدوا دورها في المجتمع الصليبي وأن يتغافلوا عن زلاتها، وأن يتغنوا ببطولاتها ضد المسلمين.

* كما كان لابد من الاطلاع على المراجع العامة في تاريخ الحروب الصليبية سواء لدى العرب المسلمين أو الغربيين، على حد سواء لعل أهمها:

- **ستيفن رانسيمان وكتابه "تاريخ الحروب الصليبية"** الذي اختص بدراسة الحروب الصليبية من وجهة نظر أوروبية، ورغم اهتمام المؤلف بالجانبين العسكري والسياسي للصليبيين إلا أن دقته في سرد الأحداث واهتمامه بالتفاصيل جعلته يعرج على أغلب الأحداث التي شاركت فيها النساء الصليبيات، حيث أبرز دورهن السياسي خاصة والاجتماعي وحتى الديني، لذا فيمكن اعتبار هذا الكتاب من أهم مراجع هذه الدراسة، وتمت الافادة منه في معظم مباحثها.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور "الحركة الصليبية"** و**"أضواء جديدة على الحروب الصليبية "** و**"تاريخ أوروبا في العصور الوسطى"**، وقد أفدنا منه خاصة في الفصل الأول فقد قدم لنا معلومات وافرة عن الأوضاع العامة لفترة الحروب الصليبية خاصة الحملة الصليبية الأولى و مشاركة النساء فيها واستجابتهم للدعاية الصليبية.

- **مُحَمَّد محمود الحويري وكتابه "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر الميلادي"** و الذي أفدنا في الفصل الأول من الدراسة وذلك في تحديد الفئات السكانية في المجتمع الصليبي، أما الفصل الثاني فقد أفادنا في دراسة مختلف الظواهر الاجتماعية في المجتمع الصليبي.

- **عبد الحفيظ مُحَّد علي، وكتابه "مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية 1131-1187م"** و الذي أفادنا خاصة في الفصل الثالث في دراسة الحياة السياسية للمرأة الصليبية من وصاية ووراثة للعرش وكيف تدخلت المرأة في القرار السياسي وتأثيرات ذلك على سير الأحداث.

- **سعيد عبد الله البيشاوي، وكتابه" الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1291م/ 492-690م)"**، وقد أفادنا هذا الكتاب خاصة في الفصل الرابع من الدراسة وذلك في تحديد وضبط الهبات الكنسية التي قدمتها الملكات والأميرات الصليبيات للكنائس والأديرة المختلفة في المملكة الصليبية و في تحديد دور المرأة الصليبية الكنسي بصفة عامة .

إضافة إلى كثير من المراجع الأخرى التي أفادتنا في مختلف فصول الدراسة.

كما أفدنا في بحثنا من مجموعة من المقالات العلمية المنشورة في بعض المجلات العلمية والتي سلطت الضوء على العديد من النقاط في حياة المرأة الصليبية لعل أهمها: مقال " ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي " لمؤلفه أسامة زكي زيد والمنشور بمجلة كلية الآداب جامعة طنطا، والذي أفادنا في التعرف على أهم جوانب حياة ملكات بيت المقدس خلال القرن 12م خاصة الملكة ميليسند وسبيلا، وكذلك مقال " تطلع المرأة الصليبية للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية (524-556هـ/ 1130-1161م) في ضوء ما كتبه المؤرخ الصليبي وليام الصوري، لمؤلفه جمال مُحَّد حسن الزنكي والمنشورة بحوليات الآداب والعلوم الاجتماعية الكويت، والذي أفادنا خاصة في الفصل الثالث حيث أبرز تطلع المرأة الصليبية للسيطرة على زمام الأمور السياسية ورغبتها في أخذ نصيبها من السلطة في مجتمعها الصليبي، إضافة إلى مقال "المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام" لمؤلفه طه الطراونة المنشور بمجلة مؤتة للبحوث وللدراسات الإنسانية والاجتماعية، والذي أبرز دور المرأة في مجتمعها منذ قدومها إلى بلاد الشام حتى رحيلها منه.

الفصـــل الأول:

دور المرأة في تأسيس المجتمع الصليبي

المبحث الأول: وضع المرأة في المجتمع الأوروبي في القرن 5هـ/11م.

المبحث الثاني : مشاركة المرأة الأوروبية في الحج المسيحي وفكرة الحملة الصليبية.

المبحث الثالث: موقف المرأة الأوروبية من الدعاية الصليبية.

المبحث الرابع : دور المرأة الأوروبية في الحرب الصليبية الأولى.

المبحث الخامس : المرأة وتكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام.

المبحث الأول : وضع المرأة في المجتمع الأوروبي في القرن 5هـ/11م

1- نظرة المجتمع الأوروبي للمرأة :

كانت نظرة المجتمع الغربي للمرأة تضعها في مرتبة ثانوية بحتة، فبالنسبة للكنيسة التي سيطرت سيطرة تامة على مجتمع أوروبا خاصة في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى فقد اتخذت موقفا متناقضا من المرأة، إذ اعتبرتها من ناحية شريكة أدم التي حرضته على المعصية والخطيئة فهي لذلك لا تستحق إلا كل احتقار، وقد أكد على ذلك قول القديس أوغستين[1] الذي يرى أنه في يوم القيامة تبعث النساء إما بجنس الرجل لأنه الوحيد المخلوق من طين، أو تبعث بجنسها وتُنتزع منها الرذيلة[2].

كما نظرت إليها الكنيسة من ناحية أخرى على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح وهي بذلك جديرة بكل احترام وتقدير، وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية، فإن النظرة الثانية ساعدت على نشر فكرة سمو المرأة.[3]

منذ القرن الثامن الميلادي بدأت بذور النظام الإقطاعي تظهر في غرب أوروبا، ليدخل هذا النظام مرحلة حاسمة في القرن التاسع الميلادي حيث ارتبط هذا النظام بالحياة في أوروبا العصور الوسطى سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بل والدينية أيضا[4].

لم يتغير وضع المرأة ومركزها كثيرا في ظل النظام الإقطاعي، حقيقة أنه كان من حق المرأة أن ترث إقطاعا ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقها في حكمه إذ اعتمد هذا النظام في المرتبة الأولى على الحرب والقتال و طالما أن المرأة لم تكن تستطيع أن تمارس القتال فإن مكانتها في العرف الإقطاعي ظلت ثانوية، ومهما بلغت من العمر فهي قاصر ولا بُد أن تكون تحت وصاية رجل، والدها في البداية ثم زوجها بعد ذلك وفي حالة وفاته تصبح تحت وصاية السيد الإقطاعي أو أكبر أبنائها.[5]

---

[1] **القديس أوغستين** : و هو أوريليوس أوغستينوس Aurilus Augustinus ولد عام 354م في شمال افريقيا نوميديا بمدينة المادور تلقى دراسته في قرطاج و ابتداء من عام 373م أخذ يدرس علم البيان و عكف على دراسة فلسفة اليونان و التراجم اليونانية لها و ذهب إلى إيطاليا سنة 384م و عاد بعدها بعام ليصبح شماسا ثم أسقفا لمدينة هيبون Hippon و هي مدينة عنابة (شرق الجزائر حاليا) سنة 395م و لأوغستين العديد من المؤلفات التي تركت بصمتها الواضحة على عقلية العصور الوسطى من أهمها كتاب مدينة الله الذي فاق أثره أي كتاب أخر في سياسة العصور الوسطى حيث رسم فيه القديس أوغستين الحدود بين السلطتين العلمانية و الدينية و نادى بأن السلطة العلمانية يجب أن تخضع للسلطة الدينية (الكنيسة) لأنها قامت على أساس من الشر فهي من صنع البشر، و للقديس أوغستين مؤلفات أخرى منها (اعترافات) التي تعتبر أول ترجمة يدونها شخص عن نفسه في تاريخ الأدب أنظر:

Possidius Bishop of Calama , the life of saint Augustine ,intro and notes :cardinal michele pellegrino , edited : john E Rotelle , O,S,AAugustinian press, 1988 ,pp39 -43 .

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية و النهاية ،ترجمة و تعليق : قاسم عبده قاسم، عين للدراسات و البحوث الإنسانية، ط5،القاهرة ،1998، ج1، ص102-110.

2 القديس أوغستين، مدينة الله، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق ، ط1، بيروت ،2006، ج3،ص370.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى النظم و الحضارة ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،1959،ج2،ص89-90.

4 Carl Stephenson , Mediaeval Feudalism ,Cornell University Press , new york , 1942, pp 50 – 55.

5 اسمت غنيم، دراسات في تاريخ أوروبا العصور الوسطى، دار المعارف ،1998، ج1، ص203.

ولم يسمح لها بحكم الإقطاع أو القلعة إلا في حالة غياب الزوج فتتمتع بكل ما لزوجها من نفوذ حيث احتلت المكانة التالية بعده مباشرة، وبعبارة أخرى فإنها لم تتمتع بحقوقها تجاه زوجها ولكنها تمتعت بكل ما لزوجها من حقوق تجاه الأخرين، فقامت بإدارة الضياع والدفاع عنها أو جمع أموال الفدية للزوج الأسير.[1]

على أنه ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي وحتى نهاية العصور الوسطى في القرن الخامس عشر تغيرت نظرة الغرب الأوروبي للمرأة، حيث سمت مكانتها من الناحيتين الدينية والدنيوية ومُنحت النساء مركزا أفضل مما كن يتمتعن به في ظل الأنظمة الاجتماعية القديمة، حيث بَجلت الكنائس العذراء وأصبحت عبادتها أقوى ظاهرة مسيحية في العصور الوسطى وسَمت بذلك مكانة المرأة معها .

أما الجانب الدنيوي فيرجع تبجيل المرأة إلى ظهور نظام الفروسية [2] إذ أصبح التبجيل صفة أساسية يجب أن يتحلى بها الفارس حتى قيل "أن الفارس نصير الله والمرأة " وأعتبر عصر الفروسية العصر الذهبي للمرأة في غرب أوروبا[3]، وتظهر فكرة تبجيل الفرسان للمرأة واضحة في أشعار التروبادور[4] التي تظهر كيف كان جمال المرأة ورقتها تستهوي قلب الرجل وحبه، وأن المحب لم يستهدف شيئا غير إدخال السرور على قلب محبوبته فلا يأبه بطعام ولا شراب ولا يتأثر لحر أو لبرد في سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها فقد كان الإخلاص للمرأة أحد أهم واجبات الفارس.[5]

---

1 محمد مرسي الشيخ، النظم و الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشنهابي للطباعة و النشر الإسكندرية، 1998، ص47 ،عاشور،المرجع السابق،ص90.

Emilia Amt , Women s Lives in medieval Europe A sourcebook , Routledge Taylor,and Francis Group ,London annd New yourk, 1993 , pp 35-36.

2 **نظام الفروسية**: ترجع أصول طبقة الفرسان إلى العناصر الجرمانية المتبربرة التي استقرت في جوف الامبراطورية الرومانية وأدت لسقوطها سنة 476م لتقيم لها ممالك على أنقاضها، و قد كانت نزعة القتال متأصلة عند هذه القبائل مرتبطة بالإقطاع و ما يلحقه من نظم الفروسية التي تعتبر من الأعمدة الرئيسية للعصور الوسطى ،تضم هذه الطبقة الرجال الأحرار و الأشراف و النبلاء الذين اتخذوا الحرب صناعة لهم ،حيث عملوا أول الأمر في فرق المشاة و لكن تحولوا في القرن التاسع إلى القتال على ظهور الخيل في الجيوش الجرمانية و سموا منذ ذلك الحين بالفرسان. أنظر: جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية و حضارتها ،مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ،1984 ،ص203.

Carl Stephenson , Mediaeval Feudalism ,pp 40 – 44 .

3 اسمت غنيم ،المرجع السابق،ص203-204.

Paul Deschamps, Chevaliers et femmes de France aux croisades , bulletin de l'association Guillme Budé,1954, p 77-79

James .M.ludi.w.DD.LHD,The age of the crusades,New york, Cables scribners sons,1914,p26-27.

4 التروبادور: مشتقة من الكلمة العربية الطرب أو دور الطرب مع تقديم الصفة على الموصوف نظرا لتأثر شعرائها بالموشحات الأندلسية العربية التي تمتاز بخفة أوزانها و رقتها و خيالها فضلا عن موضوعاتها حول الغزل العفيف و الحب العذري و المحبوبة بعيدة المنال ،و قد انتشر شعراء التروبادور في إقليم بروفنسال جنوب فرنسا ، و من أشهر شعراء التروبادور وليم التاسع أمير كوتيين (فرنسا) ثم انتشر هذا النوع من الأشعار في بلاط ملوك أوروبا . أنظر: إسحق عبيد ، أوروبا في العصور الوسطى المفهوم و الحضارة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) ، ص84، و للمزيد من التفاصيل عن أشعار التروبادور أنظر:

Matilda Tomaryn ,Laurie Shepard, Sarah White, Songs Of The Women Troubadours ,Garalnd Publishing,INC , Amember of The Taylor and Francis Group ,New yourk ,2000.

5 عاشور، المرجع السابق ،ص90.

2-المظاهر الحياتية للمرأة في المجتمع الأوروبي:

اختلفت مظاهر الحياة الاجتماعية للمرأة في غرب أوروبا حسب الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها، فقد كانت سيدات الطبقة الأرستقراطية والطبقة البرجوازية يتمتعن بقسط من الراحة والتسلية والحياة الرغيدة عكس الفلاحات وزوجات الأقنان اللاتي حرمن من هذه النعمة، لأن قساوة الحياة أجبرتهن على مشاركة أزواجهن في الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش[1].

أما فيما يتعلق بالزواج فلم يكن للفتاة من الطبقات العليا أي رأي في اختيار شريك حياتها، فقد كان الزواج عبارة عن تحالف أسري ولم تتح لها الفرصة للرفض أو القبول، فالمصالح المادية هي التي تتحكم دائما في اختيار الزوجة فقد كان زواج المصلحة شائعا ومألوفا في العصور الوسطى من أجل صفقة من صفقات الضياع والإقطاعات أو حتى المال، فكانت سعادة المرأة في حياتها الزوجية متوقفة على الحظ إما سعدت فيها أو شقت، أما الفتاة الفقيرة أو المتوسطة فقد كانت أسعد حظا في أمر اختيار الزوج لأنه لا وجود لمصالح مادية فكان من حقها الموافقة على الخطيب أو رفضه[2].

شجعت الكنيسة الزواج ورفعت من شأنه واعتبرته ميثاقا مقدسا بين الرجل والمرأة والله، وكان الزواج يتم في سن مبكر، ويرجع ذلك لطبيعة حياتهم المحفوفة بالمخاطر بسبب الحروب الإقطاعية ونظام الفروسية، ولمواجهة ارتفاع وفيات الأطفال ولإحداث نوع من التوازن كان على النساء الزواج بمجرد وصولهن سن البلوغ وانجاب عدد لا بأس به من الأطفال، وغالبا ما نسمع أن وريثات الإقطاع كانت تتم خطبتهن بل و ربما تتزوج وهي لا تزال طفلة لطمع والدي العريس في أملاكها[3].

فالزوجة المثالية هي تلك التي تتوفر فيها الصفات الثلاثة، أولها المنفعة بحيث يكسب الزوج من ورائها إقطاعا كبيرا أو مبلغا كبيرا من المال، والصفة الثانية الجمال بحيث يدخل جمالها السرور على قلب زوجها وأخيرا الإخلاص بحيث تكون فاضلة وتحافظ على نفسها وبيتها وأسرار زوجها ،إضافة إلى الخضوع التام والطاعة العمياء والصبر على تصرفاته، وعلى المرأة أن تقدم كل هذا لزوجها دون أن تنتظر منه شيئا فبمجرد اتمام الزواج تصبح الزوجة وجميع ما تملك ملكا خالصا للزوج وليست لها أية حقوق تجاه زوجها، بل أكثر من ذلك تكون عرضة للضرب لأقل كلمة تصدر منها[4].

اعتادت الأسر الأوروبية انجاب العديد من الأطفال خاصة الفلاحين الذين كانوا يرون في أطفالهم يدا عاملة في الحقول، كما رحبت الأسر كثيرا بالصبي خاصة الأغنياء والإقطاعيون كي يرث هذا الصبي أباه في لقبه وأرضه،[5] وكان من واجب الزوجة تجاه زوجها أن تنجب له ولد ذكر واحد على الأقل وإن لم يتحقق لها ذلك كان من السهل على الزوج أن يقنع الأسقف بفسخ عقد الزواج[6].

---

1 نفسه ،ص91.

2 اسمت غنيم ،المرجع السابق،ص226-228.

3 موريس بيشوب ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة: علي السيد علي ، المجلس الأعلى للثقافة للنشر ، ط1، القاهرة ،2005، ص49.

3 Emilia Amt, op, cit, p35.

4 إسمت غنيم ،المرجع السابق ، ص 228-229-231.

5 محمد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار غيداء للنشر و التوزيع ، ط1 ،2015، ص 373.

6 إسمت غنيم ،المرجع السابق ، ص229.

قامت نساء الطبقة النبيلة بإرضاع الأطفال بأنفسهن شأنهم شأن النساء الفقيرات لاعتقادهم بأن لبن المرضعة سيفسد الدماء النبيلة، أما زوجات الإقطاعيين والأثرياء فلم يكُن حريصات على ذلك ورغم توصيات الكنيسة على ضرورة إرضاع الأطفال فقد فضلن المرضعة على تحمل أعباء الرضاعة، وكان الأطفال محبوبين في الأسرة حيث كانوا يدخلون السرور على الوالدين اللذين يسعيان لترسيخ قواعد المسيحية في أطفالهم منذ الصغر بالارتياد على الكنيسة أو الدير وكذا لتعلم القراءة والكتابة في مدرسة الكنيسة[1].

إلى جانب العناية بالأطفال وتربيتهم فقد باشرت المرأة كافة الأعمال المنزلية واهتمت بشؤون زوجها سواء كانت من السادة أو الفلاحين، غير أن نساء الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية استعانوا بالخدم في الضياع والقصور وحرصوا على الإشراف عليهم خاصة في صناعة المواد الغذائية المختلفة من خبز وجبن ونبيذ ولحم وتخزينها لفصل الشتاء، وكذا صناعة الملابس والاعتناء بالحيوانات وغيرها من أعمال الضياع[2].

أما نساء الطبقات الفقيرة فقد كان عليهن القيام بكل الأعمال المنزلية التي تمد أسرهم بكل احتياجاتهم، كجز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها كملابس لأفراد عائلتها وكذا تربية الدواجن والعناية بأشجار الكروم والرعي بقطعان الخنازير وصناعة مشتقات الألبان وصنع الصابون والشمع، وجمع الحطب وبناء الأكواخ وجمع المحصول وتخزينه[3].

بصفة عامة كان على ربة البيت في جميع طبقات المجتمع الأوروبي الغربي أن تزين بيتها على قدر مستوى الأسرة ، وأن تجعله نظيفا إضافة إلى أن تعمل داخل وخارج المنزل وأن تكون على دراية بالطب والجراحة ليتسنى لها العناية بأفراد أسرتها في الصحة والمرض وقد كانت أسرار الوصفات والعقاقير الطبية تنتقل من الأم إلى الابنة[4].

أما في المدن فقد شاركت المرأة في المحيط الذي عاشت فيه فكانت تقوم بغزل ونسج ما يلزم للنقابات، حتى أصبح عدد النساء مساويا لعدد الرجال في شركات الحرير وإن كانت أجورهن أقل من أجور الرجال إضافة إلى صناعة الجعة والنبيذ، ويبدو أن هذه الحرف قد فتحت بابا للعمل أمام غير المتزوجات من الأرامل والعوانس[5]، كما أقبل فريق أخر من النساء على الحياة الديرية وانخرطن في سلك الراهبات لإشباع الناحية الدينية في نفوسهن، فضلا على أن هذه الحياة هيأت لهن قسطا من الراحة والعمل المنتج.[6]

كانت ملابس المرأة في العصور الوسطى أجمل مما كانت عليه من قبل، ويرجع ذلك إلى التقدم في صناعة الغزل والنسيج خاصة بعدما تعاملوا مع السوق الشرقية الإسلامية، وقد دلت الملابس على المكانة الاجتماعية للابسها، وكانت ملابس النساء تتكون من قميص طويل عليه جلباب ذو أطراف من الفراء يصل القدمين، وفوق الجلباب يلبس قميص نصفي ومئزر مرصع بالحلي أو الجواهر والقفازات المصنوعة من الجلد كما وضعن على رؤوسهن القبعات التي تفنن

1 موريس بيتشوب، المرجع السابق،ص49، محمد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد، المرجع السابق،ص373.

2 إسمت غنيم ، المرجع السابق، ص230

3 محمد مرسي الشيخ ، المرجع السابق، ص 48 .

4 إسمت غنيم ، المرجع السابق، ص230.

5 محمد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد ،المرجع السابق ، ص379.

6 سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص 91.

في تزيينها، وأصبحت الأحذية ذات الكعاب العالية هي المحببة للنساء أواخر العصور الوسطى، كما استخدمن مساحيق التجميل ولبسن الشعور المستعارة، واهتمت المرأة بزينة وجمال بشرتها إضافة للحلي والمجوهرات التي دونت عليها بعض العبارات المقدسة في بعض الأحيان.[1]

1محمد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد ،المرجع السابق،ص389-391

المبحث الثاني : مشاركة المرأة الأوروبية في الحج المسيحي وفكرة الحملة الصليبية :

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية، فالوقوف بالأراضي التي وقف عليها في وقت من الأوقات أولئك الذين نُجلهم ونُبجلهم ومشاهدة الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها يبعث في المرء شعورا بالاتصال الروحي بهم ، وفي ذلك تعبير عملي عما نشعر به نحوهم من ولاء، فيُقبل الناس بلهفة وشوق إلى تلك الأماكن المقدسة[1].

والحج المسيحي إلى بيت المقدس وفلسطين ممارسة دينية مسيحية ظهرت مع ظهور المسيحية، رغم أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحيين مثلما هو الحال في الإسلام، فالواقع أن المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث : التجسيد – الصلب – والقيامة على فكرة الحج ولا توجد أدنى إشارة في العهد الجديد لأمر الحج إلى القدس ،إلا أن الجذب العاطفي نحو الأرض التي شهدت قصة المسيح ومولد المسيحية ظلت تشد أتباع هذا الدين بشكل متصاعد مع مرور الزمن[2]

فقد اكتست بيت المقدس أهمية دينية كبيرة على امتداد العصور، فقامت بها اليهودية والنصرانية وانبعث من أرجائها مجد الإسلام، فأصبحت مهوى أفئدة الشعوب المسيحية ومهدًا للديانة المسيحية فيها عاش المسيح عليه السلام ، ومنها انطلق المبشرون إلى جميع أنحاء العالم[3]، وكذا مجاز حجاج المسلمين إلى الأماكن الطاهرة الحجازية[4]، ومحط تقديس و تعظيم أصحاب الديانات السماوية، والفرق المختلفة خاصة وأنه تعاقب على زيارتها وسكناها الأنبياء والرسل موسى وعيسى ومُحَمَّد خاتم الأنبياء والرسل- عليهم السلام[5].

كان الحج إلى بيت المقدس نادرا في أيام المسيحية الأولى فالتفكير المسيحي في الزمن المبكر كان ينزع إلى تأليه المسيح وإلى عالميته لا إلى بشريته، كما لم تشجع السلطات الرومانية الارتحال إلى فلسطين[6]خاصة بعد تدمير القائد الروماني تيتوس سنة 70م مدينة القدس، التي بقيت كذلك إلى أن أعاد الإمبراطور هادريان (76-138م) Hadrian بناءها فأصبحت تسمى مدينة "إيليا" الرومانية Aleia capitolina ما شجع على استئناف حركة الحج مجددا، فمع بداية القرن الثالث الميلادي عرف المسيحيون الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيت لحم معرفة جيدة وراحوا يرتحلون إلى جبل الزيتون، وكان الهدف من زيارة هذه الأماكن المقدسة هو الصلاة واكتساب الفضائل الروحية[7].

---

1 ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، 1997، ج1،ص 62 ، أشرف صالح مُحَمَّد سيد ،حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، مجلة الفسطاط التاريخية ، القاهرة ،2007، ص (1-5) .

James .M.ludi.w.DD.LHD,The age of the crusades ,p 64.

2 فتحي عبد العزيز مُحَمَّد و أشرف صالح مُحَمَّد سيد ، الكنيسة و دورها في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م)، دار ناشري للنشر الإلكتروني ،ط1،الكويت ،2013م،ص4.

3ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 63.

4مُحَمَّد كرد علي، خطط الشام، دمشق،1925، ج1 ، ص 55.

5 السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة ، 2005، ج1، ص 5.

6 قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع – النتائج) ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، القاهرة ، 1993،ص23.

7 فتحي عبد العزيز مُحَمَّد و أشرف صالح مُحَمَّد سيد، المرجع السابق، ص 5.

زادت حركة الحج بشكل ملفت بعد انتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين (275 – 337 م) Constantius بها وزيارة الحج التي قامت بها والدته القديسة هيلانة Helena والتي كان لها دور كبير في تنشيط رحلات الحج إلى بيت المقدس، خاصة بعد كشفها عن رفاة السيد المسيح وخشبة الصلب الأعظم و شيد في هذا الموقع كنيسة الضريح المقدس (كنيسة القيامة) التي أصبحت محورا لحركة الحج المسيحي، كما حرص بعض الحجاج على زيارة الأماكن المقدسة فأكلوا في الكهف الذي أكل فيه المسيح وحواريوه، كما استحموا في مياه نهر الأردن التي تم فيها تعميد المسيح.[1]

ارتبطت فكرة الحج بالغفران في عقول الأوروبيين وشاعت بين العامة والخاصة فوصفت العصور الوسطى في أوروبا بعصر الحج الذي أعتبر طريقا للغفران وركنا من أركان التكفير عن الذنوب والتوبة، ما جعل الحجاج رجالا ونساء يهرعون إلى فلسطين وأماكنها المقدسة لطلب الغفران والسلام الروحي، بل أكثر من ذلك فقد كان التبرك بالأثار التي يجلبها الحجاج يحدث المعجزات، وكانت احدى صور التقوى في الحج تلك الرحلة التي تكتنفها بعض المصاعب والأخطار.[2]

وقد عرف غرب أوروبا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنيين الرابع والخامس للميلاد، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية، فإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالبا أصابع اليد الواحدة[3].

شاركت النساء في رحلات الحج إلى بيت المقدس منذ العصور المبكرة للمسيحية حيث عثر في أواخر القرن الرابع الميلادي على وصف لرحلة قامت بها سيدة اشتهرت باسم **إيثيريا** Aetheria وذكرت أحيانا باسم **القديسة سيلفيا** Silvia الأكيتانية من إقليم أكويتين بفرنسا، ومن خلال ما دونته هذه السيدة في رحلتها ظهر أنها بالغة النشاط، لا يصيبها تعب ولا كلل فقد تمكنت من زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين كما اشتملت زيارتها حتى طور سيناء ومصر[4].

وقد شجعت رحلة القديسة "سيلفيا" الكثير من النساء بعدها للارتحال وخوض غمار رحلة الحج، حيث رافقت القديس جيروم للحج مجموعة من نساء الطبقة الراقية والثريات كن يتلقين منه العلم في إيطاليا، وقد أسس هذا القديس مركزا للسيدات اللاتي تأتين للحج كخطوة منه لتشجيع الحج لدى النساء، و على الرغم من أن القديس جيروم لم يُقر بأن للإقامة في بيت المقدس قيمة روحية إلا أنه اعتبر أنه من الدين التعبد في الموضع الذي وطأته قدما المسيح، ولقد لقي رأيه

1 يوشع براور ، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية ، ترجمة : عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات و البحوث الاجتماعية ، القاهرة،ط1 ، 2001،ص234.

2 عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب ، ترجمة: فيليب صابر سيف ، مراجعة : أحمد خاكي ، دار الثقافة ، ط2، القاهرة ، د.ت ،ص28.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط4،القاهرة ،1986، ج1،ص21.

4 Regine pernoud , LA Femme au temps des croisades, p21 .

من الذيوع و القبول ما لم يلقه رأي القديس أوغستين[1] ،ولم يستهل القرن الخامس الميلادي حتى صار في بيت المقدس وما جاورها نحو مائتي دير ونزل لاستقبال الحجاج[2].

وشهد منتصف القرن الخامس الميلادي ذروة الميل المبكر لدى النساء لزيارة بيت المقدس، حيث استقرت هناك "**الإمبراطورة إيدوسيا**" وهي ابنة فيلسوف وثني بأثينا، بعد أن افتقرت حياتها إلى السعادة في البلاط البيزنطي، وجاء في ركابها عدد كبير من الأرستقراطية البيزنطية وبدأت هذه الامبراطورة ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار والمقدسات الدينية التي بدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية حيث أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا[3].

ثم سار على نهج الامبراطورة "إيدوسيا" أغلب الحجاج وأضحى الرجال والنساء يرتحلون إلى الجهات البعيدة لمشاهدة المخلفات الدينية وحملها إلى بلادهم في الغرب الأوروبي أو حتى القسطنطينية، كما جلبت سيدة من موريين Maurienne من رحلاتها لبيت المقدس إبهام القديس يوحنا المعمدان[4]، فقد استقر في أذهان الناس آنذاك أن الحاج الذي يجلب معه شيئا من هذه الذخائر المقدسة يكسب مجدا ومكانة في عيون أهل بلده[5]، ويذكر المؤرخ جريجوري التوري[6] أن هذه النفائس والآثار المقدسة للقديسين والشهداء تحفظ في الكنائس تحت رعاية الأساقفة وآباء الكنيسة[(7)].
الكنيسة[(7)].

تجدر الإشارة إلى أنه كان للحج في العصور الوسطى تقاليده الخاصة به لاسيما في الغرب الأوروبي، إذ يتحتم على الراغب في الحج من النساء أو الرجال أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزودا، ويستوي في ذلك الغني

---

1 يرى القديس أوغستين أن رحلات الحج لا تنطوي على الإيمان ، و ليست عملا قيما ، و تعتبر احدى الصور المتبقية من الوثنية و حتى أنها خطيرة ، فيمكن أن يذهب الحاج إلى مناطق ذات خطورة و بها لصوص و قطاع طرق يسرقون أشياءه و قد يقتلوه. أنظر: عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق ، ص28، فتحي عبد العزيز مُحَمَّد و أشرف صالح مُحَمَّد السيد ، الكنيسة و دورها في مملكة بيت المقدس ،ص24.

2 ستيفن رانسيمان ، المرجع السابق،ج1،ص 64، أشرف صالح مُحَمَّد سيد ،حركة الحج المسيحي ، ص 2.

3 أشرف صالح مُحَمَّد سيد ، حركة الحج المسيحي في فلسطين ، ص 2.

4 ستيفن رنسيمان ،المرجع السابق،ج1،ص67.

5 كانت أكثر الأعمال الخيرية شيوعا لأجل التكفير عن الذنوب هي زيارة الأماكن المقدسة ،و جرت العادة على جمع رفات القديسين و حفظها في خزانات خاصة منذ العهد الأول للكنيسة ،و نسب الأوروبيون لتلك الرفات صفات خارقة تذكرنا بالصفات التي كان عباد الديانات الوثنية ينسبونها إلى أربابهم فاعتقدوا أن لهم شفاعة عند الله و أن لهم القدرة على منح الشفاء و حماية الممتلكات و الحقوق الاقليمية للكنائس. أنظر : جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ترجمة : مُحَمَّد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة ، 1999،ص30-31.

6 **جريجوري التوري** : هو جريجوري فلورنتيوس Gregory Florentius أسقف مدينة تور الفرنسية ، كان علامة بارزة في الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، ولد جريجوري التوري في 30 نوفمبر 539م في مدينة أرفيرنيا Arvernia المعروفة الأن باسم كليرمونت – فراند Clermont ferrand بفرنسا انحدر من أسرة عريقة كان لها سمعتها كإحدى الأسر الحاكمة التي شاركت في خدمة الكنيسة، فقد كان والده سيناتورا نبيلا و كذا جده و والدته أرمنتاريا حفيدة القديس جريجوري أسقف لانجر، و لم يبلغ جريجوري 25 سنة حتى انخرط في سلك الكهنوت حيث عين شماسا سنة 563م ثم أسقف لمدينة تور سنة 573م و بقي على رأس هذا المنصب طوال 21 سنة حتى توفي في 17 نوفمبر 564م عن عمر ناهز الخامسة و الخمسين سنة ، من أشهر مؤلفاته دولة الفرنجة الذي أرخ للدولة الميروفنجية زمن الملك كلوفس و الذي يعد المصدر الأول عن الفرنجة في هذه الحقبة (القرن السادس الميلادي) إضافة إلى كُتب اللاهوت منها كتاب تمجيد الشهداء السعداء و غيرها .أنظر : علية عبد السميع الجنزوري ، جريجوري التوري و قيام دولة الفرنجة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، (د.ت) ،ص 11-15 ، محمود سعيد عمران ، المؤرخ جريجوري التوري و تأريخه للملك كلوفس من خلال كتاب تاريخ الفرنجة ، بيروت ،1980،ص6-7.

7 يوشع براور، المرجع السابق،ص234-235، علية عبد السميع الجنزوري ، جريجوري التوري و قيام دولة الفرنجة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، د.ط ،د.ت ، ص16.

والفقير، ويعلق المزود برباط ويزود الحاج بكتب توصية بكل الأديرة التي يمر بها، وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسوم الدخول عند باب يعرف بباب الحج، وحينئذ يؤذن لهم بالتجول وأداء مناسك الحج، فيزور كنيسة القيامة والضريح المقدس ويصعد إلى جبل الزيتون ويمضي إلى مغارة بيت لحم و يستحم بماء نهر الأردن، ويحمل معه بعض سعف النخل إلى بلده حيث يضعه على مذبح الكنيسة[1].

على أية حال، إن بعد المسافة وطول السفر من غرب أوروبا إلى بيت المقدس والمدن الأخرى كالناصرة[2] وبيت لحم[3] وأريحا وطبرية، حتم مشاركة النساء في رحلات الحج من أجل اسعاف الحجاج الذين يتعرضون أحيانا للتعب والإعياء وبخاصة بسبب تقلبات الطقس حيث البرودة الشديدة والرياح العاتية التي كانت تصيب جبال الأناضول، وإلى جانب تقديم الإسعافات كانت النساء تتولى إعداد الطعام والشراب ونسج الملابس الصوفية للحجيج وخياطتها، فضلا عن ذلك كله فقد كان لعودتهن إلى أوروبا بعد أداء الطقوس الدينية وزيارة المواقع المقدسة والتجوال في مختلف المدن و الأرياف أثر في بث الحماسة في نفوس الأوروبيين[4].

شاركت النساء الأوروبيات في رحلات الحج منذ الوهلة الأولى، ورافقت أفواج الحجيج إلى بيت المقدس وتكبدت عناء السفر ومشقته وتكاليف الحج الباهظة التي كانت ترهق الحجاج وبخاصة الفقراء منهم، الذين كانوا يقضون وقتا طويلا لادخار ما يكفيهم من المال الذي يمكنهم من ركوب بعض السفن التي ترسو بهم في أقرب ميناء، ثم يتابعون من هناك سيرا على الأقدام أو ركوب الإبل والجياد حتى يبلغوا الأماكن المقدسة وذلك لنيل ثواب الحج والتكفير عن الذنوب[5].

غير أن القرون الموالية وحتى القرن التاسع لم تشهد إقبالًا كبيرًا من النساء على الحج لعدة أسباب منها تداعي النشاط التجاري بين الشرق والغرب والذي كان يساهم في حركة الحج وازدياد حالة الفقر في الغرب الأوروبي، وقد توقفت حركة الحج في بعض الفترات مثلما حدث في منتصف القرن الخامس، بسبب القراصنة الوندال حيث لم تعد البحار مأمونة للتجار المسالمين الذين لا يحملون سلاحا، ومع زوال خطر الوندال شهد القرن السادس الميلادي حجاجا ارتحلوا شرقا في سفن تجار يونانيين أو سوريين[6].

مع بداية حركة الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الشام في القرن (1هـ / 7م) وفتح بيت المقدس (14هـ /635م) فرض المسلمون سيطرتهم على بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا وبعض جزر المتوسط ما جعلهم مهيمنين على

---

1 يوشع براور ، المرجع السابق، ص235-258، فتحي عبد العزيز مُحَمَّد و أشرف صالح مُحَمَّد سيد ، المرجع السابق ،ص7.

2 الناصرة: بلدة صغيرة بقرب طبرية على 20 كم منها، و منها اشتق اسم النصارى ، أنظر: القزويني آثار البلاد، ص 277. القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 277.

3 بيت لحم: قرية قريبة من بيت المقدس، فيها و لد عيسى عليه السلام، و توجد بها كنيسة المهد، أنظر: الإصطخري، المسالك و الممالك، ص 28، القزويني ، آثار البلاد ، ص 159. رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 25.

4 جلال حسني سلامة ، دور النساء الأوروبيات في الحملة الصليبية الأولى على الأرض المقدسة (488هـ/ 1095م)، مجلة جامعة النجاح للأبحاث – العلوم الانسانية ، مجلد: 28، عدد 12، فلسطين ، 2014، ص2734-2735.

5 نفسه ،ص2736.

6 ستيفن رانسيمان ، المرجع السابق،ج1،ص68.

حوض البحر المتوسط، وهي تطورات أثرت على الحج المسيحي، فبرغم التسامح الديني الذي اتسمت به سياسة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة المسيحية، وتعاطف الحكام المسلمين تجاه رحلات حج الأوروبيين إلى بيت المقدس ،إلا أن التجار السوريين لم يعودوا يذهبون إلى السواحل الفرنسية والإيطالية حاملين البضائع والأخبار وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط ما جعل الرحلة شاقة وتكاليفها باهظة خاصة بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب في ظل النظام الإقطاعي، غير أن نهر الحجيج لم ينقطع بين غرب أوروبا وفلسطين أبدا إذ ذكرت بعض الرحلات التي تعود إلى هذه الفترة[1]، ولم يأمل بالفوز بالوصول إلى بيت المقدس إلا المغامرون من الرجال ولم تغامر امرأة فيما يبدو بالذهاب إلى الحج حتى نهاية القرن الثامن[2].

عاد إقبال النساء على الحج بعد تحسن العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية خاصة زمن الخليفة هارون الرشيد (170هـ-194هـ/ 786-809م) الذي جمعته علاقات حسنة مع الإمبراطور شارلمان (162-198هـ/778-813م)، ففي نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أهتم شارلمان كثيرا برفاهية الأماكن المقدسة، وقد لقي ذلك ترحيبا كبيرا من الخليفة الرشيد، الذي بذل له كل التشجيع لإنشاء مؤسسات في بيت المقدس ولإرسال الصدقات لكنيسة القيامة، وجرى إرسال راهبات من إسبانيا المسيحية للخدمة في كنيسة القيامة وقد سعى هارون الرشيد من خلال ذلك لكسب حليف ضد بيزنطا العدو التقليدي للمسلمين، غير أن ما جرى من انهيار إمبراطورية شارلمان زمن خلفائه ونهوض الإمبراطورية البيزنطية جعل تدخل الفرنج قصير الأمد، ولم يعد له من ذكرى سوى ما أنشأه شارلمان من فنادق، وفيما كان يؤدى من الشعائر اللاتينية في كنيسة القيامة[3].

على أن عصر الحجيج الأكبر يبدأ بالقرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، حيث حدثت تطورات كبيرة في أوروبا والبحر المتوسط منها تطور التجارة وظهور المدن الايطالية بسبب انحسار دور المسلمين في البحر المتوسط وفقدانهم آخر ما كان لهم في إيطاليا وجنوب فرنسا في هذا القرن، كما أُنتزعت منهم جزيرة كريت سنة350هـ/ 961 م، وسيطرت البحرية البيزنطية على المتوسط، فصارت السفن التجارية اليونانية والإيطالية التي تحمل الحجاج تتردد في حرية بين موانئ إيطاليا و الامبراطورية البيزنطية، وكان لهذه التطورات آثار إيجابية على تنقل الحجاج بيُسر – نوعا ما – إلى الأراضي المقدسة في فلسطين[4].

كما أن اعتناق ملك المجر إتيان Etienne وشعبه المسيحية عام 364هـ/975م قد أوجد مسالك جديدة للحجاج باتجاه الشرق، فقل استخدامهم للطريق العابر لإيطاليا والبحرين الأدرياتيكي والمتوسط باتجاه سواحل الشام أو ما يعرف بطريق البحر، وانفتح أمامهم الطريق البري الذي يسير إزاء نهر الدانوب ويجتاز البلقان على أراضي المجر وبلغاريا إلى القسطنطينية ومنها إلى الشرق فتضاعف أعداد المقبلين على الحج وكانوا غالبا ما يفضلون الطريق البري عبر

1 عباس عاجل الحيدري، البابوية و ظاهرتا الحج و الحرب المقدسة و أثرهما في قيام الحرب المقدسة ، حولية المنتدى ،المجلد2،العدد3،العراق،2009،ص149، قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية،ص25.

2 ستيفن رانسيمان، المرجع السابق،ج1،ص69 ،هانس ابراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة:عماد الدين غانم (د.م.ن)،1985،ص47.

3 رانسيمان، المرجع السابق،ج1،ص70، عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق،ص30-31، أشرف صالح مُحَمَّد السيد ، حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، مجلة الفسطاط التاريخية ،القاهرة ،2007، ص (1-5).

4 عباس عاجل الجاسم ، المرجع السابق ،ص150.

القسطنطينية فبرغم طول مدة السفر فقد كان أقل تكاليفا وأكثر أمنا، وأكثر راحة من السفر بحرا وكذا أكثر ملاءمة للجماعات الكبيرة من الحجاج.[1]

أما التطور الآخر فكان تبلور ارتباط الحج بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكية، وكانت القدس واحدة من أربعة مواقع[2] كان يحج إليها المسيحيون الكاثوليك لينالوا حسب اعتقادهم عفو الله عما ارتكبوه من خطيئة وذنب وهو ما يعرف "بالحج التكفيري"، فقد كانت رحلة الحج بمثابة جزء من التعويض الذي يقدمه الحاج عن الجريمة التي ارتكبها لإنقاذ روحه، ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس[3].

إن كل هذه التطورات في أوضاع غرب أوروبا زادت من أعداد النساء اللاتي قصدن بيت المقدس للحج، فلازمت النساء سواء العجائز منهن أو الشابات الرهبان والقساوسة والأفواج الكبيرة من الحجاج التي تدفقت على الأرض المقدسة حتى بلغ عددهم الآلاف[4]، يذكر رنسيمان[5] بعض أسماء اللاتي قمن بالحج في هذا القرن أمثال هيلدا كونتيسة سوابيا التي ماتت أثناء رحلتها سنة359هـ/ 969م ، و "يوديث دوقة بافاريا" وهي من أصهار الإمبراطور أوتو الأول، والتي ارتحلت سنة360هـ/ 970م، ومن اللاتي حججن أيضا "كونتات أردش"، و فينا و أركي و أنهالت و جوريزيا، وأكثر من واضب على القيام بالحج كبار رجال الكنيسة والرهبان حيث صحب هؤلاء معهم جماعات كبيرة من فقراء الرجال والنساء .

كما ساهم ترحيب السلطات الإسلامية بالحجاج المسيحيين إلى ازدياد رحلات الحج المسيحي، فقد ظلوا يباشرون طقوسهم ويؤدون مناسكهم ويتمتعون بحقوقهم الكاملة، ولم يكن هذا خاصا بهؤلاء الحجاج الوافدين إلى الأراضي المقدسة بفلسطين بل يدخل معهم بقية المسيحيين الشرقيين من أبناء المنطقة[6].

فلم يجد المسيحيون في جنوب الشام ومصر في سلطة الفاطميين ما يضايق رحلات حجهم، فقد نعموا بتسامح ديني كبير أشارت إليه المصادر التاريخية وكتب الجغرافيين و الرحالة المسلمون[7]، وكانت العلاقات بين الفريقين طيبة إلى درجة مشاركة المسلمين للمسيحيين الاحتفال ببعض أعيادهم وخاصة الزراعية منها فعندما زار المقدسي مدينة بيت المقدس سنة 275هـ /985م وصفها قائلا "…..حيثما ذهبت وجدت اليهود و النصارى أصحاب الكلمة العليا..." [8]
8

غير أن زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386- 411هـ/ 996- 1020م) قد ساده الاضطهاد لأهل الذمة بما فيهم المسيحيين، فلم تكد تستقر له الأمور في مصر، حتى نبذ سياسة التسامح الديني التي سار عليها أسلافه

1 ستيفن رانسيمان ، المرجع السابق، ج1،ص71-77.

2 مشهد سنت يعقوب (جيمس) في كومبو ستيلا بإسبانيا، ومشهد القديس ميخائيل بأعلى جبل جارجيانو في إيطاليا، و مواضع عديدة مقدسة في روما منها كنيسة القديس بطرس، أنظر: ستيفن رنسيمان ، المرجع السابق ،ج1 ، ص72، عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق،ص32.

3 قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية ،ص27، فتحي عبد العزيز محمد و أشرف صالح محمد سيد ، المرجع السابق ص10.

4 جلال حسني سلامة ، المرجع السابق، ص2735.

5 المرجع السابق،ج1، ص73.

6 سعيد عبد الفتاح عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ص15- 16.

7 ابن خلكان ،وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ،(د.ت) ،ج 3، ص195.

8 المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ،ط2، ليدن،1909 ، ص 67.

(المعز و العزيز)، وأخذ يُنكل بأهل الذمة من المسيحيين، وبعد ثلاث سنوات اتسع نطاق الاضطهاد حد أن أمر الحاكم بهدم بعض الكنائس في القاهرة وهدم كنيسة القيامة (الضريح المقدس)[1] ، وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير في إذكاء الدعوة الصليبية التي أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس، ويذكر أن في سنة 405هـ/1014م بلغ عدد ما تعرض للحريق والنهب من الكنائس نحو ثلاثين ألف كنيسة[2]، وقد أورد المقريزي[3] أنه " لما كثرت إهانات الحاكم للنصارى للنصارى وتضيقه عليهم تظاهر كثير منهم بالإسلام»، ويبدو أنهم قاموا بذلك للنجاة بأرواحهم من القتل".

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد فأصدر قبيل اختفائه سنة 411هـ/1020م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة و سمح للمسحيين بتجديد الكنائس ومنحهم الأمان[4]، وبعد الحاكم بأمر الله انعقدت معاهدة سنة 418هـ/1027م أجازت للإمبراطور قسطنطين الثامن أن يتولى عمارة كنيسة القيامة، وقد جرى بناء الكنيسة فعلا على عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع (434-447هـ/1042- 1055م)، ومن مظاهر تحسن العلاقات بين الطرفين استمرار حركة الحج وذلك من خلال الثغور الإسلامية[5] التي عدت من المنافذ التي استخدمها الحجاج للوصول إلى الأماكن المقدسة[6].

إن المتتبع لفترة اضطهاد الحاكم بأمر الله للمسيحيين، يجد أن الفئات الأخرى من أهل الذمة خاصة اليهود و حتى المسلمين السُنيين قد مسهم الاضطهاد، و من هنا يمكن القول أن زمن الحاكم لم يكن إلا مرحلة استثنائية قصيرة، إذا ما قورنت بسماحة الإسلام مع أهل الذمة، و أن مثل هذه الحالات كانت فردية و مؤقتة و عابرة و لا تعبر عن سماحة الإسلام[7] .

مع دخول القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي (5هـ/11م)، ازدهر مسار الحج ازدهارا واضحا حيث سجلت حركة الحج المسيحية تزايدا مستمرا كما تشير إلى ذلك الروايات الأوروبية المعاصرة على غرار رواية رودلف جلابير Rodulf Glaber في كتابه التواريخ Historiae والذي زار القدس سنة 479 هـ/1086م حيث ذكر" أن

---

1 تم هدم كنيسة القيامة عام 398هـ/ 1007م، ما أدى إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين، حيث قطع الإمبراطور باسيل الثاني سنة 406هـ/ 1015م جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين، أنظر: أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط1 ،القاهرة، 1992، ص 102.

2 المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: مُحَّد حلمي مُحَّد أحمد ،القاهرة، 1971، ج 2 ، ص 94- 95، ستيفن رنسيمان ، المرجع السابق، ج1، ص 58، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 48، مُحَّد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية ، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 82- 83، أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي و الفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 248. أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق، ص 102.

3 اتعاظ الحنفا، ، ج2، ص 94.

4 جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص 83.

5 الثغور: جمع ثغر، و هو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو، و ثغور الشام كانت آذنة و طرسوس و ما معهما، و هي واقعة ببلاد الأرمن، و ذلك أن هارون الرشيد في سنة 170هـ عزل الثغور كلها من الجزيرة و قيسرين و جعلها حيزا واحدا سماها "العواصم"، و مقتضى ذلك أن تكون الثغور و العواصم اسما على مسمى واحد وقد حدها من الغرب سواحل الروم، **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،دار الكتب المصرية، القاهرة ،1922 ، ج4 ، ص 130-131.

6 رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 60، جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص 83، مُحَّد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م) ، مكتبة مدبولي،ط1،القاهرة، 1992 ، ص23-24.

7 عاشور، الحركة الصليبية ، ج1،ص28.

حشود لا تعد ولا تحصى جاءت من كل نقاط العالم توافدت إلى ضريح المخلص يسوع المقدس قادمين من شتى أنحاء المعمورة وكانت أعدادهم أكبر من الماضي... وضمت الفقراء والنبلاء والنبيلات.."[1]

ويعود السبب وراء هذه الأعداد الكبيرة من الحجاج إلى البابوية ومن ورائها الأديرة الرئيسية في الغرب الأوروبي خاصة أتباع الأديرة الكلونية[2]، القوية الناشئة بفرنسا والتي سعت إلى تيسير وطأة مسار الحج واجتذاب الناس إليه ،حيث وظفوا في سبيل ذلك شبكة علاقاتهم الواسعة ومقدرتهم على التنظيم، فعرضت كافة التسهيلات اللازمة لتوفير ما يلزم الحاج من حاجيات مختلفة، منها تشييد الفنادق على جوانب الطرق للحجاج وتعيين أدلاء ومرشدين لتنظيم مسيرتهم، فأصبح الحج إلى القدس يتخذ لدى كثير من حجاج القرن الحادي عشر الميلادي طابعاً دينياً يزداد عمقاً.[3]

كما عرف القرن ال5هـ/11م بأنه عصر الحج بالجملة واتخذ طابعا جماهيرا حيث كان يتجمع الآلاف من الأتقياء رجالا ونساء من العامة والفرسان ويسيرون إلى بيت المقدس بقيادة أسقف أو رئيس دير أو اقطاعي كبير[4]، فلقد توجهت توجهت موجات الحجيج إلى بيت المقدس عام 425هـ/ 1033م بمناسبة الذكرى الألفية لآلام المسيح – حسب اعتقادهم –[5] رغم الصعوبات التي قد تظهر في بعض الأحيان في رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة.

كما زحف الأسقف سيجفريد "SiegFried" وهو "رئيس أساقفة ماينز"، في عام[457- 458هـ/1064-1065م] إلى الديار المقدسة بدعوى الحج على رأس مجموعة من الحجاج قارب عددهم السبعة ألاف من الرجال والنساء، وكانوا منظمين تنظيما جيدا، و وُجدت عناصر مسلحة تقوم بحراستهم[6]، ويبدو هنا أن هذه العناصر المسلحة، كانت متواجدة بسبب المشكلات الأمنية الناجمة عن توغل السلاجقة في بلاد الشام في منصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي 447هـ/ 1071م، فقد تركت الحاميات السلجوقية آثارها السلبية على الحجاج الكاثوليك المسافرين عبر الأناضول[7]، بيد أن ازدياد الحجاج المستمر كان هو الآخر يقلق الدوائر الإسلامية في آسيا الصغرى و

---

1 قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى نصوص و وثائق ،عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية ،القاهرة ، 2001، ص 41، ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم ،موسكو،1986، ص21.

2 **الأديرة الكلونية**: أسس وليم الأول (وليم التقي) William the pious، كونت أقطانيا، دير كلوني"Cluny"، بدلا من الأديرة البندكتية، التي قد بدأت في طور الانحطاط و كان ذلك سنة 298هـ/910م، فقامت بإصلاح أوضاع الأديرة في أوربا، وأحدثت نهضة دينية كبيرة عملت على توطيد مواقع الكنيسة المادية و المعنوية و تحسين تنظيمها و رفع مكانتهاو ازدهار حركة الحج، و إقامة شبكة كبيرة تهتم بالحجاج و شؤونهم، و يعلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على صحوة دير كلوني واهتمامه بالحج إلى الأرض المقدسة، وأثر ذلك كله في قيام الحروب الصليبية، أنظر: هانس ماير، المرجع السابق ، ص 47، عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص 29-31، نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط2، دمشق، ص 19-241-242، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1،القاهرة،2000، ص17، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق،ص20،قاسم عبده قاسم ،المرجع السابق، ص 29.

3 هانس ماير ، المرجع السابق ،ص47.

4 عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق ، 33.

5 هانس ماير ، المرجع السابق ،ص46.

6 أرنست باكر، الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، ط2،دار النهضة العربية ، لبنان ،(د.ت.) ، ص11، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون ، ص 25، هانس ماير، المرجع السابق، ص48.

7 قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية ، ص 30-31.

فلسطين، خاصة وأن الدخل الذي يحرزه المسلمون من ذلك يعد زهيدا، لأن الفقر كان من السمات النموذجية للحاج المسيحي[1].

إن تزايد عدد الحجاج خلال القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي يعود لكثرة حملات الحج التكفيرية المنطلقة من غرب أوروبا إلى فلسطين وهو ما فرضته الكنيسة على المذنبين ومن أضروا بمصالحها ومن انتهكوا سلام الرب وهدنته[2]،فقبل سبع سنوات فقط من ابتداء الدعوة للحملة الصليبية الأولى، قاد الكونت روبرت الفلاندرزيّ Robert de flandres دوق إقليم الفلاندر بشمال غرب فرنسا سنة 481هـ/ 1088م حجا ضخما شاركت فيه أعداد كبيرة من النبلاء والفرسان والعامة وأكثر من واظب على الحج كانوا من كبار القساوسة والرهبان وصحب هؤلاء معهم جماعات عديدة من فقراء الرجال والنساء.[3]

وبلا شك أن استمرار تدفق الحجاج إلى الأماكن المقدسة قد أدى إلى نمو رغبة المسيحيين في امتلاكها، فلولا تردد الحجاج على الدوام وعلى مدى قرون لزيارة منشأ المسيحية، لما خطر على بال أحد أن يزحف لانتزاعها من أيدي المسلمين، وهنا بدأ يظهر تطور مفهوم الحج المسيحي وذلك في أواخر القرن 5هـ/11م وأصبح حجا مسلحا ذي امتيازات روحية خاصة تقترن بغفران خاص، وعليه فإن الحملات الصليبية هي تطور محكم لفكرة الحج المسيحي[4].

غير أن المشكلة المطروحة هنا هي تناقض فكرة الحج المسلح مع تعاليم المسيح عليه السلام المسالمة والبعيدة عن العنف والملاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية قد بررت ذلك بأن الحرب أو تسليح الحج هو شر لابد منه، وعلى هذا الأساس كان يسمح بالحرب فقط في حال الدفاع واستعادة أملاك مسلوبة، وبهذه الإمكانية الثانية بررت الكنيسة موقفها وجعلت الممنوع مباحا[5].

وقد لجأت الكنيسة اللاتينية الغربية إلى آراء المفكر المسيحي القديس أوغستين saint-Augutinus (354-430م) الذي يعد أول مفكر عالج مسألة تبرير الحرب على أساس ديني، حيث أقر أن الحرب يصح أن تنشب بأمر من الله وحاول أن يضع تعريفا للحالة التي تصبح الحرب فيها حربا عادلة (Bellum Justum La Guerre Justum) و ذلك وفقا لثلاث شروط هي :

1- أن يكون هنالك سبب عادل (Causa Justa) لشن الحرب، وعادة ما يتمثل في عدوان أو عمل ضار قام به الآخرون.

2- أن يصدر قرار الحرب من سلطة شرعية (Auctorites Pricipis) وعادة ما تكون السلطة العلمانية، غير أن الكنيسة انتزعت لنفسها حق إعلان الحرب المقدسة ثم فيما بعد الدعوة للحملة الصليبية .

---

1 هانس ماير ، المرجع السابق،ص48.

2 سلام الرب أو هدنة الرب pax dei: هو قانون وضعته الكنيسة مع بداية القرن 10م /5هـ ، تمنع بموجبه الحرب أو القتال من مساء الاثنين إلى صباح الأربعاء مع منع التعرض للكنيسة و ممتلكاتها و كذلك عدم التعرض للأقنان، أنظر : توماش ماستناك ، السلام الصليبي ،ترجمة : بشير السباعي ، المركز القومي للترجمة ، ط2، القاهرة ، 2009 ،ص17-18.

3 ستيفن رانسيمان، المرجع السابق،ج1،ص71-73، قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص31.

4 هانس ماير، المرجع السابق، ص 49، مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 26.

5 رنسيمان، المرجع السابق، ج1 ص 125- 126.

3- سلامة القصد (Intentiorecta)، أي أن تكون دوافع المحارب سليمة، و أن تكون الحرب الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هدف عادل .

-كما استبعد القديس أوغستين السلام من بين الأسباب العادلة للحرب ،لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام الذي يتوافق مع ميوله و مصالحه[1].

وهي الفكرة التي تبناها البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت 488هـ/1095م والذي يعد انعطافا تاريخيا مهما، وتحول جذري بارز نحو عسكرة الحج بدعوى تأمين طريقه إلى الشرق، مع إضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة الجديدة، ومنه أصبح الصليبي حاجا يتمتع بميزة حمل السلاح[2].

وانطلاقا من هذه النظرة الجديدة للحج، يمكن القول أن بروز الحركة الصليبية كان تطورا منطقيا لحركة الحج المسيحي، ومما يدل على ذلك أن المعاصرين لم يفرقوا في البداية بين رحلة الحج والحملة الصليبية وذلك حسب ما جاء في روايات المؤرخين اللاتين المعاصرين لها، حيث كانوا يصفون المشاركين في الحملات الصليبية بالحجاج Pérégrinotio فعناوين مؤلفاتهم[3]خلت جميعا من عبارات الصليبيين أو الحملة الصليبية، وإنما دارت حول عبارات كثيرا ما كانت متداولة في عصر الحروب الصليبية مثل: الفرنج، رحلة الحج، الحملة المقدسة، حجاج بيت المقدس...وغيرها .

فامتزجت بذلك فكرة الحج بفكرة الحملة الصليبية فأصبحتا تدلان على بعضهما البعض وتشيران إلى معنى واحد، و هو الارتحال إلى الأراضي المقدسة بفلسطين، وذلك برغم الفرق الواسع والاختلاف الجوهري الموجود بين الحالتين و أهدافهما، وظل الأمر كذلك إلى أن اختفت وتوارت عبارة الحج أواخر القرن 6هـ/12م لما ظهرت الكلمة اللاتينية Crusesignati والتي تعني "الموسوم بالصليب"، وذلك دلالة على الصليبيين المتقلدين لشارة الصليب والمشاركين في مختلف الحملات الصليبية.[4]

من هنا نستنتج أن النساء الأوروبيات قد شاركن جنبا إلى جنب مع الرجال في رحلات الحج منذ الوهلة الأولى، و تعلقت قلوبهن بالأراضي المقدسة في فلسطين طلبا للغفران وتكفير الذنوب، غير أنهن ركن لتحريض البابوية الزاعم بتعطيل المسلمين لحركة الحج المسيحي وأشعلوا حربا ضروسا دامت ما يقارب القرنين من الزمن تحت شعار تحرير وتأمين طريق الحج وتحرير القبر المقدس وحماية المسيحيين بالأراضي المقدسة على - حد زعمهم-.

وقد أطلق اسم الحملات الصليبية أو الحركة الصليبية على تلك الغزوات العسكرية التي قام بها الأوروبيون منذ نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والقرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

1 قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ،ص 41-42.

2 محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص23.

3 أنظر على سبيل المثال: بطرس توديبوده، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ،ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق للنشر و التوزيع ط1،عمان،1990ألبرت أوف آخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، المؤلف المجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ريموناجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة،الإسكندرية،2، ترجمة و تحقيق : سهيل زكار ،ج51، دمشق ، 2007.

4 قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص12-13، أحمد مسيلي ، دور البابوية في الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي (488- 588هـ/ 1095-1192م) ، أطروحة ماجيستير غير منشورة ، جامعة الجزائر2، الجزائر العاصمة ،2016، ص111.

من أجل انتزاع الأراضي المقدسة في بلاد الشام من يد المسلمين، وقد تعددت آراء المؤرخين حول طبيعتها، فهنالك من نظر للحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب بل أهم تلك الحلقات حيث اتخذ هذه المرة الخلاف الديني بين الاسلام والمسيحية سببا قويا لاندلا ع هذه الحروب[1] .

كما اعتبرت أنها رد متأخر من غرب أوروبا عن الفتوحات الاسلامية، حيث لم يعتبر المسيحيون في تلك الفترة سيطرة المسلمين على بيت المقدس إضرارا بالعالم المسيحي، ولا أن قدسية المدينة مرتبطة بضرورة السيادة السياسية عليها[2] .

بينما نظر إليها البعض على أنها ذروة الإحياء الديني وعصر الإيمان الذي بدأ في أوروبا أثناء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وارتفع شأنه أثناء القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فهي حروب مقدسة وطريق الحجاج إلى كنيسة القيامة (القبر المقدس)، ونوعا جديدا من الخلاص وطريقا جديدا لابد من اجتيازه ابتغاء نيل السعادة وغفران الذنوب، فهي بذلك السياسة الخارجية للبابوية التي تقوم بتوجيه رعاياها المخلصين إلى الحرب الكبرى التي تخوضها المسيحية ضد أعدائها[3].

وهناك من رأى أن الحركة الصليبية بمفهومها الشمولي حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي في العصور الوسطى متسمة بطابع حربي استعماري ضد الدولة العربية الإسلامية خاصة في بلاد الشام بهدف امتلاكها مستغلة استغاثة الدولة البيزنطية ضد المسلمين كوسيلة لتحقيق مآربها في السيطرة على الأراضي الإسلامية واستنزاف خيراتها الاقتصادية[4].

فالحملات الصليبية ضد الشرق العربي هي أول المشاريع الاستعمارية الأوروبية من ناحية والتجربة التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية، أي حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطى، فضلا عن أنها إلهاما للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من ناحية ثالثة [5]..

أخيرا يمكن القول، أن الحروب الصليبية يقصد بها تلك الحملات ذات الطابع الديني التي أرسلها مسيحيو غرب أوروبا إلى المشرق الإسلامي خلال الفترة ما بين (488-690هـ/1096-1291م) لانتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين في فلسطين، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى شارة الصليبي التي اتخذوها علامة لهم، وهي هجرة واسعة قام بها سكان أوروبا الغربية إلى الشرق الإسلامي لاحتلاله وإقامة ممالك إقطاعية فيه.

وعليه فقد مثلت الحروب الصليبية مرحلة حاسمة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب هدفها تحقيق مصالح سياسية عسكرية اقتصادية ثقافية ودينية، لفائدة فئات وشرائح مختلفة شكلت مجتمع الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى بصفة عامة وفي طليعتها بشكل خاص البابوية الداعية والمروجة للمشروع الصليبي ومن ورائها القوى العلمانية ذات الطموحات والرغبات المادية غير المحدودة.

---

1 عاشور ، الحركة الصليبية، ج1،ص19،

2 كلود كاهن ، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر ،ط1،القاهرة،1995 ، ص25،

3 أرنست باكر ، المرجع السابق،ص9-10،

August.c.Krey ,The first crusades, the Accountof eye – witnesses and participants, princeton press university, london ,1921 ,pp25-28.

4 عاشور، الحركة الصليبية، ج1،ص 20 .

5 قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص13، يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين ،ص13.

المبحث الثالث: موقف المرأة الأوروبية من الدعاية الصليبية :

لقد مهدت رحلات الحج المتوالية التي قامت بها النساء الأوروبيات إلى بيت المقدس منذ وقت مبكر إلى زيادة تعلقهن بالأماكن المقدسة واستجابتهن للدعاية الصليبية ورغبتهن الكبيرة وحماسهن الشديد للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى لتجسيد مشروع تحرير القبر المقدس.

قام البابا أوربان الثاني pop urbanII (481-493 هـ/1088- 1099م) بالدعوة للحروب الصليبية في مجمع كليرمونت clermont (488هـ/1095م)[1] مستغلا رغبة الأوروبيين في الغفران فأعطاهم الكثير من الامتيازات ، وأمن لهم طريق الخلاص عن طريق القسم[2] لكل من شاركوا في الحملة الصليبية، وعندما انتشرت أنباء ما أعلنه البابا أوربان الثاني في كليرمونت في أرجاء الغرب الأوروبي أخذ الرجال والنساء من جميع الطبقات ومن جميع المهن والحرف شارة الصليب وفقدت البابوية السيطرة على مسألة الأفراد[3].

غير أن البابا أوربان الثاني لم يتوقع مشاركة النساء في هذه الحملة – حملة مسلحة – حيث أنه منع النساء من المشاركة في الحروب الصليبية،[4] وأوصى بمكوثهن في ديارهن وذلك نتيجة خوف الكنيسة على المرأة من المخاطر المحتملة أثناء الحملة الصليبية ولاعتقاده أن وجود النساء مع الحملة سيكون عبئا عليها وسيجلب لها ضررا أكثر من النفع المرجو[5].

المرجو[5].

لكن من غير المعقول أن تعارض البابوية أمر مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى إذ لا يمكن أن تنطلق جيوش جرارة من مختلف أنحاء الغرب الأوروبي، من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وانجلترا وغيرها متجهين نحو القسطنطينية للعبور منها نحو بلاد الأناضول دون اصطحاب مجموعات كبيرة من النساء ومن مختلف الطبقات وما يتقنه من مهن وحرف لتقديم

---

1 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس،ص31، بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت القدس، ص61، المؤلف المجهول ، أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص17-18 ، ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ص120، وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص167-168،
Réné Grousset, l'épopée des croisades, librairie Académique Perrin, Paris 1995 ,p6

2 يذكر فوشيه الشارتري في كتابه تاريخ الحملة على القدس أن الكثير من الناس من مختلف المراتب ما إن سمعوا بغفران الذنوب إلا و أقسموا على أن يذهبوا بأرواحهم الطاهرة لتحرير القبر المقدس ، أنظر : تاريخ الحملة إلى القدس،ص37 .

3 هانس ماير ، المرجع السابق، ص 39-40، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية (1095-489/1291-690هـ) ، دار البشر للثقافة و العلوم ، (د،م،ن) ،(د،ت) ، ص 25.
Natasha R. hodgson , Women crusading and the holy land in historical narrativa ,the boydell preer , woodbridge, Great Britain,2007,p39 .

4 حسن عبد الوهاب حسين ، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ،1997، ص171.

5 طه الطراونة ، المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، مجلة مؤتة للبحوث و للدراسات الانسانية و الاجتماعية ، المجلد 8، العدد 1 ، الأردن، 1993، ص(69-94).
Helen J.nicholson , Women and the crusades ,Hereford Historical Association ,2008, p 5 .

الخدمات والرعاية اللازمة لهؤلاء جميعا، ويبدو أن البابا كان يقصد بذلك منع العجائز والأطفال والشيوخ لأنه لم يكن يريد للرجال والنساء الغير اللائقين أن ينظموا لحملة عسكرية[1].

فلم تقتصر بذلك الحملة الصليبية الأولى عام491هـ/ 1096م على الرجال فقط، ولم تقبع كل النساء في بيوتهن بعد رحيل الرجال إلى الشرق، فقد ضمت جيوش الحملة الصليبية أعدادا كبيرة من النساء من مختلف مستويات المجتمع إلى جانب الفرسان الصليبيين[2]، وقد أشارت آنا كومينين إلى مشاركات العديد من الفرنجيات في الحملة الصليبية الأولى[3].

على العموم لم تلق الوصايا البابوية استجابة كاملة، حيث اندفعت النساء من مختلف فئات المجتمع الغربي للمشاركة في الحملات الصليبية وقد شاركت الأوروبيات بأعداد كبيرة ما جعل البابوية تشترط ألا تخرج النساء في الحملة دون صحبة أزواجهن أو إخوانهن أو أية حماة شرعيين لهن[4]، كما حرص البابا كذلك على أن لا يخرج الرجال المتزوجون بلا إذن زوجاتهم خاصة من تزوج حديثا[5]، مع ضرورة الحصول على موافقة سلطات الكنيسة[6]، لكن هذه القيود تركت أثرا سلبيا سلبيا على أعداد المشاركين في الحملة، ما اضطر السلطات الكنسية لإلغاء هذا الشرط حتى صارت تحذر الرجال من السماع لإغواء زوجاتهم والتقاعس عن الوفاء بالنذر الصليبي[7].

لكن الدعاية الصليبية قد بلغت ذروتها واتضحت صورتها لدى سكان أوروبا على يد الراهب بطرس الناسك[8] الذي استطاع بحماسه الملتهب وما أوتيه من قوة الخطابة والقدرة على الإقناع أن يحث الكثيرين على الانخراط في الحملة الصليبية الشعبية بأسرع ما يمكن، فصار ينتقل من مكان إلى مكان حيث اجتاز فرنسا وسار على امتداد الراين وتمكن بفصاحته

---

1 جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، القاهرة ، 1999 ، ص51، جلال سلامة ، المرجع السابق ، ص2737.

2 محمد عبد النعيم محمد عبده ، دور المرأة الأوروبية العسكري في الحروب الصليبية (1096-1291م)، مجلة المؤرخ المصري ،ج1،العدد 55، 2019،ص (40-99) .

3 آنا كومينينا ، الكسياد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط3، القاهرة ، 2004، ص388.

4 محمد عبد الله المقدم ، الأسيرات ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد 20، القاهرة ،2012، ص(279-323) ،طه الطراونة ، المرجع السابق ، ص(69-94).

5 قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق،ص91.

6 لقد حمل البابا أوربان قساوسة الأبرشيات مسؤولية تنظيم حشود الراغبين في المشاركة في الحملة الصليبية الأولى ، فكان على كل راغب في المشاركة الاتصال بهؤلاء الأساقفة غير أن النظام الأبرشي (الكنسي) لم يكن قادرا على ضبط الأمور و عجز عن القيام بالمهمة ، أنظر: جوناثان ريلي سميث ،الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية،ص69

7 إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، المرجع السابق ، ص25.

8 **بطرس الناسك** : واعظ الحملة الصليبية الأولى وأحد أبرز دعاتها ،ولد في أميان (أميانس) غربي فرنسا سنة 1050م وتوفي في 8 جويلية 1115م ، كان بطرس طاعنا في السن قصيرا داكنا يرتدي ثيابا رثة متسخة و جعل غذاءه السمك و النبيذ، يمشي عاري القدمين يتجول في البلاد راكبا حماره الأعرج داعيا للحرب الصليبية التي لم يكن حاضرا عندما أعلن عنها البابا أوربان الثاني ،وتقول الأساطير والروايات الشعبية أن بطرس الناسك كان يجول ويدعو للحملة الصليبية قبل الدعوة إليها في كليرمونت مدعيا أن رسالة جاءته من السماء تدعو المسيحيين المؤمنين للتوجه للشرق لتحرير القبر المقدس من أيدى الكفار، وفيما يبدو أن بطرس قد حاول الحج إلى بيت المقدس لكنه واجه الكثير من المتاعب من قبل الأتراك فوجد في الدعوة للحملة الصليبية شفاء لغلته أنظر: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص162-163، جوناثان ريلي سميث ، تاريخ الحروب الصليبية،ج1،ص 12،ستيفن رنسيمان، المرجع السابق ، ص169، أرنست باكر، المرجع السابق،ص25، محمد مرسي الشيخ ،حملة بطرس الناسك في ضوء كتابات أنا كومنينا ،مجلة كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد 2، السعودية ،1978،ص (298-320) .

من جذب العديد من الأساقفة ورؤساء الأديرة وآلاف الفقراء والأشراف بالإضافة إلى الأشرار والزناة والقتلة واللصوص وأينما توجه بطرس الناسك غادر الرجال والنساء دورهم وتبعوه حتى بلغ عددهم أكثر من 15 ألف شخص[1].

وبذلك يكون بطرس الناسك قد ضرب بتعليمات البابا عرض الحائط وسعى إلى تجنيد عدد من النساء في هذه الحملة، فعمل على إصلاح بنات الهوى بتزويجهن ودفع مهورهن من الأموال التي تجمعت لديه كحصيلة للضريبة التي فرضها باسم ضريبة درهم الفقير(Poor Penny Tax)، كما كان سخيا وجوادا في توزيع ما يتلقاه على الفقراء فأعاد الزوجات الخاطئات إلى أزواجهن محملات بالهبات والعطايا وسمح لمن تبعه من الرجال باصطحاب زوجاتهم وأطفالهم فالتحقت به أعدد كبيرة من النساء[2].

ويذكر ألبرت أوف آخن[3] الذي كان شاهد عيان على دعوة بطرس الناسك في ألمانيا أن النساء قد سارعن للمشاركة في الحملة الصليبية الشعبية، بعد تأثرهن بخطابات بطرس الناسك خاصة اللواتي مستهن روح التوبة وقد انضممن للحملة بسرور غامر، ويؤكد كلام هذا الراهب أنه منذ بداية حملة الدعاية للحرب الصليبية قد فهمت النساء اللاتي شعرن بأنهن محبوسات في عالم الرذيلة لا يمكنهن الفرار منه فهما كاملا أن الحملة الصليبية توفر لهن فرصة البداية من جديد .

من الجدير بالذكر هنا أنه لم يكن لرؤساء الحملة الصليبية الأولى و لمسؤولين عن تنظيمها من قساوسة وأساقفة الرغبة في تجنيد النساء حيث يذكر أن سيدة غنية من النبلاء اسمها أميرياس Emerias أقسمت على أن تشارك في الحرب الصليبية، فذهبت إلى أسقفها لتنال منه البركة قبل رحيلها غير أنه أقنعها بأنه من الأفضل لها أن تقيم ملجأ لرعاية الفقراء بدلا من الذهاب للشرق[4] .

قد ضمت هذه الحملة نساء على كل شاكلة متزوجات يرافقن أزواجهن وغير متزوجات طاهرات عفيفات وراهبات وعاهرات وبغايا ونساء ذات وضع مبهم، ما أسهم في توفير مناخ الانحراف داخل صفوف الجيش الصليبي وعلى ما يبدو أن كثيرا من هاته النسوة لم تلبين دعوة الحرب المقدسة لتكفير عن خطاياهن بل لكي يقترفن خطايا جديدة[5].

على أن النساء اللاتي آثرن البقاء في أوروبا سعين لدعم أحبابهن، فقبل انطلاق الحملة الصليبية الأولى أقامت قريبات الجنود المشاركين فيها حفلات خاصة لوداعهم[6]، وقد ترك فوشيه الشارتري[7] وصفا بليغا لمشاهد ذلك الوداع "..... كم أصابهم الأسى كم أجهشوا بالبكاء .... عندما فارقوا زوجاتهم العزيزات وأبناءهم وأمهاتهم ....ثم أخبر الزوج

---

1 ألبرت فون أخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة و تحقيق :سهيل زكار ، دمشق ،2007، ج 51 ، ص 10-15،أنا كومنينا ، ألكسياد ، ص388، أرنست باكر ، المرجع السابق، ص 25 رنسيمان ،المرجع السابق،ج1،ص170.

Grousset, op . cit,p14-15-16.

2 طه الطراونة ، المرجع السابق ، ص 298-299-300 .

3 تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص 8.

4 جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ص 69.

5 حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق ، ص 173، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد، الانحراف الجنسي ،ص27-28.

6 طه الطراونة، المرجع السابق ،ص71.

7 تاريخ الحملة إلى القدس،ص41-42.

زوجته عن موعد رجوعه مؤكدا لها إذا ما كتب الله له الحياة بأنه راجع لها، ثم طلب من الله أن يعتني بها وقبلها مطولا ووعدها عبر دموعه أنه سيعود، ولكن لخوفها من أنها لن تقع عيناها عليه ثانية أغمي عليها ...وهي تندب فقدانه كما لو أنه فارق الحياة... "

كما وصف وليام الصوري[1] كذلك مشاهد الوداع المؤلمة حين أنتزع المشاركون أنفسهم من معانقات أحبتهم ورحلوا بعدما تبادلوا تحيات الوداع الأخيرة وهنا رافقت الأمهات الراحلين من الأبناء والبنات الآباء والأخوات الإخوة في حين حملت الزوجات الأطفال الرضع وودعن أزواجهن، فانفصل الزوج عن زوجته والمرأة عن بعلها وفارق الآباء أبناءهم ولم يستطع أي رابط محبة أن يحول دون هذه الحماسة.

وقد ساد الاعتقاد آنذاك أن المرأة التي ترسل زوجها العزيز في هذه الرحلة المقدسة لتحرير القبر المقدس بملء إرادتها شريطة العيش في الوطن عيشة فاضلة تكون قد شاركت زوجها نصف ثوابه، فإنها سوف تصلي من أجلهما سويا وهو سوف يذهب ويحارب من أجلهما سويا، وقد ساعد هذا الاعتقاد الذي غرسته أيادي الدعاية الصليبية من مبشرين وقساوسة على حشد المزيد من الراغبين في المشاركة في الحملة الصليبية الأولى[2].

ولم يقتصر موقف النساء من الدعاية الصليبية بالمشاركة في الحملة الصليبية أو البقاء في أوروبا وانتظار عودة أحبابهن ، بل تعدى إلى أكثر من ذلك حيث سعت الكثير من الأمهات والزوجات إلى تحمل أعباء انضمام أبنائها أو أزواجها ممن نذروا أنفسهم للاشتراك في الحملة وذلك بتغطية النفقات الباهظة التي يتطلبها تجهيز الفرسان في العصور الوسطى[3] من خلال رهن أو بيع الإقطاعات أو الأراضي المملوكة، فقد كان خلف الكثير من الصليبيين حشد كبير من الرجال والنساء كانوا مستعدين للتضحية بمصالحهم لمساعدتهم على الذهاب وتأدية الواجب المقدس[4].

المبحث الرابع: دور المرأة الأوروبية في الحملة الصليبية الأولى:

1- دوافع مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى:

تفاوتت دوافع مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى بين إعانة زوجها على مشاق الحملة، والخوف عليه من الغواية خاصة بعد تطوع الكثير من بنات الهوى للترويح – كما يزعمن — عن المقاتلين الذين أخلصوا للمشروع الصليبي الذي صُبغ بالدين وذلك رجاء إرضاء ربهن، وكان مألوفا منذ الحملة الصليبية الأولى أن تصاحب النساء أزواجهن ، وقد شاركت بعضهن بدافع حب الاستطلاع أو المغامرة أو بدافع الفضول و إما للخلاص من حياة الفقر التي كن

1 تاريخ الحروب الصليبية، ج1،ص174-177.

2 جوناثان ريلي سميث،الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ص51، إمام الشافعي مُحَّد حمودي و أشرف صالح مُحَّد السيد، الانحراف الجنسي ،ص27-28

3 قامت إيدا كونتيسة بولونياcountess Ida of boulagne بجمع الأموال لولديها جيفري و بولدوين اللذين ذهبا إلى بيت المقدس ، وفي سنة 1098م/493هـ قدمت هبات ومنحا إلى دير القديس برتن st Bertin من أجل سلامة ولديها ،كما أصرت والدة الفارس جي السارسي Guy of Sarce و أخوته على بيع إحدى إقطاعاتهم في مدينة لومان le mans في غرب فرنسا إلى دير القديس فينسينت اللوماني st vincent of le mans لتغطية نفقات رحلته إلى الشرق و الامثلة كثيرة حول ذلك ، أنظر: جوناثان رايلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ،ص 87-90.

4 نفسه ،ص 87-90.

يحيينها في بلادهن في ظل النظام الإقطاعي أو للتخلص من ديونهن الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ،أو طلبا لغفران الذنوب[1].

لكن دوافع أغلب الصليبيات لم تسمو للناحية الروحية، لكن سيكون من المفيد أن نفترض أنه بسبب أنشطة النساء كغسيل الأواني والملابس أو الطهي أو ممارسة البغاء، فهؤلاء النساء لم يكن لديهن دوافع دينية عند الانضمام إلى جيش الحملة الصليبية[2]، ووجودهن في الجيش الصليبي كان مثيرا للفوضى والاضطراب وجذب نساء يحيط الشك بسلوكهن فكثير من النساء اللاتي اشتركن في الحروب الصليبية لم يأتين إلى الشرق لتكفير ذنوبهن ولكنهن جئن مرغمات هروبا من العقوبات التي فرضت عليهن بسبب ما ارتكبنه من جرائم، من ثمة غدت الإمارات الصليبية بشكل عام ومملكة بيت المقدس بشكل خاص تستقبل الآلاف من الوافدين كل عام ممن حكمت عليهن المحاكم الأوروبية بالنفي إلى الساحل الشامي بدلا من عقابهن في أوروبا[3].

صحبت بعض نساء القادة الصليبيين أزواجهن في الحملة الصليبية الأولى، ومثال ذلك ألفيرا Elvira زوجة ريمون الرابع كونت تولوز كما صحبت جوتيريا Godvere زوجها بلودوين البويوني Baldwin of Boulogne إلى أن ماتت في مرعش بينما كان زوجها في حملة عسكرية خاصة به ضد طرسوس عندما غادر بقواته دون إذن من القادة الصليبيين[4].

وقد حثت الكثير من النساء اللاتين أزواجهن على المشاركة في المشروع الصليبي، فتلك أديلا Adela ابنة وليام الفاتح ملك انجلترا وزوجة ستيفن كونت شارتر و بلوا تحث زوجها على المشاركة بالمشروع الصليبي من جديد بعد أن فر من الحملة الصليبية الأولى في سنة (491هـ/1098م) و ذلك قبل سقوط مدينة أنطاكية في يد الصليبيين بأيام و التي امتد حصارها أكثر من سبعة شهور، فيعود ستيفن للمشاركة في حملة (شعبان 494هـ/ ماي 1101م) خوفا من تعيير زوجته لكنه قتل في إحدى المعارك قرب الرملة في شهر شعبان 495هـ/ماي 1102م بينما كان يقاتل مع قوات الملك بلدوين الأول، وهكذا مسح عار فراره و ارتاح من تعيير زوجته[5].

يمكن اعتبار الدوافع التي ألهمت الصليبيين من أمراء وقادة وحتى عامة الناس قد ألهمت كذلك النساء باعتبارهن جزء من المجتمع الأوروبي فأثرت فيهن ودفعتهن للرغبة في مشاركة الرجال لتأدية الواجب المقدس، فقد كان هدف المشاركة في الحملة الصليبية الأولى هو الحج إلى بيت المقدس وقتال المسلمين وانتزاع بلاد الشام عامة وبيت المقدس خاصة وقد جاء هذا الهدف المعلن تلخيصا للإيديولوجية الصليبية التي تمثل الأرضية التي تحركت عليها الجماهير الأوروبية من رجال

---

1 جمال محمد حسن الزنكي ، تطلع المرأة الصليبية للسلطة و صراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية (524-556هـ/ 1130-1161م) في ضوء ما كتبه المؤرخ الصليبي وليام الصوري ، حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية ، الحولية 29،الرسالة 286، الكويت ،2008 ،ص18.

Helen J.nicholson , Women and the crusades , p 5 .

2 يوشع براور، الاستيطان الصليبي ، ص23 ، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، الانحراف الجنسي ،ص25.

3 عاشور ، الحركة الصليبية ج1،ص29، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، الانحراف الجنسي ،ص25.

4 Natasha R. hodgson , Women crusading and the holy land in historical narrativa , p2

5 جمال زنكي ، المرجع السابق ،ص18

ونساء، نظرا لتأثير الحركة الصليبية على جميع نواحي الحياة في أوروبا بسبب ارتباطها بشكل أو بآخر بالحياة الدينية التي كانت المحرك الأساسي للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمشاركة فيها .

يعتبر الجانب الديني دافعا مهما وأساسيا ساهم في إشعال الحماسة عند النساء الأوروبيات للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى، وقد أكد المؤرخون الغربيون[1] على إبراز الجانب الديني في دراستهم لدوافع الحروب الصليبية من خلال تأكيدهم على أهمية الأماكن المقدسة بالنسبة للأوروبيين نساءً ورجالاً وذكرهم لرحلات الحج المسيحي التي لم ينقطع حبلها واهتمامهم بالنصارى في الشرق وما يعانونه من سوء الأحوال، وأن البابوية قد حاولت جاهدة توحيد النصارى في الشرق والغرب تحت رايتها وسعت إلى تصدير نفوذها الديني خارج القارة الأوروبية.[2]

لقد سعى البابا أوربان الثاني من خلال خطابه الذي ألقاه في كليرمونت 488هـ/1095م للإفصاح عن نواياه فأكد على ضرورة الذهاب لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين مستخدما جميع وسائل الإغراء لإثارة حماسة الأوروبيين، وهذا يعني أن الصليبيين حملوا راية الدين وتسلحوا بها كواجهة أمامية لتحقيق أهدافهم التوسعية في البلاد الإسلامية، وكسب منافع اقتصادية وتجارية وعسكرية ،فأي وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية وهو البلد المسيحي الآمن لينهبوا كنائسها ويسرقوا ثرواتها ويعتدوا على أهلها وهم إخوانهم في الدين[3].

من هنا يمكن توضيح الدافع الاقتصادي والمادي لمشاركة النساء الأوروبيات في الحملات الصليبية والمرتبط بواقع الظروف الاقتصادية في أوروبا آنذاك، فقد كان الفلاحون والفلاحات وعائلاتهم في شمال غرب أوروبا يعيشون في ظل ظروف قاسية بسبب تفشي الأمراض وانتشار الجهل خاصة عند النساء فضلا عن حدوث الفيضانات وتحطم قنوات المياه مما أدى إلى تلف الحقول الزراعية فاضطر معظم العائلات الفقيرة والفلاحين إلى ترك أراضيهم، وأدى ذلك إلى قلة الانتاج الزراعي وظهور المجاعة في المجتمع الأوروبي فأصبحوا عاطلين عن العمل، ولم تجد النساء في أوروبا من سبيل للعيش الكريم إلا اللحاق بالرجال الذين لبوا نداء الدعوة الصليبية التي كانوا يرون فيها أملا لتحسين أحوالهم وخلاص أرواحهم[4]، أما البرجوازية الناشئة والممثلة في القوى التجارية الايطالية (البندقية وبيزا وجنوة) رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم، ولهذا سارعت بنقل المشاركين رجالا ونساء إلى السواحل الشرقية والانضمام للمشروع بعد أن صار حقيقة واقعة[5].

أما دوافع النساء الاجتماعية للانضمام إلى جموع الصليبيين فلا تعدو أن تكون وسيلة لتحسين مكانتهن الاجتماعية لا غير، فقد كان المجتمع الأوروبي منقسما على نفسه إلى ثلاث طبقات، الأولى طبقة الأمراء والنبلاء

---

1 ول وايريل ديورانت ، قصة الحضارة (عصر الايمان) ،ترجمة:محمد بدران ،دار الجيل بيروت ، لمجلد 4،ج2، ص12، أرنست باكر، المرجع السابق ، ص 5-6 ، ميخائيل زابوروف، المرجع السابق، ص 20-29 ، هانس ماير، المرجع السابق ، ص144.

Setton , A History , Vol 1 , p 355 .

2 جوزيف نسيم يوسف ، العرب و الروم و اللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط3، بيروت ، 1981، ص62.

3 سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ،ج1، ص25-30،

4 ستيفن رانسيمان ، المرجع السابق،ج1،ص 170-171.

5 قاسم عبده قاسم ،ماهية ،ص55-56.

والفرسان والثانية طبقة رجال الدين، والثالثة طبقة الفقراء وعامة الشعب ومعظمهم من الفلاحين والأقنان ورقيق الأرض ، وقد تمتعت الطبقتان الأولى والثانية بامتيازات واسعة على حساب الفلاحين الذين شكلوا الغالبية المغلوبة على أمرها و التي كان علي أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة أسيادهم، وهكذا ظلت الغالبية من النساء في غرب أوروبا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان، وكان ذلك في الوقت الذي علت فيه الدعوة للحرب الصليبية فوجدت تلك الألوف من البؤساء والنساء والشيوخ وحتى الأطفال فرصتها للخروج من هذا المأزق من خلال المشاركة في الحملات الصليبية طامعين في خيرات الشرق [1].

إن مشاركة النساء مع الحملات الصليبية أو جلبهن من قبل الرجال يؤكد أنهم كانوا من الوهلة الأولى يريدون تكوين كيان صليبي و مجتمع جديد في بلاد الشام، و كان من الضروري إحضار النساء للقيام بالأعمال المختلفة و الحفاظ على النسل و الاستقرار النهائي في الشرق، و ما يدلنا على ذلك هو أن بعض القادة أحضروا زوجاتهم حتى يصبحوا ملوكا في الشرق مثال ذلك بلدوين البويوني الذي أحضر زوجته و عمل على حيازة الرها التي كانت بيد الأرمن و هم من المسيحيين الشرقيين، و لم يشارك حتى في حصار بيت المقدس الذي كان هدف الحملة الصليبية المقدسة، لذا فقد استقدمت النساء من أوروبا مع الحملات الصليبية لتأسيس كيان صليبي ستكون المرأة من الأطراف المساهمة في بنائه.

وقد عُدت النساء المشاركات في الحملة الصليبية الأولى بالآلاف[2]، فسواء في الحملة الشعبية أو النظامية كان عددهن يفوق أي عدد آخر من المشاركات في الحملات الصليبية الأخرى[3]، غير أن المصادر التاريخية المعاصرة لا تذكر أعداد دقيقة لهن، فقد ذكر ألبرت أوف آخن[4] أنه في إحدى الجولات قد أسر الأعداء حوالي ألف امرأة صليبية وأخذوهن معهم إلى بلاد غريبة.

بل إن وليام الصوري[5] يذكر عددا يفوق ذلك بكثير ينُم عن ضخامة عدد النسوة المشاركات في الحملة الصليبية الأولى حيث يقدر عدد النساء اللاتي لقين حتفهن بسبب الطاعون بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية في (شعبان 491هـ / 3 جويلية 1098م) بخمسين ألف امرأة و " أنه قد كثرت في هذا الوباء الضحايا من النساء بشكل خاص ، حيث هلك منهن خمسون ألف امرأة خلال أيام قليلة ".

غير أن ذلك التقدير لعدد النساء اللاتي متن بسبب ذلك الطاعون مبالغ فيه كثيرا، فإن كان عدد النساء المتوفيات في هذا الطاعون نحو خمسين ألف فمما لا شك فيه أن من قتلن في ساحات الحرب ومن تبقى منهن كان يفوق هذا العدد بكثير، فالغالب من الأمر أن ذلك التقدير لعدد النساء اللاتي متن بسبب الطاعون مبالغ فيه كثيرا، ويمكن أن نقدر

1 عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1، ص 32-33 ،

2 ألبرت أوف آخن ،تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص 60، جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحملة الصليبية الأولى ، ص122 ، جلال سلامة ، المرجع السابق ، ص2740.

3 إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، الانحراف الجنسي ، ص29.

4 تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، 29.

5 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص 369.

عدد جميع النساء المشاركات في الحملة الصليبية الأولى بما فيهن من لقين حتفهن بسبب الطاعون بخمسين ألفا وهو عدد معقول، وذلك إذا ما قدرنا أن عدد المشاركين في الحملة ككل ما بين المائة والستين ألفا وثلاثمائة ألف[1].

وبافتراض أن الرجال الذين اصطحبوا نساءهم هم المقتدرون فقط على تحمل تكاليف رحلة شاقة وطويلة وهم الفرسان الذين يقدر وليام الصوري عددهم بسبعين ألفا [2]،إضافة إلى من حضر مع هؤلاء النساء وصيفات وخادمات ما يؤكد مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى بنسبة حوالي الربع وهذا يعطي إشارة واضحة إلى عظمة مشاركتها آنذاك في حملة عسكرية محفوفة بالمخاطر [3].

على أية حال إن المشاركة الكبيرة للمرأة الأوروبية في الحملة الصليبية الأولى لم يكن بالأمر الغريب عنها وعن ذهنياتها في تلك الفترة، فالمتتبع لتطور حركة الحج المسيحي أواخر القرن (5هـ/11م) – ذكرناه سابقا – يرى أنهن قد إعتدن على زيارة بيت المقدس وبأعداد كبيرة حتى قبل بداية الدعوة للحروب الصليبية أو الدعاية لتحرير القبر المقدس –كما يزعمون – ، فقد كانت النساء قد تعودن على الذهاب للحج إلى فلسطين للتكفير عن بعض الذنوب ، كما بحثن كذلك عن الغفران التام الذي تمنحه الكنيسة، إضافة إلى حياة جديدة و مريحة في الشرق .

2– مساهمة المرأة الأوروبية في الحملة الصليبية الأولى وأعباء الرحلة حتى سقوط بيت المقدس (491 هـ–1099م):

يمكن القول أن المرأة الأوروبية لعبت دورا بارزا في الحرب الصليبية من جوانب عدة، حيث قدمت مختلف الخدمات للجنود الصليبيين وساعدت المحاربين في المعارك في تحضير الطعام لهم وجلب الماء واسعاف الجرحى ومداواة المرضى ورفع الروح المعنوية للمحاربين وتشجيعهم على التجلد والثبات أمام الخصم وتحفيزهم على القتال، هذا بالإضافة إلى توفير وسائل الترفيه للمحاربين و تلبية احتياجاتهم و مطالبهم الجنسية.[4]

لقد كانت النساء في أوروبا و قبل أن تشق الحملة الصليبية الأولى طريقها إلى الأراضي المقدسة، قد تعلمن مهارات وقُمن بمهمات وأعمال متنوعة خارج واجباتهن المنزلية جعلت منهن قادرات ومؤهلات على خوض غمار حملة عسكرية غير معروفة النتائج، حيث ساعدت الواحدة منهن زوجها وأفراد أسرتها في الأعمال الزراعية وقطف الثمار والزروع ونقل مياه الشرب وتدبير أمور المواشي والدواجن وغيرها من البهائم وحتى الجياد، ومن أجل زيادة دخلها تدربت كثير من النساء على بعض المهن و الحرف كالغزل والنسيج وصناعة الخمور والنبيذ.

ساعدت معرفة المرأة الأوروبية ودرايتها بالعديد من المهن الحيوية والمهمة، لأن تكون لها مساهمة فعالة في نجاح الحملة الصليبية الأولى، ومن بين المجالات الحياتية التي مارستها بصورة رئيسية وفعالة هو دور المعالجة والتطبيب والتمريض، حتى وصفت الواحدة منهن بأنها كانت أكثر دراية ومهارة من الرجال، فكانت الحاجة كبيرة لمثل هؤلاء فعندما خرج مع الحملة

1 جمال محمد حسن الزنكي ، تطلع المرأة للسلطة ،ص19.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص 289.

3 إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، المرجع السابق ، ص 29–30.

4 محمد عبد المنعم محمد عبده، دور المرأة الأوروبية العسكري في الحروب الصليبية ، ص41–42 ، محمد عبد الله المقدم الأسيرات،ص279.

الصليبية عدد من النساء الحوامل اللواتي اضطرت الكثيرات منهن لوضع أطفالهن قبل الأوان بسبب طول السفر وعدم تحملهن ارتفاع درجات الحرارة، حتى أن بعضهن قد توفي في أثناء الولادة فتولت تلك المعالجات الإشراف على تمريض الأطفال وإرضاعهن بعد ولادتهم، علما أن المرأة التي كانت تسند إليها مثل هذه المهمة في أوروبا كانت تخضع للمقابلة لمعرفة مدى تأهلها في ممارسة مهنة العلاج والمداواة، وكثير ما وقع الاختيار على النساء اللاتي لم يكتب لهن الزواج أو الاهتمام بالحياة الدينية للقيام بمثل هذه المسؤولية[1].

برزت مساهمة المرأة الصليبية خاصة في صناعة الأسلحة ومثال ذلك صناعتها لآلات حصار استخدمت حول المدينة المقدسة، إضافة إلى مهارتها في صياغة الذهب والفضة وصناعة الأحذية، حيث كانت الحاجة ماسة لمثل هذه الصناعة بسبب طول السفر وشدة وعورة الطرق والمسالك من الغرب الأوروبي إلى الشرق الإسلامي[2].

واجهت النساء اللاتي خرجن في تلك الحملة جملة من المصاعب منذ انطلاقها وحتى بلوغها السواحل الشمالية لبلاد الشام[3]، ولعل أقسى تلك المصاعب عليهن كانت تعرضهن للسبي من قبل أعداء الفرنجة، فقد سقط عدد منهن ضحايا وسبايا في يد البلغار نتيجة للنزاع الذي وقع بينهم وبين حملة بطرس الناسك أثناء اجتيازها بلغاريا سنة 489هـ/1096م[4]، كما لم تسلم النساء اللاتي رافقن حملة وليم كونت بواتيه William of poituo وستيفن كونت بلوا Stephen of blois سنة 494هـ/1101م واجهن مصيرا مشابها فعندما سحقت هذه الحملة على يد سلاجقة الروم والدانشماندیون[5] ،قتل عدد من النساء وسُبي عدد آخر. [6]

وفيما يتعلق بالنساء اللاتي نجون من القتل والأسر في الطريق ووصلن إلى القسطنطينية[7]، فقد تحركن مع الجيوش الصليبية نحو الشاطئ الآسيوي مركزين جهودهم الأولى على مدينة نيقية Nicéa[8]عاصمة السلطنة السلجوقية

---

1 وليام الصوري ، الحروب الصليبية ،ج1، ص 239-240.

Regine pernoud , LA Femme au temps des croisades , p18.

2 جلال سلامة ، دور النساء الأوروبيات في الحملة الصليبية الأولى ،ص (2748-2733).

3 للاطلاع على خط سير الحملة الصليبية الأولى ،أنظر الخريطة رقم 1.

4 ألبرت أوف آخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص16، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص182، ستيفن رانسيمان، المرجع السابق ،ج1 ،ص186.

5 **الدانشماندیون:** هم سلالة تركمانية نشأت في الركن الشمالي الشرقي لآسيا الصغرى ، و يعد الأمير التركماني أحمد بن الدانشمند المؤسس الحقيقي لتلك الأسرة التي توسعت على حساب الممتلكات البيزنطية في كبدوكيا و أماسية و قيصرية وكانت حاضرة ملكهم سيواس و استمرت حتى قضى عليها قلج أرسلان الثاني سنة 570هـ/1174م ،أنظر: رنسيمان ، المرجع السابق،ج1،ص112.

6 طه الطراونة ، المرأة الصليبية ، ص71.

7 رنسيمان الحروب الصليبية، ج1، ص 207-242، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47 ، جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ص 109.

Archer, op, cit, p 41 , Grousset, op, cit, p 18

8 تقع نيقية على شواطئ بحيرة أسكان التي لا تبعد كثيرا عن بحر مرمرة، و قد اشتهرت المدينة منذ القرن الرابع الميلادي بمناعة استحكاماتها، أما أسوارها العالية التي امتد طولها أربعة أميال و ارتفع عليها 240 برجا فإن البيزنطيين دأبوا على صيانتها و إصلاحها. أنظر: ريموندا جيل، تاريخ القرنجة غزاة بيت المقدس، ص 77، رنسيمان، المرجع السابق، ج1،ص 249، 251.

بالأناضول، ومن الواضح أن الصليبيين لم يستطيعوا المضي في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة ، فقد كان ذلك يهددهم ويعرض خطوط مواصلاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية لخطر جسيم، كما ساعدهم غياب السلطان السلجوقي قلج أرسلان عن عاصمته لانشغاله في حروبه مع الدانشماندیین، في التقدم والتضييق على أهل المدينة.

ودارت بين الجانبين السلجوقي والصليبي حروب عنيفة، جعلت النساء تقاتل بحماسة جنبا إلى جنب مع الرجال حتى أضعفوا المدينة وقاربت السقوط[1]، فقد سجل صاحب كتاب أعمال الفرنجة عن مشاركتهن في أثناء حصار نيقية بقوله " إن نساءنا أسدين إلينا في ذلك اليوم معونة عظمى ويدا مشكورة إذ حملن الماء لرجالنا ليطفئوا ظمأهم ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع "[2] ومما يؤكد بلاء النساء في هذا الحصار الذي استمر قرابة خمسة أسابيع ما ورد على لسان وليام الصوري [3]" كما قتل في تلك المعركة أربعة آلاف من عامة شعبنا من ذوي المنزلة الدنيا من الرجال والنساء على حد سواء".

غير أن تواجد النساء في الجيوش الصليبية لم يقتصر فقط على المقاتلات فقد وجدت العاهرات والنساء الفاجرات والأنواع الإجرامية الأخرى التي لوثت الجيوش الصليبية وأصبن الجند بعدوى رذائلهن ما دفع الصليبيين أثناء حصار نيقية لإغلاق دور الدعارة في معسكرهم[4]، وبعد حصار شديد دام لأسابيع تفاجأ الصليبيون بارتفاع الرايات البيزنطية على أسوار المدينة في رجب 490هـ/ جوان 1097م حيث أن أهل المدينة راسلوا الإمبراطور ألكسيوس لتسليمه المدينة بشرط الأمان[5]، فوافق الإمبراطور الذي وجد في هذا العرض فرصة لاسترجاع نيقية من جديد[6].

أحدث سقوط المدينة في يد الصليبيين دويا هائلا في غرب أوروبا، وكان ذلك دافعا قويا لكل من كان يمتنع من الرجال أو النساء عن الخروج للمشاركة في الحروب الصليبية ومواصلة القتال بغية الاستيلاء على مزيد من مدن المشرق الإسلامي، وبخاصة بعد أن تعهدت المدن التجارية الإيطالية بيزا وجنوة والبندقية بنقلهم على متن سفنها البحرية [7].

من نيقية اتخذ الصليبيون الطريق البيزنطي الرئيسي المعروف قديما والذي يجتاز آسيا الصغرى، فالطريق الممتد من خلقيدونية ونيقوميديا إلى أن وصلوا سهول ضورليوم "Doryleaum"[1] حينها شن الأتراك هجوما مدمرا على معسكر

---

1 فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص 47.

August.c.Krey ,The first crusade, p102.

James .M.ludi.w.DD.LHD,The age of the crusdes, p92-93.

2 المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة ،ص39.

3 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص 243.

4 حسن عبد الوهاب حسين ، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،ص 173.

5 أوردت أنا كومنين رواية تفصيلية عن سقوط مدينة نيقية و أعلنت صراحة أن البيزنطيين قد خدعوا الصليبيين ،أنظر: ألكسياد ،ص 420.

6 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 45، بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص111، ابن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر،في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج5، مراجعة : سهيل زكار و خليل شحادة ،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت،2000، ص 185، 209، رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 255- 256، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 98.

Acher, op. cit, p 54, Grousset, op, cit, p 24.

7 جلال سلامة ، دور النساء الأوروبيات في الحملة الصليبية الأولى ،ص 2741.

معسكر الفرنجة وذلك في شعبان 490هـ / جوان1096 م ، فاتجه الكثير من الصليبيين لنسب هذه المصيبة إلى فجور النساء في معسكرهم أمثال فوشيه الشارتري[2] الذي قال " لقد كان واضحا لنا أن كل ما حصل لأن الترف دنس بعضنا كما أن الجشع ورذائل أخرى دنست الآخرين " .

من هنا يمكن القول أن الأفكار التي كانت سائدة في أوروبا في العصور الوسطى عن المرأة والتي جعلت منها تجسيدا للآثام والشهوة والفجور، قد رافقت الفرنجة إلى الشرق فعندما كانت تحل بهم مصيبة أو تنزل بهم نازلة يسارعون إلى ردها إلى آثام النساء[3].

غير أن الأتراك السلاجقة تكبدوا هزيمة نكراء في يوم 6 رجب 490هـ/ 20 جوان 1097، وغنم الصليبيون كميات ضخمة من المؤن والغنائم، وقد اعتبر كثير من المؤرخين أن معركة ضورليوم ونصر الصليبيين هو إعلان منهم عن قدوم قوة جديدة إلى الشرق أثبتت تفوقها الحربي على أسطورة السلاجقة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية، فقد كانت معركة فاصلة حسمت مصير الحملة الصليبية الأولى لحد كبير، إذا توقفت بعدها كل مقاومة منظمة من جانب المسلمين وأصبح الطريق مفتوحا أمام الصليبيين إلى بلاد الشام[4] فتابعوا تقدمهم وسط جبال الأناضول يقودهم أدلاء بيزنطيون باتجاه الجنوب، ولكن الهجمات الخاطفة التي كان يشنها الفرسان الأتراك كلفت الصليبيين كثيرا من جهودهم .[5]

عانت المرأة الصليبية من مصاعب كثيرة كما عانى المقاتلون أنفسهم عند عبور الجيش صحراء تراقيا القاحلة حيث نزلوا بواد جاف هناك، وذلك رغبة منهم في اختصار الطريق و تجنب الطريق الرئيسي[6]، ومن أهم هذه المصاعب قلة الماء والطعام إضافة إلى شمس الصيف الحارقة، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ولم يجدوا ما يحمل متاعهم وأثقالهم، ولم تدم فترة عبورهم أكثر من ثلاث أيام حتى مات منهم خمسمائة من شدة الحر وأكثر من مات من النساء، ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين في زحفهم حتى وصلوا أخيرا إلى سهول قونيا الغنية بعشبها وشجرها[7]..

ويصف لنا وليام الصوري [8] بعض ما عانت منه النساء أثناء عبور صحراء تراقيا قائلا "إن النساء الحوامل قد وضعن أولادهن قبل الأوان نتيجة للعطش والحرارة المستعرة، وكان ذلك حدث لم يسجل له التاريخ مثيلا"، كما أضاف "أن النساء اللاتي كن يعانين شدة العطش تركن أولادهن وهن يعانين سكرات الموت فدفعت مشاعر الرحمة والإنسانية غيرهن

---

1 رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 259.

August.c.Krey ,The first crusade, the Accountof eye – witnesses and participant,p112-113.

2 تاريخ الحملة إلى القدس،ص49.

3 طه الطراونة ، المرأة الصليبية ، ص72.

4 ر.سي.سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر(1079-1193م)،ترجمة: محمد وليد الجلاد ،دار طلاس،ط1،دمشق،1985 ، ص 253-254، عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ،1972، ص 119،

Grousset, op. cit, p25-26.

5 ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 78، تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص 70، قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص 22، مؤنس عوض، المرجع السابق ، ص 78

6 جمال محمد حسن الزنكي ، المرجع السابق ،ص20.

7 المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة،ص43.

8 الحروب الصليبية،ج1،ص239-240.

من النساء لاحتضان الأطفال الرضع الجوعى على صدورهن لإرضاعهن، وهن شبه عاريات يشغلهن خطر الموت الوشيك أكثر من المحافظة على الاحترام اللائق بأنوثتهن".

مع بداية خريف 490هـ/ 1097م انفصل كل من تنكرد وبلدوين البويوني شقيق جودفري عن الجيش الرئيسي للإغارة على قليقية[1] ciliciou وقد تمكن بلدوين من الاستيلاء على العديد من المدن والقلاع شمالي الجزيرة الفراتية منها الرواندان وتل باشر، وعندما اقترب من الرها استدعاه حاكمها ثوروس الأرميني لمساعدته ضد الخطر السلجوقي[2] فلبى نداءه، وقد استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على مدينة الرها بعد نجاح المؤامرة التي حاكها مع أرمن المدينة ضد ثوروس وتمكن من تأسيس أول إمارة صليبية كان لها دور كبير في حماية ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام ضد أي هجوم يأتي من إمارة الموصل[3].

في الوقت الذي كان بلدوين يحكم سيطرته على إمارة الرها زحف بقية الجيش الصليبي الكبير إلى الشام قاصدا أنطاكية، التي وصلتها جموع الفرنج في 11 ذو القعدة 490هـ/ 21 أكتوبر 1097م[4] وتعتبر العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم، وقد أحدث وصول هذا الجيش إلى مشارف الشام هلعا كبيرا لأن كثرة أعدادهم و طبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر كبير، وأخذ الفرنج في حصار أنطاكية من الجهات الثلاث[5] لمعرفتهم بحصانة المدينة التي لا يمكن مقارنتها في مناعتها و قوة تحصينها إلا بالقسطنطينية[6]، وقد برز ذلك جليا في طول مدة حصار الصليبيين لها

---

1 أرنست باركر، المرجع السابق، ص 34 ، جوناثان ريلي سميث، المرجع السابق، ص 11.

Archer, op, cit, p 59.

2 لقد إرتاع ثوروس حاكم الرها لما بلغه من أنباء بأن كريوغا أمير الموصل المعروف بخطورته و شدته، أخذ يحشد جيشا ضخما استعدادا لنجدة أنطاكية، فتخوف فتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش و هو في طريقه إلى الشام الرها و غيرها من الإمارات الأرمينية. أنظر: رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 289، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 143.

3 ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر و جامع الغرر ،تحقيق :صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961، ج6، ص 450، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47. كلود كاهن، المرجع السابق، ص 102 ، جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص236، عن تأسيس إمارة الرها و ظروف نشأتها و دورها السياسي في عصر الحروب الصليبية ، أنظر: علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ،2001 ،ص47، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 149.

Archer, op, cit, p.p 60- 63.

4 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة و تصحيح: مُحَمَّد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية،ط4 ، بيروت،2003 ج9، ص 13، ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي،ط1،دمشق ،1997، ج2 ص 131-132، المقريزي، اتعاظ الحنفا،ج3، ص 20، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، تقديم: مُحَمَّد حسين شمس الدين ،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،1992، ج5، ص 144، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط، دار ابن كثير، ط1، بيروت، 1989، م5، ص 399، سميث، المرجع السابق، ص 111.

Archer, op, cit, p 58.

Stevenson, M.A, The crusaders in the East, Cambridge at the university, press, 1907p25-26/

5 بطرس توديبود، تاريخ الحملة إلى البيت المقدس، ص 135، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 149.

6 تحصين مدينة أنطاكية يعود إلى الجبال العالية المحيطة بها حتى الجنوب والشرق و تحتضن داخلها قمم ثلاث جبال، و يحدها من الغرب مجرى نهر العاصي ومن الشمال مستنقعات و أحراش كما تحتوي أنطاكية على قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها. أنظر: ريموندجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 85-86. رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 303، عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 150

Archer, op, cit, pp 64-65.

والذي دام ما يقارب السبعة أشهر، ويذكر وليام الصوري[1] "أن عدد اللذين حاصروا أنطاكية كانوا ثلاثمائة ألف محارب ،إضافة إلى النسوة و الأطفال".

فيما يتعلق بالنساء اللواتي نجون من القتل والأسر والمصاعب المختلفة في الطريق حتى أنطاكية فقد جابهن محنا جديدة ولكن على يد الفرنجة أنفسهم هذه المرة، فبينما كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية سنة 490هـ/ 1097م واجهوا مجاعة كبيرة فُقد خلالها الغذاء من معسكر الصليبيين، وأصيب الجميع بالوهن والضعف، وبعد مشاورات عقدها قادة الفرنجة حول الأمر قرروا إبعاد جميع النساء المرافقات للحملة ، المتزوجات والغير متزوجات على حد سواء من أجل توفير القوت للمقاتلين، لذا أخذت النساء المطرودات على عاتقهن البحث عن مأوى في المدن المجاورة [2].

أكد فوشيه الشارتري[3] أن طرد النساء من المعسكر لم يكن فقط لنقص الغذاء بل لكونهن آثمات ومذنبات ، وأن سوء طالع الفرنجة واخفاقهم في الاستيلاء على أنطاكية في وقت قصير يعود للآثام والشرور التي انتشرت في المعسكر حيث يقول " لقد طردن خوفا من قذارة العيش الخليع الذي يغضب الله"، فبمجرد وصول الجيش إلى أنطاكية عادت بيوت الدعارة للنشاط من جديد داخل المعسكرات نفسها بعد أن أغلقت أيام حصار نيقية [4].

ورغم ما قام به حاكم أنطاكية ياغي سيان من الاستنجاد بجيرانه من حكام المسلمين[5] إلا أن المدينة سقطت قبل وصول التحالف الإسلامي[6] بقيادة أمير الموصل كربوغا، وذلك بسبب خيانة أحد الأرمن[7] الذي فتح للفرنج البرج الذي كان يتولى حراسته، وكان ذلك في 27 جمادي الثانية 491هـ/ 2 جوان 1098م[8] .

---

1 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص281 .

2 فوشيه الشارتري، الحملة إلى القدس،ص55،طه الطراونة ، المرجع السابق، ص 72،

3 تاريخ الحملة إلى القدس، ص 55.

4 حسن عبد الوهاب حسين ، المرجع السابق، ص173.

5 لقد ذكر ابن العديم بأن ياغي سيان أخرج ولديه شمس الدولة و مُحَمَّدا، للاستنجاد بحكام المسلمين فسار شمس الدولة إلى ملوك الشام دقاق و طغتكين يستنجدهما ، وبعث كتبه إلى بني كلاب، وسار مُحَمَّد ابنه إلى التركمان وكربوغا وأمراء الشرق وسير كتبه إلى جميع أمراء المسلمين ، كما أكد ذلك ابن القلانسي بعث الأمير ياغي سيان في الاستصراخ و الاستنجاد... قصد الدفاع و تحصين أنطاكية" غير أن ابن الأثير يذكر أن سبب تأخر النجدة الإسلامية أنطاكية هو "أن الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب و دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بأيدي الروم لا نطلب سواها مكرا منهم و خديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية". أنظر: ،تاريخ دمشق، ص 218، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 15 ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2، ص 130.

Grousset, op . cit,p28-29.

6 ضم التحالف الإسلامي إضافة إلى قائده صاحب الموصل قوام الدولة كربوغا (كربوقا)، دقاق بن تتش و طغتكين أتابك دمشق ، و سمكان بن أرتق صاحب صاحب ماردين و جناح الدولة صاحب حمص، و أرسلا نتاش (شاه) صاحب سنجار ، و غيرهم من الأمراء المسلمين، و يذكر ابن تغري بردي أن الأفضل لم ينهض بإخراج عساكر مصر، مع قدرته على المال و الرجال. أنظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 133، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 210، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج5، 145.

7 و يعرف بالزراد أو الفيروز، وهو من أحد كبار ضباط عساكر ياغي سيان، أنظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 133، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 145.

8 ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطاء مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992 ، ص 43 ، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 20، ابن العبري، مختصر الدول، ،تصحيح : الأب أنطوان صالحي، الرائد اللبناني للنشر، ط2، لبنان، 1994، ص14.

أثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة، كما كان لسقوطها دوي هائل على العالم المسيحي لا يفوقه إلا سقوط بيت المقدس نفسها لقيمة المدينة تاريخيا ودينيا، و بعد أيام وصلت النجدة التي بعث بها السلطان السلجوقي بقيادة صاحب الموصل قوام الدولة كربوغا غير أن الفرنجة هزموهم هزيمة نكراء، لتشتتهم وتفرق صفوفهم، فلم ينسوا أعداءهم حتى أمام خطر الصليبيين المحدق[1]، أما المدينة فقد آل أمرها إلى بوهمند الذي عرف كيف ينتهز الفرصة ويضمن سيطرته عليها[2].

بسقوط أنطاكية واصلت الجيوش الصليبية الاستيلاء على البلاد الواقعة في الطريق إلى بيت المقدس، فهاجموا معرة النعمان[3]، بعد أن استولوا على مدينة البارة ، ويذكر ابن القلانسي "أن الفرنج زحفوا إلى أسوار المعرة من الناحية الشرقية و الشمالية، و انهزم أهل المعرة" في 14 محرم 492هـ/ 11 ديسمبر 1098م. و نكث الفرنج وعودهم بالأمان فذهبوا و قتلوا العدد الكبير من النساء و الرجال[4].

قام الصليبيون بتوطين بعض العائلات الأوروبية في مدينة البارة، وليس من المستبعد أن تكون هذه الخطوة تهدف إلى توطين كبار السن من الرجال والنساء والأطفال غير القادرين على حمل السلاح، خاصة وأن وجود كبار السن قد يخلق عقبة أمام تحركات الجيش في المناطق الاستراتيجية والأودية التي تتركز فيها مجموعات من المقاومة الإسلامية، فيتسبب ذلك في إعاقة أو تأخير خطتهم في الاستيلاء على بيت المقدس وتأسيس مملكة صليبية، كما أن توطين هذه العائلات قد يشكل لهم ظهيرا من خلال مراقبة ما يجري من تحركات على ساحة البلاد الإسلامية[5].

كان الهدف الرئيسي للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس[6] التي وصلوها في مساء يوم الثلاثاء 15 رجب 492هـ/ 492هـ/ 7 جوان 1099م وشرعوا في حصارها من جميع الجهات، وقد ضمت الجيوش الصليبية المتجهة نحو الأرض

---

1 ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 136، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 210، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 161.

Archer, op, cit, pp 74- 75

2 كانت أنطاكية قبل أن يستولي عليها السلاجقة سنة 478هـ/ 1085م للبيزنطيين، و لما سقطت بأيدي الصليبيين توقع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس أن يسلموها له، غير أن ذلك لم يحدث، إذ أقام بها بوهمند ابن عدو ألكسيوس القديم روبرت جوسيكارد إمارة صليبية له، و أذاع بوهيمند القصة القائلة بان البيزنطيين قد خانوا الصليبيين و تخلوا عنهم أثناء الحصار، كما حدثت نزاعات بين بوهيمند و ريموند حول من يملك المدينة و أخير تم الأمر لبوهيمند. أنظر: رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 303، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100، سميث، المرجع السابق، ص 112، حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 212.

3 **معرة النعمان:** مدينة كبيرة ومشهورة، سميت نسبة إلى الصحابي الجليل النعمان بن بشير ﷺ، وهي من أعمال حمص بين حلب و حماة، يوجد بها الزيتون بكثرة بكثرة ، تقع حاليا جنوب محافظة إدلب في سورية و تبعد عن حلب بحوالي 84 كم : أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 156، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 138، أمين واصف بك، معجم الخريطة التاريخية، ص 107.

4 يذكر ابن تغري بردي أنه قتل بالمعرة مئة ألف مسلم و سبوا مثلها. أنظر: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 144.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص380-382، جلال سلامة ،المرجع السابق ، ص2740.

6 كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش، ثم أقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان، و لما استولى الصليبيون على أنطاكية طمع أهل مصر فيها (بيت المقدس) ، و سار الأفضل إليها و حاصرها نيفا و أربيعين يوما و كان بها سكمان و أخوه إيلغازي، و ملكها الفاطميون بالأمان في رمضان 492هـ/ أوت 1098م، و أحسن الأفضل إلى ابنا أرتق و سرحهما إلى دمشق، و استناب على المدينة افتخار الدولة و وضع حامية كافية للدفاع عنها. أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9 ، ص 19، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، 149، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 22، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 101.

المقدسة مجموعات من العمال والحرفيين عدو بالآلاف ضمت مجموعات من النساء اللواتي كان يسند إليهن تقديم الخدمات الانسانية والعلاجية وإعداد وجبات الطعام للفرسان وقادة الجيش وغيرها من المهن التي أتقنتها بعض النساء[1].

قدمت المرأة الصليبية خدمات جليلة للصليبيين أثناء حصار بيت المقدس، والتي تعتبر المرحلة الحاسمة من مراحل الحملة الصليبية الأولى ولعل أهم هذه الخدمات نقل المياه من مسافات بعيدة، فقد كانت أكبر مشكلة واجهت الصليبيين أثناء الحصار هي قلة المياه وذلك للجفاف الذي تميزت به المنطقة وخاصة بعد ما قام به الحاكم الفاطمي افتخار الدولة من تدابير كان لها بالغ الأثر في شح الماء عند معسكر الفرنج، حيث ردم جميع آبار وصهاريج المياه أملا بأن العطش سيدفع الصليبيين للتخلي عن حصار المدينة، وكان المورد الوحيد للمياه العذبة عند بركة سلوان بأسفل الأسوار الجنوبية للمدينة و التي تبعد من 8 إلى 10 كيلومترات، كما زاد من قلق الصليبيين الحرارة والتراب والافتقاد إلى الظل و دفاع سكان القدس باستماته عن أسوارها[2].

وظهر دور النساء الفرنجيات عسكريا في حمل السلاح والقتال إلى جانب الجند في التصدي للمقاومة الإسلامية ، حيث يصف وليام الصوري [3]شجاعتهن بقوله " و اجترأت حتى النسوة بصرف النظر عن جنسهن أو وضعهن الطبيعي على حمل السلاح وحاربن بشجاعة بشكل يفوق طاقتهن...." ، كما ساهمت إلى جانب ذلك مساهمة فعالة في نصب الأبراج وصناعة آلات الحصار[4] بغية تشديد الحصار على المدينة وتسريع الاستيلاء عليها، ويوضح ألبرت أوف آخن[5] كيف تم جمع النساء والأطفال والمشتغلين في أدوات الحصار في مكان واحد، وبدؤوا بصنع مواد لحماية أبراج الحصار و الآلات الأخرى من نيران المسلمين.

إن مشاركة المرأة الصليبية في حصار المدينة المقدسة بهذه الجرأة والروح العالية قد زاد من معنويات الفرسان والجنود فباتوا متيقنين من سقوطها في أيديهم وانتزاعها من أصحابها الشرعيين، واستعدوا جميعا رجالا ونساء لشن هجومهم الكبير يوم الجمعة 23 شعبان 492هـ/ 15 جويلة 1099م وتمكنوا من اقتحام المدينة والاستيلاء على ثرواتها ومصادرة بيوتها

---

1 الرهاوي المجهول، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (المصادر السريانية) ،دمشق،1995، ج5، ص21.

Grousset, op . cit,p36.

August.c.Krey ,The first crusade , p249.

2 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الى القدس، ص 71، المؤرخ المجهول ، تاريخ الفرنجة ،ص115، رنسيمان، المرجع السابق،ج1، ص 396، أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص 99- 100 ، مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة، مكتبة عمان، عمان ،1998 ، ص 40.

3 تاريخ الحروب الصليبية،ج1، ص427.

4 في ظل هذه الظروف، رست بمرفأ يافا بعض السفن الجنوية و ذلك في 24 رجب 492هـ/ 17 جوان 1099م ، و أحضرت معها ما احتاجه الصليبيون من آلات الحصار والأسلحة و العتاد التي كان لها بالغ الأثر في تدعيم مركز الصليبيين أثناء حصار بيت المقدس4، و بعد ذلك أُنجزت أدوات الحصار خاصة تلك تلك الأبراج الضخمة التي ذكرتها العديد من المصادر الإسلامية4 و أكدت أنها السبب المباشر في اختراق سور المدينة الحصين ، ليلة 22 شعبان492هـ/ 14 جويلة 1099م أنظر: ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 19، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج2، ص 23، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5 ، ص 147، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32، مصطفى الحياري، المرجع السابق، ص 41.

5 تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص134.

وكان الحصار قد دام ما يقارب أربعين يوما، وقد جرت مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون مقاتلين ومقاتلات بحق سكان المدينة الآمنين من الشيوخ والنساء والأطفال.[1]

غير أن المؤرخين الصليبيين قد تحدثوا عليها بكل فخر، ومن أمثال ذلك ما ذكره فوشيه الشارتري[2] أحد معاصري الحملة الصليبية الأولى " انظم الصليبيون إلى رفاقهم يذبحون أعداءهم الأشرار بلا توقف، وقد قطعت رؤوس ما يقارب العشرة آلاف شخص في هيكل سليمان، لم يبق منهم أحد ولم يرحموا امرأة ولا طفلا"، أما مؤرخ المملكة اللاتينية وليام الصوري[3] فقد عقب على ما حدث للأهالي فقال "أن ذلك كان قضاء عادلا من الرب، أمضوه فيمن دنسوا هيكل السيد بشعائرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن فلابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت" وقال كذلك " لقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة وكان سفك الدماء رهيبا لدرجة عانى منها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز" ويذكر ريموندا جيل[4] "أنه قد سفك تنكرد وجودفري كمية لا تصدق من الدماء".

أما المؤرخون الأوروبيون المحدثون فقد انتقدوا ذلك العمل العدائي حيث يعلق Grousset قائلا " لا يمكن أن يُبرر الصليبيون بحال من الأحوال المذبحة المروعة التي قاموا بها خلال الأيام التي أتبعت دخولهم بيت المقدس، ولم تكن هذه المذبحة جريمة فحسب، وإنما كانت خطأ سياسيا لا يغتفر، فقد جعلت الفاطميين وكافة المسلمين أعداء للصليبيين"[5]

من كل هذه النصوص يتضح لنا مدى الحقد الصليبي الكامن في قلوب الصليبيين تجاه المسلمين، ومدى الأفكار الخاطئة المأخوذة عنهم، فرغم احترام المسلمين لمقدساتهم والسماح لهم بزيارتها إلا أن أقوالهم واعتقاداتهم تذكر عكس ذلك وتؤكد على وجود حقد دفين للإسلام والمسلمين.

إن ما قام به الصليبيون في بيت المقدس من تطهير كامل للمدينة المقدسة من سكانها الأصليين كان فعلا عرضيا دون غاية محددة، فلعل ما قاموا به كان يهدف إلى إيواء النساء والأطفال في بيوت آمنة بعد سنوات ثلاث (1096 - 1099م) من التعب والشقاء في فصلي الصيف والشتاء حيث البرودة القاسية والحرارة المرتفعة وما تسببه لهم من أمراض وإرهاق شديد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يسعون من هذه المجازر إلى نشر الرعب والخوف بين سكان البلاد الأصليين ،حتى لا يفكروا في مهاجمتهم أو حتى دخول المدينة مجددا ،خاصة وأن الصليبيون كانوا يعانون من نقص كبير في الأعداد، كما أن سقوط بيت المقدس بهذه الطريقة العنيفة سيسهل استسلام المدن المجاورة للكيان الصليبي الداخلية منها والساحلية[6].

---

1 ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 222 ، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 19، ابن كثير، البداية و النهاية،ج7، ص 122، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 23، قاسم عبده قاسم، الجملة الصليبية الأولى، ص 25. ، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 119.

Setton , A History , Vol 1 , p 377 .

2 تاريخ الحملة الصليبية إلى القدس، ص 75.

3 تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 435-436.

4 تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 246.

5 L'épopée des croisades, p37-38.

6 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 76، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص 437.

لم يكد يمضي على الهزيمة التي منيت بها المقاومة الإسلامية وما تبعها من قتل وتهجير بحق سكان الأرض المقدسة ، ونجاح الصليبيين في بسط سيادتهم على مناطق الساحل، ونزوع الأوضاع الأمنية فيها إلى الأمن والاستقرار في ظل تخاذل المسلمين وتفرقتهم، حتى عزمت موجات كبيرة من العائلات من فرنسا وانجلترا رجالا ونساء وأطفال ومن مختلف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلى متن سفن المدن الايطالية بيزا وجنوة والبندقية تشد رحالها إلى مدن وريف بلاد الشام[1] .

لقد طاب لهذه العائلات العيش والإقامة في البيوت والمنازل التي هجرها أصحابها الشرعيين، وصار الكثير من فقراء الفرنجة أغنياء[2]، وبذلك نالت المرأة الصليبية في ظل هذه الأجواء كامل حريتها في ممارسة مختلف المهن والحرف، سواء الزراعية منها أو الصناعية أو حتى التجارية بعيدا عن النظام الإقطاعي الذي كان سائدا في أوروبا في تلك الفترة، كما عززت عند أبنائها الرغبة الدائمة في التمسك بهذه الأرض التي قدم من أجلها الصليبيون تضحيات كبيرة، والحرص على عدم التفريط بها[3].

من كل ما سبق نخلص إلى أن قدوم النساء الأوروبيات إلى المشرق الإسلامي بعامة والأرض المقدسة بخاصة بصحبة الرجال، سواء كانوا أزواجهن أو إخوانهن أو أبنائهن، لم يكن وليد الحملة الصليبية الأولى بل سبق ذلك بعقود طويلة طلبا لزيارة الأماكن المقدسة وأداء الشعائر الدينية، والتخلص من كل الذنوب والخطايا، وقد لعبت هذه الزيارات دورا مهما في اندفاعهن نحو مشاركة الجيوش الصليبية في الحملة الصليبية الأولى وتقديم المساعدات في الميادين الانسانية والعسكرية، من لحظة مغادرتهن لأوطانهن في أوروبا وحتى بلوغهن الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، من أجل بناء مجتمع جديد وسط محيط إسلامي واقتلاع سكانه الأصليين من بلادهم وأراضيهم، ونهب ثروات البلاد ومقدراتها.

المبحث الخامس : تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام .

إن رغبة الصليبيين في استقدام أعداد كبيرة من النساء الأوروبيات في حملاتهم الصليبية إلى بلاد الشام يدل على رغبتهم في الاستيطان على أرضها وتكوين أسر مستقرة ومجتمع صليبي حقيقي تكون للمرأة فيه دور كبير، فرغم ادعاء الصليبيين أن حملاتهم على الشرق كانت مقدسة ودينية ولغرض تحرير القبر المقدس وتقديم الخلاص للمسيحيين الشرقيين إلا أن رغبتهم في الاستقرار والتوسع كانت واضحة منذ البداية وما استقدام النساء إلا أكبر دليل على ذلك، حيث حرص أغلب قادة الحملة الصليبية الأولى على استقدام زوجاتهم، كما رافقت النساء الجيوش المتقدمة نحو الشرق وسعت المرأة الصليبية إلى تكوين مجتمع متماسك بثت فيه الحماسة الدينة وربت أبناءها على ذلك.

1- عناصر السكان في المجتمع الصليبي

يعتبر المجتمع الفرنجي قبل الغزو الصليبي للعالم الإسلامي جزءًا من أوروبا في العصور الوسطى سكانا وثقافة، وذلك لأن الصليبيين اقتحموا العالم الإسلامي غزاة محاربين في المقام الأول، فقد كان مجتمعهم مجتمعا عسكريا بكل ما تحمله

1 سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية الروايات الأوروبية الاغريقية و اللاتينية، مجموعة هافنسيس، تاريخ المورة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج10 ،ص377.

2 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص 76.

3 جلال سلامة ، المرجع السابق، ص 2744.

الكلمة من معنى، لذا فقد كان يختلف قليلا عن المجتمع الأم في أوروبا رغم تبنيه نظام الإقطاع الأوروبي وحمله للأفكار الأوروبية السائدة حينئذ[1].

لقد اشترك في تكوين المجتمع الصليبي ببلاد الشام عدد كبير من الرجال والنساء من جنسيات أوروبية مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة وظهر ذلك التباين بشكل واضح في التجمعات الصليبية، فالجيوش الصليبية التي توجهت إلى بلاد الشام قد ضمت فئات من عناصر أوروبية متنوعة[2] أهمها: الفرنسيون والنورمان ولانجليز والنمساويون والبروفنساليون والهنغاريون والبوهيميون والاسكندنافيون والبلغار والفلمنك والجنوة والبيازنة والنرويجيون وغيرهم[3].

وإلى جانب هؤلاء فقد جاء من غرب أوروبا عدد كبير من الأوباش وفئران أرصفة الموانئ والمتسكعون واللصوص والشحاذون والمشعوذون والمغامرون وخريجو السجون والهاربون من وجه العدالة والمجرمون السابقون وأراذل أوروبا، وكل أولئك أتوا تحت شعار الحروب الصليبية[4] .

ولاريب أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الشام جعلت المجتمع الصليبي متعدد الأجناس حيث وصفه الرحالة الأوروبي يعقوب الفيتري " وكانت الأرض المقدسة تمتلئ بمختلف الأجناس من البشر على مختلف أممهم وألسنتهم"[5]، و رغم الاختلاف والتباين العرقي بين عناصر المجتمع الصليبي إلا أنهم ما لبثوا أن استقروا في بلاد الشام وأخذوا ينسجمون مع بعضهم البعض، حيث يذكر المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري " أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين، ومن كان رومانيا أو فرنجيا قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني، ومن أتى من الراين أو شارتر أصبح الآن مواطنا في صور أو أنطاكية، وقد نسينا الآن أمكنة ولادتنا فهي غير معروفة لدى الكثيرين منا، ولا يرد ذكرها "[6].

كانت أهم العناصر الأوربية وأغلبها في المملكة اللاتينية العنصر الفرنسي، وذلك لأن الطابع العام لأكبر حملة وفدت على بلاد الشام ونقصد الحملة الصليبية الأولى كان طابعا فرنسيا، وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر الصليبيون بالشام، إذ سرعان ما ذبلت العلاقات الإقطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية، وبسبب تغلب العنصر الفرنسي أصبحت لغة التخاطب في مملكة بيت المقدس وأنطاكية وإمارة طرابلس لغة شمال فرنسا،"Langue D'oeil" [7]

أما الانجليز فقد كانت مشاركتهم في الحملة الصليبية الأولى هامشية بسبب تلك النزعات التي كانت بين البابوية والمملكة الانجليزية وإصدار عقوبة الحرمان البابوي عليها، غير أنه مع توالي الحملات الصليبية وأفواج الحجاج على المملكة

---

1 طه الطراونة، المرأة الصليبية ،70،

2 أحمد عبد الله أحمد، الجرائم و العقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن 6-7هـ/ 12-13م،دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة،2016،ص 1.

3 بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي، مراجعة وتحقيق : مصطفى الحياري،ط1،دار الشروق، عمان، 1995، ص 171، يوحنا فورزبورغ ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين ، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي ، دار الشروق ،ط1، الأردن ، 1997، ص 75، الفيتري ، تاريخ بيت المقدس، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، ط1، الأردن ،1998،ص 96 - 108.

4 الحويري، الأوضاع الحضارية، ص49.

5 تاريخ بيت المقدس ، ص 96.

6 تاريخ الحملة إلى القدس ، ص218.

7 عاشور ، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص 25 ،الحويري، المرجع السابق، ص 49- 50.

اللاتينية ازداد عدد الانجليز وازدادت مشاركتهم في الحروب الصليبية، وقد أعتبر الفرنسيون والانجليز من أعظم العناصر نفعا في الدفاع عن الهدف الصليبي[1].

شارك النورمان[2] في الحرب ضد المسلمين من الوهلة الأولى واستوطن أغلبهم إمارة أنطاكية وانتشر الباقون في الإمارات الأخرى خاصة المملكة المقدسة التي شملت ذلك الوقت جميع الأجناس الأوربية لقداستها عندهم[3]، أما الألمان فقد استقروا على شكل جماعات قليلة منهم في مدينة بيت المقدس حيث أقاموا حيا خاصا بهم كما كانت لهم في المدينة كنيسة وفندق، ويظهر ذلك جليا في استياء الحاج الألماني يوحنا فورزبورغ الذي زار بيت المقدس حوالي 571هـ/ 1175م واكتشف أنه لم يكن للألمان دور في مجتمع الفرنج[4].

من أبرز المدن الإيطالية التي شاركت في تكوين المجتمع الصليبي كذلك مدن (البندقية و جنوة و بيزا)، والتي لعبت دورا هاما في أحداث الحركة الصليبية ببلاد الشام، حيث ساندت الصليبيين بشكل فعال منذ انطلاق الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، وذلك عن طريق نقل الفرسان الصليبيين بسفنهم، إضافة إلى الأسلحة والمؤن والإمدادات ، ولم تكتف المدن الإيطالية بذلك بل شاركت مشاركة حقيقية بتقديم المساعدة العسكرية للصليبيين في الاستيلاء على الموانئ البحرية للسواحل الشامية، كما ساهمت الامدادات المتتالية – فيما بعد – بالفرسان والأسلحة والسكان إلى تمكن الصليبيين من إقامة مستعمرات دائمة في بلاد الشام ،حيث لعبت المدن الايطالية دور وسيلة الاتصال والامداد بين الظهير الأوروبي و المستعمرات الأوروبية الجديدة في الشرق.[5]

والحقيقة أن المدن الايطالية لم تُقدم على مساعدة الصليبيين إلا لتحقيق مكاسب تجارية على حسابهم بالاستيلاء على تجارة الشرق واحتكار منتجاته وإقامة مستودعات تجارية ومتاجر مختلفة على السواحل الشامية[6]وكذا الحصول على امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه الصليبية، لذلك فإن الايطاليين أكثر من انتفع من الحروب الصليبية، فكانوا هم أصحاب السفن التجارية وأصحاب الموانئ البحرية .[7]

عاش على أرض بلاد الشام زمن الحروب الصليبية العديد من الجنسيات التي انتمت إلى جميع أنحاء أوروبا جاءت مدفوعة بدوافع عديدة منها الغزو وتأدية الحج والهجرة والتجارة والمغامرة وغيرها، وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا

---

1 زينب عبد المجيد عبد القوي، الانجليز و الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط1،(د.م.ن)، 1996، ص90- 91، الحويري ، المرجع السابق، ص 50 -51.

2 لم يحفل النورمان أول الأمر بدعوة البابا أوربان للحروب الصليبية، نظرا لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت بينهم في جنوب ايطاليا عقب وفاة روبرت جوسيكارد والد بوهيند الذي قاد جيش النورمان إلى الشرق بعد أن أدرك فعلا أهمية الحركة الصليبية حين وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين المتحمسة القادمة من فرنسا فرأى بوهيند أنه سيُفيد كثيرا من ذهابه إلى الشرق بدلا من بقائه في دوامة الصراعات أنظر: رنسيمان، الحروب الصليبية،ج1، ص 222.

3 تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الافرنج، ص 67.

4 وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص 75.

5 الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام ،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، ط1،القاهرة،(د.ت)، ص 73.

6 هايد، التجارة في الشرق الأدنى ،ص 149، رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص 417 -471 ، أنتوني بردج، الحروب الصليبية ، ص 120.

7 السيد الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 13، يوشع براور ، الاستيطان الصليبي ، ص112. ص112.

عالميا[1]، غير أن المجتمع الصليبي ومنذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بتاريخ 22 جمادى الثانية 492هـ/15 ماي 1099م كان يعاني من نقص حاد في السكان، خاصة بعد أن قرر معظم الصليبيين العودة إلى بلادهم بعد أن أتموا رحلة الحج، ويؤكد وليام الصوري ذلك بقوله[2] «وكان سكان قطرنا قليلي العدد قلة ملحوظة ويعيشون في فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعا واحدا من شوارعنا ». فقد تصورت العناصر التي كونت الحملة الصليبية الأولى أنهم بجرد الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، من أيدي المسلمين أن مهمتهم ورحلة حجهم قد انتهيا و عليهم الرجوع إلى ديارهم[3].

ومن هنا أولى الملك بلدوين الأول أمر تعمير مدينة بيت المقدس عناية خاصة وراح يدبر الأمر في ذهنه، وكان الحل في أولئك النصارى الشرقيين الذين سكنوا شرقي الأردن، وقد تم تنظيم مشروع هجرة جماعية على نطاق واسع، و فتحت أبواب المملكة أمام المسيحيين المحليين من موازنة[4] وسريان وأرمن وروم أرثوذكس[5]، ويذكر وليام الصوري[6] «أنهم قد «أنهم قد جاؤوه بحريمهم وأولادهم ومواشيهم... وكل ما ملكته أيديهم ويبدوا أنه كانت لهم أسباب جيدة في النزوح والتعاون مع الصليبيين، أولها الهروب من الانتقام والتهديد الإسلامي خاصة وأنهم بادروا بالترحيب بالصليبيين، وثانيا جاذبية الأماكن المقدسة وأخيرا الامتيازات التي وعدهم بها ملك بيت المقدس، فقد منحهم جزءا كبيرا من المدينة، وقد عرف هذا الجزء باسمهم زمن السيطرة الفرنجية «حي النصارى السوريين»، وكان أضعف جوانب المدينة تحصينا[7]، فقد مثل مثل المسيحيون الشرقيون أحد مصادر المساعدات العسكرية للجيش الصليبي، خاصة الأرمن والموارنة، حيث أن قوة المشاة كانت تحوي أعدادا كبيرة منهم.[8]

---

1 الحويري، الأوضاع الحضارية ،ص54.

2 وليام الصوري ، الحروب الصليبية،ج2، ص 318.

3 جوناثان ريلي سميت ، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ص77.

4 الموارنة : وهم طائفة من المسيحيين الكاثوليك الشرقيين، وهم فرع من فروع الكنيسة السورية القديمة ويعود أصلهم إلى عميدهم القديس (مارون) أو(مارو) لفظ من أصل سرياني معناه السيد الصغير، و مارون هذا راهب متعبد لا يُعرف عن حياته شيء كثير عاش بين أنطاكية وقورس و توفي سنة 410م ، و إذا كان القديس مارون هو الزعيم الروحي و المعلم الأول لهذه الطائفة، فإن يوحنا مارون المتوفى سنة 707م ، هو الزعيم الدنيوي و مؤسس كيانها القومي، و به تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة، في حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية، و ظهر الموارنة منذ أوائل العصر الإسلامي و دفع المسلمون لهم إتاوة سنوية حتى يلزموا جانب الحياد بينهم و بين الدولة البيزنطية و منذ ذلك الوقت استكان الموارنة و مالوا إلى العزلة التي طالما تميز بها سكان الجبال، كما اتخذوا من "قنوبين" الواقعة في الجبال الصخرية الوعرة مركز للبطريك الماروني، ثم تحولوا عنها إلى "بكركي" في جوار مدينة بيرو و قد استقر الموارنة جنوبي جبل لبنان الغربي و اتخذوا من أوديته موطنا لهم ابتداء من أواخر القرن السابع الميلادي أنظر: المسعودي، التنبيه و الاشراف،مطبعة بريل، ليدن،1893 ص 153، مُحَمَّد كرد علي، خطط الشام ،ج6،ص230، فيليب حتي، تاريخ سورية و لبنان ،ج1،ص 141.

5 حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 61.

6 وليام الصوري ، الحروب الصليبية ، ج2، ص 318.

7 مصطفى الحياري، المرجع السابق، ص 52،حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق،ص61.

8 سميل ، المرجع السابق، ص 96-97.

يعتبر الموارنة من أبرز فرق الطائفة المسيحية في بلاد الشام[1] والتي ساهمت في تكوين المجتمع الصليبي، وقد كانت علاقتهم بالفرنج ودية منذ وصول الحملة الصليبية الأولى، حيث كان لهم دور مؤثر وحيوي في انتصارات الصليبيين، فقدموا لهذه الحملة أدلاء يرشدونهم إلى الطرق والمعابر وممرات الجبال اللبنانية والمناطق الشرقية لبلاد الشام كما اشتركوا مع ريموند في اسقاط مدينة انطرطوس، ومحاصرة مدينة طرابلس كما أرسلوا فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس، وأنظمت قوة منهم إلى الجيش الزاحف على القدس وقاتلت معه جنبا[2].

كان زمن الحروب الصليبية العصر الذهبي للموارنة، فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنا فكنائسهم وأديرتهم ومدارسهم أزداد عددها، وتوفرت لهم سبل الرزق، واحتلوا في الممالك التي شيدها الفرنجة المكانة الأولى بعدهم، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التي تمتع بها البرجوازية اللاتينية بما في ذلك حق امتلاك الأرض في المملكة المقدسة، لذلك نجد الموارنة قد سكنوا بيت المقدس إلى جانب الطوائف الأخرى[3]، وقد استمرت علاقات الود والمصالح المشتركة وثيقة طوال فترة وجود الصليبيين في الشرق[4].

يعد الأرمن[5] من أبرز فئات النصارى الشرقيين التي أسهمت في تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام حيث تعتبر الكنيسة الأرمينية من أقدم الكنائس الشرقية الكاثوليكية نشأة وطقسا ولاهوتا، وبوصول الحملة الصليبية الأولى إلى قليقية شوال 491هـ/سبتمبر 1097م رحب الأرمن بالصليبيين بمجرد أن أضحوا على مشارف أنطاكية[6] وقدموا الدعم لتنكرد لتنكرد أثناء احتلاله السريع لسهل قليقية، وساعدوا الصليبيين في حصار أنطاكية وأمدوهم بالرجال والخيول والسلاح وحتى الغذاء كما أرشدوهم إلى طرق بلاد الشام، وقبلوا ببلدوين البولوني حاكما للرها وتل باشر ويبدو أن الأرمن قد أيدوا حكن اللاتين لكونهم مسيحيين كاثوليك من جهة وأعداء للأتراك السلاجقة من جهة أخرى، كما وجد الصليبيون في

1 انفصلت الكنيسة المارونية عن البابوية في روما و أصبحت تتبع البطريك الماروني في لبنان عقب مجمع القسطنطينية الثالث عام 680م الذي عقد للفصل في قول يوحنا مارون من أن للمسيح طبيعة واحدة و مشيئة واحدة منذ البدء، غير أن المجمع الذي كان قد عقده الإمبراطور قسطنطين الرابع إرضاء للبابا أجاثون بعدما فقد المراكز الرئيسية لمذهب الطبيعة الواحدة (الأريوسية) في مصر و الشام لفتح المسلمين لهما، قرر طرد من يقول بالطبيعة الواحدة و المشيئة الواحدة و أقر أن للمسيح طبيعيتين و مشيئتين، و بذلك انفصلت طائفة المارونية و لحقت بسابقتها من الكنائس المنفصلة، أنظر: المسعودي، التنبيه و الإشراف، ص 153، فيلب حتي ،تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 141،مانع بنى حماد الجهيني ،الموسوعة الميسرة، ج2،ص 572.

2 نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، دار العالم العربي ،ط1، القاهرة ، 2008،ص170.

3 الحويري، المرجع السابق، ص 91

4 بطرس مارياتي و آخرون، المرجع السابق، ص 307.

5 أطلق الأرمن على أنفسهم اسم "هاي " و على بلادهم اسم "هاسيتان" نسبة إلى الملك الأسطوري " هايك "، أما اسم "أرمن" "و أرمينيا" فذلك ينسب إلى أرمين بن هايك كما جاء في التقاليد الأرمينية الشعبية و الأرمن ينتمون إلى الجنس الآري، و هم مزيج من شعوب البلقان و جبال الألب الذين نزحوا شرقا و اختلطوا بشعوب القوقاز و قد سكن الأرمن مناطق التماس بين التخوم الإسلامية و البيزنطية و ذلك بدافع دعوة الإمبراطورية البيزنطية لهم و منح ملوك أرمينيا و أمرائها ضياعا واسعة في آسيا الصغرى و خاصة في إقليم كابادوكيا الأمر الذي أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم، غير أن توسعات السلاجقة في المنطقة جعلتهم يتجهون إلى إقليم قليقيا الجبلي جنوبا و حتى الرها و تل باشر و أنطاكية و أفامية شمال الشام ، أنظر: بطرس مارياتي و آخرون ، المرجع السابق، ص 18.

6 قتل الأرمن صاحب أنطاكية ياغي سيان بعد أن فر من أنطاكية بعد سقوطها بأيدي الإفرنج .أنظر: ابن الأثير،الكامل،ج9،ص15.

الأرمن حلفاء طبيعيين لهم ضد السلاجقة، وحتى الدولة البيزنطية التي اضطهدتهم طوال القرن الماضي قصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثودوكسية[1].

سكن الروم الأرثوذكس[2]، بلاد الشام منذ القديم وشاركوا في تكوين المجتمع الصليبي مع باقي الفئات السكانية الأخرى، وقد انتشروا بكثرة في شمال بلاد الشام أين سكنوا امارتي أنطاكية وطرابلس، ولم يكنوا إلا أقلية من الأقليات في المملكة اللاتينية[3]، وليس من المؤكد أن يرجع الروم إلى أصل بيزنطي، لكنهم مجموعة من أهل الشام ويقال أنهم من أصل عربي[4]، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية وقد أدى ميلهم الطبيعي للبيزنطيين أن شك الصليبيين في إخلاصهم وولائهم، فأثناء سقوط بيت المقدس في أيديهم 493ؤهـ/1099م طرد الصليبيون من كنيسة القيامة جميع الكهنة الشرقيين خاصة الروم الأرثوذكس، كما حل بطريرك لاتيني محل بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكية[5]، ومن الواضح أن فئة الروم الأرثوذكس كانت أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ولكن استبقوهم لمهاراتهم اليدوية وقيامهم بالأعمال الحقيرة التي أنف الصليبين الغربيون القيام بها [6].

عاش السريان جنبا إلى جنب مع العرب المسلمين في بلاد الشام واستخدموا اللغة العربية في حديثهم إلى جانب السريانية التي كانت سائدة آنذاك، ،[7]ويذكر لنا فوشيه الشارتري أن السريان قد زودوا الجيش الصليبي بالمعلومات اللازمة اللازمة عن المسلمين، خاصة أثناء حملة الملك بلدوين الأول على جنوب فلسطين 494هـ/1100م مما سهل المهمة على الجيش الصليبي الذي تتبع المسلمين في مخابئهم، وقتلوا منهم حوالي مئة رجل و بناء على هذه المعلومات تقرر الزحف نحو منطقة البحر الميت وما وراءه من بلاد العرب.[8]

---

1 كلود كاهن ،المرجع السابق،ص99،ر.سي.سميل ،المرجع السابق،ص88-89،عاشور،الحركة الصليبية ،ج1،ص16، عليه عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2001، ص 40، الحويري، المرجع السابق، ص 92،بطرس مراياتي و آخرون ،الرجع السابق،ص27،عليه عبد السميع الجنزوري ، المرجع السابق،ص51-52.

Grousset Op.Cit.P27

2 الروم الأرثوذكس : و هم كل من تبعوا الكنيسة البيزنطية و أقروا مجمع خلقدونية الكنسي سنة 451م القائل بأن للمسيح طبيعتين منفصلتين بشرية و إلاهية لا اختلاط بينهما و أن الصلب وقع على طبيعته البشرية و الإلهية معا ،و يسمون بالملكانيين ،أي أتباع الملك في القسطنطينية ،أنظر: أبو الفداء ، المختصر،ج1،ص116، فيليب حتي ، سوريا و لبنان و فلسطين ، ص142، حسين العويدات ، العرب النصارى (عرض تاريخي)،الأهلي للطباعة و النشر و التوزيع ،ط1،دمشق،1992.،ص30. مانع بن حماد الجهيني ، المرجع السابق،ص571.

3 رنسيمان، المرجع السابق،ج1 ص 23، براور، عالم الصليبيين، ترجمة : قاسم عبده قاسم و مُحَّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط1، القاهرة ، 1999 ، ص80.

4 كمال بن مارس، الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة) (491-588هـ/1096-1192م) رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة ، 2004، ص47.

5 براور ، عالم الصليبيين ،ص80-81 ،حسين العويدات، المرجع السابق،ص129-130.

6 الحويري، المرجع السابق،ص95-96 ، نهى فتحي الجوهري ، امارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، دار العالم العربي ، القاهرة ،2008،ص166.

7 براور، عالم الصليبيين ،ص 82.

8 تاريخ الحملة إلى القدس ، ص108.

ومن الطوائف المسيحية الأخرى في المجتمع الصليبي نجد أتباع النساطرة[1] واليعاقبة[2] هم من المسيحيين الشرقيين الذين ينتمون إلى أصل سرياني[3]، وقد تمت إدانة المذهب النسطوري رسميا في مجمع إفسوس سنة 431م، ولعن من خلاله خلاله صاحبه الأسقف نسطوريوس وكل من اتبعه، ووفقا لهذا فقد عُد النساطرة هراطقة في نظر الصليبيين، وقد عانوا من الاحتقار والازدراء طوال فترة حكم الصليبيين لبلاد الشام، ونتج عن ذلك تدهور أوضاعهم المعيشية الاقتصادية والاجتماعية[4] أما اليعاقبة فقد سكنوا أماكن متفرقة من بلاد الشام وكانت الكنيسة اليعقوبية من الكنائس التي تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزيتية)[5]، وكان لها أتباع كثيرون في جل الإمارات الصليبية وقد تمركزوا في شمال الشام أكثر من جنوبه، أما في بيت المقدس فقد كان لهم دير القديسة مريم المجدلانية الواقع في الجزء الشمالي الشرقي للمدينة[6]

كما وجد بعض الأقباط في بيت المقدس وهم الذين أشار إليهم الرحالة الألماني ثيودريش على أنهم من النوبيين[7]، وقد عاملهم الصليبيون معاملة قاسية لدرجة أنهم منعوهم من زيارة بيت المقدس على اعتبار انهم هراطقة خارجين عن الدين المسيحي[8]، وهناك أقلية اخرى عاشت في الأرض المقدسة منذ أزمان بعيدة وهم الجورجيون (الكرج)، وفي زمن الحروب الصليبية تواجدوا في كنيسة القبر المقدس إلى الغرب من المدينة المقدسة، وإن كان يرجع تواجدهم إلى ما قبل فترة الحروب الصليبية [9].

من هنا يمكن القول أن الفرنجة الذين قدموا من غرب أوربا من أجل نجدة العالم المسيحي الشرقي –نظريا- فإن قدومهم لم ينجم عنه مساعدة أيا كان من المسيحيين أو بالأحرى المسيحيين ذوي الطقوس اليونانية، فالفئة التي راهن المشروع الصليبي على انقاذها من الاضطهاد المزعوم من قبل المسلمين والذي روجت له الدعاية الصليبية فقد جاء في خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت 488هـ/ 1095م " عليكم أن تسارعوا لمد العون لإخوانكم القاطنين في الشرق

---

1 النساطرة : وهم أتباع نسطوريوس (سنطور)، وقد خالف السناطرة الملكانيين في اتحاد الكلمة و قالوا أن المسيح لم يكن إلها في حد ذاته بل هو إنسان اتحد به الطابع الإلهي فلم يغير شيئا من جوهره، وأن القتل وقع على المسيح من جهة ناسونه (صفته البشرية) لا من جهة لاهوتية واعتبر نسطوريوس وأتباعه هراطقة بخروجهم عن مبادئ الكنيسة الأرثودكسية أنظر : أبو الفداء، المختصر، ج1،ص 116، رنسيمان، المرجع السابق،ج1 ،ص 20-21. بطرس مارياتي و آخرون، المرجع السابق، ص 48، ويلتر ،الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع المسيحية ، ترجمة : جمال سالم ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، 2007، ص 92-93، حسين العويدات، المرجع السابق، ص 29.

2 اليعاقبة : و هم أتباع يعقوب البرادعي ،كان راهبا بالقسطنطينية، وهم من المؤمنين بالطبيعة الواحدة (المونوفيستية) و يعتقدون باتحاد الطبيعتين الإلهية و الإنسانية دون اختلاط أو امتزاج و قد رفض المجمع الخليدوقي 451م هذا الإيمان فانشطرت عن الكنيسة الأرثودكسية : أنظر: أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 116، براور، الاستيطان الصليبي، ص74،حسين العويدات، المرجع السابق، ص 30.

3 فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان و فلسطين ،135-136.

4 كلود كاهن، المرجع السابق،ص99، الحويري، الأوضاع الحضارية،ص97 ، نهى فتحي الجوهري ، امارة طرابلس الصليبية ،ص167.

5 خلال القرن السادس الميلادي تأسست ثلاث كنائس للمونوفزتيين و هم : الكنيسة القبطية في مصر و الحبشة و الكنيسة القومية الأرمينية و الكنيسة اليعقوبية في بلاد الشام و فلسطين ، أنظر: براور، الاستيطان الصليبي،ص74.

6 براور ، عالم الصليبيين ،ص83-85، أدريان بوس ، مدينة بيت المقدس ، ص 98، السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر ، الاسكندرية ،ص225.

7 ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة ،ص52.

8 قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، 206.

9 أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : علي السيد علي ، المركز القومي للترجمة ، ط1، القاهرة ،2010، ص93.

والذين يحتاجون إلى مساعدتكم [1]"، إلا أن الصليبيين بعد استقرارهم في بلاد الشام أظهروا احتقارا للمسيحيين الشرقيين في الغالب واعتبروهم هراطقة وغير جديرين بالاحترام، وهنا تبرز الدوافع الحقيقية التي قدم لتحقيقها الفرنج في الشرق و التي تغاير ما ذكره البابا أوربان في خطابه بكليرمونت.[2]

يمثل المسلمون السمة الغالبة في العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية في المجتمع الصليبي، حيث كان الإسلام هو عقيدة الحكام وأغلبية سكان بلاد الشام، ومع توطن الفرنج في الشرق وتأسيس إمارات صليبية، على رأسها مملكة بيت المقدس[3]، طُرد المسلمون من أراضيهم وحل محلهم الصليبيون الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى وأصبحوا هم أسياد الأرض[4]، وقد انقسم المسلمون في بلاد الشام حسب مذهبهم إلى سنة وشيعة، دانت الأولى بالولاء للخليفة العباسي ببغداد، ودانت الثانية للخلفية الفاطمي بالقاهرة[5]،كما يمكن تقسيمهم حسب أصولهم إلى قسمين، قسم يرجع إلى أصل عربي خالص، والقسم الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالإسلام منذ أمد بعيد أمثال الأتراك و الأكراد.

كان وضع المسلمين تحت الحكم الصليبي مُترديا وبخاصة أوضاع الأسرى المسلمين والعبيد، فالواقع أن الصليبيين لم يتوانوا عن استغلال قدرات هذه الطبقة سواء كخدم في قصورهم أو ودورهم أو حتى كعمال وحرفيين لديهم خاصة وأغلب أسرى الحرب من المسلمين كانوا من ذوي المهارات الحرفية كبنائين ونجارين وغيرها من المهن الحضارية، حيث استغلهم الصليبيون في بناء وتشييد قلاعهم وقصورهم[6].

لقد اتصفت حياة المسلمين داخل المجتمع الصليبي بالذلة والمسكنة كما وصفها ابن جبير في رحلته، فمعاناة المسلمين تركت انطباعا سيئا في نفسه، لذلك أوصى بالحذر من دخول بلاد الافرنج[7]،كما ذكر الاصفهاني الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة عن فتح صلاح الدين لعدد من المدن الشامية سنة 583هـ/1187م بأنهم ذاقوا العزة بعد الذلة، و قد شارك السكان المسلمون في المدن والقرى في المقاومة العنيفة ضد الحكم الصليبي فامتنعوا عن زراعة الأراضي وأحدثوا دمار وخراب في القطاع الزراعي[8]، وقد تفطن وليام الصوري[9] إلى غلبة العنصر المسلم في المجتمع الصليبي وما يشكله ذلك ذلك من خطورة كبيرة على الصليبيين وحذر بني جلدته منهم بقوله " لا يمكن لوباء أن يضر الانسان بشكل فعال أكثر من العدو الجاثم على بابه"

1 فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص36.

2 كلود كاهن ، المرجع السابق، ص 99.

3 يوشع براور، الاستيطان الصليبي ، ص 77، الحويري، المرجع السابق، ص 15.

4 مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة ، ص 49،جلال حسين سلامة، التهجير القسري لسكان فلسطين في العهد الصليبي في الفترة الواقعة بين (492-551هـ/ 1099- 1156م)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث و الدراسات، العدد 13، 2008، ص 6-7.

5 ناجلا مُحَمَّد عبد النبي، المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية في ضوء مجموعة قوانين المملكة، الاسكندرية ، (د.ت) ،ص 57.

6 ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر،ص154.

7 الرحلة ،ص238.

8 الفتح القسي ، ص 73.

9 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص 471.

لقد سكن اليهود[1] بلاد الشام منذ القدم إلى جوار المسلمين والمسيحيين، وقد عاشوا زمن العصور الوسطى في كنف المسلمين وفي ظل حكمهم تمتعوا بمعاملة حسنة وسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية في معابدهم بحرية تامة، وخلال الدعوة للحرب الصليبية حرصت الكنيسة على تأكيد أهمية بيت المقدس، وهو البلد الذي شهد صلب المسيح في العقيدة المسيحية، وبذلك توجهت الدعوة ضد أولئك القوم الذين على أيديهم صلب المسيح و اضطهد[2] إضافة إلى كثرة الفئات الفئات التي أخذت تقترض من اليهود الأموال لحاجتهم لها لكن بفوائد ربوية كبيرة في الوقت الذي حرمت فيه الكنيسة الربا[3].

وما إن سقطت مدينة بيت المقدس حتى شرع الصليبيون بتلك الروح المشبعة بكراهية اليهود، في إبادتهم و يذكر ابن القلانسي[4] أن الصليبيين قاموا «بجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم» ،وبعد ما قام به الصليبيون في بيت المقدس المقدس فر عدد كبير من اليهود منها خوفا من نفس المصير الذي لقيه إخوانهم[5]، وقد حزن الرحالة بنيامين التطيلي (555- 569هـ/ 1160-1173م) لما شاهده من ضآلة عدد اليهود بفلسطين لما زارها حوالي سنة 566هـ/ 1170م، حيث ذكر أن عددهم لم يتجاوز المائتين في مدينة بيت المقدس كانوا يقيمون في حي مجاور لبرج داود، وكان ببيت لحم أحد عشر يهوديا فقط، على أن مدينة دمشق لوحدها كان بها من اليهود ما فاق في العدد من نزل منهم في كل الإمارات الصليبية[6]، وقد تميزت المستوطنات اليهودية عامة بقلة كثافتها السكانية[7].

2-طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام:

أ-الطبقة الأرستقراطية الحاكمة :

تتألف الطبقة الأرستقراطية من الملك وخاصته وكبار النبلاء من السادة والإقطاعيين والبارونات والفرسان، وهم المقاتلون الذين اكتسبوا صفات النبل بالوراثة ويشكلون العمود الفقري للمجتمع الصليبي وتقع على عاتقهم مسؤولية حمايته[8]، ويعود ظهور هذه الطبقة إلى ما نشب من حروب بين المسلمين والصليبيين إضافة إلى الهجرة إلى الأراضي

1 اليهـود: ينسب اليهود إلى "يهوذا " أحد أبناء يعقوب (إسرائيل) الإثنى عشرة، ولما زالت مملكة يهوذا حوالي 586/587 ق.م تشتت اليهود فأصبحت كلمة كلمة يهودي تدل على كل من يدين باليهودية ،أنظر: مُحَمَّد أحمد محمود حسين، اليهودية التبشيرية في الكتب المقدسة و إلى اليوم ،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت)، ص 6.

2 ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة : بشير السباعي ، عين للدراسات و البحوث الانسانية والاجتماعية ، ط1، القاهرة ،2003،ص165.

3 الحويري، المرجع السابق، ص 98-99، شاهين، المرجع السابق، ص 4.

4 ابن القلانسي،تاريخ دمشق،ص222

5 رنسيمان ، المرجع السابق،ج2، ص 473، شاهين، المرجع السابق، ص 15.

6 بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، تقديم: عباس العزاوي، بيت الوراق للطباعة و النشر و التوزيع ،ط1،بغداد،2011،ص125-132.

7 كلود كاهن ، الشرق و الغرب زمن الحرب الصليبية،، ص 217.

8 يوشع براور، الاستيطان الصليبي ، ص234.

المقدسة والتي لم تنقطع في الثلاثين سنة التالية لقيام بيت المقدس[1]، غير أنهم كانوا قلة إذ لم يزد عددهم في مملكة بيت المقدس عن ألف فارس من الرجال و مثلهم من النساء و الأطفال، و مثل ذلك العدد كان موزعا على إمارات أنطاكية و الرها و طرابلس مجتمعين[2].

يعود هذا النقص لعدة أسباب لعل أهمها هو قلة الوافدين من الغرب الأوروبي، فرغم سيل الحجاج المسيحيين الذي لم ينقطع إلى بلاد الشام منذ سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين، ولكن أعداد قليلة منهم اختاروا الإقامة في الأراضي المقدسة بعد انقضاء طقوس الحج، بينما كانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوروبا، كما أن الظروف الصحية والمناخية في بلاد الشام والتي لم يألفها الصليبيون زادت من وفيات الأطفال فلم يعش من تلك الذرية إلا نسبة قليلة، إضافة إلى الحروب مع المسلمين والخسائر البشرية ووقوع أبناء هذه الطبقة قتلى في المعارك، لاسيما معركة حطين التي قتل وأسر فيها معظم أفراد طبقة الفرسان[3].

ويكشف لنا أسامة بن منقذ عما كانت تحظى به طبقة الفرسان في المجتمع الصليبي من مكانة واحترام، وبين أن الفرسان الصليبيون كانوا يقومون بدور مميز لا في الدفاع عن المملكة المارات الصليبية فحسب، وإنما في إدارة الدولة أيضا فهم أصحاب الرأي والمشورة فيها، وهم أصحاب القضاء والحكم[4] ويؤكد على ذلك بقوله "أن الحكم الذي يصدره الفرسان الصليبيون هو حكم قطعي حتى أنه لا يحق لأي شخصية صليبية بمن في ذلك الملك نفسه أن تنقض قرار محكمة الفرسان"[5]، فلم يكن الملك إلا زعيما لهؤلاء النبلاء [6].

ب – طبقة رجال الدين :

كان لها دور بارز في تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام، فبعد نجاح الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس و الإمارات الصليبية (أنطاكية و طرابلس) استولى رجال الدين اللاتين على أملاك الكنائس الشرقية[7]، فصاروا يمتلكون الهبات والضياع و تزايدت أملاكهم يوما بعد يوم ما أثار حقد الأمراء والفرسان خاصة وأن ممتلكاتهم كانت معفية من الضرائب كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية، وهكذا وجد تياران متصارعان داخل المجتمع الصليبي تيار ديني و تيار علماني خاصة وأن التيار الأخير كان فيه الفرسان الذين بذلوا دماءهم دفاعا عن وجود الصليبيين[8].

1السيد الباز العريني، نمو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ،المجلد 20،العدد 2، القاهرة ،1958، ص38.

2 الحويري ، الأوضاع الحضارية ،ص75.

3 عاشور ، الحركة الصليبية ، ج2، ص 492.

4 و يؤكد أسامة هذه الحقيقة بما يرويه من واقعة حدثت معه شخصيا عندما كان يعيش في بلاط البوريين في دمشق حيث رفع شكوى إلى الملك فولك الأنجوي (526-538هـ/ 1131-1143م) ملك بيت المقدس على حاكم مدينة بانياس الصليبي، و كيف أن الملك الصليبي طلب من ستة من الفرسان الصليبيين النظر في موضوع الشكوى، و بالفعل اجتمعوا و تشاوروا ثم اتفق رأيهم على الحكم لصالح أسامة: أنظر : أسامة بن منقذ، .كتاب الاعتبار، تحرير: فيليب حتي ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،(د.ت) ،ص 189.

5 نفسه ، ص 189.

6 أرنست باكر، الحروب الصليبية ، ص 67-68.

7 ميخائيل السرياني ، سهيل زكار ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ،ج5،ص 93،

8 عاشور ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، مركز دراسات الوحدة العربية ،مج 10، 1987،ص 26.

عظم شأن المؤسسة الدينية الصليبية بظهور ابتكار فذ وفريد، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ويتمثل ذلك الابتكار في الهيئات الدينية والحربية التي جمعت بين حياة الرهبنة والفروسية في رباط واحد، وقد كانت مستقلة في قرارها فلم تكن للمملكة الصليبية سلطة عليها بل كانت مسؤولة أمام البابوية وشكلت هذه الهيئات العسكرية الدينية فئات اجتماعية مميزة في المملكة[1]، فإذا كان انتصار الصليبين وإنشاء إمارتهم على الأرض الشامية جاء على يد عدد من القادة والأمراء المغامرين، فإن تثبيت هذا الانتصار ومد عمر يعود لتلك القوة الدينية العسكرية التي نطلق عليها اسم الفرسان الرهبان والتي ضمت ثلاث طوائف هي فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية)[2]، والتي سميت نسبة لبطريك الإسكندرية يوحنا المتصدق في القرن السابع الميلادي، وفرسان المعبد (الداوية)[3] وفرسان التيوتون[4]، كما نشأت هيئات أقل شأنا منها منها فرسان القديس لازاروس، والقديس توما وغيرهم[5].

إلا أن أهداف فرق الرهبان الفرسان التي كانت في بداية الأمر أهداف خيرية وإنسانية، تتمثل في إيواء الفقراء الحجاج المسيحيين وعلاج مرضاهم وحراستهم على الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة، فقد تلاشت بالتدرج وأصبحت

---

1 مصطفى الحياري ، القدس، ص 64، الحويري، المرجع السابق، ص 55.

2 فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية): و هي منظمة دينية عسكرية أنشأت في بيت المقدس عام 463هـ/1070م من قبل تجار مدينة أمالفي على شكل جمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة للعناية بفقراء الحجاج الأوربيين ثم دخل هؤلاء تحت النظام الديري البندكتي ،و في سنة 507هـ/1113 م أصدر البابا باسكال الثاني مرسوما اعترف فيه رسميا بالهيئة الجديدة كما وضعها تحت الرعاية المباشرة للباباوية في روما وكان معظم الإسبتارية من الانجليز والإيطاليين، و كانت مبادئها الأساسية هي : الفقر ، العفة ،و الطاعة ،و قد لعبوا دورا هاما في الحروب الصليبية أنظر :

Archer And Chales .L. Kinsford,The Crusades "The Story Of The Latin Kingdom Jerusaleme G.P Putnaméssons , Lond"Don,1989,p171.

كلود كاهن، المرجع السابق، ص 135، رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج1، ص 248، جوناثان ريلي سميث ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس و قبرص (1050-1310 م) الترجمة: صبحي الخالبي ، طلاس للدراسات و الترجمة و النشر ط1،دمشق ،ص 7، ص 90، نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر، مطبعة جامعية القاهرة للكتاب الجامعي، القاهرة،1994، ص 17،الحويري، المرجع السابق، ص 56-57، مصطفى محمد الحناوي ، عصر الحروب الصليبية الفرسان الإسبتارية و دورهم في الصراع الاسلامي الصليبي، مكتبة الرشد، الرياض 2004،ص81-82.

3 فرسان المعبد (الداوية): و هي الهئية العسكرية الدينية الثانية التي نشأت في بيت المقدس عام 512هـ/1118 م أسسها فارس فرنسي يسمى هيو دي باين"Hugh de payan" من إقليم شامبي بفرنسا و زميله جفري دي سانت أومير و معهم تسعة من زملائهم كلهم من أصل فرنسي، نالوا من الملك بلدوين الثاني تصريح إنشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين و حماية طرق الحج كما منحهم مكان للإقامة على مقربة من هيكل سليمان عليه السلام فسموا= =أنفسهم فرسان الهيكل ، وقد اتخذت بادئ الأمر من الفقر و الجوع شعارا لها، لكن بفضل الهدايا التي انهالت عليها من أوربا غدت تشكل قوة مالية ضخمة و قد ثبتت جذورها بفضل شجاعة فرسانها في معاركهم ضد المسلمين ، إلا أن فتوحات صلاح الدين أجبرت الداوية على الجلاء عن بيت المقدس إلى عكا حيث كانت لهذه الطائفة دورا بارز في الحرب الصليبية الثالثة أنظر: وليام الصوري ، الحروب الصليبية ، ج2، 874 ص ،345 ،كلود كاهن ، المرجع السابق، ص 135،تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 91،نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان ،ص 16-17-18.

Archer ,the crusades,p 171

4 فرسان التيتون : طائفة عسكرية دينية أسسها الرهبان الألمان في فلسطين عام 586هـ/ 1190م و قيل أسست أول الأمر بعكا على يد بعض الحجاج الألمان ، وقد لعب فرسان التيوتون دورا ثانويا في المجال الحربي و السياسي إذ ما قورن بنشاط الداوية الإسبتارية ،كما كان عددهم قليلا و لا يقبلون إلا إنضمام الألمان لهم ، لكن فتوحات صلاح الدين أجبرت التيوتون على العودة إلى ألمانيا أنظر: تيسير بن موسى،، المرجع السابق، ص 61 السابق، نبيلة ابراهيم مقامي، المرجع السابق، ص 160-161-162.

5 رنسيمان ، المرجع السابق،ج2، ص 248، تيسير بن موسى،المرجع السابق، ص 89، الحويري، المرجع السابق، ص 55.

كل منها تمثل دولة داخل الكيان الصليبي، وأخذت الهدايا و الهبات ترد إليهم من ديار الغرب حتى تجمعت لديهم ثروات طائلة انتهت بهم إلى الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية واسعة وكذا تفشي الفوضى بينهم والانحدار الخلقي في السنوات الأخيرة للتواجد الصليبي ببيت المقدس[1].

ج – طبقة البولانيين: pullani أوpoulains

تعني طبقة الأفراخ (المهر)، هي نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين من أهل البلاد من أرمن وموارنة وسريان وغيرهم، وذلك نظرا للنقص الحاد في أعداد النساء بين جموع الصليبيين وقد كثرت تلك الزيجات خاصة في المدن[2]، كما يشير هذا المصطلح أيضا إلى الفرنج المولودين في الأرض المقدسة والذين لهم مستقر دائم في بلاد الشام تمييزا لهم عن الصليبيين الذين يجيئون ويرحلون، وبمضي الوقت حلوا تدريجيا محل آبائهم وأجدادهم في المجتمع الصليبي .

وقد تأثر البولانيون بالعادات والتقاليد الشرقية نتيجة تعايشهم مع السكان المحليين لسنوات عديدة، فبرزت عليهم ظاهرة " التمشرق " Orientation التي كانت السمة البارزة للبولان، فقد تشبهوا بالسكان المحليين في نواح عديدة من أنماط الحياة حتى في إتقانهم للغة العربية إلى جانب لغتهم الأساسية[3]، صاروا يجدون أنه من الممكن القيام بعلاقات غير حربية مع المسلمين من أجل العيش بسلام معهم[4]، وقد لمس الصليبيون منذ السنوات الأولى لاستقرارهم في بلاد الشام هذه الظاهرة التي يؤكدها لنا فوشيه الشارتري [5]" إننا نحن الغربيون قد أصبحنا الآن شرقيين.... لقد نسينا بالفعل الأماكن التي شهدت مولدنا..."، ولعل هذا الأمر كان السبب الرئيسي لمعاداتهم الصليبيين الوافدين إلى بلاد الشام حديثا،حيث كانت العصبية الدينية هي أكثر ما يميز هؤلاء الصليبيين الجدد وبالتالي فقد كانوا يسعون دائما لإثارة الصراعات مع المسلمين وهو الأمر الذي انتبه إليه أسامة بن منقذ بقوله " إن كل ما هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا و عاشروا المسلمين"[6] .

على أية حال فإن البولانيين دليل واضح على أن البيئة الشرقية أذابت جزء من المجتمع الصليبي في بيئتها، فليس بغريب أن نشاهد في الوقت الحاضر نساء ورجال من ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر في مدن بشمال لبنان وفلسطين كبيت لحم والعريش، وقد بقي من تقاليد بعض الأسر ومن أسمائها ما يدل على أصلها الأوروبي منها "فرنجية و صليبي ودويهي وصوايا "و كذلك قريتين في فلسطين هما صنجيل (saint cilles) والرينة (Reynaud) هناك أسر أغلبها لبنانية نصرانية قد حافظت على تاريخ انحدارها من أسلاف فرنج[7] .

د – الطبقة البرجوازية :

1 تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 90-92، نبيلة إبراهيم مقامي، المرجع السابق،ص9.

2 الحويري ، الأوضاع الحضارية، ص 80.

3 ميشيل بالار ، المرجع السابق،ص 156.

4 جاك الفيتري، ص105.

5 تاريخ الحملة للقدس، ص272.

6 الاعتبار ،ص164.

7 فيليب حتي ، تاريخ سورية،ج2،ص258، تهميش رقم 2 ، الحويري، المرجع السابق،ص82.

وهم أولئك الرجال من العامة الذين اشتركوا في الحروب الصليبية برفقة النبلاء والفرسان، وهم كذلك جموع الأوروبيين الوافدين إلى بلاد الشام بهدف ممارسة التجارة، وقد احتشد البرجوازية في المدن الساحلية وعدد معين من المدن الداخلية ،وتميز أفراد هذه الطبقة بكونهم أحرار من أي تبعية اقطاعية لأي حاكم أو نبيل إلا أنهم في مقابل هاذا لم يكن لهم نفوذ مؤثر في شؤون الحكم أو توجيه دفة الحكم في المجتمع الصليبي، لكن برغم ذلك كان يحق لهم التمتع بالملكية داخل أملاك الصليبيين في بلاد الشام سواء كانت منازل أو أراضي زراعية أو محلات تجارية أو دور صناعة مع حقهم في التصرف في تلك الممتلكات مقابل مبلغ من المال يدفعه المالك للسيد الاقطاعي، التي تقع الأملاط تحت نفوذه[1].

غير أن المتفحص لأوضاع طبقة البرجوازيين يجد تباينا واضحا بين أفرادها، فقد كان البعض منهم ممن اشتغلوا بأعمال التجارة والصناعة من الثراء بحيث باتوا ينافسون فعليا النبلاء والفرسان ،بل لقد بلغ ثراء بعض التجار الايطاليون حد تقديم مساعدات للسلطات الحاكمة الصليبية[2]، بينما اتجه جزء آخر من البرجوازية للالتحاق بالفرق العسكرية المصاحبة للسيد الإقطاعي، والتي كانت تعرف بالسرجندارية وتعني المحاربون المشاة من الصليبيين، وعمل البعض الآخر منهم بالوظائف الإدارية المختلفة كجباة ضرائب ومشرفي أسواق و موظفي جمارك وغيرها من الوظائف الادارية، وفي أسفل تلك الطبقة عمل عدد كبير منهم ببعض الأعمال الحضارية، كصناعة الخمور وبيع الحلي والجواهر والنجارة والفلاحة والصيرفة والحرف اليدوية المختلفة وغيرها من الأعمال البسيطة، وعلى الرغم من أن طبقة البرجوازية كانت في منزلة أدنى من طبقة النبلاء إلا أنها احتلت مكانة أسمى من السكان الوطنيين[3].

1 عاشور ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ،ص31.

Runciman ,A history of the crusades ,vol 3, p 361 .

2 أرشيبالد.ر. لويس، القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط ، ص 282 ، فواز نصرت توفيق، دور المدن التجارية الإيطالية في الحروب الصليبية (جنوة – بيزا- البندقية) ،ص 160-161، عبد الحافظ عبد الخالق البنا ، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية ، ص 21.

3 مشيل بالار، المرجع السابق،ص159، حاتم الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي ،ص50-51، الحويري ، المرجع السابق،ص84،

Setton , p 167-168

الفصل الثاني:

الحياة الاجتماعية للمرأة الصليبية في بلاد الشام.

المبحث الأول: الزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام.

المبحث الثاني: الحياة الأسرية في المجتمع الصليبي.

المبحث الثالث : عادات الطلاق.

المبحث الرابع : المظاهر الاجتماعية للمرأة في المجتمع الصليبي والتأثيرات الإسلامية الشرقية عليها .

المبحث الخامس: الزنا والانحراف الجنسي في المجتمع الصليبي.

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية للمرأة الصليبية في بلاد الشام .

كان للمرأة الصليبية دورها البارز والجوهري في المجال الاجتماعي، فقد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في بلورة الهيكل الاجتماعي للصليبيين في بلاد الشام، غير أنه ما أن استقرت الصليبيات في بلاد الشام حتى اكتشفن أنه لكي يعشن في هذه البلاد لابد من الأخذ بأساليب الحياة الشرقية إلى حد ما، ولاسيما أن التأثر بالسكان الأصليين كان أمرا حتميا وتجلى ذلك التأثير في أساليب الحياة اليومية والسلوكات على الرغم من تمسكهن ببعض المظاهر التي تأكد انتسابهن لثقافة وحضارة المجتمعات البعيدة التي وفدن منها[1].

المبحث الأول : الزواج في المجتمع الصليبي ببلاد الشام :

1- طريقة اختيار الزوج :

عُد الزواج في مختلف العقائد والأديان رابطا مقدسا وميثاقا غليظا يصعب فصم عراه، وذلك لحماية الأسرة والمجتمع من التفكك والانحلال[2]، وقد كان لكل مجتمع من المجتمعات الأوروبية معايير قانونية أو شرعية تنظم عملية الزواج ، ولم تخرج مملكة بيت المقدس اللاتينية والإمارات الصليبية في بلاد الشام عن هذه القاعدة، فقد اتبع المجتمع الصليبي في بلاد الشام القوانين والأعراف المطبقة في أوروبا آنذاك، والتي عدت الزواج سرا مقدسا ومنحة إلاهية من جهة و دنيويا من جهة أخرى فأخضعته من ناحية إلى معايير شرعية " الكنيسة " ومن ناحية أخرى إلى القانون العُرفي في المملكة اللاتينية، وحرمت فصم عرى هذا الرابط إلا في حالة ارتكاب الزنا[3] .

كان للزواج القواعد التي تحكمه حيث كان كل من التكافؤ والموافقة مبدأين أساسيين في قانون الزواج عند الصليبيين، وأكدت الكنيسة على ضرورة مصادقتها على الزواج حتى يصبح شرعيا وفرضت حضور أحد القسس حفل الزواج[4]، أما السن المألوفة للزواج فقد كانت سن البلوغ، وحدد سن الثانية عشر كحد أدنى لزواج الفتاة والرابعة عشر كحد أدنى لزواج الفتى، وهناك بعض الحالات الاستثنائية خاصة إذا وجدت حقوق الملكية[5].

غير أن مسألة حقوق الملكية التي تمتعت بها المرأة الصليبية أوجدت العديد من المشاكل في مسألة الزواج بالمجتمع الصليبي في بلاد الشام، فالفتاة التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية لم يكن لها رأي في اختيار شريك حياتها، إذ كانت المصالح

---

1 مصعب حمادي نجم الزايدي ، الاستيطان الصليبي في بلاد الشام مملكة بيت المقدس أنموذجا ، ص233

2 دندل جبر، الزنا ، مكتبة المنار، ط2، الأردن ،1987، ص7-8.

3 James A , Brundage ,Law , Sex , and Christian Society in Medieval Europ , The University Of Chicago press Chicago and London , 1990,P229 .

علية الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، مكتبة الأنجلو المصرية،ط1، القاهرة،1982ص213.

4 D. H. GREEN , Women and Marriage in German Medieval Romance, Cambridge University Press ,New York ,2009 P63, Charles Donahue ,Jr. Law , Marriage , and Society in The Later Middel Age , Cambridge University Press , New York , 2007, P 14.

5 محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص286، طه الطراونة، المرأة الصليبية، ص 79،إمام االشافعي مُحَمَّد حمودي وأشرف صالح مُحَمَّد سيد ، تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية الدين و الجنس ، دورية كان التاريخية، العدد 40، 2018،ص194.

المادية هي صاحبة الرأي الأول والأخير في الأمر، فبمجرد بلوغها سن الثانية عشرة لا بد من زواجها بفارس يتخيره ملك بيت المقدس أو الوصي الذي تشمله وصايتها والذي يكون في أغلب الأحوال أميرا[1].

جرت العادة على تقديم ثلاثة من الفرسان تتخير الفتاة أحدهم ليكون زوجا لها، وبرَّرُوا ذلك التقييد في اختيار الزوج بالتكافؤ الاجتماعي، فلو تركت المسألة لهوى الأميرات لوقعن في شباك الأفاقين أو الراغبين في الثراء والمنصب، وقد ينتهي الأمر بأن تتزوج بمن دون المستوى المرجو ولذلك نص ملك بيت المقدس ومعاونيه على ضرورة حصول الراغبة في الزواج على تصريح قبل إقدامها على هذا الأمر، والمثير للعجب أن ذلك القانون حرم الأبوين من ولايتهما الطبيعية على ابنتهما ونقلها إلى سيد الصليبيين المتمثل في ملك بيت المقدس فقد ورد أن السيد يمتلك القدرة أو من حقه أن يزوج السيدة أو الفتاة عندما يريد و بمن يريد[2].

نتيجة الحروب المتواصلة مع الجانب الإسلامي ومقتل الكثير من الفرسان الصليبيين ازداد عدد الأرامل فوضعت القوانين التي حددت أوضاعهن والتي كان أهمها:" أن الملك لا يستطيع إجبارهن على الزواج بواحد بعينه فهو لهذا السبب يترك لهن الحرية في الانتقاء بين ثلاثة فرسان أو بارونات، وذلك بعد مرور عام ويوم واحد فقط تنتحب فيه على زوجها المتوفي"[3].

كما يجب أن يكون المرشحون ملائمين ومناسبين لمركزها ومكانتها، خاصة وأن معظم الأرامل كن شابات لموت أزواجهن في الحروب وكن يضطررن للزواج مرة ثانية حتى يؤدي الزوج الالتزامات الإقطاعية للملك[4] وكان يأتي الأمراء من الغرب بعولا للوريثات اللاتي لا يتوفر لهن أزواج مناسبين في الشرق[5] .

غير أن طلب السيد أو الملك لم يكن يلاقي قبولا من الوريثات في كل الأحوال، فإذا رفضت الوريثة المتقدمين الثلاثة ولم تقبل أي واحد منهم كان على سيدها أن يستدعيها لمعرفة أسباب الرفض، وإذا لم تأت أو أتت ولم تنجح في إقناع سيدها بدوافع رفضها للزواج من أحد المرشحين الثلاثة فإنه يسيطر على إقطاعها لمدة سنة و يوم، وفي نهاية هذه المدة كان يطلب منها مرة ثانية أن تختار زوجا من بين ثلاثة متقدمين مختلفين، والفشل في اختيار زوج من بين هؤلاء للمرة

1 جان ريشارد، وضع المرأة في الشرق اللاتيني، ترجمة : حسن عبد الوهاب حسين ، عن مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص159-160.

2 نبيلة إبراهيم خليل ، حقوق المرأة الصليبية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية 1097-1291، مجلة كلية الآداب و العلوم الانسانية جامعة قناة السويس ، العدد الرابع ،2013، ص94.

3 جان رتشارد ، المرجع السابق، .ص160.

4 كان أصحاب الإقطاعات ملزمين بموجب الولاء الذي قدموه بالخلاص لسيدهم و للملك و بالتفان في أداء خدمات إجبارية و يأتي على رأسها الخدمة العسكرية، مقابل توفير الحماية لهم، لذلك فإن الحاجات العسكرية للمملكة كانت تتطلب على المحتفظات بإقطاعات من النساء أن يتزوجن حتى لا يحرم الملك من الخدمة العسكرية المتصلة بالإقطاع الذي تملكه، أنظر: ميشيل بالار، الحملات الصليبية و الشرق اللاتيني ،ص 126-127.

5 James A , Brundage , Marriage Law in the Latin Kingdom of Jerusalem , Oxford , 1964 ,p 268

ر.سي. سميل ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (1097-1193م) ،ص144.

الثانية يسفر عن فقدان حقها في القوامة وإيرادات الإقطاعية، حتى أنها يمكن أن تفقد حضانة أطفالها وقد ينتهي بها الأمر إلى فقدان الإقطاعية نهائيا[1].

كان زواج الأرامل المالكات للإقطاعيات أكثر صعوبة وأشد تعقيدا من زواج الفتيات اللاتي يتزوجن لأول مرة، وذلك لصعوبة تحديد اسم السيد صاحب النفوذ الماضي عليهن، أو تكون الأرملة صاحبة أكثر من ميراث عن زيجات متعددة سابقة فقد ترث تلك الأرملة عن أكثر من زوج وبالتالي تتعدد إقطاعاتها مما يستلزم لها زوجا يتمتع بمواصفات خاصة، كما أن الأرملة التي تخطت سن الستين، تلك السن التي لا تجعلها قادرة على الزواج الحقيقي، كانت تستطيع أن ترفض الزوج الذي يفرض عليها[2].

ويتضح من ذلك أن المصلحة العامة أو المادية كانت هي المحرك الأساسي لتلك الزيجات وبخاصة الأرامل منهن، بل صارت تلك الأرامل مطمعا لكل راغب في الثراء أو المنصب وذلك يفسر لنا سر التهافت عليهن، كما أن الأوصياء كانوا أيضا يقومون بإعاقة زواج الوريثات الذين يشرفون عليهن من أجل التمتع بعائد هذه الإقطاعيات لأطول وقت ممكن، وآخرون يضعون هذه الوريثات تحت المزايدة فيتزوجها من يدفع أكثر للوصي، وطبقا لقرارات المؤتمر المسيحي الذي أقيم في نابلس سنة 559هـ/ 1163م أتاحت تلك القرارات للنواب أو مجلس الأوصياء – في حالة وقوع الملك في أسر المسلمين – أن يقوموا ببيع بعض أملاك الوريثات لدفع ديته و تحريره[3]، وهذا يدل على ضياع حقوق المرأة الصليبية المنتمية للطبقة الأرستقراطية فهي مغلوبة على أمرها في اختيار شريك حياتها، وفي كونها تحت تصرف أوصيائها أو من ينوب عنهم .

نتج عن هذه الزيجات تأثر الحالة النفسية للفتاة بسبب تقييد حرية القبول والرفض فقد تزف مضطرة إلى شخص لا تجد رغبة فيه لمجرد مصالح عامة أو خاصة أو إقامة تحالفات عسكرية أو طلبا لإمدادات عسكرية بل قد تزف لمجرد صفقة من صفقات الضياع وبالتالي تصبح سعادتها رهينة الحظ الذي قد يكون لصالحها فتسعد أو ضدها فتشقى بذلك الزواج، خاصة وأن الأمر وصل إلى سلب ولاية الأبوين على زواج مالكات الاقطاع، فقد يعجب الوالدين بشخص ما ويرونه الأنسب لبنتهما إلا أن عدم رغبة السيد فيه تحول دون إتمام الزواج فيلجأ الجميع لشراء تلك الموافقة من خلال أداء مبلغ من المال يدخل لخزينته[4].

والمثير للدهشة أن فتاة الطبقة الوسطى أو الدنيا كانت أسعد حظا من فتيات الطبقة الأرستقراطية فلا وجود لثروة أو لمصالح مادية تتحكم في اختيار شريك حياتها، بل كان من حقها اختيار خطيبها أو رفضه حسب رغبتها ومن حقها

1 Emilie AMT , Womens Lives in medieval europe A sourcebook p59 , James A , Brundage , Marriage Law in the Latin Kingdom of Jerusalem ,p 268.

2 جان ريتشارد ، المرجع السابق،ص161. للمزيد من التفاصيل عن وضع الصليبيات الأرامل زمن الحروب الصليبية أنظر:
Natasha R. hodgson , Women crusading and the holy land ,p p203-219.

3 جان ريتشارد ، المرجع السابق ،ص161.

4 اسمت غنيم ، المرجع السابق، ص226.

رؤيته من خلال ترتيب مقابلة تجمع بينهما كي يتعرف كل طرف على الآخر فيأتي الفتى مصحوبا بأشقاء الفتاة إلى منزلها ثم تدخل إليه حافية القدمين عارية الرأس ثم يجلسان بحضور ذلك الجمع يتفحص كل منهما الآخر، ثم يكون من حقهما إبداء رأيهما بالقبول أو الرفض[1].

الحقيقة أن تدخل الأوصياء لم يكن كله شرا بل كان أحيانا في صالحهن والمثال على ذلك تدخل الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس BaldwinII (513- 526/1118-1131م) لصالح الأرامل الأرستقراطيات، فبعد أن قتل روجر أمير أنطاكية سنة 513هـ/1119م على يد المسلمين[2]أصبح بلدوين هو المسؤول عن تدبير شؤون أنطاكية حتى يبلغ بوهيمند الثاني سن الرشد، فبادر الملك بلدوين الثاني بإعطاء أراضي النبلاء الذين قتلوا مع روجر إلى أراملهن ثم بادر بتزويج الأرامل من أكفاء لهن وكان الملك شديد الحرص على الرجوع للجانب الديني والأخذ بالقوانين أثناء إتمام ذلك الأمر[3].

ومن هنا نستنتج أن الهدف الأساسي من تزويج الأميرات هو الحفاظ على ما آل إليهن من إقطاعات من خلال اقترانهن برجال أكفاء قادرين على الدفاع عن تلك الأراضي لضمان استمرار التواجد الصليبي في بلاد الشام، ولو لم يوفق الملك في اختيار زوج مناسب للفتاة أو الأرملة فلا يعني ذلك إلغاء دوره فلا بد من إبداء موافقته على الزواج كي يتم، ومثال ذلك "الملكة سبيلا" " Sibila"عندما بادرت بالاقتران من جاي دي لوزيجنان سنة 576هـ/ 1180م عندما بلغت الحادية و العشرين من عمرها أي بلغت سن الرشد الذي يتيح لها الاختيار، و بالرغم من عدم موافقة أخيها الملك بلدوين الرابع على ذلك الزواج[4] إلا أنه اضطر للرضوخ لرغبتها، لاسيما بعد مساندة والدتها أجنس كورتناي لها والمظهر الحسن و الطلعة الجذابة التي اتسم بها جاي و التي خطفت قلب الأميرة[5].

1 Coulton , Life in Middle ages , Cambridge At the university press ,1925, p 219.

2 قتل الأمير روجر في موقعة البلاط قرب مدينة أرتاح على يد قوات إيلغازي بن أرتق أمير حلب و ماردين و بمساعدة طغتكين صاحب دمشق وأمير شيزر و غيرهم، وكانوا قد خرجوا لنجدة حلب من أيدي الصليبيين وذلك سنة 513هـ/1119م ، وكان روجر قد طلب المساعدة من ملك بيت المقدس و جوسلين أمير الرها ، إلا أنه قد خرج لقتال المسلمين قبل وصول النجدة فهزم وقتل ، أنظر: ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج9،ص185-186 ، ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص270-271.

3 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة للقدس ، ص 189، وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص586،

Stevenson, OP , CIT , P 223

223

4 كان لأنجنس كورتناي عشيق يدعى "أملريك" وصل من غرب أوروبا و تقرر تعينه كندسطبلا للملكة اللاتينية و كان أخوه الأصغر هو جاي لوزيجنان فأخذ "أملريك "و "أجنس" يرغبون الأميرة سيبيلا في "جاي" حتى طلبت دعوته للقدوم للشرق وحين رأته وقعت في حبه و قبلت بالزواج منه ، أنظر: عبد الحفيظ محمّد علي ، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس و أثرها على تاريخ الحركة الصليبية 1131-1187م ، دار النهضة العربية،ط1، 1984 ، ص122.

5. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص684-685،

Natacha, Women Crusading ,P122

ومن مثال ذلك أيضا الأميرة كونستانس "Constance " أميرة أنطاكية التي زاد قلق الملك بلدوين الثالث Baldwin Ⅲ (538-558هـ/1143-1163) من بقائها أرملة بعد وفاة زوجها ريموند بواتيه[1] Raymond of poitier (531-544هـ/1136-1149م)، مما يعرض إمارة أنطاكية للخطر نظرا لعدم وجود قائد كفء يقودها ويحافظ عليها أمام الأخطار التي ترد عليها، خاصة وأن وريث عرشه بوهيمند الثالث Bohemond Ⅲ (559-598 هـ/ 1163-1201م)كان لا يزال قاصرا لم يتجاوز الخمس سنوات[2]، فبادر بعرض العديد من الرجال الأكفاء على الأميرة الأرملة ذات الثانية والعشرون عاما وكانوا جميعا من أبرز النبلاء في بلاط الملك[3]، إلا أن كل محاولات تزويج الأميرة باءت بالفشل وتعللت بأن الزواج سيقيد حريتها ويحد من انطلاقها وكان ردها هذا لا يحمل في طياته حرصها على انقاذ إمارتها وخدمة شعبها[4] .

إن عناد الأميرة كونستانس في مسألة زواجها اضطر الملك بلدوين الثالث إلى الرضوخ لرغبتها في أن تظل أرملة وأن يساندها في إدارة الامارة البطريرك عموري، وقد تبادر إلى الأسماع حينئذ أن سبب إصرارها يرجع لتأييد البطريرك لها كي يزداد نفوذه داخل إمارتها ذلك النفوذ الذي سيضيع في حالة زواجها من سيد تؤول إليه شؤون إمارتها[5].

بيد أن الظروف لم تخدم البطريك في آخر الأمر فقد ظهر فارس فرنسي شاب وهو رينو دي شاتيون المعروف عند العرب "أرناط " قد وقع هواه في قلب كونستانس فخفق له وفضلته على الجميع رغم الفارق الاجتماعي وعدم التكافؤ بينهما، إلا أن الملك وافق على ذلك الزواج للتخلص من أعباء الوصايا على أنطاكية وقد تم الزواج في ربيع عام 548هـ/1152م [6].

لقد تحكمت الأهواء الشخصية والمصالح المادية في كثير من الأحيان لتحديد شخصية الزوج المترشح للاقتران بالأميرة أو الأرملة، وعلى سبيل المثال أن الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس قام بإعطاء جيرارد دي ريدفور GERART DE RIDEFORT الذي صار بعد ذلك رئيسا للداوية من (582-585هـ/1186-

1 قتل ريموند بواتيه في 21 صفر 554هـ/29 جوان 1149م ،على يد جماعة من عسكر نور الدين محمود عند الموضع المعروف "بأنب" شرقي نهر العاصي و بالقرب من معرة النعمان و سلم رأس ريموند إلى نور الدين ، أنظر: ابن العديم ، زبدة الحلب، ج2،ص298-299، أبو شامة ، الروضتين ،ج1، 150-151، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص 525.

SETTON , OP , CIT , VOL 1 ,P408 .

2 عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث، ص245 .

3 رشح الملك بلدوين الثالث ثلاثة أمراء للزواج من الأميرة كونستانس و على الأميرة اختيار الأمير الذي يناسبها ، و هم "ايفر دي نسل"كونت سواسون و هو نبيل فرنسي ثري قدم إلى الشرق في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، و الثاني هو "ولتر دي فولكمبيرغ " سيد سانت أومير حفيد هيو سانت أومير و أمير الجليل ، أما الثالث فهو "رالف دي ميرل" و هو بارون لامع من بارونات كونتية طرابلس، وهكذا كان كل المتقدمين لخطبتها من ذوي الخبرة و الدراية بحماية أنطاكية و الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية أنظر : وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 804.

4 وليام الصوري، المصدر السابق،ج2،ص 804-805.

5 هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص 181، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث، ص126-127.

6 حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمين ، ص152.

Stevenson , The crusaders in the east , p 166 , Grousset ,L'épopée des Croisades ,p 137.

1189م) وعدا بمساعدته في زواج جيد مع أول فرصة تسمح له في إمارته، ولم يمض وقت طويل إلا وتوفي" وليم دوريل" Guillaume Dorel الذي كان أميرا على" بترون" تاركا أرملته ستيفاني Stefhanie و هنا تهيأ جيرارد وانتظر من الكونت ريموند تنفيذ وعده بأن يقترن بتلك الأرملة .

غير أن ريموند الثالث نكث بوعده لجيرارد ورجح كفة المال والمصالح الاقتصادية على كل القيم والمبادئ التي يجب أن يتحلى بها الأمراء، فعندما طلب أحد تجار بيزا الواسع الثراء الذي يدعى باليفانوا plivain يد ستيفاني وريثة البترون وافق كونت طرابلس على الفور ومنحه شرف ذلك الاقتران وضرب بوعده لجيرارد عرض الحائط خاصة وأن ذلك التاجر قد منحه الكثير من الهدايا والأموال وأعطاه وزن الأميرة ذهبا[1] .

2- الزواج بين الصليبيين:

أعتبر زواج الصليبين فيما بينهم من الزيجات الشائعة في المجتمع الصليبي وذلك للتوافق في العادات والتقاليد والمذاهب الدينية وحتى الموطن الأصلي ولغة التواصل بين الزوجين، غير أن الزواج بين الصليبيين أنفسهم بغرض إقامة تحالفات سياسية ومصالح اقتصادية كان الأكثر انتشارا، حيث أعتبر زواج الأرمل أو الفتيات الأرستقراطيات أو صاحبات الإقطاعيات أحد عناصر ربط الصلات بين الإمارات الصليبية وتدعيم أواصرها وبخاصة بين مملكة بيت المقدس و الإمارات الصليبية أو بين الإمارات الصليبية فيما بينها .

مثال ذلك أن تنكرد أمير أنطاكية Tancred (498- 505-هـ/ 1104-1112م) لما اشتد عليه المرض وأحس بدنو أجله سنة 505هـ/1112م أوصى زوجته سيسيليا Cecilia ابنة الملك فيليب الأول Louis philippeI(452-502هـ/1060-1108م) بأن تتزوج من حليفه كونت طرابلس بونز بن برتراند Bouns of bertrand (506-532هـ/ 1112-1137م) الذي كان لا يزال تحت وصايته، وبالفعل نفذت أرملة تنكرد وصيته وتزوجت من كونت طرابلس، وهنا يظهر لنا جليا مدى عدم اكتراث الصليبيين بالسن والعواطف ولا أية اعتبارات أخرى في الزواج أمام المصالح السياسية والتحالفات، ويبدو أن تنكرد كان يسعى لتحالف نورمان أنطاكية مع بروفانسيي طرابلس (جنوب فرنسا) على حساب حكام بيت المقدس القادمين من شمال فرنسا [2].

ثم توالت الزيجات السياسية بين الصليبيين حتى صار الزواج لا يتم إلا لغرض التحالفات بين الطبقة الأرستقراطية ، حيث زوج بلدوين دي بورج كونت الرها أخته سيسيليا Cecilia بأمير أنطاكية روجر بن ريتشارد[3] سنة

1 Eracles , l'estoir d'Eracles et de conquest de la terre d'outremere (R.H.C),paris , 1859,p p 51-52.

2 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص246.

3 تولى روجر بن ريتشارد المعروف "بروجر دي سالرنو " "Roger de Salerno "(506-513هـ/ 1112-1119م) مقاليد حكم أنطاكية بعد أن أوصى له بها خاله تنكرد و هو على فراش الموت، ولكن اشترط عليه أن يتنازل عن الحكم " لبوهيمند الثاني" إذا بلغ هذا الأخير سن الرشد و أتى إلى الشرق للحصول على تركة أبيه بوهيمند الأول ، لأن تنكرد في الأصل كان نائبا عن بوهيمند في حكم أنطاكية و لم يصبح أميرا على تلك الإمارة إلا بعد وفاة بوهيمند سنة 504هـ/ 1111م الذي ترك وريثا و هو "بوهيمند الثاني" لم يكن يتجاوز الثانية من عمره و ظل في إيطاليا بين أحضان أمه ، **أنظر** : وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص547 ، عاشور، الحركة الصليبية ،ج1، ص233.

506هـ/1113م، ما حافظ على أواصر المحبة والصداقة بين الإمارتين، غير أن مقتل روجر في معركة البلاط الشهيرة أمام قوات إيلغازي صاحب حلب وماردين سنة 513هـ/ 1119م جعل من بلدوين دي بورج ينصب كوصي على بوهيمند الثاني[1] Bohemond II الوريث الشرعي لعرش أنطاكية، وظل بلدوين مستبدا بحكم أنطاكية سبع سنوات حتى يبلغ الأمير سن الرشد[2].

ازدادت أواصر الود والتحالف بين أنطاكية ومملكة بيت المقدس حين عاد الأمير بوهيمند الثاني من روما في خريف 520هـ/ 1126م ،فاستقبله الملك بلدوين الثاني استقبالا حافلا ورفع يده عن وصايته لإمارة أنطاكية وأتبع ذلك بتسليمه إرث والده بالكامل، وقام بتزويجه ابنته المدعوة" أليس" ، ويعتبر زواجا سياسيا من الدرجة الأولى فالغرض الأساسي منه هو تقوية العلاقات بين مملكة بيت المقدس إمارة أنطاكية و لم يكن قائما على العواطف.[3]

كما زاد التواثق بين الإمارات الصليبية فيما بينهم عن طريق المصاهرة التي حدثت بين إمارة الرها وأنطاكية حيث تم زواج الأميرة" ماري "Mary" أخت الأمير روجر بالأمير جوسلين دي كورتناي Josselin de cortinia (513-526هـ/ 1119-1131م) حاكم إمارة الرها الصليبية وذلك سنة505هـ/ 1112م، كما أن زواج الأمير ريموند الثاني Raymond II أمير طرابلس (532-547هـ/ 1137-1152م) من الأميرة "هوديرنا" Hodierna"" ابنة بلدوين الثاني جعل من هذا الأخير أقرب عضو لأسرة الكونت ريموند، وبهذا يكون الملك بلدوين الثاني قد حصد ثمار تلك المصاهرات مع إمارة أنطاكية وإمارة طرابلس وفرض سلطته على كامل الإمارات الصليبية[4].

كما درجت نوعية زواج المنفعة أو المصالح الاقتصادية في المجتمع الصليبي في بلاد الشام حيث كان يتم هذا الزواج سعيا وراء منصب أو تدعيما لمكانة اجتماعية، ومن أمثلة هذا الزواج زواج ريموند الثالث كونت طرابلس Raymond III (535-583هـ/ 1140-1187م) بالأميرة إشيفا Ichivia"" أرملة والتر أمير الجليل سنة 570هـ/1174م والتي كانت أكثر الوريثات ثراء في أنحاء الممتلكات الصليبية، ومن خلال ذلك الزواج صار الأمير ريموند أميرا للجليل وطبرية مما زاد من ثرائه وسلطته في الشرق اللاتيني، بل كان من ثمار ذلك الزواج أن جعل له ثقلا سياسيا أدى إلى تعيينه وصيا على الملك الشاب بلدوين الرابع Baldwin VI (570-579-هـ/ 1174-1183م) في الفترة الممتدة من

---

1 **بوهيمند الثاني** : امتد حكمه (520-524هـ/1126-1130م)، كان عريق النسب فأبوه بوهيمند الكبير بن روبرت جوسيكارد وأمه كونستانس ابنة فيليب ملك الفرنج الأعظم، وأهم ما ميز فترة حكمه أنها كانت قصيرة الأمد و واكبت بدايات الوحدة الإسلامية الكبرى في الشرق الأدنى على يد عماد الدين زنكي، لاقى حتفه على يد الأمير غازي بن الدانشمند وذلك في ربيع الأول 524هـ/ فيفري 1130م ، أنظر: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص648.

2 حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية ،ص141.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص547- 552 ، علية الجنزوري ، إمارة الرها ، ص230، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1،ص233.

4 امتد نفوذ الملك بلدوين الثاني حتى إمارة الرها، التي كان أميرا عليها قبل توليه ملك بيت المقدس ، ثم كافئ بها الكونت جوسلين كورتيناي لما بدر منه من مساندة لتوليته العرش ، على أن يحكمها باعتباره من أتباع الملك بلدوين و أن يعترف به سيدا أعلى على الصليبيين ، **أنظر**: رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2، ص230-231.

(570-572هـ /1174-1176م) ليرعى شؤون مملكة بيت المقدس حتى يبلغ سن الرشد، وهكذا حقق ريموند من هذا الزواج مكاسب مادية وأخرى سياسية وحتى معنوية رسمت مكانته داخل المجتمع الصليبي[1].

3- بين الصليبيين و الشعوب الأخرى :

انتشرت الزيجات المختلطة في المجتمع الصليبي لبلاد الشام، خاصة بالسيدات الأرمينيات والبيزنطيات والذي كان يعتبر أمرا شائعا في أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة، ومن ثم فقد كان من المألوف تماما أن تكون أُم أحد الصليبيين أو جدته أو خالته مسيحية شرقية، وتنطبق هذه الحقيقة كذلك على البيوت الملكية وبيوت الأمراء الصليبيين، وأخذت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين سواء من المسيحيين أو المسلمين الذين كثرت أعدادهم في جميع بيوت الفرنجة الأثرياء، أما أبناء الشرائح الدنيا من المجتمع الصليبي سواء من صغار الفرسان أو سكان المدن، فغالبا ما كانوا يتزوجون بالمسيحيات الشرقيات من نفس مستواهم الاجتماعي[2].

أ- مع الأرمن:

أسس الأمير بلدوين البولوني أول امارة صليبية في الشرق وهي امارة الرها سنة (492هـ/1098م) وكان غالبيتها من الأرمن لذا كان على الأمير الإفرنجي تثبيت مركزه في الإمارة فعمل على توثيق علاقة الصليبيين والأرمن بزواجه[3] من الأميرة الأرمينية أردا Arda سنة 494هـ /1100م التي كانت ابنة أحد كبار نبلاء الأرمن، كما عمل على بعث التوازن بين العنصرين من خلال الإتيان بجماعات لاتينية يصطنعها لنفسه في الادارة المحلية باختلاف فروعها فأغراهم بالزواج من الأرمينيات لكي يكسب ود الأرمن ويقربهم منه ويضفي الشرعية على حكمه[4] في نظر السكان المحليين[1].

---

1 Ernoul ,La chronique d' Ernoul et de Bernard Le Trèsorier Sociètè de l'Histoire de France , Paris, 1871 , p32 , Grousset ,L'épopée des Croisades ,p161.

هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص190.

2 يوشع براور، عالم الصليبيين ، ص107.

3 كانت أولى زوجات بلدوين البولوني هي جودهيلد Godhoid و هي سيدة إنجليزية ، كريمة الأصل ، رفيعة القدر كما أقر بذلك وليام الصوري و كانت من ضمن المشاركات في الحملة الصليبية الأولى لغزو بيت المقدس و الشرق الاسلامي ، و لم يكتب لها أن ترافق زوجها حتى النهاية ، فعندما اجتازت الحملة منطقة بيسيديا ثم توجهت نحو مدينة مرعش و نصب الصليبيون خيامهم توفيت جودهيلد بعد أن عانت من مرض عضال ، و دفنت في مكانها بعد إقامة الشعائر الجنائزية اللائقة بها، **أنظر** : وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص234، هنادي السيد محمود ، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول ، دار العالم العربي ، ط1، القاهرة ،2008، ص164-165.

4 كان يحكم الرها زعيم أرميني هو ثوروس thoros ابن هيثوم الذي وصل إلى الحكم سنة 489هـ/1095م بعد أن استغل النزاع الذي استحكم بين السلاجقة و الذي أضعف قوتهم ، و إن كان اقد تجنب الدخول في صراع مباشر معهم و لو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال ، كما اعترف ثوروس بالتبعية للامبراطور البيزنطي حتى يكون سندا شرعيا له في حكم الرها، ومع ذلك فان الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة لإحاطتهم بها ، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى خاصة و أنه كان رجلا مسنا و ليس له ولد يرثه ، لذلك فضل أن تسلم المدينة إلى الصليبيين المسيحيين بدلا من أن تقع في يد الأتراك المسلمين، فأرسل إلى بلدوين البولوني يستنجد و يحثه على الوصول إلى الرها، فلبى بلدوين استغاثته و توجه إليها و تمكن من تأسيس أول إمارة صليبية في الرها بعد وفاة حاكمها ثوروس ، **أنظر** : فوشيه الشارتري، الحملة إلى القدس ،ص 52، ميخائيل السرياني ، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ترجمة : مار غريغوريوس صليبا شمعون ، منشورات دار الرها، ج3 ماردين ، ص258، متى الرهاوي ، تاريخ متى الرهاوي (الإفرنج الصليبيون ،

وبفضل هذا الزواج استطاع بلدوين كسب ولاء الأرمن داخل الرها، فنظروا إليه على أنه ليس فقط سيدا بل أبا لهم وصاروا مستعدين للحرب حتى الموت لتحقيق مجده، كما وعده والد زوجته بأن يرث أرضه بعد وفاته وأن يؤمنه ضد الأتراك وأن يحميه من خشونة الأرمن في قليقية، لكن العلاقات الطيبة لم تدم طويلا بين بلدوين ورعاياه الرهاويين، ويرجع ذلك إلى تدفق الصليبيين الغربيين إلى الرها وبأعداد هائلة والذين لم يلبثوا أن تسببوا بمضايقات للأهالي الأصليين رغم ما قابلوهم به من حفاوة وكرم، حيث تكونت أرستقراطية إفرنجية اتصفت بالكبرياء والتعالي وعاملت الأرمن والسريان باحتقار وعنف واعتبرتهم أجناسا أقل منهم في المستوى[2].

وقد انتهج بلدوين دي بورج نفس سياسة سلفه بلدوين البولوني مع الأرمن، فبمجرد توليه حكم إمارة الرها (494-512هـ/ 1100-1118م) حاول التقرب من سكانها وكان شديد الحرص على إقامة علاقات طيبة معهم كي يكسب تأييدهم، فكان أول إجراء اتخذه هو زواجه من الأميرة الأرمينية مورفيا Morphia ابنة جبريل حاكم ملطية العاصمة الثانية لأرمينيا، والظاهر أن هذا الزواج كان زواج منفعة حيث تمتعت مورفيا بقدر كبير من الثراء وكانت لوالدها ثروة خرافية أغدق منها على خزينة بلدوين في العديد من المناسبات[3] .

أما عن مدى انتفاع جبريل والد مورفيا من زواج ابنته، فقد استطاع بلدوين دي بورج أن يحميه من العديد من هجمات بني الدانشمند وإن لم يستطع أن يمنع سقوط ملطية في أيديهم سنة 497هـ/ 1103م، على العموم فقد صنف هذا الزواج من أنجح الزيجات في المجتمع الصليبي حيث كانت حياة بلدوين خالية من كل شائبة، إذ عاش مع زوجته مورفيا في سعادة تامة وهو أمر نادر الحدوث في الشرق الفرنجي[4].

استمر سعي الصليبيين اللاتين إلى توطيد العلاقة مع الأرمن من خلال المصاهرة والزواج، حيث كانت من أهم علاقات المصاهرة في عهد بلدوين دي بورج والتي ربطت بين إمارة الرها وبين أرمينيا الصغرى زواج أخت بلدوين دي بورج من ليو الأول Leo Ⅱ ملك أرمينيا الصغرى (524-531هـ/ 1129-1136م)[5].

المسلمون و الأرمن) ، ترجمة و تعليق : محمود محمد الرويضي و عبد الرحيم مصطفى، مؤسسة حمادة للدراسات ، الأردن ،2009، ص 84 - 88، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج1،ص142.

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1 ،ص478، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص296 ، عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص148، علية الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ، ص76

Grousset , ,L'épopée des Croisades ,p82, Setton ,op ,cit, vol 1, p372 .

2 علية الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ،ص 76،محمود محمد فالح الرويضي ، إمارة الرها الصليبية (1097-1155م/ 490-550هـ) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، 1997،ص185.

3 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص 574 ، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ، مجلة كلية الأداب جامعة طنطا ، ع8 ، 1995، ص29. محمود محمد فالح الرويضي ،المرجع السابق ، ص224.

4 ميخائيل السرياني ،تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ، ج3،ص175، متى الرهاوي ، تاريخ متى الرهاوي ،ص108-109 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص231 ، علية الجنزوري ، إمارة الرها ،ص95.

Grosset , ,L'épopée des Croisades ,p87 .

5 علية الجنزوري ، إمارة الرها ، ص 247.

بعد تولي بلدوين دي بورج ملك بيت المقدس تحت لقب بلدوين الثاني سلم كونتية الرها لجوسلين دي كورتناي الذي أصبح أميرا عليها (513-هـ/ 1119 م) وحذا حذو سابقيه من الأمراء الصليبيين الذين حكموا الرها في تدعيم العلاقات مع الأرمن بالمصاهرة وتشجيع الزواج من الأرمينيات فتزوج من أخت ليون الأول ملك أرمينيا والتي أنجبت له ابنه "جوسلين الثاني" Josselin Ⅱ الذي تولى الإمارة من بعده وكان ميالا للأرمن والسريان أهل أمه حتى أنه تزوج من أرملة أرمينية تدعى" بياتريس " Beatrice والتي انجبت له "جوسلين الثالث" Josselin Ⅲ و ابنتين هما "أجنس " و "سيبيل" [1].

كما حرص الأرمن من جهتهم على تدعيم صلاتهم باللاتين، فبعد قدوم روبين الثالث أمير أرمينيا Roben Ⅲ (571-583هـ/ 1175-1187م) حاجا إلى بيت المقدس في سنة 577هـ/1181م تزوج من إيزابيلا صاحبة تبنين وابنة ستيفاني سيدة إقليم ما وراء نهر الأردن[2].

مما سبق نستنتج أن الصليبيين قد سعوا لتوطيد العلاقة مع الأرمن من خلال المصاهرة وذلك لتحقيق أهداف سياسية أو سعيا وراء مكاسب مادية أو معنوية وكذا توسيع رقعة أرضهم على حساب الأرمن.

ب – **مع البيزنطيين** :

خلق قدوم الحملة الصليبية الأولى (492هـ/1097م) صراعا جديدا مع الامبراطورية البيزنطية، فلم يعد صراع الإمبراطورية قاصرا على الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى بل شمل أيضا الصليبيين القادمين من الغرب، وقد تبلورت فكرة الصراع البيزنطي- الصليبي بشكل خاص حول أنطاكية التي حاول الطرفان حل مشكلتها حلا سلميا عن طريق الزيجات السياسية[3] .

كان البيزنطيون يطمعون في استعادت إمارة أنطاكية إلى حوزتهم، وزادت تلك المطامع في عهد الامبراطور يوحنا كومينين Jean comnene (517-538هـ/ 1118-1143م)، والذي أرسل إلى روجر أمير أنطاكية سنة 513هـ/1119م يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومينين على أمل عودة أنطاكية إلى قبضة البيزنطيين عن طريق المصاهرة، و يبدو أن روجر لم يكن معارضًا لهذا الرأي[4] لكن مقتله في معركة البلاط (ساحة الدم) في 16 ربيع الأول 513 هـ الموافق لـ 28 جوان 1119م [5]حال دون تحقيق مقصده، خاصة وأن الملك بلدوين الثاني ملك بيت

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص572-574، علية الجنزوري ، امارة الرها ،296

Grosset , ,L'épopée des Croisades ,p86-87, Archer and Charles L . Kingsford , The Crusades,p 159 .

2 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص681،

3 عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث (1143-1163م) ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، 2006، ص 213 .

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص581-582.

5 ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص320، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص186، ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج2،ص187-189 ، ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص40.

بيت المقدس قام بالوصاية على أنطاكية متخذا موقفا عدائيا حازما تجاه البيزنطيين، ويظهر أن موقف الملك بلدوين الثاني من البيزنطيين يعود إلى حرصه على إبقاء أنطاكية تحت السيادة الصليبية[1].

تجددت مطامع البيزنطيين في أنطاكية بعد مقتل بوهيمند الثاني أمير أنطاكية على يد المسلمين سنة 525هـ/1130م ، والذي لم يخلف وراءه سوى ابنة صغير في الثالثة من العمر تدعى "كونستانس" وريثة للعرش ، فراود أرملته " أليس" Alis بنت بلدوين الثاني فكرة حكم أنطاكية ولتحقيق تلك الفكرة لجأت إلى الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين تعرض عليه زواج ابنتها من ابنه الصغير وولي عهده مانويل وبذلك أحيت في نفسه الحلم القديم، إلا أن تلك المحاولات أصابها الاخفاق على يد ريموند دي بواتيه Raymond of poitier[2] الذي تزوج من الأميرة كونستانس سنة 531هـ/ 1136م ولم يتجاوز عمرها حينذاك التاسعة[3]، فقطع الطريق على حنا كومنين لأخذ أنطاكية بالمصاهرة للمرة الثانية[4].

بموت ريموند دي بواتيه كان قد خلف وراءه زوجته الشابة كونستانس وابن صغير يدعى بوهيمند، فتجددت محاولات البيزنطيين مرة أخرى لاستعادة أنطاكية عن طريق المصاهرة خاصة وأن الأميرة كونستانس كانت قد رفضت ارتباطها من الأمراء الصليبيين الذين عرضهم عليها الملك بلدوين الثالث وطلبت من الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel Comnene(538-576هـ/ 1143 -1180م) أن يبعث لها بزوج بيزنطي باعتباره الحامي لها ولإمارتها، فرأى الإمبراطور أن الفرصة قد حانت لتنفيذ مشروعه وحلم والده من خلال مصاهرة كونستانس وبادر بترشيح يوحنا روجر John Roger الذي يمُت له بصلة القرابة غير أن الأميرة لم تقبل الزواج منه ربما لكبر سنه، وحتى لا تضيع الفرصة من الإمبراطور رشح لها زوجًا آخرًا من الأمراء البيزنطيين وهو أندرينكوس كومنين الذي كان في مقتبل العمر ويتدفق سحرا وجاذبية، غير أن هذا لم يغرر بأميرة أنطاكية التي اختار قلبها الفارس الفرنسي رينو دي شاتيون Renaud de chatillon[5] وقد تم الزواج في 548هـ/1153م و بذلك أخفقت محاولات البيزنطيين مرة أخرى في الاستحواذ على أنطاكية[1].

---

1 عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1 ، ص453 .

2 **ريموند دي بواتيه** : هو الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتانيا و المقيم في بلاط هنري الأول ملك انجلترا، و قد حضر سرا إلى أنطاكية بمساعدة الاسبتارية حيث تزوج من كونستانس لحظة وصوله إلى أنطاكية ، **أنظر** : وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص679-682 ، محمد عبد الحميد فرحات ، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1، الاسكندرية ، 2014،ص98.

3 و هنا تشير الباحثة إلى سن زواج كونستانس من ريموند و الذي لم يتجاوز التاسعة و رغم ذلك لا نسمع أي من المؤرخين الغربيين المعاصرين يستنكر مثل هذه التصرفات في حين نجدهم يستنكرون زواج العربيات أو المسلمات في مثل هذه السن المبكرة ، و ما قولهم على السيدة عائشة أم المؤمنين ببعيد ، رغم أن البيئة الصحراوية تساعد كثيرا الفتيات على البلوغ مبكرا .

4 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص680-681، ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج2، ص193، ، اسحق تاوضروس عبيد، روما و بيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (869-1204م) ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1970 ،ص 159، جمال محمد محسن الزنكي ، تطلع المرأة الصليبية للسلطة ، ص39.

5 **رينو دي شاتيون** :و هو أحد الأمراء الفرنسيين الذين قدموا إلى الشرق، كان شابا متحمسا لتحقيق نصره على المسلمين، وكان خلقه الغدر و عدم الوفاء بالعهد، ثم أصبح أميرا لأنطاكية،و علاف عند العرب باسم" **أرناط**" لكنه وقع أسيرا في زمن نور الدين لزمن طويل حتى سنة 582هـ/1186م، و عند خروجه

على أن الأمر لم يطل حتى تجدد أمل الإمبراطور مانويل في بسط سيطرته على أنطاكية، حيث توفيت زوجته الإمبراطورة إيرين Irene في نهاية سنة 554هـ/ 1159م ولم يكن قد أنجب منها سوى فتاة وحيدة، فأرسل سفارة إلى بيت المقدس سنة 555هـ/1160م على رأسها يوحنا كونتوستيفانوس Jean contostephono يصحبه كبير المترجمين في البلاط البيزنطي ثيوفيلاكت الايطالي "Theophylact" كي يرشح له الملك بلدوين الثالث عروسًا صليبية تليق بمقام الإمبراطور الأرمل.[2]

لم يحدد الإمبراطور في خطابه[3]للملك بلدوين الثالث زوجة بعينها، لكن في الواقع لم يكن جدير بالترشح للزواج من الإمبراطور سوى الأميرتين ماريا "Maria" ابنة كونستانس أميرة أنطاكية[4]، و ميليسند "Melisende" ابنة ريموند الثاني كونت طرابلس وكلتاهما كانتا ابنتي خالتي الملك بلدوين الثالث واشتهرتا بالجمال الفائق، غير أن الملك قام على فوره بترشيح الأميرة ميليسند نظرا لأنه لم يثق في قيام تحالف أسري وثيق بين الإمبراطور وأنطاكية قد يزيد من النفوذ البيزنطي في بلاد الشام، إضافة إلى تخوفه من كونستانس أميرة أنطاكية و والدة ماريا التي كانت ترغب في السيطرة على زمام الأمر في الإمارة بعد أسر زوجها أرناط 555 هـ/ 1160م وما شاهدته من تعلق أهل أنطاكية بالملك واستدعائه لتقرير أحوال الإمارة[5].

استدعى الملك بلدوين الثالث مندوبي الإمبراطور وأبلغهم باختياره للأميرة ميليسند لتكون عروس الإمبراطور التي تناسب مكانته، وقد وافقت السفارة على الترشيح لكنها تحفظت وأشارت أن الكلمة الأخيرة في هذه المسألة تعود للإمبراطور، وبدأ السفراء يتقصون أخبار الأميرة المرشحة لمشاركة سيدهم في التاج الامبراطوري وأرسلوا بتفاصيل دقيقة عن قوامها وجمالها لمانويل [6].

تزوج من إتينت دي ميلي Etiennette De Milly و ريثة صاحب الأردن و استحوذ على إقطاعها مما مكنه من القيام بدور بارز في الحرب الصليبية بفلسطين، حيث قام بقطع طريق الحجاج الذي يمر على إقطاعيته، وقد قتله صلاح الدين الأيوبي بعد أن وقع أسيرا في معركة حطين 583هـ/1187م **أنظر**: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص ،142 ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97، ، عاشور الحركة الصليبية، ج2، ص 604، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 116.

1 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص534-535، عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، بلدوين الثالث،ص245-246،حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية و المسلمون ،ص 123.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص872 ،رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 579، عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، بلدوين الثالث،ص275-276، ، اسحق عبيد ، روما و بيزنطا، ص 223، محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول (1143-1180م) ، دار المعرفة ،1985، ص265-266،

3 عن خطاب الامبراطور للملك بلدوين الثالث **أنظر**: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص872.

4 أرسلت الأميرة كونستانس خطابا إلى الامبراطور مانويل كومنين تحثه على الزواج من ابنتها ماريا Maria بعد أن علمت بوفاة زوجته الامبراطورة إيرين ، **أنظر** : وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص874.

5 وليام الصوري، المصدر السابق،ج2،ص،881-882 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص579-580.

6 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص882، اسحق عبيد ، روما و بيزنطا ،ص224.

وعلى هذا الاتفاق المبدئي تسرع ريموند الثالث في اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة وشاركه في ذلك كافة أفراد العائلة حيث انهالت الهدايا على الأميرة "ميليسند "من أمها "هيوديرنا " وخالتها "ميليسند " والأهل والأصدقاء من أغلى النفائس من أساور وحلقان ودبابيس ملابس الرأس والخلاخيل والتيجان والخواتم والعقود والعصائب المصنوعة من الذهب الخالص، كما جهزت الأدوات الفضية الثقيلة الوزن والمختلفة الأوزان اللازمة للاستعمال في المطبخ وأدوات المائدة و الحمام إلى جانب اللجم والسروج ، كما جهز أخوها ريموند اثنتي عشر سفينة لنقل العروس إلى القسطنطينية استعدادا للزفاف وانتشرت الأخبار السارة في كل أرجاء الشرق اللاتيني فوفدت جماعات النبلاء من كل مكان إلى بلاط طرابلس، وقد كانت تلك الحفاوة العظيمة بالأميرة دليل على صدق النوايا والحماس لتلك الزيجة وللتحالف عن طريق التصاهر بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية [1].

غير أن تأخر رد الإمبراطور مانويل بموافقته الشخصية على الزواج زاد من قلق بلدوين وريموند خاصة بعد أن انصرم عام كامل دون رد من القسطنطينية، لذا فقد طلبا من السفراء البيزنطيين البحث في الأمر وجعلوهم بين خيارين إما الإسراع في إتمام الزواج أو فضه بشرط أن يعوضوا الأمير ريموند ما تكلفه من مصاريف باهظة استعدادا لهذا الزواج، بيد أن الرسولين ماطلا في الرد فما كان من بلدوين إلا أن أرسل مبعوثا شخصيا وهو "أوتو ريزبرج" Oto Risbring إلى العاصمة البيزنطية أوائل صيف 556هـ/1161م لكشف الأمر و هنالك علم أن مانويل قد رفض الزواج من ميليسند[2].

سرعان ما انتشر الخبر في كل مكان وأشاع اضطرابا شديدا بين الأوساط اللاتينية خاصة في بلاط طرابلس، إذ أعلن ريموند أنه سيقود حملة بحرية بنفس السفن التي كان قد أعدها للزفاف ليخرب سواحل الإمبراطورية انتقاما للإهانة التي لحقت بشرف أسرته من جزاء تصرف مانويل كومنين، أما رد فعل الملك بلدوين فقد أحس بأن رفض الإمبراطور البيزنطي يمثل إهانة شخصية له باعتباره وكيلا للأميرة ميليسند، وقد انسل السفراء البيزنطيون في طرابلس سرا وأبحروا هاربين في قارب صغير إلى قبرص، أما بالنسبة للأميرة ميليسند فقد كان رفض الإمبراطور بمثابة صفعة قوية وجهت إليها فأصيبت بصدمة لم تتحملها وأصابها انهيار عصبي مما أثر عليها فأصيبت بالهزال [3].

كان رد الإمبراطور البيزنطي غير متوقع عند الصليبيين بصفة عامة وشكل صدمة كبيرة لديهم ما استوجب البحث عن أسباب هذا الرفض التي من أهمها أن الإمبراطور مانويل ادعى أن العروس كانت معتلة الصحة من جهة إلى جانب ما أشيع عن عدم صحة نسبها، رغم أن الحقيقة غير ذلك إذ أن الحقيقة تكمن في الناحية السياسية، فالإمبراطور البيزنطي كان يرى أن الزواج من الأميرة ماريا سيرسخ النفوذ البيزنطي في الإمارة لكنه وضع في أول الأمر حرية الاختيار للملك بلدوين بين الأميرتين حتى لا يظهر نواياه بوضوح في إمارة أنطاكية، كما يمكن القول أيضا أن كونستانس أميرة أنطاكية – والدة ماريا – كانت ترغب في السيطرة على زمام الأمور بعد أن أسر زوجها أرناط، وما تقرر من وضع الإمارة تحت

1 عبد العزيز محمود عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر ،ص126.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص 883.

3 ، اسحق عبيد ، روما و بيزنطا ،ص224 -225.

وصاية بلدوين للحفاظ على حقوق بوهيمند الثالث[1]، وأمام هذا فقد كتبت كونستانس سرا إلى مانويل كومنين تستنجد به فأرسل لها يطمئنها ويطلب يد ابنتها ماريا للزواج[2] .

لما وصل الملك بلدوين الثالث إلى أنطاكية لإقرار الحكم فيها فوجئ بوجود مبعوثين بيزنطيين هناك وكان في مخيلته أنهما سيعودان أدراجهما بعد أن غادرا طرابلس، ويبدو أنه كانت هناك اجتماعات سرية مع الأميرة كونستانس بشأن تزويج ابنتها ماريا من الإمبراطور مانويل، فما كان من الملك الصليبي إلا أن يوافق على الزواج حفظا لماء الوجه ولأن الأميرة اليتيمة ماريا لا ذنب لها في الأحداث التي تدور حولها[3].

وبانتهاء المفاوضات وموافقة جميع الأطراف تجهزت السفن لنقل العروس للقسطنطينية وقد اصطحبتها حاشية كبيرة من رجال انطاكية إلى ميناء (القديس سيمون عند مصب نهر العاصي) –السويدية – ، وبالفعل تم الابحار في شوال 556 هـ/ سبتمبر 1161م و تمت مراسيم الزواج في 5 محرم 557هـ/ 25 ديسمبر 1161م، وأسفر ذلك الزواج عن انجاب مانويل ألكسيوس، ووثق هذا الزواج العلاقات بين بلاطي أنطاكية وبيزنطة وأخذ النفوذ البيزنطي يزداد وضوحا في الإمارة الصليبية [4].

لم تكن الإمبراطورية البيزنطية وحدها التي كانت تسعى لتدعيم موقفها السياسي بالزواج من أميرات صليبيات، فعندما قرر الملك الصليبي بلدوين الثالث الزواج فكر في مصاهرة البيزنطيين الذين كان في وسعهم مساندة الصليبيين في بلاد الشام والشد بأزرهم ضد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي ازداد نفوذه يوما بعد يوم، كما اعتقد بلدوين أن الأمن والسلام لن يتحققا للإمارات الصليبية إلا بالتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية وذلك عن طريق المصاهرة بالزواج من أميرة بيزنطية [5].

وبالفعل أوفد الملك بلدوين الثالث سفارة إلى القسطنطينية على رأسها "أتارد " Attard رئيس أساقفة الناصرة الذي وافته المنية قبل إتمام المهمة، فتابع المبعوثون الباقون وعلى رأسهم همفري Hemphri الكونستابل الملكي و "جوسلين بيسيلوس " Josccelon Beslious و "وليم دو باري William de bary وكانوا رجالا نبلاء بارزين ومتمكنين في الأمور المدنية، ولما وصلت السفارة إلى العاصمة البيزنطية وبعد مفاوضات طويلة حول مشروع المصاهرة، وافق الإمبراطور مانويل على فكرة الزواج التي تمهد سبل التحالف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية، ورشح ابنة أخيه إسحق كومنين " ثيودورا" Theodora للزواج من الملك بلدوين وكانت الأميرة لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها غير أنها كانت مكتملة الأنوثة وتميزت بجمال فريد يؤثر على كل من رآها[6].

---

1 محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول ،ص269.

2 عاشور ، الحركة الصليبية ،ج2،ص678.

3 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص884.

4 وليام الصوري ، المصدر السابق ، ج2،ص874، اسحق عبيد ، روما و بيزنطا ،ص226.

5 محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية ، ص219،

6 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص861-862، اسحق عبيد ، روما و بيزنطا ،ص216، عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، عصر بلدوين الثالث،ص.260

بعد الاتفاق على مراسيم الزواج بعث الملك بلدوين إلى الإمبراطور رسالة خطية تتضمن قبوله لما اتفق عليه مبعوثوه ، ومن ثمة سارت الأميرة البيزنطية ومعها وفد من أعيان المدينة مع السفراء الفرنجة إلى المملكة الصليبية حيث عقد قرانها على بلدوين الثالث في شعبان 553هـ/ سبتمبر1158م[1]، وقد اتسم زواجهما بالمحبة والاخلاص غير أنهما لم يعقبا أولادا[2].

لقد حققت تلك المصاهرة مكاسب سياسية عظيمة للصليبيين من خلال تحالفهم مع الإمبراطور البيزنطي الذي وعد بدوره بأنه سيأتي بصفة شخصية كي ينقذ بيت المقدس، وكان التزام لم يتوان عن تلبيته في نفس السنة[3]، كما ترتب عن هذا الزواج أن النفوذ البيزنطي الذي كان متأججا بين القوة والضعف في إمارة أنطاكية عاد ليظهر في مملكة بيت المقدس أكبر الإمارات الصليبية بالشام برضاء تام من الملك و النبلاء، ولعل ذلك يعود إلى أن الصليبيين بصفة عامة اطمأنوا إلى مساعدة بيزنطة للاتين[4].

تجددت محاولات الصليبيين في توثيق العلاقة مع البيزنطيين عن طريق المصاهرة، حيث التمس أمير أنطاكية بوهيمند الثالث صداقة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين وقام سنة 573هـ/ 1177م بالزواج من الأميرة "ثيودورا" Théodora التي تمت بصلة القرابة للإمبراطور[5]،غير أن بوهيمند قد هجر زوجته البيزنطية وتخلى عنها بمجرد سماعه بوفاة الإمبراطور مانويل سنة 576هـ/ 1180م و اتخذ من خليلته المدعوة "سيبيلا " Sybilaزوجة ثانية له مخالفا بذلك قواعد المسيحية ما عرضه للحرمان الكنسي، ويبدو أن زواج بوهيمند من "ثيودورا "كان زواجا سياسيا بحتا انتهى بانتهاء المصلحة، فبتداعي الإمبراطورية البيزنطية وانقلاب موازين القوى في الشرق بعد وفاة الإمبراطور مانويل ابتهج الأمير بوهيمند من زوال الضغط البيزنطي على إمارته ولم يعد هنالك داع عنده لاستمرار هذا الزواج[6].

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 860،

Archer , Kingsford, the crusades, p228-229, setton , op ,cit, vol 1, p534 Grousset, op , cit, p, 142 .

2 لم تنجب ثيودورا أطفالا من بلدوين و بعد وفاته عام 558هـ/ 1162م ارتبطت بعلاقة غير شرعية مع ابن عمها أندرونيكوس كومنين و غادرت عكا التي كانت إقطاعا ثقيلا في يدها من زوجها الملك بلدوين ،و قد أثمرت هذه العلاقة عن ولد يدعى ألكسيوس Alexis و بنت تدعى ايرين Erene ،**أنظر**: وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص924، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 610-611.

3 Grégoire le prêtre , Chronique de Grégoire le prêtre (R.H.C) Arm ,TT,paris,1869,P186 .

4 محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية ،ص224،

Setton , op ,cit ,vol1 , p534 .

5 اختلفت آراء المؤرخين في تحديد قرابة ثيودورا للإمبراطور مانويل كومنين ، فهي ليست ثيودورا ابنة أخيه إسحق كومنين السابقة الذكر زوجة بلدوين الثالث بل ليس معروفا ما إذا كانت من أسرة كومنين ، فالبعض قال أنها تمتُ بصلة قرابة للإمبراطور عن طريق أمها، و البعض اكتفى بذكر أنها أميرة بيزنطية وحسب ،**أنظر** : وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص1022، حسين عطية ، إمارة أنطاكية ،ص173، حسن حبشي ، نور الدين و الصليبيون، دار الفكر العربي ،(د.م.ن) ،(د.ت) ، ص91.

6 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص1022-1023، رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص694،

نهج الملك عموري الأول Amalric I (558-569هـ/ 1163-1174م) نهج أخيه في تقوية علاقاته مع البيزنطيين وذلك لتحقيق أهدافه في السيطرة على مصر، حيث سعى للزواج من أميرة بيزنطية بعدما طلق زوجته اللاتينية أجنس دي كورتيناي[1]، ويبدو أن ملك بيت المقدس أدرك أن التحالف مع بيزنطة قد صار ضرورة ملحة لتحقيق أهدافه التي ترمي إلى حماية حدود الصليبين من التوسع الإسلامي على يد الزنكيين، والتوسع على حساب مصر قبل أن يتمكن نور الدين من الاستيلاء عليها، وكل هذا لن يتحقق إلا من خلال مصاهرة تقوي الصلات بين الطرفين.[2]

غير أن علاقات التقارب بين اللاتين وبيزنطة تزامنت مع سلسلة من النجاحات التي حققتها الأتابكية الزنكية في بلاد الشام ابتداء بإسقاطها لإمارة الرها الصليبية سنة 539هـ/ 1144م[3] والاستيلاء على حمص سنة 534هـ/ 1149م، والإغارة على مناطق أنطاكية ومنها حارم[4]، ثم دمشق سنة 549هـ/ 1154م والإغارة على بانياس وحوران وطبرية 552هـ/1158م[5]، هذا ما دفع مملكة بيت المقدس لتعميق علاقتها ببيزنطة وجر الأخيرة للتعاون معها عسكريا لمواجهة الضغوط الزنكية في بلاد الشام، والتعاون مع حليفتها بيزنطة لتحقيق مشروع غزو مصر.[6]

من هنا أرسل عموري سفارة إلى القسطنطينية عام 560هـ/1165م مؤلفة من رئيس أساقفة قيسارية "هيرنسيوس Hernesius" والساقي الملكي "أودو سانت أماند" Eudes de sain Amand "، لكن الإمبراطور مانويل كومنين تركها تنتظر رده مدة عامين، ولعل السبب في التأخير يعود إلى غضب الإمبراطور من الملك عموري لإلحاحه عليه في طلب التنحي عن السيادة البيزنطية على أنطاكية، ولما أدرك عموري هذا انصرف نهائيا عن مطلبه وانتهى الأمر باختيار الأميرة ماريا " Maria "[7] ابنة حنا كومنين أخو الإمبراطور لتكون زوجة لعموري وملكة لبيت المقدس، وعندما

---

1 كان الملك عموري الأول متزوجا من أجنس Agnes منذ عام 552هـ/ 1157م و هي ابنة جوسلين الثاني حاكم إمارة الرها سابقا وأرملة رينالد حاكم مرعش ، و قد أنجب منها عموري طفلين هما سيبيلا و بلدوين غير أن زواجهما لم يكن شرعيا لصلة القرابة التي تجمعهما و هي من الدرجة الرابعة و هذا مخالف لقواعد الكنيسة ، و عندما حان وقت تتويج عموري ملكا لبيت المقدس لم ينس مجلس البلاط الملكي الخطأ الذي ارتكبه عموري في حق الكنيسة، و رفضوا تتويجه ما لم يبادر بفسخ زواجه من أجنس وأيدهم في ذلك البطريرك عموري دي نسل Amauru de nesl ،و اضطر عموري أمام الضغط الواقع عليه أن= =يرضخ لرأيهم و وافق على فسخ زواجه من أجنس بشرط أن يتمتع أولاده بكل حقوقهم الشرعية في وراثة العرش .**أنظر**: وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 882، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ،ص48.

2Grousset, op , cit, p 153 .

3 ابن القلانسي، تاريخ دمشق ، ص436، ابن الأثير ، الباهر في الدولة الأتابكية ،ص66-67، ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج2،ص29.

4 **حصن حارم** : حصن حصين غربي حلب بالقرب من أنطاكية، على بعد 16كم منها، و بعد فتحها على يد نور الدين سنة 559هـ/1164م صارت من أعمال حلب، فيها أشجار كثيرة و مياه غزيرة، وقد سميت بحارم لحصانتها بمعنى يحرمها العدو أو تكون حرما لمن بداخلها، وهي حاليا من مناطق محافظة أوليا في شمال سوريا و تبعد عن أوليا مسافة 53كم ، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج2،ص205،محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية لنور الدين،ص175.

5 البنداري ،سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة،1959،ص 16،أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، ج1، تعليق: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت،(د.ت)،ص 133.

Stevenson , The Crusaders , P179.

6 تغريد عبد الحميد جبر الختاتنة، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول كما أرخ لها وليام الصوري مقارنة بالمصادر الأخرى (1162-1174م / 558-569هـ) ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة مؤتة ، 2002م ،ص76.

7 **ماريا كومنين** : أميرة أرثودكسية و هي ابنة يوحنا الأخ الأكبر للامبراطور يوحنا كومنين ، تزوجت من الملك عموري سنة 561هـ/1165م ،أنظر: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص922.

وعندما علم الملك عموري بأن سفراءه قد وصلوا إلى صور وفي رفقتهم العروس البيزنطية أسرع لمقابلتها وتم زواجهما في احتفال كبير في كاتدرائية صور في أول ذي القعدة 552هـ/29 أوت 1167م[1].

وقد كان في صحبة الأميرة ماريا إثنان من كبار موظفي الإمبراطورية وهما "جورج باليولوجوس " و"مانويل كومنين " ، اللذان كانا مفوضان من قبل الإمبراطور البيزنطي للمناقشة حول التحالف البيزنطي – الصليبي، وقد أسفر هذا الزواج عن طفلة وهي إيزابيلا التي صارت ملكة بيت المقدس فيما بعد[2].

ومن هنا يمكن القول أن علاقات المصاهرة التي جمعت بين الصليبيين والبيزنطيين زادت من قوة الترابط بينهما خاصة وأن الحليفين قد اشتركا في نفس الأطماع التوسعية على حساب أراضي المسلمين كما أن الصحوة الإسلامية التي ظهرت في عهد الزنكيين أكدت على ضرورة الاتحاد والتحالف لضمان البقاء كقوة ضاربة في المنطقة .

ج- **مع الصقليين** :

لقد ربط الصليبيون أنفسهم عن طريق الزواج بمحاولات تحالف مع صقلية، ومن مثال ذلك الزواج الذي حدث بين الملك بلدوين الأول وأدليد سالونا Adelaide Salouna أميرة صقلية[3]، فبعد انفصاله عن الأميرة الأرمينية " أردا" أقدم على الزواج من "أدليد" وذلك بعد تشجيع من بطريرك بيت المقدس أرنولف Arnulf، ولما كان الملكُ ملما بتطورات الأزمة المالية التي تمر بها المملكة والحالة الاقتصادية المتعسرة والتي أصبح فيها غير قادر على دفع أجور فرسانه، فأراد التخلص من تلك الضائقة المالية بهذا الزواج خاصة وأن الأميرة الصقلية كانت تتمتع بثروات طائلة ومملكتها تمثل أحد المراكز التجارية الرئيسية بين الغرب والشرق، إضافة إلى ما يمكن أن تقدمه البحرية الصقلية والتي كانت تمثل قوة كبيرة في حوض المتوسط من مساعدات في تثبيت وتقوية مركز مملكة بيت المقدس بين الدول الإسلامية والمسيحية المجاورة لها[4].

أرسل الملك بلدوين الأول سفارة خاصة إلى صقلية لطلب الزواج من الأميرة أدليد، وكان أعضاء السفارة يحملون معهم تفويضا من الملك بالموافقة على كل الشروط التي يضعها البلاط الصقلي في سبيل اتمام الزواج، و قد أدركت أدليد بثاقب نظرها أنه كما أن الملك بلدوين يريد الاستفادة من وراء زواجه منها فعليها أيضا أن تبحث بدورها عما يفيدها وينفع ابنها من بعدها، لذا فقد اشترطت على الملك أن يؤول عرش المملكة اللاتينية بعد وفاته إلى ابنها روجر الثاني

---

1 Ernoul , La chronique d' Ernoul ,p18.

وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص923، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص49.

2رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص609.

3 **أدليد سالونا**: هي أدليد ابنة الماركيز مانفرد، وابنة أخ بنيقاس كونت سالونا ، و قد تزوجت من روجر الأول كونت صقلية سنة 1089م و كانت زوجته الثالثة واستمرت معه حتى توفي عام 1101م، و أنجبت منه ولدين هما سيمون 1093م و روجر عام 1095م ولما مات الابن الأكبر في الثانية عشر من عمره بعد وفاة زوجها أصبحت وصية على عرش صقلية ثم تنازلت لولدها روجر الثاني عن العرش بعد أن بلغ سن الرشد ،**أنظر** : رنسيمان ، المرجع السابق ،ج1، الهامش رقم 1،ص168.

4 فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص 154 ، وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص550-551، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس،ص25-26،

حاكم صقلية إذا لم يثمر زواجها منه بإنجاب وريث للمملكة اللاتينية، ولعل أدليد عندما وضعت هذا الشرط كانت تعلم أن أملها في الانجاب ضعيف لتقدُم سنها[1].

بعد أن وافق الملك بلدوين الأول على الشرط استعدت الأميرة أدليد للسفر لإتمام الزواج، وفي ربيع الأول 507هـ / أوت 1113م وصلت العروس لميناء عكا في موكب مهيب من السفن محملة بكميات كبيرة من الكنوز والأموال إلى جانب المؤن المختلفة من حبوب ونبيذ وزيت ولحم، وكان الملك الصليبي في استقبالها على رأس أمراء المملكة وأعضاء البلاط الملكي ومحاطا بكل مظاهر الأبهة الملكية وقد تم عقد القران بعد عدة أيام بحضور الملك والبطريرك ورجال بارزين في المملكة، وانتعشت المملكة اللاتينية كثيرا بهذا الزواج والتقارب بين بيت المقدس وصقلية [2].

على أية حال لقد حلت أموال الكونتيسة الصقلية الكثير من المشاكل المالية التي كانت تعاني منها مملكة بيت المقدس، حيث تمكن الملك من صرف مرتبات الجيش المتأخرة وبناء الاستحكامات والحصون وسداد كثير من الديون المتراكمة على المملكة، غير أن عدم انجابها الوريث الشرعي للمملكة كان له عظيم الأثر في تهديد حياتها الزوجية، خاصة وأن ذلك سيؤدي إلى أن يؤول العرش الصليبي إلى كونت صقلية، فهاجم بارونات المملكة البطريرك أرنولف واتهموه بالتستر على عدم شرعية زواجه من أدليد رغم علمه بأن زوجته الأولى أردا مازالت على قيد الحياة في القسطنطينية[3].

أرسل بارونات المملكة اللاتينية العديد من الشكاوي إلى البابا باسكال الثاني Pasquale Ⅱ (492- 513هـ/ 1099-1118م) في روما فعُزل أرنولف من منصبه وذلك سنة510هـ/ 1116م، وأضطر الأخير إلى الذهاب إلى روما واستطاع اقناع البابا العدول عن قرار عزله شرط العمل على انفصال الملكة أدليد وبلدوين الأول، حاول البطريرك اقناع الملك لفسخ الزواج غير أنه تردد في اتخاذ هذا القرار لعدم رغبته في فقدان مزايا التحالف مع صقلية، لكن بعد اصابة الملك بمرض خطير في سنة 510هـ/ 1117م واحساسه بدنو أجله بادر باستدعاء زوجته الأولى"أردا "ليكفر عن خطيئته وأعلم الملكة بقرار انفصاله عنها وطلب منها العودة لصقلية[4].

لكن روجر لم يغفر على الإطلاق الإهانة التي لحقت بأمه أو التغاضي عن حقوقه في تولية عرش مملكة بيت المقدس طبقا لشروط إتمام الزواج السابق المفصح عنها، وقد أوضح المؤرخ وليام الصوري أن صقلية ظلت دون باقي ملوك الغرب الأوروبي لا تقدم المساعدات إلى المملكة اللاتينية[5].

د– مع المسلمين:

على الرغم من أن التزاوج يعتبر أحد العوامل الرئيسية في الاختلاط والتفاعل الاجتماعي إلا أن المرأة الفرنجية ظلت بمنأى عن الزواج بالرجل الشرقي، إذ كانت دائما تفضل الزواج برجل غربي حتى ولو كان على رأي بعض المؤرخين يعمل

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص550-551.

2 ألبرت فون آخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ،ص305-306، رنسيمان ، المرجع السابق،ج1،ص167،

3 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس،ص 154، وليام الصوري،تاريخ الحروب الصليبية،ج1،ص551،

Grousset, op , cit, p82-83 ,Stevenson, Th crusaders in the east, p65-66,

4 Setton ,op ,cit, vol 1, p372

5 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص 566.

اسكافيا[1]، كما أن الاختلاف العقائدي كان من أهم العقبات، ويذكر فوشيه الشارتري[2] " إن البعض اتخذ زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السوريات أو من الأرمينيات، بل وحتى من الشرقيات اللواتي حضين ببركة العماد"، وأصبح هذا الجيل الجديد يجمع بين الجنسين العربي والإفرنجي، بل إن بعض الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام وارتبطوا بالكيان القومي العربي، حيث احتفظت بعض العائلات اللبنانية بأسماء لاتينية مثل Frankish ,Crusading, Balduin وغيرها[3].

أما عن الزواج من المسلمين فقد حرم الصليبيون زواج أبنائهم أو بناتهم من المسلمين، وبذلك لم يتم بين الصليبيين والمسلمين ببلاد الشام عقد أي زيجات إلا فيما ندر[4]، إذ أصدر مجمع نابلس الكنسي سنة 514هـ/ 1120م قرارا يمنع بموجبه الزواج من المسلمات وحدد عقوبة الخصاء وجدع الأنف لكل من أقدم على خلاف ذلك[5].

3-الصداق (البائنة) [6]:

تباين مفهوم الصداق في المجتمع الصليبي عن المجتمع الإسلامي، حيث كان من عادة الصليبيين أن والد العروس هو المكلف بدفع صداق ابنته وتجهيزها على أتم وجه، فقد كان من واجبات العروس تجاه زوجها أن تقدم له صداقاً عينياً أو نقدياً يتناسب مع حالتها من الغنى أو الفقر، وفي حالة الفتاة التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية كان عليها أن تقدم لزوجها صداقًا كبيرًا يتمثل في إقطاع واسع أو مبلغ محترم من المال، أما إذا لم يتهيأ لها ذلك فكان من الطبيعي أن تتعرض لإدبار الرجال عنها وهو الأمر الذي كانت تخشاه الفتاة والأسرة معا، وكانت الأسرة غالبا ما تتخذ الاحتياطات اللازمة لتحاشي هذا الأمر، فكان الوالد إذا شعر بدنو أجله فعل كل ما بوسعه ليترك لبناته صداقا مناسبا لزواجهن[7].

أما المتقدم للزواج من الصليبيين فقد كان يقدم هدية للعروس يطلق عليها بائنة الزواج[8]، وكانت بائنة الزواج للطبقة الحاكمة أو الأرستقراطية تتمثل في تقديم بعض الحصون أو المدن التي استولى عليها الأمير غير أنه في بعض الحالات كانت العروس تقدم البائنة إلى من يتقدم للزواج منها إلى جانب ما ينفقه ولي أمرها في تجهيزها[1].

---

1 Setton , op,cit,vol4,p23.

2 الحملة إلى بيت المقدس، ص124.

3 فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص390.

4 الحويري، الأوضاع الحضارية، ص259.

5 على الرغم من أن الصليبيين كانوا يتشددون في مسألة المصاهرة مع المسلمين إلا أنهم لم يلتزموا بتنفيذ ذلك المبدأ، بدليل عرض الزواج الذي قدمه الملك الانجليزي ريتشارد قلب الأسد للملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، وسعيه لتزويجه من أخته الملكة جوانا Joanna ملكة صقلية ،رغبة في المصالحة والمسالمة، وكاد ذلك الزواج أن يتم لولا معارضة رجال الدين ، ويذكر أبو شامة أن القساوسة والرهبان " قد دخلوا على المرأة و خوفوها في دينها وعنفوها ، وقالوا لها فيما معناه : هذه فضيحة فظيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة فرجعت عن ذلك" أنظر: الروضتين ،ج2،ص 193، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، ج3 ،ص116،

Natacha, Women Crusading ,P120

6 أنظر الملحق (2) يبين الإقطاعات التي منحت للأميرات الصليبيات كصداق (مهر) للزواج .

7 اسمت غنيم ، دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص228.

8 و يقصد ببائنة الزواج عطية الزواج فنقول " إن كنت أبنتك أي أعطيتك " ، أنظر : ابن منظور ، لسان العرب ،ج1، ص560.

وهو عكس ما كان منتشرا في بلاد الشام والعالم الإسلامي عموما، فقد كان الرجل الشرقي الراغب في الزواج هو من يدفع المهر الذي تشترطه العروس باعتبار أن القوامة للرجال، غير أن الصليبيين قد نقلوا إلى مجتمعهم الصليبي العادات والتقاليد الغربية منذ أول وهلة من استقرارهم في بلاد الشام، وبات بذلك قدر المهر الذي تدفعه العروس وأهلها من قدرها ويعبر عن مكانتها في المجتمع.

وجدت بعض الإشارات في بطون المصادر اللاتينية عن قدر وقيمة الصداق الذي كانت تدفعه أسر الفتيات للظفر بعريس مناسب لبناتها، خاصة في الطبقة الحاكمة والأرستقراطية ومثال ذلك زواج الملك بلدوين الأول من الأميرة الأرمينية "أردا" لما كان لا يزال حاكما لإمارة الرها وقد استطاع بهذه الزيجة أن يكسب ود الأرمن وولاءهم له، كما حصل على صداق كبير من والد زوجته الواسع الثراء[2]، تمكن من خلاله أن يسدد جزء من ديونه ويقال أن هذا الصداق بلغ حوالي ستين ألف بيزنت[3]، يضاف إلى ذلك ما وعده به والد زوجته بأن يرث أرضه بعد وفاته، ويبدو أن بلدوين لم يحدد أية بائنة لأردا استنادا للمصادر التي بين أيدينا، وهذا ما يؤكد أن إقدام بلدوين الأول على هذا الزواج كان بغرض الإثراء على حسابها دون أن يفقد شيئا من أملاكه[4] .

حصل بلدوين الأول كذلك على صداق ضخم من زواجه الثاني من أدليد سالونا كونتيسة صقلية ووالدة روجر الثاني حاكم صقلية، بعدما قام بتطليق زوجته الأرمينية وقد كانت أدليد بالغة الثراء، حيث أبحرت إلى المملكة اللاتينية في صيف507هـ /1113م حاملة معها ثروة لا تقدر بثمن منها سبع سفن محملة بكل ما تملك الكونتيسة من كنوز و ثروة، كما أن بلدوين هذه المرة أيضا لم يدخر الصداق بل بادر إلى تسديد رواتب الجند المتأخرة وبناء الاستحكامات، كما أسهم مال الكونتيسة في انتعاش تجارة البلاد [5].

وقد توالت الزيجات السياسية التي قدمت فيها النساء الصليبيات صداقا كبير، ومثال ذلك ما قدمته سيسيليا أرملة تنكرد أمير أنطاكية وابنة ملك فرنسا فيليب الأول عند زواجها من بونز بن برتراند أمير طرابلس، حيث كانت بائنتها ممثلة في حصن ابن الأحمر (قلعة الروج) وجبلة وحصن الأكراد الذي ظل إقطاعا لأمراء طرابلس حتى أعطاه ريموند الثاني إقطاعا لفرسان الإسبتارية [6] .

---

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2، ص296.

2 اشتهر صهر بلدوين الأول في الحوليات التاريخية باسم تفنوز أو تفروق كان من الأمراء الميسورين و يملك اقليما قريبا من الرها ، و يرجح أنه ثاتول صاحب مرعش الذي صار تحالفه مع بلدوين شديد الأهمية بعد زواج هذا الأخير من ابنته، و كان وثيق الصلة بالقسطنطينية التي لجأ إليها آخر الأمر عندما طرده الفرنج من مرعش ،أنظر: رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص296

3 **البيزنت** : وعرف بالسوليدس، وهو نقد ذهبي أطلق عليه البيزنطيون اسم نومزما ، والتي استمرت متداولة إلى أن أطلق عليها في الفترة الأخيرة للإمبراطورية البيزنطية في أوروبا الغربية و في القسم الشرقي لها اسم " **بيزنت** "،**أنظر**: رأفت النبراوي، النقود الصليبية ، هامش رقم 2، ص23.

4 وليام الصوري ، الحروب الصليبية، ج1، ص478، علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها ،ص76،

5 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 166-167.

6 عبد العزيز محمود عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية ، ص147.

وعندما تقدم الملك بلدوين الثالث للزواج من الأميرة ثيودورا كومنين قدم للإمبراطور مانويل كومنين "صداقها الذي قدر بمائة ألف عملة ذهبية " فضلا عن "مصاريف الاحتفال التي قدرت بعشرة آلاف ذهبية " إلى جوار الهدايا المقدمة من الإمبراطور والتي قدرت بحوالي "ثلاثين ألف عملة ذهبية"، لتجهيز ثيودورا التي احتوى جهازها على "الجواهر والحلي الذهبية وقباب ملكية من اللآلىء، فضلا عن الأقمشة الحريرية، والأوعية الفاخرة حتى قدر الجهاز بأربعة عشر ألف عملة ذهبية، أما عن بائنة زواجها فقد كانت مدينة عكا وملحقاتها، وقد تعهد الملك بلدوين بأن تحتفظ ثيودورا بالمدينة حتى لو لم يعقب منها ولد كي تضمن دخلا يعينها على المعاش[1].

كمثال آخر لبائنة الزواج ما قام به البطريرك أرنولف عندما منح أمير صيدا يوستاش جارنييه Garnier Eustace كل من منطقة أريحا وما جاورها كبائنة زواجه من ابنة أخته إما Emma والتي زفت إليه سنة 510هـ/ 1116م، وإن كان هذا يعني أن أرنولف قد استغل أملاك الكنيسة لصالح ابنة أخته، ومما لا شك فيه أن حيازة يوستاش لتلك المناطق يعد مكسبا ماديا ضخما بالنسبة له لأنها مثلت أفضل قطعة من الأراضي التابعة للكنيسة لأنها منطقة الضريح المقدس ومن أوقاف الكنيسة[2]، وقد قدر وليام الصوري دخل المدينة بخمسة آلاف قطعة ذهبية[3].

كانت بائنة زواج ماريا كومنين من زوجها الملك عموري الأول مدينة نابلس وما أحاط بها من أراضي كي تصير مصدر دخل فترة حياتها، ومما يجدر الإشارة إليه أن ماريا تزوجت عقب وفاة عموري من باليان إبلين Balian de belin الذي كان أميرا على الرملة (549- 565هـ/ 1154-1169م) فصارت له مدينة نابلس كما صار إليه التصرف في إدارتها طالما كانت زوجته على قيد الحياة[4].

أما عن صداق عروس جوسلين دي كورتناي الثانية، والتي كانت تمت بصلة القرابة للأمير روجر أمير أنطاكية فقد قدمت إليه حصن عزاز[5] كبائنة ولم تبادر بتقديم عملات ذهبية أو هدايا أخرى وهذا يدل على أن الزوج في هذه الحالة هو الذي قام بتقديم المهر وتجهيز العروس[6].

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص860 ، إسحق عبيد ، روما و بيزنطة ،ص216، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث 1143-1163م ، ص260.

2 حسين عطية ، مجلس نابلس 23 يناير 1120م و أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية ، حولية التاريخ الإسلامي و الوسيط ، القاهرةج2000-2001 م ، م1، ج1،ص44 .

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2، ص 840،.

4 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص910، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2 ص609، تغريد عبد الحميد جبر الختاتنة ،السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس ،ص40-41.

5 **عزاز** : تعرف قديما بتل عزاز و هي بليدة مشهورة ظاهرة المحاسن فيها قلعة و لها رستاق شمالي حلب، تقع قرب حصن الأكراد عند ممر عفرين الذي يفصلهما يفصلهما عن الساحل شمال بحيرة طبرية استولى عليها الصليبيون سنة و استرجعها نور الدين محمود سنة 546هـ/ 1151م، أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص369، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج4،ص118، كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب،ج1،ص 492

6 لم يتم الاتفاق حول صلة قرابة العروس بالأمير روجر أو حتى عن تحديد اسمها و سنة زواجها و قد قيل أنها أخت روجر و أن اسمها ماريا ، و تزوجت في حياة حياة أخيها روجر، **أنظر** : رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ج2،ص 205، هامش رقم1، علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها ،ص118.

ومن أشهر النساء الصليبيات وأرفعهن قدرا بنات الملك بلدوين الثاني وأمهن الملكة مورفيا الأرمينية Morfia، حيث تزوجها الملك بلدوين الثاني سنة494هـ/ 1100م وهو لا يزال كونتا للرها، وكان والدها جبريل أمير ملطية العاصمة الثانية لأرمينيا حيث حملت مورفيا إلى بلدوين صداقا كبيرا قدر بحوالي خمسين ألف بيزنت ذهبيا، كما أن الأمير جبريل قد ساعد بلدوين الثاني في عدة مناسبات بعد ذلك بأموال كثيرة[1]، أما عن بنات الملك بلدوين الثاني فقد تمثل صداق الأميرة أليس من زوجها بوهيمند الثاني أمير أنطاكية في مدينتي اللاذقية وجبلة، وبعد وفاة بوهيمند وتمرد أليس على والدها ورغبتها بالتفرد بعرش أنطاكية قرر الملك بلدوين اخراجها من أنطاكية وتسليمها المدينتين اللتان قد منحهما زوجها لها كصداق، كما منح الملك بلدوين الثاني صهره فولك الأنجوي مدينتي صور وعكا كصداق لابنته الكبرى ميليسند [2].

4- تقاليد الأفراح الصليبية:

اتسمت مظاهر الاحتفال بالزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بطقوس غريبة وجديدة على المجتمع الشرقي، الذي لم يألف مثل تلك المظاهر الاحتفالية فقد كان الاختلاط بين النساء والرجال في لهو وتسامر دون خجل أو حياء، كما كان يدعى إليها المسلمون والمسيحيون على السواء غير أن تلك المظاهر جعلت الغيورين على الإسلام يستنكرونها ويرون فيها مخالفة للشرع وانحرافا عن الشريعة السماوية [3].

من بين من استنكروا ما يحدث في حفلات الزفاف عند الصليبيين الرحالة ابن جبير الذي حضر إحدى تلك الحفلات بمدينة صور واستهجن عادات الصليبيين في مثل تلك المناسبات، حيث تأذت مشاعره لما رأى ذلك الاختلاط بين الرجال والنساء دون احتشام وأخذ يستعيذ بالله من تلك الفتن المتفشية في المجتمع الصليبي، وقد ترك لنا وصفا دقيقا عن مظاهر ذلك الحفل فذكر أن الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها وهي في أبهى زي وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعتادة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ثيابهم البهية تسحب أذيالهم خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهن، ولا ينكر عليهم ذلك، وساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة[4].

تباينت مراسيم الزواج إلى حد كبير ما بين السكان الشرقيين والصليبيين في المجتمع الصليبي، فبينما كانت مراسيم الزواج عند الصليبيين كما وصفها لنا ابن جبير امتدادا لما كان سائدا في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى آنذاك[5]

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص574،علية الجنزوري، إمارة الرها ،ص94.

2 جمال محمد حسن زنكي ، تطلع المرأة للسلطة ،ص40، محمد عبد الحميد فرحات، قضايا في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، ص56، رأفت عبد الحميد ،قضايا في تاريخ الحروب الصليبية ،ص63.

3 حسن حبشي ، نور الدين و الصليبيون ،ص161، محمود الحويري ، الأوضاع الحضارية ،ص 246-247.

4 ابن جبير، الرحلة ،ص278-279.

5 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص712.

،حيث تكون حفلة الزفاف بعد عقد قران العروسين، فلقد كانت من عادات الشرقيين في اليوم السابق لحفل الزواج وهو اليوم الذي يعرف بليلة الحناء أن تضع العروس الحناء في يدها وقدميها وكذلك العريس، وبعد ذلك تذهب بصحبة أهلها وصديقاتها في جو من البهجة والفرح والغناء، ويتم بعد ذلك تزيينها وتهيئتها نهائيا لليلة الزفاف، أما في اليوم التالي فيتم الزفاف في حفل بهيج يضم جميع الأهل والأصدقاء والجيران من كلا الطرفين في أبهى ملابسهم، حيث يتم في ذلك عقد قران العروسين، وبعد ذلك يقوم كلاهما مع الحاضرين بالمرور في بلدهما للإعلان والاشهار بتمام زواجهما حيث ينثر عليهما أهل البلدة الورود والحلوى وماء الورد، ثم يعود العروسان إلى منزلهما لينتهي حفل الزفاف بين ألحان الموسيقى والغناء وتهاني الأهل والأصدقاء[1].

لم تكن دعوة الصليبيين للمسلمين في مثل هذه الحفلات أمرا مستنكرا، فهم في السلم "إخوة "حتى لنرى رجالا من الفريقين يتآخون أو ينادي كل منهما صاحبه بأخي، وهذا ما يؤكده المؤرخ أسامة بن منقذ، حيث يذكر كذلك أن الصليبيين لما احتلوا بيت المقدس تسلم الداوية المسجد الأقصى وحولوه إلى كنيسة وكان أسامة كلما وفد إلى بيت المقدس يمر على تلك الكنيسة، فيسمح له الداوية بأن يصلي في المسجد الصغير وقد توثقت العلاقة بينهم لدرجة أنه كان يدعوهم بأصدقائي[2].

وقد ذكر وليام الصوري مثالاً آخراً لحفل زواج صليبي كان في حصن الكرك، تم بين همفري الثالث Humphry III حاكم تبنين وإيزابيلا" Isabella"الأخت الصغرى للملك بلدوين الرابع في سنة 579هـ/ 1183م، وفي ذلك قال : " وامتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس من كل نوع وكنا كلا الجنسين..، وكان هنالك عدد كبير من الممثلين والبهلوانين والموسيقيين وأناس آخرون، ممن اندفع إلى هناك من سائر أنحاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفاف" غير أن ذلك الحفل عطله ظهور صلاح الدين فجأة أمام حصن الكرك، وأضاف الصوري قائلا " وأحبطت توقعات هؤلاء جميعا بشكل محزن لأنهم واجهوا معارك عسكرية وأعمال حربية في الموقع الذي كانوا قد توقعوا أن يجدوا فيه مكاسب ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج"[3].

إزاء ذلك الموقف أرسلت والدة العريس ستيفاني أطباقا من أطعمة العرس إلى صلاح الدين، الذي أرسل في مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسين، ثم أصدر أوامره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار' وهذا التصرف ينم عن الأخلاق النبيلة التي يتمتع بها صلاح الدين والتي أوجبت عليه احترام فرحة العروسين رغم أنها فرصة جيدة للإطاحة بالصليبيين الذين كانوا داخل حصن الكرك، ولما انتهى الحفل توالت قذائف صلاح الدين على الأسوار ولم ينقطع حصاره إلا عندما تحركت جيوش الملك وأصبحت على مقربة من منه، فرفع حصاره وعاد لدمشق، فتحرر من كان تحت الحصار وعادوا إلى بلادهم[4].

1 عبد العزيز عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر ، ص177، نهى الجوهري ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر ، ص200.

2 أسامة بن منقذ ، الاعتبار ،ص134، حسن حبشي ، المرجع السابق،ص162، الحويري ،الأوضاع الحضارية ،ص248.

3 تاريخ الحروب الصليبية،ج2، 1065-1067.

4 رنسيمان ،المرجع السابق،ج2،ص 167

وتعتبر مراسيم زواج الملك "بلدوين الأول" والأميرة الصقلية" أديليد" من أفخم حفلات الزواج التي شهدها المجتمع الصليبي في تلك الفترة القرن 6هـ/12م، حيث أبحرت الأميرة الصقلية في صيف 507هـ/1113م في أُبهة و روعة، ويذكر المؤرخ رانسيمان[1]" أن البحر المتوسط لم يشهد حفل زفاف مثل هذا منذ أقلعت كليوباترا إلى نهر البردان Cydnus لتلتقي بأنطونيوس"، إذ افترشت في سفينتها بساطا منسوجا من خيوط الذهب، بينما ترصعت مقدمة السفينة بصفائح الفضة والذهب، ورافقتهما قطعتان من الشواني الحربية، وتعززت كل سفينة منهما بخمسمائة من صفوة المحاربين لحماية سفينة الكونتيسة من قراصنة البحر، وبثلاثة صفوف من المجاديف لدفعها، وقد تزين حراسها بأبهى الحلل العسكرية وأكثر ما لفت الأنظار الجنود العرب الذين يتألف منهم حرس ابنها الخاص، وقد لمعت وجوههم السوداء من الأردية الناصعة البياض التي تزينوا بها،كما رافقت سفينة الأميرة سبع سفن أخرى محملة بكميات هائلة من الكنوز والأموال بجانب المؤن من حبوب ونبيذ وزيت ولحوم [2].

وصل موكب الأميرة أديليد في ربيع الأول 507هـ/ أوت 1113م إلى عكا حيث كان الملك بلدوين الأول قد أعد الترتيبات اللازمة لاستقبال العروس، فكان موجودا على رأس كل أمراء المملكة وأعضاء البلاط الملكي، ومحاطا بكل مظاهر الأبهة والعظمة الملكية فكانت صفوف الخيالة تقف خلفه والفرق الموسيقية تعزف على كل أنواع الآلات الموسيقية وكانت السجاجيد مفروشة في الشوارع والأعلام ترفرف من الشرفات المزينة، وبعد أن تمت مراسيم الزواج في كنيسة بيت المقدس ثم احتفل في قصر الملك لبضعة أيام بهذا العرس الكبير ووزع الملك بلدوين الأول وزوجته الكثير من الهدايا والأعطيات على الفرسان والمرافقين للعروسين، وانتعشت المملكة اللاتينية كثيرا بهذا الزواج والتقارب بين بيت المقدس و صقلية[3].

مثال آخر لاحتفالات الزواج في المجتمع الصليبي وهو عقد قران "مورفيا " و " بلدوين دي بورج " الذي صار فيما بعد ملك بيت المقدس الثالث بلدوين الثاني، وقد تم زواجه مع مورفيا الأرمينية سنة 497هـ/ 1103م لما كان أميرًا على إمارة الرها الصليبية، وقد ضم حفل الزواج شخصيات من كافة الطبقات والمستويات الاجتماعية، حيث حضر الأمراء والنبلاء وأصحاب المقاطعات وأناس من عامة المجتمع كما حضرت شخصيات من السلك الكنسي أمثال "باسيل الأول " الرئيس الديني للبطريركية الأرمينية، وقد أقطعه بلدوين العديد من القرى وغمره بالهدايا ليضمن ولاء الأرمن له[4].

Natacha, Women Crusading ,P128

1 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص167.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية، ج1،ص550-551.

3ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ،ص305-306، أسامة زكي زيد ،ملكات بيت المقدس ،ص 27 .

4 الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ،ص89.

المبحث الثاني : الحياة الأسرية في المجتمع الصليبي:

1- علاقة المرأة بزوجها :

اتسمت علاقة المرأة بزوجها في المجتمع الصليبي بأنها مشابهة لنفس القوانين والأعراف الشائعة في الغرب الأوروبي مع بروز بعض التأثيرات الشرقية على العلاقات والتصرفات خاصة بعد احتكاكهم مع المجتمعات الشرقية المحافظة.

من أهم واجبات الزوجة تجاه زوجها في المجتمع الصليبي الخضوع التام له والطاعة العمياء لأوامره والصبر على تصرفاته، كما أن الزوجة المثالية في اعتقادهم هي تلك التي تتوفر فيها ثلاث صفات أساسية، وهي "المنفعة" بحيث يكسب الزوج من ورائها إقطاعا كبيرا أو مبلغا ضخما من المال، إضافة إلى "الجمال" بحيث تدخل السرور على قلب زوجها في كل وقت، أما الصفة الثالثة فتمثلت في "الإخلاص" فكان على الزوجة أن تكون امرأة فاضلة تحافظ على نفسها وبيتها وأسرار زوجها، وعلى المرأة أن تقدم كل هذا لزوجها دون أن تنتظر منه شيئا، بل أكثر من ذلك فقد تكون عرضة للضرب لأقل كلمة تصدر منها يعتقد الزوج أنها غير مناسبة[1].

قد أباح القانون للزوج ضرب زوجته ضربا مبرحا اعتقادا منهم أن ذلك كفيل بتصحيح مسارها وسلوكها، واعتبروا أنه على الأب أن يمارس هذا العقاب البدني مع بناته قبل الزواج حتى يتعودن عليه، ورغم أن القانون الكنسي لم يحرم انزال العقاب البدني بالزوجة إلا أن الكنيسة تدخلت في هذا الأمر، وكل ما فعلته هو أنها حددت حجم العصا التي يحق للزوج استعمالها عند ضرب زوجته[2].

لم يختلف وضع الزوجة النبيلة أو التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية العليا كثيرا عن وضع الزوجة التي تنتمي إلى الطبقات الدنيا أو الشعبية في المجتمع الصليبي، فهذه كتلك يجب أن تحصل على موافقة الزوج في كل ما يخصها، حيث نصت القوانين الصليبية أن المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تلجأ للعدالة ولو كان هدف اللجوء هو جريمة قتل إلا بعد أن تحصل على موافقة الزوج، وكان حتما على الزوج الدفاع عن زوجته في قاعة المحكمة ولكن إن رفض الزوج الدفاع عنها فهي تستطيع اللجوء في هذه المسألة إلى بطل أو فارس آخر، كما لو كانت بالضبط في وضع المرأة غير المتزوجة[3].

غير أن أغلب هذه القوانين لم تكن قيد التطبيق في المجتمع الصليبي الذي كانت فيه أغلب الزوجات الصليبيات يعشن في بذخ وترف لم تعهده في الغرب الأوروبي، فتهافتن على الخروج إلى الشوارع ومزاحمة الرجال في شوارع وطرقات المدن الصليبية، دون مراعاة لأزواجهن غير أن بعضا منهن حرصن على تقليد النساء الشرقيات في المكوث بالبيوت، و إن كان أزواجهن الصليبيين أكثر منهن حرصا على ذلك، إلا أن طبيعة المرأة الصليبية لم تألف هذا الأمر كثيرا، لدرجة أنهن

1 إسمت غنيم ، المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى ،ص229-231.

2إسمت غنيم ، المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى ،ص232.

3 جان ريتشارد ، وضع المرأة في الشرق اللاتيني ،ص161-162.

اتبعن العديد من الوسائل للتحايل على أزواجهن للخروج من منازلهن ومنها ما يذكره الفيتري من لجوؤهن في كثير من الأحيان لتعلم السحر[1].

لعل هذا يظهر مدى جرأة كثير من النساء الصليبيات وعدم التزامهن بطاعة أزواجهن، نظرا لأن العلاقة الزوجية التي كانت تجمعهن بهم كان يشوبها في كثير من الأحيان عدم الوفاق بين الزوجين، والذي قد يكون ناتجا عن صغر و تباين أعمار الزوجين، فقد كانت أغلب الزيجات الصليبية قائمة على الأطماع المادية، وعلى هذا النحو كان من الطبيعي أن تتطور تلك الخلافات إلى حد الخيانة الزوجية من أحد الطرفين أو من كليهما، فقد كان هذا الأمر شائعا في المجتمع الصليبي[2].

غير أن صورة العلاقات الزوجية لم تكن سيئة في المجمل، فقد انتشرت علاقات زوجية هادئة ومستقرة، أمام تلك العلاقات المشحونة والمتوترة والتي لا يخلو منها أي مجتمع، فكلما ساد الاحترام المتبادل والمحبة بين الزوجين كانت العلاقة هادئة و سعيدة على عكس الخلاف و التشاحن بين الزوجين يوصل العلاقات الزوجية إلى النهاية و الأمثلة التاريخية كثيرة عن نوعية العلاقات الزوجية داخل المجتمع الصليبي[3] .

منها علاقة الملكة "ثيودورا كومنين" بالملك "بلدوين الثالث" والتي اتسمت بالمحبة والهدوء والإخلاص ويذكر وليام الصوري[4] أنه قد تعلق دائما بزوجته بحب جدير بالثناء، وأنه كان مخلصا للنهاية وتخلى عن السلوك الطائش وكأنه لم يعد ذلك الرجل السابق حيث اهتم بشؤون المملكة اللاتينية ولازم الفضائل ليكفر عن زلاته التي كانت منه في شبابه، ووجه اهتمامه بزوجته وغمرها بفائض من الحب الذي كتب لحياتهما الاستقرار حتى وفاته عام 558 هـ/ 1163م .

سادت السعادة والهدوء علاقة الزواج التي جمعت الأميرة الأرمينية مورفيا والملك بلدوين الثاني، وكان حبه صادقا لزوجته خاصة وأن حياته الخاصة كانت خالية من كل شائبة[5]، وقد بادلته الملكة مورفيا نفس الصدق والإخلاص ويظهر ذلك جليا عندما أُسر الملك على يد قوات أمير حلب بُلك بن أرتق في سنة 517هـ/1123م، وذلك عندما خرج على رأس قواته لتخليص جوسلين كورتيناي صاحب الرها من أسره في قلعة خُرتبرت[6]، وهنا بذلت الملكة "مورفيا" كل ما بوسعها و سلكت كل السبل لتخليص زوجها من قلعة حران، فاتفقت على استئجار عدد كبير من الأرمن المنتمين إليها والذين يدينون لها بالطاعة ودبرت لهم خطة للتنكر في شكل أتراك ثم التسلل إلى المعسكر المسجون فيه زوجها لمساعدته على الهرب، لكنها لم تنجح في ذلك [7].

---

1 يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس ، ص106.

2 نهى فتحي الجوهري ، إمارة طرابلس الصليبية ،ص194.

3 Richard .K . kerchoff , Marriage and middle age ,National Council on Family Relation , 2015,P 9.

4 تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص860-861.

Archer , Kingsford, the crusades, p228-229, setton , op ,cit, vol 1, p534.

5 رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص231،

6 قلعة خرتبرت: في أقصى ديار بكر من بلد الروم ،أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج2،ص355.

7 وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص 590-591.

عندما فشلت خطة الملكة اضطرت للسفر إلى شمال بلاد الشام خاصة بعد سماعها بوفاة صاحب حلب بلك بن أرتق سنة 518هـ/ 1124م وأن من خلفه وهو تمرتاش بن إلغازي كان كارها لتحمل مسؤولية الأسرى الصليبيين، وهنا توسطت الملكة مورفيا لدى الأمير سلطان بن منقذ أمير شيزر، وتمت المداولات حول فك أسر الملك بلدوين مقابل فدية ضخمة ومجموعة من الرهائن على رأسهم ابنة الملك الصغرى "يوفيتا " Yeveta"" لتكون رهينة لديهم حتى تتم دفع الفدية كاملة وهنا تتجلى معاني التضحية والإخلاص التي بذلتها الملكة لأجل زوجها فقد خاطرت بحياة ابنتها لفك أسره[1].

لم تنعم الابنة الكبرى للملك بلدوين الثاني بحياة زوجية رغدة وهادئة كالتي عاشها والداها، حيث عاشت الملكة ميليسند مع زوجها الملك فولك الأنجوي Fulk of Anjou (526-538هـ/1131-1143م) علاقة يسودها التوتر والنفور خاصة وأنه يكبرها في السن، فعندما قدم فولك إلى الشرق عام 527هـ/1129م ليخلف بلدوين الثاني في عرش المملكة اللاتينية وذلك بزواجه من ميليسند، كانت الأخيرة في ريعان شبابها تتدفق حيوية ونشاط وكان فولك يبلغ من العمر حوالي أربعين عاما، هذا ما أحدث حاجزًا بين الزوجين[2].

رغم أن فولك كان شغوفا بحب زوجته إلا أنها لم تكن تبادله نفس المشاعر ولم تهتم به مطلقا ما زرع الشك في قلبه ، خاصة مع وجود شائعة قوية حول علاقة غرامية بينها وبين ابن عم والدها هيو الثاني[3] " Hugh " أمير يافا، الذي يتصف بالأناقة والرشاقة وكان في نفس عمرها، فأشعل ذلك الوضع نار الغيرة في قلب فولك، كما زاد الطين بلة إلتفاف عدد من النبلاء حول الملك وزادوا من شكوكه وكان على رأسهم يوستاس الثاني" EUSTACE" صاحب صيدا ووالتر Walter " صاحب قيسارية ابنا زوجة الأمير هيو[4]، ولم يجد الأخير أمامه سوى أن يجعل لنفسه حزبا معارضا وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك وكونت يافا [5].

استمر الوضع على ما هو عليه حتى عام527هـ/ 1132م عندما اتهم والتر صاحب قيسارية "هيو الثاني" بالخيانة والتآمر على حياة الملك، ثم تحداه لقبول مبارزته فأنكر التهمة وقبل التحدي، وحددت المحكمة العليا تاريخ المنازلة وفي اليوم المحدد للنزال تغيب هيو عن الحضور، ولعل الملكة ميليسند هي التي أوعزت له بذلك لخوفها عليه، أو لعل زوجته

1 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس،ص 219، أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس، ص30.

2 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص303.

3 هيو الثاني : وهو هيو لي بويزيه و كان والده هيو الأول ابن عم الملك بلدوين و والدته مابيلا اللذين كانا ضمن الوفود التي حضرت للشرق ، فمنحهم بلدوين بلدوين الثاني إقليم يافا ، غير أنهما توفيا فصارت يافا لابنهما هيو الذي كان صغيرا فعطف عليه بلدوين الثاني و جعله في بلاطه و بين بناته حتى صار هيو من أفضل فرسانه و وصل الأمر ببلدوين أن عامله كأحد أبنائه و أقام مع بنات بلدوين دون حرج حتى صار الصديق المفضل لميليسند و أشيع أن علاقة عاطفية قد جمعتهما .أنظر: رنسيمان ،المرجع السابق ،ج2،ص304-306.

4 تزوج هيو الثاني أمير يافا من الأميرة إيما أرملة يوستاش جرنييه عام 1124م و لم يكن على وفاق مع ولديها يوستاس الثاني صاحب صيدا و والتر الثاني صاحب قيسارية لأنه يكبرهما بقليل ، أنظر : وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 674.

5 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص673-674 ،رنسيمان ، المرجع السابق ،ج2،ص 305، فرحات ، العلاقات ،ص66-67، أسامة زكي ريد ،ملكات بيت المقدس ،ص33، أنظر أيضا : ابن العديم ،زبدة الحلب،ج2 ،ص251.

الأميرة" إيما" نصحته بذلك لأنها خشيت فقدان زوجها أو ابنها، فأدانته المحكمة العليا واعتبرته مذنبا مما اضطره إلى طلب الحماية من مسلمي عسقلان الفاطميين، فتخلى عنه أنصاره لتحالفه مع الأعداء وانتهى الأمر بأن اكتفى الملك بنفيه لمدة ثلاث سنوات بعد الضغط الذي مارسته الملكة ميليسند عليه حيث يمكن لهيو بعدها أن يعود لإقطاعه.[1]

بينما كان"هيو" ينتظر سفينة تنقله إلى صقلية في صيف 528هـ/1133م تم طعنه إلا أنه لم يُقتل واتجهت أصابع الاتهام للملك "فولك" خاصة الملكة "ميليسند" التي كانت مستاءة للمعاملة القاسية التي لاقاها كونت يافا، الذي ما أن تعافى حتى اتجه نحو صقلية حيث استقبله حاكمها "روجر الثاني" لكنه توفي بعد فترة قصيرة[2]، فحزنت عليه الملكة حزنا شديدا وظلت حاقدة على زوجها لتشككه في شرفها وكرامتها، ولم تغفر له ولا لمؤيديه هذه الفعلة وظلوا لعدة شهور يخشون على حياتهم فلا يسيرون إلا رفقة حرسهم، ما دفع الملك فولك إلى السعي لإرضاء زوجته فأسلم لها مقاليد الأمور حتى أن جميع شؤون المملكة صارت تدبر بمشورتها وتجري وفق إرادتها[3].

نسوق مثالًا آخرًا وهو علاقة الأميرة "هيوديرنا" بزوجها أمير طرابلس "ريموند الثاني" حيث تم زواجهم سنة 533هـ /1138م أنجبت منه طفلين هما ريموند وميليسند، واتسمت العلاقة بين الأميرة وزوجها بالتوتر وعدم التفاهم بسبب الغيرة المفرطة لريموند على زوجته، فقد شغف بحبها وكان منصرفا إليها بكل جوارحه غير أن "هيوديرنا" لم تكن على وئام معه ولم تكن حياتها الزوجية سعيدة خاصة وأنها شابهت أختيها ميليسند وأليس في العناد فكثرت خلافاتها مع زوجها[4].

إن تصرفات الأميرة "هيوديرنا" العنيدة والغير مسؤولة جعلت ريموند يضيق عليها خوفا من تأثرها بسلوك أختها "ميليسند" التي كثرت عليها الشائعات عن علاقتها الغرامية مع هيو كونت يافا، كما زاد من شدة الخلاف تلك الشائعات التي طالت شرعية ابنتها "ميليسند" مما دفع بريموند إلى محاولة حبسها على النمط الشرقي حتى قيل أن ريموند قد تأثر بالتقاليد الشرقية وعامل زوجته وكأنها من الجواري والحريم ،غير أن وليام الصوري الذي كان معاصرا لتلك الأحداث لم يذكر هذا الأمر من قريب أو بعيد [5].

إزاء تدهور العلاقة بين الزوجين استلزم الأمر تدخل الملك "بلدوين الثالث " ووالدته الملكة "ميليسند" لفض النزاع بينهما، فذهبا إلى طرابلس سنة 547هـ/1152م لكنهما لم يتمكنا من تسوية الخلاف بينهما فاستأذنت الملكة ميليسند

1 هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص147-148

Grousset , op, cit, 134 , Natacha , Women crusading ,PP134-135

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص677.

3 أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص24، عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، عصر بلدوين الثالث، ص54، سرور علي عبد المنعم علي ، السياسة الداخلية و الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي (1131-1143م/526-538هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ،القاهرة ،2000 ،ص69-70.

Stevenson , OP - CIT,P131.

4 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص805

5 رنسيمان ، المرجع السابق، ج2،ص536-537،

في اصطحاب اختها إلى بيت المقدس للتخفيف من حدة الموقف فوافقها الأمير ريموند على ذلك واصطحب الركب حتى ضواحي طرابلس وفي طريق عودته وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه ولاذوا بالفرار[1].

من ثم سارعت الأميرتان بالارتداد نحو طرابلس كي تشاركا في جنازة ريموند وبرغم الحزن الشديد الذي بدا على هيوديرنا، غير أن ذلك لم يمنع من شك الحاضرين في تورطها وتآمرها مع الحشاشين لقتل زوجها خاصة مع استمرار الخلافات بينها وبين زوجها، وتزايدها مؤخرا، وارتيابه في شرعية ابنته ميليسند منها فضلا عن طموحها الشديد للحكم و السيطرة مثلها مثل باقي أخواتها، وأخيرا فإن فشل الملكة ميليسند في تسوية الخلاف بين الزوجين ريموند وهيوديرنا وخروج الأخيرة مغاضبة معها إلى بيت المقدس لا يخلو من الريبة والشك[2].

ثم ننتقل إلى مثال آخر عن العلاقات الزوجية الهادئة في المجتمع الصليبي وهي علاقة الأميرة "سيسيليا" ابنة الملك فيليب الأول بزوجها "تنكرد" أمير أنطاكية والتي اتسمت بالمودة والتفاهم ويمكن أن نستشف ذلك من خلال بعض الأحداث، حيث أن برتراند Bertrand أمير طرابلس (502-505هـ/ 1108-1112م) قد أرسل بابنه بونز إلى بلاط أمير أنطاكية ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها، وقد أقطعه تنكرد طرسوس ومرقية وحصن الأكراد[3] ، ولما شعر تنكرد بدنو أجله في سنة 505هـ/1112م استدعى زوجته والأمير بونز وأوصاهما بضرورة الزواج بعد وفاته[4].

إن وصية تنكرد لزوجته بالاقتران بالأمير بونز بعد وفاته تعود إلى ما شعر به من إعجاب الأمير بونز بزوجته عندما كان مقيما عنده، فلما قاربه الأجل تجرد من كل نزعة دنيوية ولجأ إلى حكمة التصرف من خلال موافقته الضمنية على زواجهما، وبالفعل بعد وفاته تم الزواج كتنفيذ لوصية تنكرد[5]، وقد كان لذلك الزواج أثره السياسي في توثيق العلاقات بين بين الأسرتين الحاكمتين في أنطاكية وطرابلس، وهنا يظهر لنا جليا مدى عدم اكتراث الصليبيين بالسن والعواطف والغيرة والنخوة ولا أية اعتبارات أخرى في الزواج أمام المصالح السياسية والتحالفات، ويبدو أن تنكرد كان يسعى لتحالف نورمان أنطاكية مع بروفانسيي طرابلس (جنوب فرنسا) على حساب حكام بيت المقدس القادمين من شمال فرنسا [6].

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص805، السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ،ص156-157، أسامة زكي زيد ، الصليبيون و إسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ،1980، ص224، عبد العزيز محمود عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر ،ص139.

Grousset , op, cit ,136.

2 محمد عبد الحميد فرحات ، قضايا في تاريخ العلاقات بين الشرق و العرب في العصور الوسطى ،ص85.

3 حصن الأكراد: و هو حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ، و هو بين بعلبك و حمص ،أنظر: أبو الفداء ،تقويم البلدان ،ص259 ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،ج2،ص264.

4 ألبرت فون آخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ،ص303، عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص 296.

5 وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص547، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ج2،ص203

6 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص246، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص547.

Natacha, Women Crusading ,P123

أما عن علاقة الأميرة "سيسيليا" مع الأمير "بونز" فقد سادها الحب والتفاني، فعندما وقع الأمير في كمين نصبه له عماد الدين زنكي مع جماعة من التركمان بجبال النصيرية لاذ بالفرار إلى قلعة بارين (بعرين)[1] Monteferrand، وبينما كان الملك "فولك الأنجوي" يسير صوب الشمال التقت به كونتيسة طرابلس سيسيليا عند صيدا وأبلغته بما أصاب زوجها[2] وتوسلت إليه لكي ينصرف لتخليص زوجها، فتوجه الملك الصليبي على الفور إلى بعرين ولما اقترب من القلعة انسحب التركمان وتم إنقاذ الأمير بونز[3].

لقد برهنت الملكة "سيبيلا" " Sybila"عن مدى متانة علاقتها بزوجها "جاي دي لوزجنيان" Guy de Lusignan وحبها واخلاصها له، فبعد أن وضعت التاج الملكي على رأسه واختارته ليكون ملكا على بيت المقدس إلى جانبها كانت تشاركه في معظم أمور المملكة، ولما أسر "جاي " في موقعة حطين عام 583هـ/1187م وأعتقل في نابلس اشترط صلاح الدين أن يتسلم عسقلان لفك أسره[4]، فلما سقطت عسقلان في يده كتبت الملكة "سيبيلا" العديد العديد من الرسائل تتوسل فيها صلاح الدين لفك أسر زوجها وهنا برزت إنسانية صلاح الدين الذي سمح لها بأن تلحق به في نابلس و تعيش معه[5]، "فسرت بذلك وسارت بخدمها وجواريها وحُليها وكل ما تملك وأقامت عند زوجها وبلت بغُرته غلة أشواقها"[6] .

هنالك أيضا علاقة الملكة "إليانور الأكتانية" "Eleanor of Aquitain"[7] مع زوجها لويس السابعLouis VII (542- 576هـ/ 1137-1180م) ملك فرنسا والتي اتسمت بالنفور الشديد وعدم التفاهم، وزادت علاقتهما سوء بعد نزوحهما إلى الشرق فقد رافقت الملكة إليانور زوجها الملك على رأس الحملة الصليبية الثانية (1147-1149م) التي انطلقت لحماية مملكة بيت المقدس بعد استعادة عماد الدين زنكي للرها سنة 539هـ/ 1144م، وما

1 بارين (بعرين): و هي مدينة حسنة ذات قلعة بها بساتين و تقع بين حلب و حماه من جهة الغرب ، أنظر :أبو الفداء ، تقويم البلدان ،ص259، ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج1،ص320.

2 الأميرة سيسيليا هي أخت الملك فولك الصغرى من ناحية الأم، حيث أن أمه برتراد قد تزوجت من والده الملك فولك الكبير و أنجبت له ولدان هما فولك و جيوفري مارتل و ابنة هي هيرمنجارد، ثم هجرت زوجها (والد فولك) و فرت إلى ملك فرنسا فيليب الذي ترك زوجته الشرعية و عاش مع برتراد و اتخذها خليلة له رغم أنف القانون الكنسي، ثم عاملها معاملة الأزواج فأنجب منها فلورس وفيليب وسيسيليا هذه الأخيرة التي تزوجها الأمير بونز، أنظر : وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص،سرور علي عبد المنعم علي ، السياسة الداخلية و الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي ، ص53

3 رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص311.

4 Ernoul ,op, cit,p185.

5 رنسيمان ، المرجع السابق،ج3،ص47.

6 البنداري، سنا البرق الشامي ، ص312.

7 إليانور الأكتانية : و هي ابنة الدوق وليم العاشر William دوق أكتانيا و كونت بواتيه ، الذي كان يسيطر على أراضي واسعة في فرنسا أوسع من تلك التي كانت بإمرة الملك و لما مات سنة532هـ/ 1137م و رثته ابنته إليانور في أملاكه ، و تزوجت في السنة نفسها من ملك فرنسا لويس السابع (1137-1180م) و كانت تبلغ خمسة عشر سنة ، و كان زواجا سياسيا ابتغى منه ملك فرنسا ضم مقاطعة أكوتين ، فضمت أملاكها إلى أملاكه فصارت ملكة فرنسا ، دام زواجهما خمسة عشر سنة ، مارست نفوذا كبيرا على الملك و أقنعته بقيادة الحملة الصليبية الثانية ، و كانت إليانور جميلة و مدللة و مرحة و متحررة متقلبة المزاج و اهتمت كثيرا بالشعر و الشعراء ،أنظر: زابوروف، الصليبيون في الشرق ،ص177، طه الطراونة ، ، ملكات أوروبا و الحركة الصليبية ، مؤتة للبحوث و الدراسات ،مج: 25 ،العدد 5 ،2010،ص276 ، مُحَمَّد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد ،تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 380

أن علم الكونت "ريموند دي بواتيه" كونت أنطاكية (1136-1149م) و هو عم الملكة بعزم الملك لويس السابع على القدوم على رأس حملته حتى بادر بإرسال التحف والهدايا إليه ليكسب مودته، معلقا الآمال على ابنة أخيه لتساعده في اقناع الملك على تقديم المساعدة لتوسيع إمارة أنطاكية، وذلك بالاستيلاء على المدن المجاورة لها مثل حلب وشيزر وغيرها، لهذا انتظر ريموند الملك عدة أيام قبل وصوله واستقبله استقبالا حافلا[1].

لم يمض وقت طويل على وصول الملك الفرنسي وزوجته حتى بدأ ريموند في استعطاف ابنة أخيه، حيث أنه كان يدرك أن آمال إمارته التوسعية لا تعتمد على الملك لويس السابع وقوته المتناقصة ومستشاريه الرهبان، بل على إليانور وأتباعها التي تجاوزت أملاكها بموجب النظام الإقطاعي أملاك زوجها حيث كانت تسيطر على أكتانيا وبواتيه وجاسكوني Gascony، بينما كان الملك يسيطر فقط على أملاكه الموروثة عن عائلته و هي جزيرة فرنسا (ile de France) تلك المنطقة الصغيرة في شمال وسط فرنسا، ومهما يكن من أمر فإن اللقاءات والأحاديث المطولة التي جمعت ريموند وإليانور ميزها الانسجام والتفاهم حيال أهداف هذه الحملة الصليبية والتي تخدم إمارة أنطاكية [2].

كان الملك محرجا من استضافة ريموند له ومن كرمه الذي لم يعرف حدودا، ومع ذلك كان يسايره ويكسب الوقت دون أن يلزم نفسه بالخطط والأهداف التي تم اقتراحها في أنطاكية، وعندئذ طالب ريموند بعقد اجتماع للنبلاء الفرنسيين ونبلاء أنطاكية لبحث الخطط العسكرية وبين سهولة مطلبه الذي سيجلب لهم الشهرة و المنفعة، أما الملك فقد أصر على تنفيذ رغبته في الذهاب إلى القدس للحج و الوفاء بنذره ثم قال " ...ليس لي النية بالقيام بأي حرب حتى أنجز حجي و بعد ذلك سوف أسمع أمير أنطاكية وغيره من النبلاء في سوريا ..."[3]

لم يعجب هذا الرد أمير أنطاكية وكذا الملكة "إليانور" التي أعلنت صراحة مساندتها لعمها ريموند، وواجهت الملك بقرارها بفصل نفسها عنه وأنها لن تذهب معه أبعد مما ذهبت، وستستعيد أملاكها في دوقية أكتانيا وغيرها وستبقى مع ريموند في قصره، وأخذت الألسنة تتناقل أخبارهما خاصة وأنه لم تجر رؤية الملكة عادة إلا بصحبة الأمير، وتهامس الناس أن محبة ريموند تجاوزت محبة العم، هذا ما أثار حفيظة زوجها وغيرته وقلقه على شرفه فصرح برحيله المباشر وخرج من أنطاكية بصورة مهينة على عكس صورة دخوله إليها، وجر لويس زوجته قسرا من قصر ريموند ووضعت تحت الحراسة وسار بكل عساكره إلى بيت القدس.[4]

يتضح من حجز الملكة ووضعها تحت الحراسة أن أمرا سيئا حدث في أنطاكية، وترددت قصص مختلفة حول العلاقة الشاذة التي أقامتها مع عمها، حيث يذكر وليام الصوري[5] تعريضا بقوله في سياق حديثه عن موقفها من خطط ريموند " وأبدت الملكة إليانور موافقتها على ذلك لأنها كانت امرأة حمقاء، وكانت جميع أعمالها وتصرفاتها من قبل ومن بعد تؤكد

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص772، طه الطراونة ،ملكات أوروبا و الحركة الصليبية ، ص276.

2 Natacha , Women crusading ,PP131-132.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص773-774.

4 رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص449،

5 تاريخ الحروب الصليبية ، ج2، ص773.

هذا، وتبرهن أنها طائشة وغير مبالية مما يتنافى مع مكانتها الملكية، حتى أنها لم تقم أي اعتبار لميثاق الزواج ولم تكن مخلصة لزوجها".

هناك إشاعة أخرى ترددت حول هذه الملكة في ذلك الوقت وهي أنها أغوت صلاح الدين الأيوبي ذلك الخصم العنيد للقوى المسيحية والذي اعتقدت أنه من واجبها تحويله إلى الديانة المسيحية وتكون بذلك حققت نصرا عظيما سيفوق بكثير ما سيفعله كل الصليبيين، لكن هذه الإشاعة ليست سوى واحدة من الإشاعات التي ارتبطت بسيرة إليانور لأن صلاح الدين كان في تلك الأيام طفلا في العاشرة من عمره ،فهو من مواليد 532هـ/1137م[1].

أمضى لويس السابع وإليانور سنة في القدس وسرعان ما عاد إلى فرنسا في صيف 544هـ/ 1149م، وسار وسط نبلائه وهو حزين يائس بسبب اخفاق حملته إضافة إلى تلك الأحداث المؤسفة التي مرت به نتيجة سلوكيات زوجته المشينة التي أضرت بسمعته أيما ضرر ويبين وليام الصوري[2] ذلك قائلا "... و عقب عودته تذكر المساوئ التي سببتها له زوجته أثناء الرحلة أو بالأحرى أثناء عملية الحج كلها، لذا قرر إبعادها ومنح الإذن بطلاقها بشكل رسمي أمام أسقف المملكة بحجة قرابة بينهما تحظر الزواج".

2- علاقتها بأبنائها :

إذا كان زواج المرأة هو المفتاح لبداية حياتها الأسرية، فإن الإنجاب وتربية الأبناء هو الثمرة لهذا الزواج، حيث تعتبر التربية الصالحة للأبناء هي أساس تكوين مجتمع صالح، فرغم أن مشاعر الأمومة عند المرأة لا تختلف إذا كانت المرأة شرقية أو صليبية إلا أن طرق تربية الأبناء هي التي تباينت فيما بينهن واختلفت من امرأة إلى أخرى، غير أن علاقة المرأة بأبنائها تميزت في العموم بالسمو والروحانية ومرد ذلك تلك الفطرة الغريزية التي خلقها المولى عز وجل في المرأة، والتي تتشابه فيها النساء من كل جنس ولون فهن يرعين أبناءهن ويصبغن عليهم محبتهن، فتصير علاقة الألفة والمحبة تجمع الطرفين في كل الظروف والأوقات، غير أنه هنالك بعض النماذج التي خرجت عن تلك القاعدة وعبثت بمستقبل أبنائها في سبيل مصالحها الشخصية .

بداية، فإن علاقة الأم بأبنائها تبدأ من لحظة ولادتها لهم، وقد حظيت المرأة الصليبية في المجتمع الصليبي برعاية طبية لم تحظ بها في الغرب الأوروبي أثناء الولادة والإنجاب، وذلك لتقدم المسلمين في الدراية بعلوم الطب وبراعة القابلات المسلمات وإلمامهن الجيد بكل ما يخص الولادة والأدوية والاهتمام بالأطفال الرضع، فانعكس ذلك على النساء الصليبيات اللاتي قل تعرضهن للأخطار بسبب تقدم الوعي الطبي الموجود في الشرق، على أن نسبة وفيات الأطفال من الذكور كانت أكثر منها من الإناث ولعل ذلك قد تسبب في وصول الإقطاعيات الى النساء الوريثات وحدوث ما يعرف بمشكلات الوراثة في المجتمع الصليبي[3].

---

1 Natacha , Women crusading , P133.

2 تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص788.

3 ستيفن رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص520.

احتفل سكان المجتمع الصليبي بولادة الأطفال، خاصة الذكور منهم، سواء لدى الصليبيين أو المسيحيين الشرقيين وحتى المسلمين، حيث كانوا يقيمون وليمة للأقارب والأصدقاء والجيران، وهي ما عرفت لدى المسلمين بالعقيقة، وكان الضيوف يحضرون ومعهم بعض الهدايا كالسكر والأرز والزيت وغيرها، فضلا عن مبلغ من المال يتفاوت قدره حسب القدرة المالية لكل منهم، وقد يصل الأمر ببعض الحضور لتقديم خراف لأهل المولود كهدية على مقدمه السعيد، بينما كانت من عادات الصليبيين في تلك المناسبة إقامة الولائم التي تستمر عادة من يوم الاثنين وحتى الخميس الذي يعقب ولادة الطفل مباشرة[1].

فيما يخص تربية الأبناء فقد كانت النساء الصليبيات وخاصة المتيسرات حالا منهن يستعن ببعض الجواري والخدم في تربية أبنائهن، خاصة وأنهن لم يتواجدن بشكل مستمر في بيوتهن، فقد اعتدن دوما على الخروج للحياة العامة والاحتكاك بفئات وأنماط مختلفة من البشر، والتي باتت خبيرة بهم بسبب تعاملاتها المتعددة معهم، خاصة إذا ما علمنا أن عددا لا بأس به منهن كن يعملن بالتجارة وحتى بالقتال[2]، وعلى هذا لم يكن من الصعب عليها أن ترتقي لأعلى المناصب في المملكة اللاتينية والإمارات الصليبية الأخرى[3].

لكن الأثر الذي تركه عدم تواجد الأمهات الصليبيات المستمر في البيوت، هو تسليم مهمة تربية الأبناء للجواري والخدم ما قلص من دور الأم المربية وأهميتها في حياة أبنائها وتربيتهم، وزيادة التباعد بينها وبين أبنائها، لكن هذا لا يعني تجاهل المرأة الصليبية لتربية ابنائها وتوجيههم وتعريفهم بأمور الحياة ،إلا أن الأمر ظل يشوبه بعض الخلل والتمزق في علاقتها بأبنائها، لذلك لا يدهش المرء أن يعلم أن عقوق الوالدين كان من الأمور الشائعة في المجتمع الصليبي[4].

في حين كانت النساء الشرقيات في المجتمع الصليبي لديهن حرص شديد على أن لا يشاركهن أحد في تربية أبنائهن، حتى أن دور الأب ذاته في تربية أبنائه لم يكن يوازي دور الأم، خاصة وأن الوضع المالي للغالبية العظمى من السكان المحليين كان متعسرا بعض الشيء، مما يعني أن أمر وجود الجواري والخدم لديهم لم يكن شائعا فيما بينهم، وبالتالي فإن دور المرأة الشرقية في أسرتها كان دورا محوريا يصعب تجاهله، وكانت المرأة الشرقية بشكل عام حريصة على تربية أبنائها وتنشئتهم على القيم الدينية والأخلاق الحميدة، وقبل هذا وذاك غرس روح الجهاد والشجاعة والكرامة فيهم، حتى يتمكنوا عندما تقوى عزائمهم على تولي مهمة المقاومة الشعبية والجهاد في سبيل الله[5].

كان من عادات النساء الصليبيات أنه ما إذا ألم بهن مكروه يلطمن وجوههن بأيديهن واللجوء إلى رجال الدين للاعتراف لهم بخطاياهن وآثامهن مع البكاء والتندم والصلوات وتقديم القرابين والنذور، وكذلك الصيام الذي كان الصليبيون يفرضونه في بعض الأحيان حتى على أطفالهم الرضع حيث كانوا يمنعونهم من الرضاعة حتى يصرخوا من شدة

1 يوشع براور، عالم الصليبيين ،ص333.

2 الأصفهاني، الفتح القسي ،ص188.

3 نهى الجوهري ، إمارة طرابلس الصليبية ، ص193.

4 Jacques de vitry , History of Jerusalem ,Trans , by Aubrey Stwart ,P.P.T , London , 1896,P60.

5 نهى الجوهري، إمارة طرابلس،ص195 .

الجوع، وذلك على أمل أن يقبل الله منهم توبتهم وأن يخفف عنهم آلامهم[1]، لكن هل من المعقول أن تعذب الأم ابنها الرضيع ليشفع لها هذا العمل الشنيع عن خطاياها وآثامها.

غير أن هذا لا يعني فتور العلاقة بين الأم وأبنائها فهنالك العديد من الشواهد التاريخية التي تظهر متانة علاقة الأمهات الصليبيات بأبنائهن وشدة تعلقهن بهم، أنه ذات يوم قام أحد المسلمين بسرقة طفل رضيع يبلغ ثلاثة شهور من إحدى خيام الصليبيين، ولما افتقدته أمه حزنت عليه حزنا شديدا فنصحوها بالتوجه لصلاح الدين سلطان المسلمين ذو القلب الرحيم وهو سيعيد لك ابنك، فخرجت الأم تستغيث وطلبت مقابلة صلاح الدين فأنفذها الجنود المسلمون لمقابلته، فجاءته وعفرت وجهها بالتراب وشكت له أمر ولدها وهي تبكي فرق قلب السلطان وأمر بإحضار ولدها[2].

فجاءه الرد بأنه قد تم بيعه في السوق، فلم يجد صلاح الدين لرحمة تلك المرأة الصليبية إلا أن يشتري ذلك الطفل ويدفع ثمنه من ماله الخاص للمشتري وسلم الطفل لأمه فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها، وقد تأثر جميع الحاضرين من ذلك الموقف حتى أنهم بكوا لبكائها، ثم لم يلبث أن أمر السلطان بأن تحمل على فرس وتعود إلى ذويها سالمة [3].

تجدر الاشارة كذلك إلى موقف "أشيفيا" أميرة طرابلس مع ابنها هيو Huge" أمير الجليل الذي كان قد وقع أسيرا لدى صلاح الدين في موقعة مرج عيون سنة 575هـ/ 1179م ، فلم تقف الأميرة مكتوفة الأيدي وسارعت بكل قوتها وما تملك من أموال لافتداء ابنها وبالفعل استطاعت "أشيفيا" أن تفتديه بخمسة وخمسين ألف دينار صوري[4].

3- الأسرة الصليبية :

لقد كانت حياة الصليبيين المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها انعكاس لأوروبا ولفرنسا على وجه التحديد، بيد أن بيئتهم أي ظروف الحياة المادية وما يقابلونه يوميا في الشارع والسوق كان عالم شرق المتوسط، وهكذا فإن سليل العائلة النبيلة أو حتى سليل عائلة من الفرسان كان يمر بنفس التربية والتعليم التي يمر بها أقرانه الأوروبيون فقد نشأ في تعاليم نفس الدين ولُقن نفس مبادئ العقيدة ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية معتمدا على نفس الأساطير والقصص الديني و روايات البطولة وأشعار البلاط التي يتذوقها قرينه في غرب أوروبا[5].

---

1 مجهول ، أعمال الفرنجة ،ص48.

2 ابن شداد ، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية ، تحقيق: جمال الدين الشيال ،مكتبة الخانجي ،ط2 ، القاهرة ،1994،ص158.

3 ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص 158، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ،ج8، تحقيق: مُحَمَّد رضوان عرقسوي ، دار الرسالة العلمية ، ط1،دمشق،2013، ص429.شش

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص1014، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص678.

الدينار الصوري : وهو الدينار الذي ضربه الصليبيون تقليدا للدنانير الفاطمية ثم الأيوبية، و قد سمي نسبة إلى صور التي تمتعت بشهرة واسعة في تقليد الدنانير الإسلامية، و كان وزنه حوالي ثلثي وزن الدينار الفاطمي، الأصلي، وكانت تنقش عليها نفس الكتابات المسجلة على النقود العربية الإسلامية، أنظر: رأفت مُحَمَّد النبراوي، النقود الصليبية في الشام و مصر، مكتبة القاهرة، 2004، ص 26-27-34-35.

5 براور، عالم الصليبيين ،ص107.

كانت البيوت التي عاشت بها الأسر الصليبية في مدن بلاد الشام بناء شرقيا كان في الأصل ملكا لأحد المسلمين قبل الغزو الصليبي يختلف تماما عن الأبنية الأوروبية، فقد كان الخشب هو مادة البناء الأكثر شيوعا في الغرب، لكنه لم يكن كذلك في الأراضي المقدسة لاختلاف المناخ والغطاء النباتي، إذ كان الحجر هو مادة البناء الشائعة والمستخدمة في كل من المدن والقرى وعادة ما كانت تحمل من منحدرات جبال الكرمل[1]، أو الحجارة ذات اللون الوردي التي تجلب من الجبال القريبة من بيت المقدس.

كانت الأسر الصليبية في غالبها تفضل المنازل ذات الطابقين أو الثلاث طوابق وهو النمط الشائع في المساكن، بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة كذلك، وغالبا ما كانت أسقفها مسطحة تحيط بها النخيل والأشجار دائمة الخضرة لتلطيف الجو، وكانت الحيطان السميكة تحفظ الدفء في الشتاء حيث تهبط درجة الحرارة في أماكن مثل بيت المقدس وصفد وجبال شرق عكا وفي طرابلس وأنطاكية إلى درجة التجمد، وفي الصيف كان سمك الحائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها، وكانت النوافذ تتألق بالزجاج المصنوع محليا كالزجاج الملون والمرسوم والنصف شفاف وكان الزجاج النقي الشفاف نادرا إلى حد ما[2].

أما عن الديار التي قطنتها العائلات الصليبية وبخاصة منازل الكبراء فكانت تبنى على الطراز العربي، حيث توجد بها ساحة ورخام ونافورة وخرير مياه جارية، وكانت زخرفة الأثاث الداخلي أيضا على النمط العربي حيث سكن النبلاء والأمراء وكبار السادة الإقطاعيين القصور الفخمة التي تكونت من طابقين في وسطها من الداخل نافورة تتدفق منها المياه كسيت نوافذها من الزجاج الملون، وزينت أرضها بالموزايك، وأيضا الزخرفة والأثاث الداخلي كان على الطراز العربي[3].

المبحث الثالث : عادات الطلاق :

أما عن الطلاق فقد قل وقوعه في القرن 6هـ/12م تدريجيا، وأصبح الأساس الذي يقع به الطلاق هو اكتشاف أن الزواج لم يكن صحيحا من البداية وهو ما يطلق عليه " إلغاء الزواج " عوض الطلاق، وهنالك عدة عقبات يمكن أن تجعل الزواج غير صحيح منها أن يكون أحد الزوجين متزوجا بالفعل من شخص آخر، ولكن السبب الأكثر شيوعا كان قرابة الدم[4]، فرغم تجنب أغلب النبلاء الصليبيين زواج الأقارب عمدا إلا أن العديد من الحالات قد ظهرت في المجتمع الصليبي[5].

---

1 جبل الكرمل: هو جبل مشرف على حيفا و عليه حصن سمي باسمه على سواحل بحر الشام، و كان يعرف بمسجد سعد الدولة ، والكرمل قرية في آخر حدود الخليل من ناحية فلسطين، أنظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج4، ص 456.

2 براور، عالم الصليبيين ،ص 108-109.

3 أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص120 ، الحويري ،الأوضاع الحضارية ،ص243.

4 أعلن مجمع اللاتيران الرابع عام 612هـ/ 1215م عن خفض درجات المحارم من الدرجة السابعة إلى الدرجة الرابعة، فالقانون المدني الروماني كان يحضر الزواج داخل أربع درجات من أحد الزوجين المحتملين حتى أصل مشترك، ثم أصبح حساب الدرجات بحساب الأجيال التي ترجع فقط إلى أصل مشترك ، أنظر: نبيلة ابراهيم خليل، حقوق المرأة الصليبية، ص99.

5 Emilie AMT , Womens Lives in medieval europe A sourcebook ,pp69-70 .

كذلك يتضح في قوانين البرجوازية فصل يتعلق بانفصال الزوجين على أساس أن الزوجة أصبحت "متعبة " ويصعب العيش معها، ففي مثل هذه الظروف يبحث الزوج الراغب في الانفصال في المحاكم الكنسية عن قرار قضائي لفصلها في المضجع والمأكل، وهذا يوصف بأنه انفصال على أساس القسوة والكراهية، وكانت الشكوى حول الأمور الزوجية والمسائل الخاصة ببطلان الزواج مدرجة ضمن اختصاصات المحاكم الكنسية وكان الرجال والنساء لهم الحق نفسه في السعي إلى الانفصال على هذه الأسس[1].

فرضت الأعراف الاجتماعية الصليبية على الزوجة أن تنجب ولو ذكرًا واحدًا فإن لم يسعفها القدر بذلك كان من اليسير لزوجها أن يتوجه إلى الأسقف طالبا منه فسخ عقد الزواج[2]، ويوجد هناك نوعان من الطلاق الاختياري والقسري (الاجباري).

1- الاختياري :

يتم فيه التطليق بمحض إرادة الزوج، ودون إجبار على اتخاذه من قبل أشخاص أو هيئات اجتماعية أو سياسية و لعل أبرز مثال على ذلك النوع هو طلاق الملك بلدوين الأول من زوجته " أردا "، ثم ما تلاه من طلاقه لزوجته الثانية " أديليد "فقد كان زواجه الأول من الأميرة الأرمينية أردا زواج منفعة سعى من خلاله لتوطيد علاقته مع الأرمن حينما كان أميرا على الرها، إضافة إلى طمعه في الثروة الكبيرة للأميرة من والدها ثوروس Thoros كبير النبلاء الأرمنيين[3]، و بعد فترة لم تتجاوز السبع سنوات قام الملك بلدوين الأول بتطليق زوجته "أردا" وذلك سنة 498هـ/ 1104م متهما إياها بسوء سمعتها وفساد أخلاقها وباقترافها الزنا، وأجبرها على الانخراط في سلك الرهبنة في دير القديسة آن Saint Anne في الجزء الجنوبي الشرقي لبيت المقدس[4].

الواقع أن هناك العديد من الأسباب التي قيلت في شأن طلاق الملك بلدوين الأول وزوجته أردا، فقد أرجع المؤرخ اللاتيني جيبرت أوف نوجنت Guibert of Nogent المعاصر لأحداث هذه الفترة من الزمن أن انفصالهما قد تم نتيجة لحادثة الاغتصاب التي تعرضت لها الملكة من جانب بعض البحارة أثناء رحلتها من أنطاكية إلى يافا عام 494هـ/ 1101م للحاق بزوجها الملك بلدوين[5].

---

1 James A Brundage,Marriage law in the latin kingdom of jerusalem, pp 266-267.

2 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، ص43.

3 علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها ، ص70.

4 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص 166، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري)، ص32،

Grousset , op . cit , p155 .

5 Guilbert of Nogent , The Deeds of God The Franks ,Translated : Robert Levine , Copyright Blackmask Online ,2002, p95.

أما المؤرخ وليام الصوري فقد كان أكثر حرصا في اتهامه ل لملكة فقد اكتفى بنقل آراء الناس في سبب الانفصال دون ابداء رأيه، فذكر أن بعضهم أرجع هذا للشك في إخلاص الملكة لزوجها، بينها رأى البعض الآخر أن السبب يرجع إلى رغبة الملك في الزواج من امرأة أخرى أكثر ثراء لمواجهة العجز المالي الذي تعاني منه المملكة اللاتينية في ذلك الوقت[1]، والمؤسف في الأمر أن المؤرخ فوشيه الشارتري القس الخاص للملك بلدوين قد سكت تماما عن ذكر أي رأي في هذا الموضوع، رغم أنه المؤرخ الوحيد الذي يمكن أن تكون لديه المعلومات الكاملة.

مهما كانت الآراء، وطالما أنه لا توجد أدلة قاطعة على عدم اخلاص الملكة فإننا نستبعد عامل الخيانة كسبب للانفصال خاصة وأن الملك بلدوين قد فكر في أواخر أيامه أن يعيد زوجته إليه مرة أخرى، ولعل الأسباب الحقيقية لهذا الطلاق سياسية أكثر منها أخلاقية فإذا كان زواجه من الملكة أردا قد حقق له مزايا ومكاسب سياسية ومادية عندما كان حاكما على إمارة الرها، فإن هذا الزواج صار غير ذي نفع بعد أن أصبح ملكا على بيت المقدس، هذا من ناحية ومن ناحة أخرى نفاذ ثروة الأميرة الأرمينة وعدم انجابها وريثا لعرش المملكة اللاتينة كل هذا قد أدى بالملك إلى التفكير في الانفصال عنها و الزواج من جديد، تمثل في الأميرة الصقلية " أديلايد سالونا" كونتيسة صقلية وبعد أن استنفذ ثروتها هي الأخرى قام بتطليقها لما أن أحس بدنو أجله وأوهمها بأن زواجهما كان باطلا ثم أعاد زوجته" أردا "[2].

بذلك يكون العامل النفسي أو ربما تأنيب الضمير أو لعله الخوف من استيلاء حاكم صقلية روجر الأول على المملكة اللاتينية بعد وفاته دون وريث بموجب شروط الزواج من الأميرة أديلايد أو كل تلك العوامل مجتمعة هي السبب الرئيسي في إعادة زوجته الأولى إلى عصمته، ونستشف من جملة الأحداث أن الملك بلدوين الأول لم يطلق زوجته الأولى أردا طلاقا رسميا داخل الكنيسة، وبذلك لم تتحقق شرعية الزواج الثاني مما يدحض القول بأن طلاقها من البداية كان راجعا لسوء أخلاقها لأن الأمر لو كان كذلك لأمكن لبلدوين تطليقها بسهولة وبتأييد من الكنيسة ذاتها بدعوى فسخ العقد[3].

ب الجبري :

هو طلاق يتم تحت الضغط، فيضطر الزوج لإيقاعه دون رغبة حقيقية منه وكان هذا النوع من الطلاق يحدث كثيرا داخل الطبقات الأرستقراطية خاصة إذا كان الزواج من أميرة أو ملكة وكان الاثنان غير متكافئين أو ظهر في الأفق من هو أقوى من الزوج سلطة ونفوذا فيضطر للتطليق[4]، أو تم ذلك لدواعي سياسية الهدف منها المصلحة العامة، وقد يكون

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية،ج1، ص.550

2 ألبرت أوف أخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص305 ، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص550-551.

3 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص 231 ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص168-169.

4 ومثال ذلك طلاق الملكة إزابيلا من هنفري الرابع أمير تورون (تبنين) سنة 586هـ/1190م، والملكة إزابيلا هي ابنة الملك عموري الأول من زوجته الثانية البيزنطية ماريا كومينينا، فبعد وفاة أختها الملكة سبيل فقد زوجها جاي دي لوزنيان حقه في عرش المملكة لأنه كان يحكم بصفته زوجا للملكة سيبيل فقط ، لكن بعد وفاة هذه الأخيرة انتقلت السلطة لأختها إيزابيلا التي عرفت هي و زوجها بشخصيتهما الضعيفة و هو ما جعل الماركيز كونراد يطمع في الاستحواذ على عرش المملكة، فبدأ باقناع البارونات بأن ضعف همفري زوج إزابيلا سوف يعرض الوجود الصليبي في بلاد الشام للخطر وأن الملكة تحتاج إلى زوج قوي مثله و أغدق عليهم بالهدايا و الهبات، و ما وقف الدين عقبة في طريق الماركيز كونراد راح يبرر للأمراء و رجال الدين أنه يمكن فصلها عن زوجها دون أن يكون هنالك

الطلاق لظهور داعي تحريمي لم يكن واضحا في البداية كظهور قرابة شديدة تمنع الزواج، وهنا تبادر الكنيسة بفسخ ذلك العقد المبني على التحريم، وإن كنا نحمل رجال الكنيسة مسؤولية عدم تحريم ذلك الزواج قبل عقد القران فقد كان من الأجدر برجال الدين التأكد من صلة القرابة قبل إتمام الارتباط رسميا، خصوصا وأن الأمور قد تزداد تعقيدا إذا أثمر الزواج عن أبناء لا ذنب لهم.

كما نوجه اللوم لرجال الكنيسة نوجهه أيضا للزوجين اللذين لا يرتقيان إلى مستوى المسؤولية، بل ننظر إلى الأمر بعين الارتياب في افتراض حسن النوايا ففي الأعم كان ذلك الأمر يتم للتحايل على الشرع في سبيل تحقيق رغبة غير سوية والطرفان يعلمان بعدم شرعيتها.

هنالك بعض الأمثلة عن ذلك ومنها طلاق الملك عموري الأول عن زوجته " أجنس دي كورتناي "وهي ابنة جوسلين الثاني كونت الرها، التي كان قد تزوجها سنة 552هـ/ 1157م، وكان أخوه الملك بلدوين الثالث على قيد الحياة وكان نتاج هذا الزواج طفلين طفلة تدعى " سبيل " وطفل يسمي " بلدوين "[1]، وعندما توفي الملك بلدوين الثالث سنة 558هـ/1162م وصار عموري الأول الوريث الشرعي لمملكة بيت المقدس لأن بلدوين لم يعقب ولدا يرث ملكه وهنا انقسم حزب البارونات ما بين معارض ومؤيد لحكم عموري[2].

تزعم حزب المعارضين البطريرك عموري دونيسلي واستندوا في معارضتهم إلى أن عموري قد أوقع نفسه في الخطيئة بزواجه من "أجنس " التي كانت قريبة مباشرة له من الدرجة الرابعة[3]، وقد كان البطريرك فولشر قد عارض تلك الزيجة قبل تحرير العقد بسبب تلك القرابة إلا أن العقد كتب رغم ذلك، ومن ثم عندما طالب عموري بأحقيته في العرش اشترطت عليه الكنيسة تطليق زوجته لأن زواجهما مخالف للدين، وهنا وصل الأمر بعموري إلى مفترق الطرق بين اختيار العرش أو الإبقاء على زوجته فلم يكن منه إلا أن خضع لإرادة الكنيسة، خاصة وأن جماعة من أقارب الزوجين قد شهدا بوجود

تعد على تعاليم الكنيسة لأنها تزوجت من هنفري وهي طفلة و دون السن الشرعية للزواج و لم يستشرها أحد في أمر زواجها ، و انعقد المجلس الديني في ذات السنة و ناقش مسألة الطلاق وتغلبت المصلحة العامة التي كانت في رأي البارونات و الأمراء توضع فوق كل اعتبار حتى ولو كان اعتبارا شرعيا، ومع غياب صوت إزابيلا التي كان موقفها سلبيا فلم تبد أي استهجان لانتقالها من زوج لآخر وشجاعة همفري التي كانت تخونه في المواقف الجادة، فتجنب المواجهة وترك زوجته لتتزوج من كونراد سنة 586هـ/ 1190م والذي آل إليه عرش المملكة بهذا الزواج . أنظر: المؤلف المجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة و تعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000،ج1 ،ص 157-158.

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص883.

Stevenson , The crusades in the east , p 225

2 مؤلف مجهول ، الحرب الصليبية الثالثة ،ج1،ص131-132.

Eracles , op, cit , pp 5-6.

3 يذكر المؤرخ اللاتيني وليام الصوري أنه قد علم بسلسة نسب الزوجين عموري و آجنس من السيدة ستيفنا راعية دير مريم الكبرى المقدسة و هي ابنة جوسلين الأول كونت الرها و أخت روجر أمير أنطاكية ، و هي على النحو التالي :كان بلدوين دي بورج (الملك بلدوين الثاني) و جوسلين الأول كونت الرها ابنين لأختين ، و ولد للملك بلدوين الثاني ابنته الملكة ميليسند التي أنجبت ولدين هما بلدوين الثالث وعموري ،كما ولد من جوسلين الأول جوسلين الثاني والد أجنس التي تزوجها عموري والتي تمثل قريبته من الدرجة الرابعة (ابنة ابن ابن خالته)، أنظر: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص883-884.

علاقة قرابة بين أجنس وعموري ، إلا أن الطلاق كان مشروطا باعتبار أبنائهما من ذلك الزواج أبناء شرعيين ولهم الحق التام في وراثة العرش[1].

أما أجنس كورتيناي، فقد اتخذت موقفا سريعا لتثأر لكرامتها فبمجرد طلاقها من الملك عموري بادرت بالزواج من هيو دي إبلين Huge de belin الذي كان خطيبا لها قبل زواجها من عموري، وعلى الجانب الآخر اقترن الملك عموري من الأميرة البيزنطية ماريا كومنين، غير أنه لم يمض على زواج "أجنس" بضعة شهور حتى توفي زوجها "هيو" سنة 556هـ/1169م، لكنها ما لبثت أن تورطت في زواج محرم آخر مع رينالد سيد صيدا الذي كانت تربطه بها علاقة عاطفية لكنه ما لبث أن اكتشف أن قرابته بزوجته كانت من الدنو ما يجعل الزواج باطلا فتم الطلاق أو ما يعرف بإلغاء الزواج بينهما على هذا الأساس.[2]

هنا تظهر لنا جليا تلك الدائرة الضيقة التي كانت المرأة الصليبية النبيلة مجبرة على الزواج من أحد أفرادها، ما يؤدي بها في كثير من الأحيان إلى الوقوع في زواج محرم، فلا يجب عليها أن تتزوج ممن هو أقل منها مقاما حتى لا يذهب إقطاعها لمن ليس أهلا به، كما لا يجب أن تتزوج أحد أقاربها حتى الدرجة الرابعة حسب قوانين الكنيسة، أضف إلى ذلك أن الأسر النبيلة تعد على الأصابع في المجتمع الصليبي، أدى كل هذا انتشار تجاوزات يتم فيها الزواج حتى بوجود موانع دينة وينتهي الأمر بإلغاء ذلك الزواج وتشتت الأسرة وخاصة إذا نتج الزواج عن أطفال إضافة إلى قيام عداوات بين الأفراد والأسر الصليبية .

لم يقتصر الطلاق الجبري على أحداث الطلاق فعليا بل كان يتعدى أحيانا إلى التهديد بالطلاق بين الزوجين، ومثال ذلك محاولة الصليبيين التفريق بين ريموند الثالث حاكم طرابلس وبين زوجته الأميرة " أشيفا " وذلك لسماعهم أخبارًا عن تعاونه مع صلاح الدين سنة 573هـ/ 1187م، ويذكر ابن العديم[3] " أنه لما زاد الضغط عليه من قبل المجتمع والبطاركة والقساوسة والرهبان، وهددوه بفسخ عقد زواجه، اضطر للتراجع واعتذر عما بدر منه منظما إلى صفوف قومه مرة أخرى".

حاول الملك بلدوين الرابع تطليق أخته "سبيل" من "جاي دي لوزيجنيان"، فقد ساءت العلاقات بينه وبين الملك حتى وصلت إلى ذروة التوتر أوائل سنة 580هـ/ 1184م إلى الدرجة التي قرر فيها الملك إلغاء الزواج بينه وبين أخته سبيل، وبالفعل استدعى البطريك الذي زوجهما مطالبا إياه بضرورة فسخ العقد نظرا لسوء سلوك جاي وعدم وفائه، وطلب بلدوين من البطريك تحديد يوم لذلك في حضوره شخصيا وليأخذ الصيغة الرسمية، ولما أدرك "جاي" ما يدور من ورائه توجه من فوره إلى عسقلان وأرسل في طلب زوجته التي لحقت به حتى لا تكون تحت قبضة أخيها الملك في بيت المقدس،

1 مؤلف مجهول ، الحرب الصليبية الثالثة ،ج1، ص132.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص884، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص654.

3 زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج2، ص93.

وبالفعل دبرت الأميرة سبيل رحلة الهروب ونجحت في الإفلات من قبضة أخيها وفشلت محاولة تطليقها لأنه لا يمكن على الاطلاق طبقا للقوانين المتبعة حينذاك النظر في فسخ الزواج ما لم يحظر الزوجان معا[1].

المبحث الرابع : المظاهر الاجتماعية للمرأة الصليبية والتأثيرات الإسلامية الشرقية عليه:

تختلف العادات والتقاليد حسب تنوع البلدان، فإذا كانت الأقلية الصليبية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسي لمدة تقرب من قرنين من الزمن، فإنها لم تستطع الاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها بدون تغيير، وإنما اضطرت بحكم قلتها العددية في بلاد يعتبر مناخها وأسلوب حياتها غريبا عليهم، أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية، وتكتسب صفات جديدة متأثرة بنظم الشرق وعاداته[2].

أما فيما يخص المظاهر الاجتماعية للمرأة في المجتمع الصليبي باعتبارها مرآة أكثر إيضاحا لطبيعته وميوله، فقد تأثرت مثلها مثل كافة أفراد المجتمع الصليبي بعادات الشرق وقد برز ذلك خاصة في الملبس والمأكل وأدوات الزينة وغيرها من العادات التي لم تكن تألفها في الغرب الأوروبي خاصة الاستحمام .

1-الألبسة وأدوات الزينة :

اختلف لباس المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام من فئة لأخرى طبقا لشرائع وعادات هذه الفئات، وكذلك ليتناسب مع طبيعة المناخ العام لهذا المجتمع، زد على ذلك أن الملبس في حد ذاته يختلف من طبقة لأخرى في المجتمع الواحد وفقا للحالة المادية لكل طبقة من تلك الطبقات .

أما السيدات الصليبيات فقد ارتدين الملابس التقليدية الأوروبية التي تعودن عليها في بلادهن وذلك في بداية قدومهن إلى بلاد الشام، وكانت أثوابهن عبارة عن فستان طويل من أعلى الرقبة حتى الأرض ومعطف طويل يضيق فوق الخصر مزودًا بحزام أو حزامين، وكانت تلك الملابس مطرزة بالشرائط الحريرية ومزينة بالدبابيس الفضية والمجوهرات، وحذاء وجرابات وكن ترتدين المعاطف في الشتاء، وقد استعملت سيدات الطبقة الراقية [3]الفراء الثمين وكن يضعن على رؤوسهن غطاء للرأس شبيهاً بالغطاء الذي تلبسه الراهبات مع دبابيس ذهبية للشعر، وكن يصففن شعورهن ويضعن فوقهن عصائب للرأس، كما استعملن القبعات العريضة المبطنة بالفراء كذلك عرفن الشعر المستعار في تلك الفترة[4].

غير أنه ما لبث أن ظهر التأثير الشرقي على ملابس السيدات الصليبيات في المجتمع الصليبي، اللاتي أعجبن بالملابس الشرقية وتخلين عن تلك الملابس التقليدية التي استعملنها لفترة طويلة في بلادهن خاصة وأنها تتلاءم مع طبيعة بلاد الشام

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 1074، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص710، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص55.

2 الشارتري، تاريخ الحملة،ص228، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص468.

3 عن لباس سيدات الطبقة الراقية من أميرات وملكات أنظر الملحق رقم (6) ،أما عن لباس السيدات الصليبيات من الطبقة العامة أنظر الملحق رقم (5).

4 Setton ,op ,cit ,vol 4,p23.

اسمت غنيم ، المرأة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى،ص 155، فايزة عبد الرحمان حجازي ، بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية في بلاد الشام في الفترة ما بين (492-583هـ/ 1099-1187م) ، مجلة كلية التربية ، جامعة الأزهر، العدد151 لسنة 2012 ،ص455

ومناخها المعتدل، فأرتدين الملابس الشرقية الثمينة[1]، التي تضفي الفخامة والأُبهة عليهن، فلبسن قميص مرسل طويل إلى القدمين، وسترة قصيرة أو رداء بكمين، وكلها موشاة[2] بخيوط الذهب وأحيانا الجواهر، وفي الغالب كانت تلك الملابس من الحرير والطرائز ذي الألوان الزاهية الجميلة[3]، والمعروف أن التطريز كان من أهم سمات الزي الشرقي، سواء كان منه للرجال أو النساء، لدرجة أنه أقيم في بلاد الشرق الإسلامي ديواناً للطراز[4].

في الشتاء ارتدت المرأة الصليبية الفراء بأنواعه مثلما يفعل زوجها والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل[5]، إضافة إلى المخمل (Velour) وهو القطيفة وكان يصنع في أنطرطوس وطرابلس، بل أن كثيرا منهن كن حريصات على الإتيان بأجمل الملابس الصوفية والفساتين المصنعة في أوروبا خاصة أقاليم الفلاندرز وشامباني وغيرها من المناطق الغربية التي اشتهرت بتلك المصنوعات[6]، وقد وصف ابن شداد لباس المرأة المحاربة، فذكر أنها كانت تلبس ملوطة خضراء أي عباءة[7]. عباءة[7].

إذا خرجت المرأة الصليبية من الدار اتخذت الحجاب شأن النساء المسلمات المحتشمات وضربت الخمار على وجهها، ويذكر يوشع براور أن أبناء الطبقة الدنيا من الصليبيين فرضوا على زوجاتهم ارتداء الحجاب وذلك تشبها بما كان عليه حال النساء المسلمات ،خوفا من أن تكشف المرأة الصليبية زينتها أمام الرجال[8]، مما يدل على اتخاذهم الحجاب لأسباب لأسباب قريبة من تلك التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، من ضرورة اتخاد النساء للحجاب حتى لا تظهر جمالها أمام الرجال[9] وهذا عكس ما ذكره المؤرخ رنسيمان أنهن اتخذن الحجاب لا من قبيل الاحتشام، بل لوقاية الطلاء الذي غطى وجوههن[10].

عرفت النساء الصليبيات التحلي والتزين والتخضيب والتعطر، فضلا عن تلوين أصابعهن بالحناء والخضاب، كما استعملن أدوات التجميل والتطرية من مساحيق كالظلال ذات الألوان المختلفة كالليلك والنيلي والقرمزي، واتخذن لزينتهن

1 و يروي جوانفيل في مذكراته ، أنه اشترى مجموعة من العباءات الشرقية على مختلف ألوانها و أرسل أربع منها إلى الملكة مارجريت زوجة الملك لويس التاسع ، ففرحت بها الملكة فرحا كبيرا ،أنظر: جوانفيل ، القديس لويس حياته و حملاته على مصر والشام ، ترجمة :حسن حبشي ، القاهرة ،1968، ،ص261-262.

2 **الوشي**: قماش من الحرير الملون مثقل بالذهب كان يعمل في اليمن و العراق و مصر ،أنظر: مصعب حمادي نجم الزايدي ، الاستيطان الصليبي، تهميش رقم1،ص278

3 أسامة بن منقذ ، الاعتبار ،ص136، وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص509، عاشور ،ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ،ص32

4 و الطراز كلمة فارسية تعني الأردية المحلاة بأشرطة من الكتابة ، ثم أصبحت تطلق على المصنع الذي تطرز فيه الملابس ، و كانت الدور المعدة لذلك تسمى دار الطراز، و كان القائم على النظر على تلك الدار يسمى صاحب الطراز، و أقيم له ديوان يسمى ديوان الطراز، أنظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج6،ص60.

5زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية الثقافية ،ص148.

6 أشتور ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ،ص346، هنري بيرين ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ص139.

7 ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص167.

8 الاستيطان الصليبي،ص620.

9 " **و ليضربن بخمورهن على جيوبهن و لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن**" الأية 31 من سورة النور.

10 تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص509.

المجوهرات الدمشقية والقاهرية، كما اجتذبتها المرايا الزجاجية[1]، وحرصن أيضا على التباهي بارتداء حليهن التي اتخذت أشكالا عدة منها الأساور والحلقان والخلاخل والخواتم والعقود وعصائب الرأس والأكاليل المصنوعة من الذهب الخالص، والواقع أن الحلي بالنسبة للصليبيات كانت تعد من أهم مقتنياتهن على الإطلاق وخاصة للعرائس منهن[2].

والجدير بالذكر أن النساء الفرنجيات قمن بمحاكاة المرأة العربية، فتأنقن في سيرهن متشبهات في ذلك بالنساء الشرقيات مما جعلهن يبدون رقيقات وادعات وتحدثهن باللغة العربية بطلاقة، كما انتهجت زوجات التجار حذو السيدات الأرستقراطيات في أحوال كثيرة، بل تفوقن عليهن في وفرة الملابس وارتفاع ثمنها، فقد كانت "باسكيه دي رفيري" Pasque de riveri زوجة أحد التجار في نابلس، والتي بلغ من سحرها وحسنها وزينتها التي فاقت الأميرات، فوقع في غرامها البطريك هرقل و كان يظن الناظر إليها أنها كونتيسة أو واحدة من البارونات لما ارتدته من ملابس حريرية وما اتخذته من جواهر نفيسة[3].

كذلك ما شاهده ابن جبير[4] أثناء زيارته لمدينة صور سنة 581هـ/ 1184م، فترك لنا صورة حية عن حياة المرأة الفرنجية، وما توصلت إلى اقتباسه من وسائل التجميل ومظاهر الترف في الملبس، فقال: ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس .... وهي في أبهى زي وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير سحبا على الهيئة المعهودة في لباسهم ،وعلى رأسها عصابة قد حفت بشبكة من ذهب منسوجة .....ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن[5] في أرفل الحلي" وهنا يظهر لنا أن زي هذه العروس الافرنجية معظمه مأخوذ من زي النساء الشرقيات.

إن ما نعمت به المرأة الفرنجية في بلاد الشام من حياة رغدة لم تتعودها ولم تعرفها في موطنها الأصلي في أوروبا، قد دفعها إلى الإسراف الممقوت في التزيين والمغالاة في التبرج، غير مراعية لأصول العادات الشرقية في هذا المجتمع، فأخرجها هذا التبرج عن حياة كريمة وشريفة، وأبعدها عن دائرة العفة و الفضيلة[6].

في سنة 540هـ/1146م دخل الشاعر ابن القيسراني بلد أنطاكية لحاجة عرضت له، فنظم مقطعات يصف فيها الإفرنجيات وينقل صورا من حياتهن في مجالس لهوهم وأعيادهم وكنائسهم وأديرتهم، ولو تتبعنا الطريق التي سلكها الشاعر لأمكننا أن نقول أن أولى قصائده تلك التي نظمها وقد اجتاز بلدة عزاز من ضواحي حلب، ويظهر منذ البداية انبهار

1 زكي النقاش ، الأوضاع الاجتماعية و الثقافية ،ص148،

Setton ,op ,cit ,vol 4,p23.

2 ابن جبير، الرحلة ،ص242، وليام الصوري، ج2، ص509.

3 Eracles , op, cit ,p 60.

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص509-510.

4ابن جبير، الرحلة ،ص 237.

5 **يرفلن** : الرفل هو جر الذيل جرا حسنا إذا مشت و ركضه بالرجل ، أنظر: ابن منظور، لسان العرب،ج19، ص191

6 أحمد الشامي ، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص206.

الشاعر بالنساء الصليبيات فيصف حسن وجوههن وجمال عيونهن، واعتدال قاماتهن، ودقة خصورهن، وطريقة تسريحهن لشعورهن فيقول[1]:

أي عزي من روحي بعزاز وجوازي على الضباء الجوازي
واليعافير ساحبات المغافير كالربرب المجتـــــــــــاز
بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا الهـــــــزاز
ونحور تقلدت بثغـــتـــو ريقها ذوب سكر الأهـــواز
ووجوه لها نبوة حســـن غير أن الإعجاز في الأعجـاز
وسبتني لها ذوائب شعـر عقدتها تاجا على أبـــرواز

كما رسم صورة فنية بديعة لهؤلاء النسوة وقد بدون من نوافذ دورهن سافرات الوجوه، حيث يقول[2]:

واحربا في الثغور من بلد يضحكُ حسنا كأنه ثَغَـرٌ
به قصورٌ كأنها بيـــــع ناطقةٌ من خلالها الصـورُ
هالاتُ طاقاتهن آهلـةٌ يَبسمُ عن كل هَالة قمـرٌ
سوافرٌ كلما شَعَرن بنـا برقعهُنَ الحياءُ و الخفـرُ
من كل وجه كأنَ صُورتهُ بدرٌ و لكن ليله شَعَـــرٌ

وقد تأثرت الصليبيات بعادات المسلمين في المآتم والأحزان حيث أحضرن الندابات في أحزانهن[3]، وتثبت بعض النصوص أن لبس الزي الأسود في مناسبات الحزن والمآتم كان عادة جارية لدى الفرنجة أخذوها عن السكان المحليين، فقد انتحل القساوسة والرهبان ونساؤهم السواد بعد طردهم من القدس[4]، وقد بلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد المحلية، أنهم أنهم كانوا يصلون أحيانا في المزارات التي يقدسها المسلمون واليهود[5].

بينما كان هذا هو حال النساء الصليبيات، ومن برزن من النساء المحليات للطبقة البرجوازية، كانت الغالبية العظمى من السكان المحليين نساء ورجالا في المجتمع الصليبي تشهد ملابسهم على ما حل بهم من تراجع وانحدار لأوضاعهم المادية، فلقد كانت ملابسهم بشكل عام بالية ومتشابهة إلى حد كبير، لدرجة أنه كان يصعب تفريق أصحابها منها، فلم يشهد السكان المحليون رداء مميزا للمسلمين أو المسيحيين الوطنيين من غيرهم، وإن حرصت بعض الطوائف من المسيحيين الوطنيين على وضع أحزمة من الصوف على خصورهم لتمييزهم عن المسلمين[6].

---

[1] ابن القيصراني، المصدر السابق ،ج1، ص 215-216.
[2] المصدر نفسه ،ج1، ص132.
3 زكي النقاش، المرجع السابق ،ص148.
4 ابن الأثير، الكامل، ج9،ص201.
5 فيليب حتي ،تاريخ العرب الموجز ، ص733.
6 بورشارد ، وصف الأرض المقدسة، ترجمة و تعليق : سعيد عبد الله البيشاوي ،مراجعة و تدقيق : مصطفى الحياري ،دار الشروق ، ط1،عمان ،1995،ص 1995،ص 173، نهى الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية ،ص186.

كانت الملابس القطنية والكتانية وكذلك الصوفية الغالبة على لباس السكان المحليين، نظرا لتوافقها أكثر مع طبيعة المناخ الحار نسبيا لبلاد الشام وخاصة في فصل الصيف، لذا كان أمرا طبيعيا أن نجد الصليبيات ذاتهن اللاتي حرصن على ارتداء أفخر الثياب وأغلاها، يقدمن هن أيضا على ارتداء تلك الملابس، بل أنه حرصا منهن على ارتداء الحرير لجأن في كثير من الأحيان كعادة السكان المحليين إلى ارتداء الملابس الحريرية المنسوجة من خيوط القطن[1].

على الرغم من الأوضاع المالية المتعسرة للسكان المحليين إلى أنهم حرصوا في أعيادهم على شراء الملابس الجديدة لأسرهم، وخاصة الأطفال على سبيل ادخال نوع من البهجة والسعادة على قلوبهم، وعلى هذا النحو كانت الأعياد و المناسبات السعيدة هي أكثر الأوقات التي شهدت فيها النساء الوطنيات في المجتمع الصليبي تباهيا بثيابهن الجديدة بألوانها الزاهية و الجميلة[2].

استفادت المرأة الصليبية من ميزة المنسوجات الشرقية الراقية التي عرفت في بلاد الشام، والمنسوجات التي لم تكن متوفرة في أوروبا سواء في بيوت الأمراء والملوك، كانت في متناول الجميع حتى محدودي الدخل منهم في الشرق فالحرير والقطن والصوف والشاش كانت تنسج بأيدي الفرنجة ونسائهم، فكان من الممكن لهم أن يرتدوا الأقمشة الشرقية إلا أن تفصيل الملابس ظل أوروبيا، وكان الأوروبيون يستوردون قطع الملابس التي لا يمكن الحصول عليها من داخل المملكة مثل أغطية الرأس[3].

2-الأطعمة والأشربة :

ترتب على استيطان الصليبيين في بلاد الشام ومحاربتهم للعرب المسلمين واحتكاكهم بهم واكتسابهم الكثير من الذوق الشرقي في الأطعمة والأشربة، وفيما يتعلق بالأطعمة فقد تأثرت النساء الفرنجيات بما كان سائدا في المطبخ الشرقي الإسلامي من عادات و تقاليد، لعل أبرزها عدم تناولهن لحم الخنزير الذي تحرمه الشريعة الإسلامية، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ[4]عن وصف مائدة أحد الفرسان الصليبيين حيث قال " جئنا إلى دار فارس من الفرسان ... فأحضر مائدة حسنة، وقد أعتفى من الديون والخدمة، وله في أنطاكية ملك يعيش منه فأحضر مائدة حسنة في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفا عن الأكل فقال : كل طيب النفس فأنا لا آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبخهن ولا يدخل داري لحم خنزير".

هذا يدل على نبذ الصليبيين الأسلوب الغربي في إعداد الطعام وطهيه، وتعلمهم الامتناع عن أكل لحم الخنزير حتى أنهم كانوا يؤكدون لضيوفهم من المسلمين أنهم لا يجدون على موائدهم أي من المأكولات التي حرمها القرآن الكريم، كما أن أساليب فن الطهي التي جلبها الصليبيون معهم من أوروبا كان من العسير عليها أن تنافس الأطعمة المحلية

1 حاتم الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي ،ص211-212.

2 نهى الجوهري ، المرجع السابق،ص186.

3 براور، عالم الصليبيين ، ص112.

4 الاعتبار ، ص 140.

الشرقية[1]، فقد أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الصليبيين في الشرق كانوا يأكلون أطعمة أفضل بكثير من تلك التي يأكلها أبناء جنسهم في وطنهم أوروبا[2].

اكتسبت المرأة الصليبية شيئا من الذوق الشرقي في الأطعمة والأغذية، التي لم تعرفها أوروبا قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق، مثل السكر الذي استخدمه أهل الشرق، وقد انبهر الصليبيون رجالا ونساء عندما شاهدوا نبات قصب السكر في بلاد الشام[3]، ولم يكد القوم يتعرفون إلى أطعمة أهل البلاد، حتى أعجبتهم نكهتها فأقبلوا عليها بأنواعها فاشتهرت موائدهم بأطباق الطيور والدجاج والحمام، كما كانت لحوم الأبقار والأغنام والجمال والغزلان والأرانب تطبخ مع الثوم والأعشاب الطبية، فضلا عن لحوم الأسماك التي كانت طعاما مترفا للصليبيين، كما تضمنت موائدهم الأرز وأنواع من الخضروات والخيار والخس وغيرها، ولم يكن طعامهم غنيا ومتنوعا فحسب بل كان يطبخه السكان المحليون الذين كانوا بارعين في ذلك [4].

تأثرت المرأة الفرنجية كذلك بما وجدته من صناعة المخللات المختلفة، والتي كانت تصنعها المرأة العربية من البرتقال أو الليمون الذي لا يعرفه الأوروبيون إلا في بلاد الشام[5]، كما أقبلت نساء الفرنج كذلك على التوابل والمشهيات – التي لم يألفوها من قبل – ومختلف أنواعها كالزنجبيل والقرفة في موائدهم الغذائية، لما يتركنه من أثر طيب في الطعام حيث أصبحت الأطعمة لا تستساغ إلا باستعمالها[6]، وكانت تقدم مع وجبات الدجاج و السمك والأطعمة الأخرى[7]،و قد اشتهر عن أبناء الغرب الأوروبي وبخاصة من الإيطاليين بعد ذلك استخدامهم لتلك الأصناف[8].

تعلمت النساء الصليبيات من العرب فن ترتيب الموائد وصناعة الكثير من الأطعمة الشرقية، عن طريق استخدام الجواري والإماء، فقد كان أصحاب الموائد من العرب والفرنج لايرغبون غيرهن في هذا الفن، فقد أخذت النسوة الصليبيات أسرار الطبخ العربي في جملة ما أخذن من تقاليد الحضارة الشرقية، فتعلمن طريقة عمل الفطائر والمعجنات الأخرى والتمر الهندي والذرة الشامية[9]، وفيما يروى عن ابن العديم أنه ذكر أن الفرنجة كانوا يصنعون نوعا من الخبز عرف عرف بخبز البيض[10].

---

1 عاشور ، بحوث و دراسات،ص52.

2 أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية،ص122.

3 ابن الأثير ، الكامل ،ج10،ص346 ، مُحَّد كرد علي ، خطط الشام ،ج1، ص54.

و قد تم التعرف على نبات القصب أثناء زحف جيش بوهيموند على أنطاكية ، **انظر**: فوشيه الشارتري، الحملة إلى بيت المقدس،ص105-145، و عن زراعة القصب و معاصره في بلاد الشام و مصر ، أنظر: النويري، نهاية الأرب ج8، ص119.

4 أنتوني بردج، المرجع السابق، ص 122، عاشور ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ،ص34.

5 زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 333.

6 براور، الاستيطان الصليبي،ص617.

7 بورشارد ، وصف الأراضي المقدسة ، ص 169، براور، عالم الصليبيين ،ص111.

8 علي السيد علي ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين، ص 140.

9 أسامة بن منقذ، الاعتبار ،ص 140-141

10 الوصلة إلى الحبيب ،660.

وقد استساغت المرأة الفرنجية الفاكهة الشامية بشكل خاص والشرقية بشكل عام مثل البرتقال والليمون والرمان و التفاح والموز والعنب والبطيخ والخوخ والتين وأكثرت من اضافتها إلى موائدهم[1]، كما استخدمت زيت الزيتون في طهي الطعام بدلا من استخدام دهن الخنزير، وذلك تأثرا بما كان سائدا عند المسلمين[2]، حيث كان انتاج الزيتون وفيرا[3].

تعرفت الصليبيات على طرق عمل المشروبات المعطرة والمثلجة والمحلاة[4] وتأثرن في ذلك بالذوق الشرقي، فتعلمن بوجه خاص كثرة استخدامهن للسكر، إذ عرفن لهذا النبات الذي كان منتشرا في مدن الساحل الشامي، ولا سيما في مدينة صور، وقد أفاد الصليبيون من السكر في حياتهم الاقتصادية، فتعلموا صناعة الشراب المصنوع من السكر بل وأضافوه إلى الحلوة وتفننوا في صناعتها وتصنيفها، وكانت القهوة العربية شراب الكثير من الصليبيين [5].

بالإضافة إلى الخمور بأنواعها المختلفة والتي كانت تعد مشروبهم الأساسي، خاصة الخمور الشامية المسكرة التي تفنن في صناعتها أهل الذمة المحليين[6]، والجعة المتبلة بجوز الطيب والثوم، كما تميزت بلاد الشام بجودة خمورها كالنبيذ المصنع في في حصن الأكراد والذي عرف بمذاقه المسكر، وبارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف قام الصليبيون خاصة في إمارة طرابلس بنقل قطع الثلج الكبيرة الحجم من فوق قمم الجبال خاصة جبال لبنان لتقطيعها واستخدامها في تبريد مشروباتهم ، ويذكر لنا الفيتري[7] ممن عاصر زمن الصليبيين في الشام عن ثلج لبنان واستعمالهم له " ويجلب ثلج بارد إلى بيت المقدس المقدس من لبنان في شهر أغسطس...حيث أنه عندما يخلط مع النبيذ يصبح باردا كالثلج ".

استعانت المرأة في المجتمع الصليبي بأدوات المطبخ والمائدة، فكانت تختلف تبعا للطبقة الاجتماعية وكانت تطهي الطعام في أواني فخارية كبيرة في أفران مفتوحة وتلك الأفران قد حفظها الزمن في الأماكن التي احتلها الصليبيون وهي عبارة عن فتحات ضخمة كان من الممكن شيُ اللحم فوقها أو تعليق القدور عليها، وتغطى الفتحات بنوع خاص من الأسياج الحديدية التي تحمل القدور وأواني الطبخ، وكانت الملاعق والسكاكين هي أدوات المائدة الرئيسية، وكان من المعتاد أن تصنع الملاعق من الخشب، بينما تصنع السكاكين من الحديد الصلب، وغالبا ما أستخدم الواحد منهم خنجره كسكين للمائدة، وكما كانت الأدوات المعدنية تستورد خاصة من أوروبا[8].

تنقل شرائح اللحم على الخبز المستدير الذي يقوم مقام الأطباق، وقد يوضع الخبز في أطباق من الفخار تزينها غالبا الرسوم، وكان أكثر أنواع الطلاء شيوعا هو الذي يتكون من خلفية قاتمة اللون تغطيها رسومات هندسية من الطلاء البني والأخضر والأصفر، وفي بعض الأحيان كانت هذه الرسوم عبارة عن رموز مسيحية مثل الصلبان والسمكة و

1 أنتوني بردج ، المرجع السابق،ص 77، علي السيد علي ، المرجع السابق، ص140-141.

2 دانيال الراهب ،وصف الأراضي، ص 92.

3 براور، الاستيطان الصليبي، ص 617.

4 زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية ،ص148.

5 علي السيد علي ، العلاقات الاقتصادية ،ص140-141.

6 فوشيه الشارتري ، الحملة إلى القدس، ص ،81، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص614.

7 يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ،ص 137.

8 براور، عالم الصليبيين ،ص110.

الأكاليل وتيجان الأساقفة، وكانت تستخدم أيضا رؤوس الحيوانات والكائنات الأسطورية وما شابه ذلك، أما الأطباق الأكثر فخامة فكانت تزينها رسوم الفرسان والخيالة فوق ظهور خيولهم[1].

كانت المرأة الصليبية تستخدم الأطباق المعدنية والكؤوس في زينة المنزل، خاصة أطباق النحاس الكبيرة المنقوشة بآيات من الكتاب المقدس وببعض مناظره وصوره، ويبدو أنها في الغالب تستورد من أوروبا، أما الكؤوس المعدنية فقد شاع استخدامها في البيوت الصليبية وكان بعضها يطعم بالفضة على الطريقة العربية الشرقية المحببة للصليبيين ، ولم تكن النقوش العربية التي تمجد الله عائقا في سبيل استخدام الصليبيين لها على الرغم من استخدامها لشرب الخمر- وهو ما لم يكن الفنانون الذين صنعوها يقصدونه بكل تأكيد – وفي الوقت نفسه كانت الأكواب والكؤوس المعدنية شائعة الاستخدام في أوروبا أيضا[2].

3-النظافة والاستحمام:

تأثر الصليبيون الذين استوطنوا بلاد الشام تأثرا واضحا بحياة الشاميين الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم، وكان من بين ما راقهم كثيرا من نعم الحياة بعد استقرارهم بالشام الحمامات العامة، فأقبلوا عليها أيما إقبال وقصدوها في أوقات فراغهم يقضون فيها الساعات طلبا للراحة، فضلا عن الغاية الأولى منها وهي النظافة[3] التي لم تكن محل اهتمام مجتمع أوروبا العصور الوسطى، حيث وصف بأنه " المجتمع الذي نسي أن يستحم لمدة ألف سنة "، وهذا الوصف لم يكن ينطبق على الفرنجة في الشرق بالتأكيد، إذ كان الصابون ينتج محليا وربما كان يصدر إلى الخارج أيضا[4]، وهذا يعتبر أكبر تغيير في عاداتهم ومستوى صحتهم الشخصية ونظافتهم بعد أن كان الاستحمام في أوروبا مكروها[5].

أُعجبت المرأة الإفرنجية بالحمامات التي انتشرت في ببلاد الشام بشكل عام، وأخذت في التردد عليها، لدرجة أن نساء طبقة البولاني اعتدن زيارة الحمامات ثلاث مرات في الأسبوع، على الرغم من التضييق الشديد الذي قام به الرجل البولاني على زوجته ومنعها من الخروج خارج المنزل[6]، ويظهر أن البعض قد غالى في التردد على الحمامات بدليل موقف الفيتري أسقف عكا الذي احتج كثيرا على الراهبات لخروجهن من الأديرة، مخالفات بذلك أنظمة حياتهن ليذهبن إلى الحمامات العامة، وحضورهن مع عامة الناس أيضا[7]، وقد عارض رجال الدين دخول الحمامات معارضة شديدة لاعتقادهم أن تجريد الجسد من الثياب مدعاة للفجور، فهم يعتقدون أن نظافة الروح هي الأصل ولا أهمية لنظافة الجسد ، وأن القذارة مظهر من مظاهر العفاف[8].

---

1 براور، عالم الصليبيين ،ص110.

2 نفسه ،ص110-111.

3 زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية و الثقافية ،ص150.

4 يوشع براور ، عالم الصليبيين ،ص112.

5 أنتوني بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص121.

6 يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص 113.

7 يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص105-106

8 زيغريد هونكة ، فضل العرب على الغرب ،ص35-36.

ترددت سيدات الطبقة الراقية في المجتمع الصليبي على الحمامات[1]، التي أصبحت بذلك مجالا واسعا لتأثر والاحتكاك الاجتماعي وانتقال العادات والتقاليد بينهم وبين الشرقيين أيضا[2]، وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة الرفاهية عليهم، فذهل الأوروبيون الذين زاروا المملكة المقدسة حيث كانوا يعودون إلى أوروبا بانطباع أن مجتمعا مخنثا قد خلف أبطال الحملة الصليبية الأولى، الذين قد أصبحوا آنذاك قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها[3].

لقد أدى التأثير الشرقي إلى إنشاء الصليبيين للحمامات العامة خاصة في بعض المستوطنات الصليبية، منها على سبيل المثال الحمام العمومي الذي شيده الملك بلدوين الثالث في مستوطنة أمبرت[4]، ولم يكن ارتياد الحمامات العامة مقصورا على النساء بل شمل الرجال أيضا[5]، وما أكثر ما يسرد علينا أسامة بن منقذ من أخبار الحمامات وكثرة اختباراته مع الصليبين فيها والملاحظ أن هؤلاء كثيرا ما يختلطون فيها مع المسلمين مثال ذلك مدينة معرة النعمان التي كانت حماماتها العامة مختلطة بين المسلمين والصليبيين[6].

ويذكر لنا أسامة بن منقذ كذلك انعدام الغيرة الجنسية عند الفرنجة، والتي لمسها عند دخوله احدى حمامات مدينة صور والتي كانت تحت الحكم الصليبي، وما جرى له مع أحدهم وكان قد أخذ ابنته الصبية معه إلى الحمام، وذكر أيضا أنهم كانوا لا يرون أي حرج في دخول الحمام مع زوجاتهم، وأنهم كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط في الحمام الأمر الذي كان يثير في بعض الأحيان مشادة أو يبعث على النكتة الرائعة والفكاهة اللطيفة، كما أنهم لم يكونوا يزيلون شعر العانة، لذلك استغرب أحدهم من مسلم أزال شعر عانته، فطلب من الحلاق أن يزيل له شعر عانته، وأحضر زوجته عند الحلاق كي يزيل لها شعر عانتها، وبعد أن أنهى عمله شكره ووهب له حق خدمته، وهذا أيضا يشير لنا على عدم الغيرة والنخوة عندهم [7].

يتضح لنا مما سبق أن الصليبيين تأثروا بسكان البلاد الأصليين بالنسبة لعادة الذهاب للحمامات العامة، ولكنهم اختلفوا عن المسلمين في أنهم سمحوا لزوجاتهم بالاستحمام مع الرجال، كما أنهم استغربوا من وضع المئزر على الوسط من أجل ستر العورة وأصروا على الاستحمام عراة ولعل هذا الأمر يشير إلى الفرق الشاسع بين القيم الأخلاقية للمجتمع المسلم والقيم الأخلاقية للمجتمع الأوروبي والتي ترتبط ارتباطا قويا بالعامل الديني.

---

1 أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص136-137 ، محمد مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي، ص269.

2 الحويري، الأوضاع الحضارية ،ص 236.

3 براور، عالم الصليبيين ،ص112,

4 **أمبرت** : سميت نسبة للفارس الصليبي Imbert الذي احتلها سنة 493هـ/1104م ، تقع في شمال بيت المقدس على بعد 14 كيلومتر شمال عكا كانت كانت في البداية حصنًا صغيرً ثم أصبح قرية كبيرة، و قد أطلق عليها الجغرافيون العرب اسم "الزاب" أما الفرنج فأسموها ب" Castle Imbert "أنظر: ابن جبير، الرحلة،ص236، ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج3،ص16، بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ص40.

5 مصعب حمادي الزايدي ، الاستيطان الصليبي ،ص282.

6 أسامة بن منقذ، الاعتبار ،ص136.

7 نفس المصدر،ص136-137.

على العموم يمكن القول أن الاتصالات الحضارية التي حدثت بين سكان بلاد الشام المحليين والصليبيين جعلتنا نميز الكثير من ملامح التطور التي ألمت بالمجتمع الصليبي في بلاد الشام عامة والمرأة الصليبية خاصة، ومع ذلك فقد احتفظ الصليبيون بكثير من عاداتهم وتقاليدهم التي تتفق وأصولهم الغربية، لأنه من الصعب أن يكون التحول الاجتماعي تاما وشاملا في تلك الفترة التاريخية المحدودة، وربما كان أقرب من الصواب أن نقرر أن المجتمع الصليبي في بلاد الشام كان مجتمعا مصطنعا، فطبيعة البلاد وأهلها ومناخها العام، كانت كلها بعيدة عن طبيعة الغرب الأوروبي الذي نزح منه الصليبيون، وربما وجد بعضهم في ذلك التباين والاختلاف قدرا من الطرافة المحببة إلى نفسه، ولكن ذلك الفريق ظل يعيش في بلاد الشام أشبه بالشجرة التي غرست في غير بيئتها[1] .

4 حقوق المرأة الصليبية

عندما جاء الصليبيون في أواخر القرن 5هـ/11م ليستقروا في بلاد الشام نقلوا معظم نظم وقوانين غرب أوروبا التي عرفوها وعاشوا في ظلها، غير أنهم لم ينقلوها برمتها بل تم تعديل هذا النظام بعض الشيء ليتناسب مع البيئة الجديدة التي استقروا فيها، وكانت نتيجة ذلك تنظيم الحكومة على أسس إقطاعية فقد قسمت المملكة الصليبية إلى عدد من الإقطاعات تدين بالولاء للملك الذي كان يقف على قمة البناء الاجتماعي في المملكة الصليبية[2]، وإذا كان الملك قد حاز مملكته على أنها إقطاع شأنه في ذلك شأن النبلاء فإن ما يسري على الإقطاع من قوانين يسري أيضا على المملكة ، هذه القوانين قضت بوراثة الاقطاع وفي هذا الشأن لم يفرق الصليبيون بين الذكور والإناث[3].

من أهم حقوق المرأة الصليبية في المجتمع الصليبي كان الحصول على الإقطاع الذي يؤول إليها بالوراثة، غير أن نظام الوراثة عند الصليبيين امتاز بالجور على المرأة، لوجود شرط للتصريح بوراثة المرأة للإقطاع وهو أن جميع الورثة من الذكور يفضلون عليهن في وراثة الإقطاع، وإذا كانت الإقطاعات الموروثة من الوالدين عددها أقل من عدد الأولاد فلا تنال الفتيات نصيبهن في إرث الإقطاع إلا بعد استيفاء أشقائهن من الذكور لكل حقوقهم فإن تبقى شيء فيؤول إلى الفتيات.[4]

حدد قانون الإقطاع شروط وقواعد عديدة لوارثات الإقطاع منها الترتيب في الميلاد حيث لعب دورا كبيرا في تحديد حجم الإقطاع الموروث، فالبنت الكبرى ترث إقطاعية بأكملها بعد أن يكون كل الذكور قد نالوا حقوقهم من الإرث أما بقية الفتيات فيقتسمن ما تبقى، كما كفل قانون الإقطاع للنساء حق الاحتفاظ بالإقطاعات في حوزتهن والتي آلت إليهن بوصفها ميراثا من الأب أو الزوج ، كما حدد القانون للأرملة أن ترث نصف ضياع زوجها المتوفي[5].

---

1 عاشور ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ،ص36.

2 علي السيد علي ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين ،ص161.

3 هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية ،ص240.

4 جان ريتشارد ،وضع المرأة في الشرق اللاتيني ، ص158،

Emilie AMT, Women's Lives in medieval Europe , p59.

5 James Brundage , Marriage Law in the Latin kingdom of Jerusalem , pp265-267, La Monte , Feudel monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100- 1291 America , 1932 ,pp 49-50.

وقد ذكر المؤرخ يوشع براور في هذا الصدد بأن القانون الإقطاعي في المملكة الصليبية قد أقر حق أبناء الفصل المتوفي الإناث في وراثة الإقطاع، مؤكدا أن هذا القانون لم تعرفه أوروبا كلها في تلك الفترة، كما لم تحرم قوانين بيت المقدس النساء من حقهن في عرش المملكة، وحرمت المرأة في فرنسا من هذا الحق[1].

بذلك تمتعت المرأة الصليبية بحقها في التاج الملكي بموجب حقها في وراثة الإقطاع، كما أن التشريعات الصليبية أقرت أن الملكة الحاكمة التي ألت إليها المملكة بالوراثة في حال ما إذا ماتت وتركت ورثة نتيجة لزواجها بأكثر من زوج، فإن أبناءها من الزواج الأول يكون من حقهم وراثة العرش ويتقدم في ذلك الذكور على الإناث، والإناث من الزواج الأول لهم الأفضلية في الوصول إلى العرش عن الذكور من الزواج الثاني، كما شرعت القوانين الصليبية أنه عندما يكون وريث التاج الملكي إمرأة يتعين انتخاب زوجها ملكا ، مع الأخذ في الإعتبار أن هذا الزوج يستمد حقوقه كملك من خلالها فكان الإرث ينتقل من النساء إلى الأزواج[2].

إن تشريع وراثة التاج للإناث الذي أقره الصليبيون في مملكة بيت المقدس كان يحمل في ثناياه الكثير من عوامل ضعف المملكة إذ أن اعتبار المملكة إقطاعًا أجاز لها أن تنتقل إلى الزوجات والبنات الوريثات شأنها في ذلك شأن سائر الإقطاعات، وهو ما أدى إلى انتقال العرش إلى أسر جديدة أزواج لم تتوفر فيهم الحنكة السياسية أو الصفات التي تؤهلهم للتربع على العرش الملكي، مما قضى على هيبة المملكة وعجل في سقوطها وهدم كل ما بناه الصليبيون الأوائل لاستمرار التواجد الصليبي في الشرق[3].

يعتبر الملك بلدوين الثاني أول من طبق مبدأ وراثة الإناث للعرش، ذلك أنه لم ينجب ذكرا، ولم تترك له زوجته مورفيا سوى أربع بنات، فأدى ذلك إلى تطبيقه للقوانين الخاصة بوراثة العرش للإناث وبالفعل في عام 521هـ / 1127م تتم تتويج ابنته الكبرى ميليسند وزوجها فولك الأنجوي ملكان على بيت المقدس، وبذلك استمد الملك فولك سلطته الملكية كونه زوج ميليسند، كما حدث نفس الشيء عندما توفي الملك بلدوين الرابع وانتقل التاج إلى أخته سيبيلا التي توجت ملكة وقامت بوضع التاج على رأس زوجها جاي لوزجنان رغم رفض أغلب الصليبيين لقيادته فأستمد حقوقه الملكية رغما عنه من زوجته سيبيلا [4].

إن حق المرأة الصليبية في ملكية إقطاعية يلزمها بالتزامات لم يعان منها ملاك الإقطاعات من الرجال، فقد وجب عليها أن تخضع خضوعا تاما للحاكم أو الأمير الواقعة إقطاعيتها تحت سلطانه، وأن تؤدي له الهدايا والهبات، وأن تقرضه المال مثلها في ذلك مثل الرجال، إضافة إلى ذلك وجب عليها أن توكل أمر إدارة أملاكها إلى أحد الفرسان لتكون هذه

1 يوشع براور ، الأستيطان الصليبي، ص14.

2 Le Livre de roi , Assises de jerusalem ,paris ,1841, PP 609-610 .

3 نبيلة إبراهيم خليل ، حقوق المرأة الصليبية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية ،ص92.

4 ميشيل بالار ،الحملات الصليبية في الشرق اللاتيني ،ص 126-127.

الأملاك تحت رعايته وحمايته إذا كانت غير متزوجة وقد كان القانون الصليبي صارما في أمر زواج السيدات مالكات الإقطاعيات ونص على ضرورة زواجهن ممن يستطيع إدارة إقطاعيتها باسمها وإلا تعرضت للعقاب[1].

تجدر بنا الاشارة إلى حق المرأة الصليبية في النفقة، فقد كان على الأزواج الالتزام بإمداد زوجاتهم وأطفالهم بما يلزمهم، كذلك فإن الأزواج ملزمون بتربية أطفالهم سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين، وتحتوي القوانين الصليبية على ضرورة حماية مهر السيدة المتزوجة من الزوج الذي يمتنع عن إمداد البيت بما يلزمه وتسعى لحمايتها من الناحية الاقتصادية[2].

إذا أتينا إلى الحديث عن حقوق المرأة المادية، نجد أن القوانين الكنسية كانت تهتم بحقوق المرأة وخاصة المادية، فإذا أرادت أن تبيع شيئا من ممتلكاتها أو إرثها فيجب أن تحضر بشخصها إلى مبنى المحكمة لتقر البيع، لتضمن المحكمة أنها غير مجبرة على البيع وأنها تريد البيع بإرادتها دون أية ضغوطات من زوجها للإستيلاء على إرثها، فكانت تقسم على ذلك أمام القاضي، كما أن المرأة التي تدان في قضية ضرب فإن الغرامة التي تدفعها تبلغ نصف الدية التي يدفعها الرجل في الموفق نفسه، كما كان من حق المرأة الصليبية العمل بالتجارة لكن شريطة أن تكون تحت السيطرة الكاملة والتبعية لزوج يستطيع أن يؤدي عنها مسؤولياتها ويسدد ديونها إذا تراكمت عليها[3].

أما عن حق المرأة في اللجوء للمحكمة للدفاع عن حقوقها فقد كان لها الحق في مقاضاة الرجال، فكانت المجالس أو الكنائس أو المحاكم تستقبل الشاكيات المتهمات لأزواجهن بمختلف التهم فكانت تكفل لهن الحماية، فإذا تعلقت المشاكل ببائنة المرأة وما يخصها من أمور اجتماعية كالزواج و الطلاق فتحكم فيها المحاكم الكنيسة[4]، أما إذا تعلقت المشاكل بحالات الأراضي فتعرض على البلاط الملكي ليحكم فيها[5].

اكتسبت المرأة الصليبية حقوقا واسعة رفعت من مكانتها في المجتمع الصليبي، فقد كان لها الحق في تنظيم شؤون الفرسان الذين تألف منهم الجيش الصليبي، ومثال ذلك الأميرة سيسيليا أرملة الأمير تنكرد، والتي منحت العديد من رجال المملكة لقب " فارس"، ليصيروا نواة للجيش الصليبي، وكان ذلك الصنيع قفزة اجتماعية لهم حيث انتفعوا بها حين جاء الملك بلدوين الأول وأراد بناء تنظيم الفرسان الإقطاعيين بأنطاكية والذي كان منهم " جيرفيس بيرتو" Gervais Le"Berton " فكان هذا الرجل من زورتهم لحصوله من سيسيليا على هذا اللقب [6].

---

1 جان ريتشارد ، المرجع السابق، ص177.

2 نبيلة إبراهيم خليل ، المرجع السابق،ص97-98.

3 جان ريتشارد ، وضع المرأة في الشرق اللاتيني ، ص177

4 **محكمة الكنيسة** : و قد جزت الأمور فيها وفقا للقانون الكنسي ، فقد كان لها سلطاتها القضائية على جميع المحامين أعضاء فرق الرهبان العسكرية من الإسبتارية و الداوية ، و على جميع الرهبان من الديريين و العلمانيين ، و كان مجال عملها هو الممتلكات الكنسية و ما يتم فيها من مناقلات ، و لها سلطة قضائية في جميع الأمور المتعلقة بالمذهب الكاثوليكي و حالات الزواج ، و العهد الجديد إلا أن بعض الحالات الخاصة مثل حالات الوفيات ، و قطع بعض أعضاء الجسد كانت تحول إلى الكنيسة البرجوازية ، أما حالات النزاع بين طبقة رجال الدين و غيرهم من سواد الناس فقد كانت تخضع لإشراف مشترك للمحكمتين. **أنظر**: أدريان بوس، مدينة بيت المقدس، ص59-60، ستيفن رنسيمان ،المرجع السابق،ج2،ص482-483.

5 Emilie AMT ,op – cit, P59.

6 Claud Cahen , La Syrie du Nord A l’époque des Croisades , paris ,1940 , P289.

مما سبق ذكره نجد أن القوانين والتشريعات الصليبية سمحت للمرأة بالتمتع بجملة من الحقوق داخل المجتمع الصليبي، سهلت وراثتها للإقطاعيات ودفعتها إلى بلوغ السلطة وسدة الحكم، وقد ساهم الملك بلدوين الثاني في تثبيت قانون توريث البنات لإصراره على بقاء العرش في سلالته، ويبدو أن انتقال العرش للنساء أدي إلى ضعف المملكة وزاد من الخلافات داخلها على من يتزوج الملكة ويفوز بلقب الملك، وساعد ذلك المسلمين في استعادة بيت المقدس.

المبحث الخامس : الزنا والانحراف الجنسي عند الصليبيين:

يتناول هذا المبحث ظاهرة الزنا ودوافع انتشارها داخل المجتمع الصليبي ببلاد الشام، ودور المرأة الصليبية في ذلك، وحوادث الزنا التي وقعت بين طبقات المجتمع المختلفة، إضافة إلى ظاهرة الدعارة وتأثيرها على مختلف فئات المجتمع الصليبي ما ساهم في تفكك هذا الكيان وانتشار الأمراض الاجتماعية المختلفة فيه ما عجل في سقوطه .

1-الدوافع و أسباب الانتشار:

عرف القانون الكنسي الزنا[1] على أنها العيش كزوجين ويكون أحدهما أو كلاهما ناذرين للعفة ولكنهما لم يلتزما بقوانين نذر العفة، وليس بالضرورة أن يسكنا تحت سقف واحد باستمرار، بل تكفي أن تكون هنالك علاقة جنسية متكررة مع ذات الشخص، أصبحت علنية وأحدثت فضيحة بين الناس، وعموما فالزنا هو إقامة علاقة غير شرعية بين الرجل و المرأة.

أما الدعارة فقد تعددت تعريفاتها ومنها أنها تسويق للزنا بغرض الكسب المادي، أو فعل فاحشة الزنا بشكل ذي طابع خاص، أو هي خطيئة ضد العفة والمترافقة مع فضيحة علنية ودائمة مع أكثر من شخ، و تعتبر هذه بمثابة مخالفة ظاهرة للقانون ولذا تستوجب العقوبة[2].

يتفق آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسي غرض واحد فقط وهو إنجاب الأطفال وتحقيق نوع من التلازم بين الجنسين للمشاركة في رعاية النسل، وهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن الزنا انتشرت في المجتمعات المسيحية نتيجة الانحلال الخلقي لدى الإنسان، وأن الطهر والنقاء هما الحالة المثلى للرجال والنساء، وأن السيدة مريم أم المسيح –عليهما السلام– كانت عذراء ،لذلك حرصت الكنيسة على مبدأ عزوبة رجال الدين في تشريعاتها[3].

وقد كان لانتشار ظاهرتي الزنا والدعارة وشيوعهما داخل المجتمع الصليبي دوافع وأسباب عجلت بانغماسه في حياة الفساد وانتشرت بين أبنائه روح الميوعة والانحلال الخلقي، وتفتحت أبواب الغواية التي جرت أبناءه نحو الرذيلة والانحطاط، ومنها أن المرأة الصليبية في بلاد الشام عاشت حياة رغدة لم تتعودها في موطنها الأصلي في أوروبا مما دفعها

---

1 أما في الشريعة الإسلامية فقد عرف ابن رشد الزنا بأنها كل وطء وقع على غير نكاح صحيحة (شرعية) و لا ملك يمين ، و أن إباحة الزنا إشاعة للفاحشة ما يؤدي إلى هدم الأسرة ثم إلى فساد المجتمع ،أنظر: ابن رشد، بداية المجتهد و نهاية المقتصد ، دار المعرفة ، بيروت ،ج2، 1982، ص433، دندل جبر ، الزنا ،ص13.

2 أحمد عبد الله الأحمد، الجرائم و العقوبات ،ص106-107.

3 نورمان . ف .كونتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ،ج1، ص162، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ،الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، ص 5 –6، صبحي حموي اليسوعي ، معجم الإيمان اليسوعي ، دار المشرق ، بيروت 1998،ص65.

إلى الإسراف الممقوت في التزيين والمغالاة في التبرج، غير مراعية للعادات الشرقية في هذا المجتمع، فأخرجها هذا التبرج عن الحياة الكريمة الشريفة وأبعدها عن دائرة العفة والفضيلة وانغمست في حياة الفسق والفجور، فتسلطت على الرجل الصليبي حتى أصبحت هي الآمر الناهي، كما اتبعت النساء الصليبيات حياة الهوى والتبذل الرخيص حتى ضج المؤرخون من تصرفاتهن البذيئة، ووجهوا لهن النقد اللاذع ووصفوهن بما استحقن من أوصاف غير كريمة[1].

رسم لنا الرحالة ابن جبير صورة لذلك التزين الصارخ للمرأة الصليبية عندما كان بمدينة صور، حيث حضر إحدى حفلات الزفاف التي كانت مقامة بالمدينة أنذاك، واصفا إياها ومتعجبا من مراسيمها الغريبة ومستاء من الآلات الموسيقية وملابس العروس والنساء اللاتي حضرن ذلك الزفاف من الصليبيات مستعيذا بالله من فتنة المنظر الذي كان يدعو إلى الغواية، فمراسيم هذا الزفاف كانت غريبة عن المجتمع الشامي وقد بدت واضحة دهشة ابن جبير مما رأى من صور الغواية سواء من الرجال أو من النساء، وخاصة ملابس النساء العارية التي كانت تدعو إلى فتنة الرجال[2] .

من أهم الدوافع كذلك سوء التنشئة الاجتماعية وانحطاط القيم والمعايير الأخلاقية السائدة وفسادها إلى جانب فساد البيئة الاجتماعية المباشرة، إضافة إلى الإباحية التي كانت منتشرة في المجتمع الأوروبي الغربي بكل صورها ولم يتخلوا عنها عندما أتوا إلى الشرق واستقروا فيه[3].

كما أن بُعد المرأة الصليبية عن موطنها الأصلي في أوروبا دفعها لارتكاب تلك الفواحش سواء كانت ممثلة في الزنا أو الدعارة، فالكثير من النساء اللاتي رافقن الحملة الصليبية الأولى أو حتى لحقن بعد ذلك كان وضعهن مبهماً ولم يكن معهن محارم أو ما شابه من أفراد العائلة لذا فقد فقدت هاته النسوة الرقابة من الرجال، فانتشرت تلك الظاهرة على الرغم من رفض الكتاب المقدس لها ، كما أن ضعف القوانين أو عدم فعاليتها في إنزال العقوبة بمرتكبي فاحشة الزنا، كل ذلك منحها قدرا كبيرا من الحرية لممارسة الفواحش المختلفة[4].

كانت المرأة الصليبية تتمتع بالجرأة، ولم تكن لتلتزم بطاعة زوجها، وذلك نتيجة لأن العلاقة الزوجية التي جمعت بينها كان يشوبها في كثير من الأحيان عدم الوفاق الذي نتج عن صغر وتباين أعمار الزوجين، وقد تكون تلك الخلافات نابعة في الأساس من أن أغلب تلك الزيجات كانت قائمة على أطماع مادية، وكان من الطبيعي أن تتطور تلك الخلافات إلى حد الخيانة الزوجية من أحد الطرفين أو من كليهما على حد سواء، فلقد شاع ذلك الأمر بين الصليبيين، وقد كانت كثرة الخلافات التي كانت تقع داخل الأسرة الصليبية من أهم أسباب لجوء الزوجات إلى خيانة أزواجهن كنوع من أنواع الانتقام منهم[5].

1 أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب ،ص 206-207.

2 ابن جبير، الرحلة ، ص242.

3صبحي اليسوعي ، المرجع السابق ،ص3.

4 الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص135

5 نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية ،ص193-194، طه الطراونة، المرأة الصليبية ، ص56.

إضافة إلى تلك العوامل ضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين، الذي كان له أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي، ذلك أن الصليبي الذي ضعف ايمانه وتقواه كان لا يبالي بأي فعلة يرتكبها، وحجته في ذلك أن فريضة الحج إلى بيت المقدس ستزيل أي فعل آثم قام أو يقوم به، حيث اعتبر الكثير من الصليبيين أن القلم قد رفع عنهم بمجرد مشاركتهم في الزحف نحو الأرض المقدسة وأن كافة جرائمهم معفى عنها بموجب الوعد البابوي وعلى ذلك شاع في المدونات التاريخية الصليبية أخبار كثيرة عن حالات زنا حتى بين الرهبان والراهبات.[1]

ومما ساعد كذلك على انتشار رذيلة الزنا في المجتمع الصليبي شرب الخمور، فلقد أفرط الصليبيون في شرب الخمر، وساعد على ذلك انتشار صناعة الخمر والنبيذ في بلاد الشام، حيث كان الصليبيون يتوسعون في زراعة الكروم من أجل الإفادة منه في صناعة النبيذ الذي تميز بجودته و منه النبيذ البيروتي، وقد دخل هذا النبيذ في الشعائر الدينية ويلاحظ أن كثرة شرب الصليبيين للخمور أفقدتهم التحكم في تصرفاتهم وسلوكياتهم، مما كان له الأثر السيء في واقع حياتهم فانتشر الزنا والدعارة في المجتمع الصليبي تحت تأثير الخمور التي أكثروا من تناولها، وجعلهم ذلك يفقدون حياءهم ويرتكبون الموبقات دون حرص أو خوف من عاقبة ما يفعلون[2].

كان للظروف التي عاش فيها الصليبيون بالشام أثرها في تشكيل أخلاقهم، فضلا عن انتشار بعض الأمراض الخلقية بينهم، فالصليبي اتصف دائما بالعنف والجشع والتشكك فيمن حوله، والامعان في الاستمتاع بما تيسر له من ملذات الحياة، ومن ناحية أخرى فإن مجيء معظم الصليبيين دون نسائهم وأولادهم ساعد على انتشار الشذوذ الجنسي[3] ،فقد شعر مؤلفو الحوليات الأوروبية زمن الحروب الصليبية بالخجل عندما كانوا يتحدثون عن الصليبيين الذين ذهبوا لنصرة إخوانهم في بلاد الشام، وتركوا زوجاتهم من أجل المسيح، ثم سرعان ما نسوا كل شيء من أجل أعمالهم السرية والتي تمثلت في ملازمة العاهرات.

إضافة إلى الاختلاط الصريح بين الجنسين من الذكور والإناث والذي زاد من انتشار الأمراض الاجتماعية في المجتمع الصليبي، وأفقد المرأة الصليبية حياءها وزاد من جرأتها مع الرجال، فقد أدى انكشاف عورات النساء وخروجهن سافرات شبه عاريات في الأسواق والطرقات، وارتيادهن لتجمعات الرجال[4]، وأيضا اصطحاب الجيوش الصليبية للعاهرات أثناء زحفهم إلى بلاد الشام للترفيه عن الجنود الصليبيين، وكثرة الشباب العزاب الذين سافروا بعيدا عن بلادهم وهم في سن الزواج وبلا زوجات، ويضاف إلى ذلك عامل الضعف التشريعي واختلاف العقوبات التي تنزل بمرتكب هذه الرذيلة

1 قاسم عبده قاسم ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية ،ص85،حسن عبد الوهاب حسين ، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،ص171، إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد سيد ، تدنيس المقدس ، ص 195.

2 أحمد عبد الله الأحمد، الجرائم و العقوبات ،ص112

3 عاشور ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ،ص 36.

4 دندل جبر ، الزنا ، 76ص

بين طبقات المجتمع الصليبي ما ساعد في انتشارها، ومن هنا فكل هذه العوامل مجتمعة ساعدت في انتشار الزنا والدعارة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام[1] .

كان على الملك بلدوبن الثاني أن يعالج في مجلس نابلس[2] مشكلة كبيرة في المجتمع الصليبي لا تقل أهمية عن خطر المسلمين والكوارث الطبيعية وهي التدين الأخلاقي للفرنج، فبالرغم من أن حياة الفرنج في الشرق كانت محفوفة بالخطر الإسلامي في كل وقت إلا أن الخوف والقلق في حياتهم لم ينفصلا كثيرا عن حياة البذخ والمرح والخيانة، كما أن القلق شجعهم على الانغماس في الفسق والفجور[3].

2-انتشار الزنا في طبقات المجتمع الصليبي العليا:

من أمثلة انغماس النبيلات الصليبيات في المجتمع الصليبي بفاحشة الزنا، نجد زوجة "رينير دي بورس" حاكم بانياس، التي وقعت في أسر المسلمين لدى استيلاء شمس الملوك بوري ملك دمشق على المدينة في سنة 532هـ/1137م ، ولما حدث التحالف بين الدماشقة والصليبيين سنة 534هـ/ 1139م تم الاتفاق بينهما على رد الأسرى المأخوذين من مدينة بانياس[4]، وكان من بينهم زوجة" رينير"، فلما عادت لزوجها اكتشف أنها لما كانت في الأسر سلكت سلوكا مزريا لا يتماشى مع المرأة الشريفة التي تحافظ على نفسها وكرامتها وشرف زوجها وأنها لم تحافظ على رابط الزواج المقدس، و يبدو أن ذلك المسلك الذي سلكته في الأسر قد شاع عنها وافتضح أمرها حتى أنها لم تستطع انكار ذنبها، ولكي تكفر عن ذنبها دخلت ديرا للنساء الطاهرات في القدس وأصبحت راهبة ونذرت نفسها للعفة لباقي حياتها[5].

ولم يقتصر انتشار الانحلال الأخلاقي على الأميرات الصليبيات، فقد مس حتى ملكاته اللاتي تعتبرن صفوة المجتمع الصليبي، ومثال ذلك الملكة ثيودورا كومنين أرملة الملك بلدوين الثالث التي لم تحافظ على سمعتها الملكية، فبعد وفاة زوجها انتقلت إلى عكا واستقرت بها، غير أنها أساءت التصرف عندما وقعت في غرام أندرونيكوس كومنين أحد أبناء عمومة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، ذلك الأمير الذي يعتبر أشد رجال أسرته ذكاء وأكثرهم وسامة فضلا عما اشتهر به من كثرة مغامراته العاطفية [6].

وكان الإمبراطور مانويل قد عينه دوقا جديدا على إقليم قليقيا سنة 561 هـ/1166 م للعمل على استتباب الأمن بها، غير أن أندرونيكوس لم يكن رجل حرب إذ دأب على قضاء جل وقته في مدينة أنطاكية وراعه جمال الأميرة "فيليبيا"

---

1 أحمد عبد الله الأحمد ، الجريمة و العقوبة ،ص113.

2 إنعقد مجلس نابلس في 23 جانفي 1120 م في مدينة نابلس التابعة لمملكة بيت المقدس برآسة الملك بلدوين الثاني و جيرموند بطريرك كنيسة بيت المقدس (1118-1128م)، و ضم المجلس كل كبار رجال الدين و السادة العلمانيين بالمملكة، و أصدر جملة من القرارات التنظيمية لبيت المقدس مثل القانون (4-7) للعقاب على الزنا ، غير أن قرارات مجلس نابلس لم تكن رادعة بما فيه الكفاية بل هنالك الكثير من التسامح مع المدانين من الطرفين (الرجال و النساء)، مما كان له أثره في استمرار ظاهرة الفساد في المجتمع الصليبي.**أنظر:** حسين عطية، مجلس نابلس، ص 36.

3 نفسه ،ص39.

4 ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص426.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص687-688، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص364،

6 يوحنا كيناموس ، أعمال يوحنا و مانويل كومينوس ،ترجمة : سهيل زكار ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية دمشق ، 1997، ج29،ص241، ج29،ص241، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس، ص46-47.

شقيقة الأمير بوهيمند الثالث وأقام علاقة عاطفية معها وصلت إلى حد الفسق والزنا، فاشتدت ثائرة بوهيمند الذي رفع شكواه إلى الإمبراطور الذي سرعان ما استدعى دوق قليقيا الجديد لكنه رفض العودة وتوجه بأمواله إلى بيت المقدس وعرض خدماته على الملك عموري الذي أعجب بشخصيته وبسالته ومنحه إقطاع بيروت[1].

لم يلبث أندرونيكوس أن توجه إلى عكا وتعرف إلى ثيودورا سنة 562هـ/1167م ووقع في غرامها وتبادلا الحب دون زواج لأن صلة القرابة بينهما حالت دون ذلك، فتركت الملكة عكا دون خجل أو حياء وعاشت معه خليلة في بيروت، ونتج عن ذلك أن استردت مملكة بيت المقدس عكا التي كانت بائنة ثيودورا عند زواجها من الملك بلدوين الثالث، وأعلن الملك عموري عدم أحقيتها في الاستمرار بالتمتع بهذه الاقطاعية لكونها آثمة وللضرر الذي ألحقته بسمعتها وبسمعة المملكة بأسرها، كما أمر الإمبراطور مانويل كومنين عند سماعه بفعلتهم الشنعاء بالقبض على أندرونيكوس لكن عند علمهما بذلك تركا كل ما يملكانه وتوجها إلى الحدود الإسلامية حيث وصلا إلى مدينة دمشق فأحسن نور الدين محمود استقبالهما وأقطعهما قلعة قرب الحدود البيزنطية[2].

من هذه الحادثة نستشف أن هذه العلاقات الأثمة لم تقتصر على نساء العامة بل مست حتى الملكات، فالملكة ثيودورا لم تحافظ على مكانتها وانساقت تتبع عواطفها ومغامراتها العاطفية حتى ولو خسرت كل ما تملك، ويبدو أن صغر سن ثيودورا التي لم تتجاوز السابعة عشر من العمر وقلة خبرتها في الحياة ومرورها بمرحلة المراهقة جعل عواطفها تسيرها و سقطت بذلك في فاحشة الزنا .

طالت الفضائح اللاأخلاقية إمارة أنطاكية الصليبية على يد أميرها بوهيمند الثالث (559-598هـ/ 1163-1201م) الذي كان سلوكه يتسم بالتجاوزات الأخلاقية التي لا تتفق وأخلاق النبلاء، فقد كان متزوجا من الأميرة البيزنطية "ثيودورا كومنين" غير أنه كان على علاقة بامرأة أخرى تدعى أورجليز Orgeuelleuse وقد تطورت العلاقة بينهما إلى حد الزواج السري، ولم يلبث أن طلق زوجته البيزنطية وقام بتسريح الثانية أيضا وذلك سنة 579هـ/ 1183م وعاش في أحضان ثالثة هي سبيل Sibylle التي عرفت بسوء سلوكها، متخذا إياها خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج، وشاعت علاقته بها جميع أرجاء أنطاكية[3].

لقد حاول الكثير من المقربين لبوهيمند الثالث تقديم النصح له بالابتعاد عن عشيقته وإعادة زوجته الشرعية " ثيودورا" غير أنه قابل نصحهم بالرفض وزاد تمسكه "بسبيل" ، ولم يأبه بقرارات الحرمان التي صدرت ضده نتيجة لعلاقته غير الشرعية، فسلطته تلك المرأة على رجال الدين في الإمارة فقام بإيذائهم وتعدى على الكنائس والأديرة بالنهب والسرقة، وقد أدى ذلك إلى قيام حرب أهلية ضده وانصراف الكثير من أتباعه عنه نتيجة تلك الأفعال التي نالت من

---

1 Ernoul , Chronique d'Ernoul , pp 16-17,

وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 924،اسحق عبيد، روما و بيزنطة ، ص 227، محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل كومنين ، ص283.

2 يوحنا كيناموس ، أعمال يوحنا و مانويل كومينوس ، ص 241، اسحق عبيد ، روما و بيزنطة، ص227،

3 اوليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص1023، عاشور، الحركة الصليبية ،ج2،ص 55.

Natacha, Women crusading ,P 130

مكانته ولاحت نذر الحرب في الأفق مما أجبر بوهيمند على إرسال بطريرك بيت المقدس هرقل للتحكيم بينه وبين المنشقين عليه فقبل بطريرك أنطاكية " إمري " 'التحكيم ورفع الحرمان على أنطاكية مقابل تعويض مالي كبير[1].

ونستشف من هذه الحادثة أن الأمير بوهيمند بانغماسه في الرذائل وإتيان الزنا علنا، آثر ملاحقة شهواته على الصالح العام للصليبيين، ورضي أن تتحكم فيه إمرأة سيئة السمعة فخسر مكانته كزعيم صليبي وانصرف عنه أتباعه من الفرسان وسمح بقيام حرب أهلية في إمارته، في حين كان صلاح الدين يحقق الانتصار تلو الآخر، وهنا يبرز لنا الدور الذي لعبته المرأة الصليبية في انهيار المجتمع الصليبي.

هنالك مثال أخر وهو "جوسلين الثاني" حاكم إمارة الرها الصليبية الذي عرف بحبه للمجون واللهو والخلاعة، فعلى الرغم من أن صفاته الجسمانية لا توحي بالوسامة فقد كان ممتلئ الأطراف شديد السمرة كثير الندوب بسبب إصابته بمرض الجدري، إلا أنه كان منقادا إلى شهواته الجسمانية ومنكبا على شرب الخمور، وكان لا يتورع عن فعل أي شيء مناف للأخلاق على الرغم من أنه كان متزوجا[2]، فوقع في شر أعماله عندما تربص به نور الدين محمود مع مجموعة من جنوده وأسروه وهو يزني بامرأة وذلك سنة 544هـ/1149م، وعلى ما يبدو أن جوسلين لم يأخذ حذره بالحراسة المسلحة رغم عدائه للمسلمين وكثرة إغارته على أراضيهم، وقد أمضى بقية حياته في الأسر حتى توفي سنة 554هـ/ 1159م[3].

وكثيرا ما كان ينتج عن تلك العلاقات الآثمة إنجاب أطفال غير شرعيين، والمثال على ذلك ما كان بين الأمير ريموند الأول الصنجيلي أمير طرابلس (496- 499هـ/1102-1105م) وبين إحدى النساء التي اتخذها خليلة له فأثمرت علاقته معها عن طفل هو برتراند مما جعله يحول تلك العلاقة إلى علاقة رسمية لإثبات شرعية الطفل[4].

3-انتشار الزنا عند رجال الدين :

وفيما يتعلق بالمجتمع الكنسي وعلاقته بالزنا والدعارة، فإن هذه الطبقة لم تكن بعيدة عن ما يحدث داخل المجتمع الصليبي، خاصة وأن الكنيسة قد حرصت على مبدأ عزوبة رجال الدين في تشريعاتها، غير أن مخالفة تلك الشرائع للطبيعة البشرية جلب عليهم انتشار الرذائل فشاع الزنا والزواج العرفي بين رجال الدين وانتشرت أخبار مغامراتهم العاطفية، فمن المفترض في تلك الطبقة أنها كانت في يدها إصلاح المجتمع الصليبي دينيا وأخلاقيا من خلال مؤسساتها الدينية التي تمثلت في الكنائس والأديرة المختلفة التي انتشرت في المدن الصليبية في بلاد الشام، إلا أن هنالك إشارات من مصادر لاتينية عن اقتراف رجال الدين اللاتين لواقعة الزنا[5].

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص1124-1125.

2الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص140 ، السيد الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،ص24،.

3 الذهبي ، تاريخ الاسلام ،ج ، ميخائيل السرياني ، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ، ج3،ص 274.

[4] السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ،141.

5إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد سيد ، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية ،ص34، ص194، أحمد عبد الله الأحمد ، المرجع السابق،ص121-122.

فقد انضم عدد من الرهبان إلى الحملة الصليبية الأولى دون الحصول على إذن من رؤسائهم، وكان أحدهم من دير كلوني (cluny) وقد شارك في الحملة ليس بدافع الورع وإنما من منطلق الطيش، ولم يمض وقت طويل على انطلاق الحملة الصليبية إلى الشرق حتى ضبطوه مع امرأة، وضربوه بالسياط علنا أمام الجميع[1].

وأثناء وصول الحملة الصليبية الأولى لمدينة أنطاكية وحصار الصليبيين لها، لم يتورع أحد رجال الدين المصاحبين للجيش الصليبي عن القدام على الزنا، حيث تم القبض عليه متلبسا مع إحدى النساء من طرف دورية للجيش المحاصر للمدينة بالقرب من أحد الأسوار، وأُدين الإثنين بارتكابهما الزنا و وُسما بالحديد المحمي وطيف بهما في كافة أنحاء المعسكر الصليبي عقابا لهما [2].

مع استقرار الصليبين في بلاد الشام لم يسلم بطاركة مملكة بيت المقدس نفسها من تهمة الزنا ومنهم أرنولف Arnulf (505-511هـ/ 1112-1118م)، فقد كان غير محبوب من الآخرين لاستغلاله أموال الكنيسة لمصلحته الخاصة حتى أتهم بأن عنده محظيات في بيته، ولقد شوهد عليه أنه كان يداعب النساء أثناء رحلته إلى بيت المقدس مما جعله مادة دسمة للكثير من روايات وقصص الفاحشة، كما قام بإغراء الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس بالزواج من الكونتيسة الصقلية الثرية "أديليد" في الوقت الذي كانت فيه زوجته أردا حية، فهدم ذلك مكانة رجال الدين في أعين الصليبيين كما زاد من انتشار الرذائل في المجتمع الصليبي لغياب القدوة[3].

من أبرز الأمثلة عن رجال الدين الفاسدين البطريرك هرقل Hercule (576-586هـ/ 1180-1190م) بطريرك بيت المقدس الذي اشتهر بعلاقاته النسائية المتعددة مع أكثر من امرأة، فقد كان رجلا عديم الحياء وليس له من العلم إلا النزر اليسير، ويضاف إلى ذلك أنه كان رجلا منحلا أخلاقيا وعبدا لشهواته، وكانت أشهر علاقاته الغرامية مع "أجنس كورتناي" أم الملك بلدوين الرابع، التي كانت شديدة الولع به وعاشقة له، فدفعها ميلها المفرط له بأن تجعله رئيس شمامسة بيت المقدس، ثم بعد ذلك رئيسا لأساقفة قيسارية، ثم جعلته بطريرك مملكة بيت المقدس وهكذا يتضح أن منصباً مهمًا كهذا كان بدون معايير أخلاقية ولا دينية ما شجع على تفاقم و انتشار الزنا داخل المجتمع الصليبي[4].

بعد فترة من الزمن، اتخذ هرقل عشيقة أخرى له وهي "باسك دي ريفري"، وكانت زوجة لأحد التجار الصليبيين في مدينة نابلس، فقد كان يجبرها على البقاء معه لأيام طويلة وصلت إلى خمسة عشر يوما وقد كان زوجها يعلم بتلك العلاقة المحرمة، غير أنه أغمض عينه تماما بسبب تلك الأموال الجزيلة التي كان يدفعها البطريرك، وبعد وفاة الزوج اتخذ لها هرقل دارا في القدس حتى تبقى دائما قريبة منه، وأغدق عليها حتى ظن من رآها أنها كونتيسة أو أميرة لكثرة ما ترتديه من

1 جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية ، ص152.

2 Eracle, l'estoir d'Eracles, p427.

3 ريموندا جيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ص268 .

4 مؤرخ مجهول ، ذيل وليام الصوري ، ترجمة :حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1،القاهرة، 2002، ص81 ، عز العرب أحمد سليمان ، البطريرك هرقل و دوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية (1180-1190م)، د.ت ص210.

جواهر وثياب باهضة الثمن وكانت تكنى "بالبطريكة"، ونتيجة لتلك العلاقة المستمرة أنجبت تلك المرأة فتاة صغيرة وجاءه هذا الخبر وهو جالس مع بارونات المملكة في قصره[1].

إذا كان هذا حال بطريرك بيت المقدس الذي يمثل رأس هرم طبقة رجال الدين في المجتمع الصليبي، فما بالك ببقية القساوسة والرهبان الذين كانوا هم كذلك قد تفشت بينهم الزنا والدعارة، حيث لم يخجلوا من الإنجاب من المحظيات والزانيات، بل الأدهى من ذلك تجميع الأموال من أجل رفاهية هؤلاء الأبناء بلا خجل ولا إخفاء، كما انتشرت الزنا في الأديرة بين الرهبان والراهبات الذين كان يفترض فيهم النزاهة وحسن الخلق ونشر الفضيلة[2].

لم يتورع رجال الدين عن تأجير منازلهم وأوقاف الكنيسة لمحترفي الدعارة، حيث كانوا يأجرون الكنائس ويذكر الفيتري[3] أسقف عكا الذي استنكر الأمر " أن عكا كانت حافلة ببيوت الدعارة، ولما كانت البغايا يستأجرون البيوت بأعلى أجر من سواهن، سارع ليس العلمانيون فقط بل و أفراد من رجال الدين أيضا وبعض الرهبان بتأجير مقارهم لهن علنا وبالجملة "، وقد كانت حالات الانحراف الأخلاقي منتشرة بشكل كبير بين طبقة رجال الدين الصليبيين في القرن 7هـ/13م مقارنة بالقرن 6هـ/12م، وذلك لما حل بالإمارات الصليبية في بلاد الشام من ضعف وتفكك وعدم وجود سلطة فعلية و رادع قوي لرجال الدين جعلهم يقبلون على المعاصي دون الخوف من عقوبات رادعة.

من الطرق التي اتخذتها الكنيسة للحد من انتشار ظاهرة الزنا بين رجال الدين الصليبيين بناء بعض الأديرة الخاصة بالراهبات والنساء غير الراهبات للحد من الاختلاط بين الجنسين، وما يمكن أن يترتب على ذلك من مفاسد، حيث يقول يعقوب الفيتري[4] عن مستشفى ودير القديس يوحنا في بيت المقدس "مع اعتقاد الكهنة بأنه من غير اللائق إسكان النساء من الحجاج داخل الدير، قام هؤلاء بمرور الزمن ببناء دير آخر خارج أسوار الكنيسة كمقر للراهبات، حيث تقوم بعض النساء المتدينات بخدمة النساء من الحجاج اللاتين، والترفيه عنهم في ذلك المكان".

4-الزنا في الطبقات الدنيا:

انتشرت ظاهرة الزنا والدعارة عند الطبقات العامة في المجتمع الصليبي منذ اللحظات الأولى التي وطأت فيها أقدامهم بلاد الشام، حيث وجدت في جيوش الحملة الصليبية الأولى عاهرات ونساء فاجرات وأنواع إجرامية أخرى وغير شريفة كان قد لوث وجودهن الجيوش الصليبية، كما أصبن الجند بعدوى رذائلهن، ويؤكد رئيس الأساقفة " بالدريك " الذي رافق الصليبيين أثناء حصارهم نيقية " Nicea" بأنهم قاموا بإغلاق دور الدعارة في معسكرهم[5]، ولعل ذلك يؤكد مدى

1 مجهول ، ذيل وليام الصوري ص81-82.

2 أحمد عبد الله الأحمد ، المرجع السابق،ص125.

3 تاريخ بيت المقدس ،ص85-86.،

4 المصدر نفسه ، ص87،

5 Guilbert of nogent , The Deeds of god Through the Frank ,,p p 78-79,

ألبرت فون أخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ،ص 38،

انغماس الجنود والمقاتلين في الرذائل وإهمالهم لمهامهم التي قدموا لأجلها من الغرب ما دفع لغلق هذه الأماكن المشبوهة لإعادة السيطرة على الجيش المحاصر لنيقية .

عند وصول الجيش إلى أنطاكية سنة 490هـ/ 1097م عادت المواخير للنشاط من جديد في المعسكرات الصليبية نفسها ، ولم ينجح الصليبيون في إسقاط المدينة رغم حصارها لمدة طويلة كما واجهوا مجاعة كبيرة فُقد خلالها الغذاء من معسكر الصليبيين، وأصيب الجميع بالوهن والضعف، وبعد مشاورات عقدها قادة الفرنجة حول الأمر قرروا إبعاد جميع النساء المرافقات للحملة، المتزوجات والغير متزوجات على حد سواء من أجل توفير القوت للمقاتلين، لذا أخذت النساء المطرودات البحث عن مأوى في المدن المجاورة[1].

قد أكد فوشيه الشارتري[2] أن طرد النساء من المعسكر لم يكن فقط لنقص الغذاء بل لكونهن آثمات ومذنبات، وأن سوء طالع الفرنجة وإخفاقهم في الاستيلاء على أنطاكية في وقت قصير يعود للآثام والشرور التي انتشرت في المعسكر حيث يقول" لقد طُردن خوفا من قذارة العيش الخليع الذي يغضب الله".

بعد سقوط أنطاكية وقتل الصليبيين للسكان والتنكيل بهم أقدموا على اقتسام نساء المدينة من المسلمات، وفعلوا بهم الفاحشة تحت تهديد السلاح ونفس المصير قد لاقته النساء المسيحيات من سكان تلك المدينة حيث قمن ببيع أنفسهن إلى الصليبيين من أجل الحصول على الطعام ونتج عن ذلك كثرة وجود النساء بمعسكرات الجيوش الصليبية[3]، و يرجح أن ما كتبه الشارتري كان أقل بكثير مما حدث بالواقع، وأنه اختصر الكلمات لكي تعبر على جزء من الرذائل التي كانت ترتكبها الجيوش الصليبية دون رادع لها .

ورغم مشاركة المرأة الصليبية للرجال في الحملات الصليبية إلا أن أغلب الإشارات التي أوردتها المصادر الصليبية المعاصرة لتلك الحملات أظهرت الإغواءات التي قدمتها تلك النسوة إلى المحاربين الصليبيين، وتعطيلها في كثير الأحيان للمقصد الرئيسي للمحاربين الذين اهتموا باللهو مع بنات الهوى اللاتي رفقن الجيوش الصليبية، وآثروا الاذعان التام لتلك الفئة من النساء، وأغلب الظن أن ما أقدمت عليه البابوية من إرسال تلك العناصر الفاسدة – بنات الهوى – إلى بلاد الشام للتكفير عن ذنوبهم لم يكن سوى من الأهداف غير المعلنة للحروب الصليبية والتي أخفتها البابوية من أجل تطهير الغرب الأوروبي من هذه العناصر والسعي لنهضتها[4].

لم يقتصر قدوم العاهرات من الغرب الأوروبي على توقيت إرسال الحملات الصليبية إلى الشرق، بل استمر تدفقهن بأعداد كبيرة طوال مدة الوجود الصليبي في الشرق، فقد لجأ الصليبيون إلى جلب النساء من الغرب لحل مشكلة العزوبة

1 فوشيه الشارتري، الحملة إلى القدس،ص55، بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ،ص205، ميشيل بالار ، الحملات الصليبية ،ص66 ،طه الطراونة ، المرجع السابق، ص 72،.

Natacha, Women Crusading ,P116

2 تاريخ الحملة إلى القدس، ص 55.

3 Zoé Oldenbourg , The crusades ,New york ,1967, pp 137-138.

4 أحمد عبد الله الأحمد،ص128، نهى الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية ،ص207.

والانحرافات الأخرى (اللواط) غير أن نوعية النسوة لم تكن فوق مستوى الشبهة فبدلا من الزواج بالعزاب احترفوا البغاء وثبطن المقاتلين الصليبيين عن القيام بواجبهم بدلا من أن يكونوا مجرد وسيلة ترفيه عنهم[1] .

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل كانت بعض العاهرات الأوروبيات تعتبر أن ممارسة الدعارة مع العزاب من الأوروبيين في الأراضي المقدسة قُربة دينية لا يساويها أي ثواب، فقد ذكرت المصادر الإسلامية[2] وصول مركب بها ثلاثمئة امرأة إفرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر – جزر البحر الأبيض المتوسط — وقصدن من خروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العزباء، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أنها قربة ما فوقها قربة، لاسيما من اجتمعت فيه عُزبة و غُربة .

إلى جانب استغلال الدين كدافع لاقتراف جريمة الزنا فقد كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في انتشار الرذائل في المجتمع الصليبي حيث يقول ألبرت فون آخن أنه عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى مدينة صيدا فقد الكثير من الحجاج أرواحهم بفعل لدغ الثعابين لهم، غير أن الحجاج قد اهتدوا إلى دواء شاف وهو أن الرجل الملدوغ يجب عليه فورا أن يعاشر امرأة فيشفى ويحرر من الورم [3]، ولا بد أن هذه الأفكار والخرافات التي شاعت بين حجاج الحملة الصليبية الأولى قد يسرت الأمر وشجعت على ارتكاب الزنا .

ومرد ما آلت إليه أخلاق الصليبيات من تدن يرجع إلى أزواجهن الذين لم تكن تحركهن نخوة الرجال والغيرة على الأنثى، فيذكر لنا أسامة بن منقذ أن الواحد منهم إذا سار مع امرأته وقابلهم آخر فلا تجد المرأة حرجا في الحديث مع ذلك الرجل الآخر بل" ولو أدى الأمر أن يعتزل بها بعيدا عن الزوج الذي لا يحرك ساكنا ولا غضاضة في هذا السلوك من زوجته ،فإن طالت وقفته دون أن ترجع زوجته ترك المكان لها وانصرف لحال سبيله "[4].

أورد أسامة بن منقذ بحكم اتصاله مع الصليبيين الكثير من الروايات التي تبين عدم تمتع الرجل الصليبي بالغيرة على امرأته و منها أن رجلا صليبيا كان يعمل بالدلالة في نابلس، فلما عاد إلى منزله وجد رجلا في حجرة نومه و على فراشه و يضاجع زوجته فقال له أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ، فأجابه الرجل بكل برود كنت مرهقا و لقد نمت في فراشك حتى أستريح ، فعقب الزوج لكن زوجتي تنام إلى جوارك فأجاب العشيق السرير ملك لها و لن أجرؤ على طردها منه ، فيجيب الزوج متوعدا و حق ديني إن عدت و فعلت هذا العمل ثانية تخاصمت أنا و أنت ، و يختم ابن منقذ روايته ساخرا "و كان هذا مبلغ غيرته"[5].

---

1 إمام الشافعي مُحَمَّد حمودي و أشرف صالح مُحَمَّد سيد ، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية ، ،ص34.

2 الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ،347 ، أبو شامة ، الروضتين ،ج2،ص63-64، أحمد الشامي ، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى،ص207.

3 ألبرت فون آخن ،تاريخ الحملة الصليبية الاولى ، ص127.

4 أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص135.

5 المصدر نفسه ،ص136، جان ريتشارد ، وضع المرأة في الشرق اللاتيني ،ص166، فايزة عبد الرحمان حجازي، بعض الجوانب من حياة المرأة الإفرنجية ،ص456.

أبرز لنا الرحالة ابن جبير مدى الانحلال الخلقي الذي انتشر في المدن الشامية الخاضعة للسيادة الصليبية وعلى رأسها مدينة عكا التي كان قد زارها في سنة 580هـ/1184م ،واصفا إياها بأنها مدينة مزدحمة جدا ممتلئة بالصليبيين من كافة الجهات، تضيق فيها مواطئ الأقدام، بالإضافة إلى أنها زفرة قذرة، مملؤة كلها رجس وعذرة ، ولم يكن هذا الوصف إلا نتيجة لانتشار الزنا والدعارة بالمدينة انتشارا عاما[1].

لم يقتصر الأمر على مدينة عكا أو غيرها من المدن الساحلية، فقد انتشرت حرفة البغاء على نطاق واسع بمملكة بيت المقدس الصليبية، قبل فتح صلاح الدين لها حتى أن كبرى العائلات كانت تدفع ببناتها لممارسة هذه المهنة البذيئة [2] ، كما امتد الوضع إلى بقية الإمارات الصليبية الأخرى حتى تساوى من إمتهن تلك الحرفة من رجال الدين والعلمانيين على السواء، ولذلك ندر وجود مرأة محتشمة في الإمارات الصليبية ، ويبدو أنهم أقبلوا على تلك المهنة لما كانت تدره عليهم من أموال طائلة [3].

وما زاد من تفاقم الأمور وانتشار هذه الأمراض الاجتماعية في المجتمع الصليبي، ما قامت به المدن والجزر الأوروبية المطلة على حوض البحر المتوسط من مد السواحل الشامية خاصة تلك التي تقع تحت السيطرة الصليبية بالنساء سيئات السمعة ، وعلى رأسهن مدينة مرسيليا، فقد صارت تلك المدينة مقصدا لكل فاسد وفاسدة يريد الرحيل إلى الأراضي المقدسة بدعوى تطهير أنفسهن من الذنوب والخطايا، وكان ذلك في الظاهر فقط لكن كان الهدف الأساسي هو امتهانهم للدعارة خاصة في المدن الساحلية التي يكتظ فيها الصليبيون والتي تدر عليهم الأموال الكثيرة دون رقابة قانونية تذكر[4].

يذكر الفيتري ملخصا لأحوال المجتمع الصليبي وما كانوا عليه من فساد الأخلاق بشتى صوره " أكثرهم رجال خطرون مجرمون أشرار، ولصوص وزناة، داعرون، مغنيون، مدمني خمر، لاعبي نرد رهبان مرتدين، راهبات مومسات، نساء تركن أزواجهن للعيش في بيوت الدعارة، ورجال هربن من زوجاتهم الشرعيات وحصلوا على غيرهن، شعب مثل هذا في الغرب ، قاطعا البحر الأبيض المتوسط غيروا مناخهم و لم يغيروا شخصياتهم، وقد دنسوا الأراضي المقدسة بجرائم لا تحصى و أفعال شائنة "[5].

هكذا انتشر الانحطاط الخلقي في المجتمع الصليبي في بلاد الشام رجالا ونساء ومن كل شرائح السكان على حد سواء إذا ما قورنت بالمجتمعات الشرقية حتى في أحط صورها، وهنا يعزي الدكتور جوزيف نسيم يوسف ذلك التفسخ الخلقي إلى تعدد الأجناس داخل الجيوش الصليبية التي لم ترق لمستوى تعليمي أو خلقي يصونها من الانحدار الخلقي [6].

أما فيما يتعلق بعقوبة الزنا في المجتمع الصليبي، فمع بداية عهد الصليبيين في بلاد الشام لم يكن هنالك قانون محدد لتطبيقه على مختلف جرائمهم، فعند انتشار ظاهرة الزنا والدعارة في معسكرات الصليبيين أثناء حصار أنطاكية اختلفت

1 ابن جبير، الرحلة ، ص240-242.

2 Zoe Oldenbourg ,The crusades , 519-520.

3 Norman Daniel , The Arabs and mediaeval Europe , London ,1975 , p 202,

4 يوشع براور ،الاستيطان الصليبي ،ص240.

5 الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص134-135.

6 جوزيف نسيم يوسف ، العرب و الروم و اللاتين ،ص93.

الآراء حول نوعية العقوبة وكان الاعدام للزاني والزانية وكذا التشهير بهما هو الحل للتخفيف من انتشار تلك العلاقات الآثمة وتمت ملاحقة العاهرات داخل المعسكرات الصليبية وقطعت رؤوسهن[1].

بعد استقرار الصليبيين في بلاد الشام وتكوين الامارات الصليبية كان لزاما عليهم انشاء قوانين لتنظيم الحياة داخل المجتمع الصليبي، خاصة وأن عقوبة القتل لم تكن لتطبق على الزناة إلا في الأزمات، ولأجل ذلك عقد الملك بلدوين الثاني اجتماع نابلس 513هـ/1120م حيث اجتمع القادة الصليبيون بقيادة الملك وبحضور بطريرك بيت المقدس جورموند وتم الاتفاق على فرض عقوبات على مختلف المخالفات ومن بينها عقوبة الزنا [2].

من أهم قراراته أنه من ثبتت مضاجعته لزوجة غيره، يعزل بعد قبوله حكم القاضي ويتم استبعاده عن هذه البلاد، أما الزانية فيتم ذبحها ما لم يرد زوجها أن يغفر لها ، فإذا فعل فليعبر كلاهما البحر[3]، غير أن هنالك من مرتكبي الزنا بعلم الجميع و من نساء متزوجات ولم يعاقبوا ومن أمثلة ذلك البطريرك هرقل – السالف الذكر – والذي لم يعاقب رغم اتهام المؤرخ وليام الصوري له صراحة وذلك يعود لعلو منصبه وعلاقاته مع الأسرة الحاكمة، ودل ذلك على أن القوانين الصليبية لم تكن لتطبق على الجميع.[4]

ورد في قوانين بيت المقدس أنه إذا ثبت على أحد الصليبيين مضاجعته لمسلمة يخصى هو أما هي فيجذع أنفها، غير أن مثل هذه القوانين لم تكن لتنفذ في المجتمع الصليبي بل كان يكتفي الآثم بالتوبة فتسقط عنه العقوبة، وينم هذا القانون عن وجود حالات للاتصال الجنسي بين الصليبيين وبعض المسلمات خاصة اللواتي كن أسيرات، أما إذا قام أحد الصليبيين باغتصاب جاريته المسلمة رغما عنها فقد نص القانون على مصادرتها منه[5].

وقد سنت القوانين الصليبية المزيد من العقوبات على المرأة الصليبية الزانية، حيث نص القانون على أنه في حالة ما إذا زنت الفتاة العذراء وفقدت عذريتها أو أصبحت حاملا أو أنجبت طفلا غير شرعي، فإنها تفقد بموجب فعلتها حقها في الحصول على الإقطاعية التي سترثها من والديها، وهذا ما تنص عليه قوانين وأحكام مملكة بيت المقدس[6].

من هنا يمكن القول أنه رغم تواجد العديد من القوانين الصليبية التي حددت عقوبات فاحشة الزنا و الدعارة إلا أن عدم تفعيلها في الواقع على أفراد المجتمع الصليبي أو تطبيقها على بعض الفئات وعدم تطبيقها على الآخرين زاد من انتشار هذه الرذائل بين فئات المجتمع المختلفة خاصة بعد سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين و غياب السلطة الرقابية فتضخمت أعمال الدعارة في مختلف الامارات الصليبية خاصة مدينة عكا التي صارت ملجأ لكل فاسدي النفوس ما سرع في اجتثاث الوجود الصليبي من بلاد الشام في ظل الصحوة الإسلامية.

---

1 أحمد عبد الله الأحمد ، الجرائم و العقوبات ،ص179.

2حسين عطية ، مجلس نابلس ،ص 125.

3 حسن عبد الوهاب حسين ، مقالات في التاريخ الاجتماعي،ص167،إمام الشافعي محمد حمودي و أشرف صالح محمد السيد ، تدنيس المقدس،ص197 .

4 حسين عطية، مجلس نابلس،ص125-126.

5 هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص121.

6 Livre des Assisees de Jerusalem , ed . Bugnot (Lois) ,R,H,C , Paris, 1843, pp 624 -625.

الفصل الثالث:

المرأة الصليبية و دورها في الحياة السياسية

المبحث الأول : المرأة الصليبية كوريثة على العرش.

المبحث الثاني : المرأة الصليبية كوصية على الحكم.

المبحث الثالث: الصليبيات والنزاعات الخارجية.

الفصل الثالث : الحياة السياسية للمرأة في المجتمع الصليبي

تدرج دور المرأة الصليبية في الحياة السياسية في المجتمع الصليبي فقد استغلت قوانين الوراثة الصليبية وحقها في وراثة الإقطاعات وحتى الإمارات والممالك لتدخل في اتخاذ القرار السياسي إلى جانب الرجال، كما جاء تدخلها من خلال وراثتها للعرش والوصاية على أولادها من الأمراء والملوك فمارست كامل صلاحيات الحكم داخليا كما لعبت دورا هاما في النزاعات الخارجية مع الأطراف المجاورة من مسلمين و أرمن وبيزنطيين .

المبحث الأول : المرأة الصليبية كوريثة للعرش

لم يكن للفرنجة في الشام دستور ثابت، وإنما كانت لهم عادات تتطور وتتغير حسب الظروف، وبينما اتبع أمراء أنطاكية وطرابلس مبدأ وراثة العرش في الحكم كانت ملكية بيت المقدس انتخابية رغم إتباع مبدأ وراثة العرش فيما بعد، ونتيجة لذلك تمكنت نساء الأسرة المالكة والطبقة النبيلة من ممارسة حقوقهن الوراثية في الحكم والوصاية على العرش و ارتداء التاج والتمتع بالإقطاعات، إلا أنه لم يكن بمقدور أي منهن أن تحكم منفردة بسبب الظروف الخاصة بالمجتمع الإفرنجي التي تؤكد على وجود وصي ذكر عليها، فمجتمع كهذا بحاجة إلى حاكم محارب قبل كل شيء[1].

كما أن ظروف الوراثة التي لم تعقب ذكورا يؤول لهم العرش أوجدت أيديولوجية جديدة للحكم، فالمرأة الحاكمة التي توفي عنها زوجها أو الملك الذي لم يعقب سوى الإناث صار من حقهم تولي العرش بالتبعية، و نتج عن ذلك دخول عناصر خارجية ورثوا العرش عن طريق اقترانهم بوريثات العرش الأصليات، إضافة إلى ظهور مشاكل لم تكن في الحسبان كأن يتوفى الزوج بعد فترة قصيرة من الزواج ما يستدعي ضرورة البحث عن أزواج متكافئين للأرامل، أو وفاة الشقيقة الكبرى فينتقل العرش إلى شقيقاتها الأخريات .

أن تشريع الوراثة الذي أقره الصليبيون في مملكة بيت المقدس، كان يحمل في ثناياه عوامل ضعف للملكة ، إذ بلغ الأمر من فوضى ذلك التشريع أن الوريثة للعرش كانت تختار زوجها رغم عدم توفر الصفات التي تجعله جديرا بالعرش الملكي وترفض أشخاصا يمتازون بالمقدرة والحنكة السياسية مما عرض المملكة للفوضى وقضى على هيبتها وبالتالي كثرت المشاحنات بين الطامعين والمطالبين بالعرش[2].

أ- على مملكة بيت المقدس :

بدأ ظهور المرأة كوريثة لعرش مملكة بيت المقدس زمن الملك بلدوين الثاني الذي بدأ يرتب لوراثة العرش سنة 521هـ/1127م خاصة عندما لم تنجب له زوجته الملكة مورفيا ذكورا، ورزق بأربع بنات فقط كانت كبراهن تسمى مليسند Melisende و الثانية أليس Alix تزوجت من بوهيمند الثاني أمير أنطاكية، والثالثة هوديرنا Hodierna

1 طه الطراونة، المرأة الصليبية، ص72.

2 سرور علي عبد المنعم علي، السياسة الداخلية و الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي، ص32.

تزوجت من ريموند الثاني كونت طرابلس، وابنته الرابعة جوفيتا joveta وقد دخلت حياة الرهبة بانضمامها إلى أحد الأديرة[1].

فوجد الملك بلدوين الثاني نفسه أمام خيارين إما أن يتخلى عن وراثة العرش وأن يحيل مسألة اختيار وريث العرش للنبلاء ورجال الدين عن طريق الانتخاب الحر، أو أن يجعل العرش وراثيا في سلالته، وقد رأى بلدوين الثاني أن يستمر العرش في سلالته ولذلك أصبحت وراثة النساء ضرورة مطلقة [2]، ففكر بلدوين الثاني بأن يربط السلالة الملكية بدعاوى الانتخاب، وذلك بتزويج ابنته الكبرى مليسند لرجل ينتخبه البارونات كملك لهم، ودعا لعقد مجلس يجمع كبار البارونات ورجال الدين في المملكة وذلك في 1127م، فحصل بلدوين على موافقة نبلائه وأصبح قرارهم هذا قاعدة قانونية بالنسبة لوراثة النساء في مملكة بيت المقدس[3].

ولما كانت "مليسند" أكبر بنات بلدوين الثاني سنًا فقد اختيرت لوراثة العرش بموافقة النبلاء، وأرسلت سفارة في عام521هـ/ 1127م من كبار بارونات المملكة على رأسهم الكونستابل "وليم بيوري" William de bur إلى الملك لويس السادس Louis VI ملك فرنسا (502 -532 هـ/ 1108-1137م) لاختيار زوج مناسب للأميرة "مليسند" يكون كفؤا لها وقادرا على تحمل مسؤولية عرش المملكة اللاتينية بعد والدها بلدوين الثاني، فرشح له الملك لويس السادس الأمير "فولك كونت أنجو" الذي لقي قبولا لدى بلدوين الثاني، ولضمان تدعيم تلك الزيجة الملكية قام بلدوين بعرض الأمر برمته على مجلس البارونات فلقي اقتراحه قبولا وتأييدا عظيما وبذلك صارت بيت المقدس ملكية إقطاعية وراثية[4].

وصل الأمير فولك إلى عكا في منتصف ربيع 523هـ/ 1129م بعد وعد من المندوب الملكي " وليم بيوري " بأن الزواج سيتم خلال خمسين يوما من تاريخ وصوله إلى مملكة بيت المقدس وسيكون من حقه وراثة العرش في حالة وفاة بلدوين الثاني، وتم زواجه من الأميرة مليسند في جمادى الأول 524هـ/ ماي 1129م ووهب الملك العروسين إقطاع أكبر مدينتين من المدن الساحلية هما صور وعكا طول الحياة[5].

إن الاتفاق الذي عقدته السفارة الصليبية مع فولك الأنجوي لم يكن واضحا، فقد كان عرض الملك بلدوين أن يحكم فولك مملكة بيت المقدس من خلال ابنته الأميرة مليسند غير أن هذا الأخير فهم أنه سيحكم مثلما كان يحكم بلدوين الثاني، والراجح أن الإغراءات السياسية التي قدمت للأمير فولك كانت الدافع الأساسي وراء نزوحه نحو الشرق ولم يكن الدافع هو خدمة الصليبيين كما زعم المؤرخ رنسيمان[6].

---

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص283، جمال الزنكي، تطلع المرأة للسلطة، ص26

2 عبد الحفيظ محمد علي ، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس ،ص16.

3 أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ، ص31.

4 Ernoul , La chronique d' Ernoul , pp 4-13.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص632-633.

6 المرجع السابق، ج2،ص284.

بعد زواج فولك من الأميرة مليسند وفي أثناء حياة بلدوين الثاني، قام فولك بمساعدة الملك بكل إخلاص ونشاط في إدارة شؤون المملكة، وبذلك أثبت للملك حسن نواياه واكتسب رضاه مما أسهم بشكل غير مباشر في الاحتفاظ بالمكاسب السياسية التي نالها باعتباره ابنا بالتبني لبلدوين، والواقع أن ذلك اللقب كان يعطي صاحبه حقوقا تفوق ما ينالها بالتعيين أو التقليد، كما لا ننسى أن حق الذكور يفوق حق الإناث، وهكذا ارتفع المركز السياسي لفولك وازداد قوة على مركز مليسند الوريثة الشرعية للملكة اللاتينية[1].

هنا نتوقف قليلا للتعرف على أبعاد النفوذ السياسي لمليسند فنلاحظ أنها احتلت مكانة كبيرة في مملكة بيت المقدس خاصة بعد أن أعلن والدها بلدوين الثاني أحقيتها في وراثة عرش المملكة من بعده بصفتها كبرى بناته ولذلك كانت تشارك أباها في كثير من شؤون المملكة خاصة فيما يتعلق بإصدار الوثائق الرسمية، وقد أفادها ذلك كثيرا وأكسبها خبرة ودراية بشؤون الحكم[2]، والدليل على ذلك إصدار عدة صكوك في أخر عهد بلدوين الثاني تؤكد أن مليسند ستخلف والدها ومن أهم تلك الصكوك ذلك الصك الصادر في ربيع الأول 523هـ/ مارس 1129م والمتعلق ببعض الهبات التي منحها الملك لصالح القبر المقدس، فكانت مليسند شاهدة عيان بل جاء اسمها وتوقيعها في مقدمة أسماء رجال الدين الذين شهدوا على الوثيقة، ولم يكتف بلدوين بذكر اسم ابنته فحسب وإنما أثبت بجواره لقب "وريثة ملك بيت المقدس" فكان ذلك تأكيدا لما سبق أن أعلنه في أحقيتها في وراثة العرش[3].

إضافة إلى اصدار الملك لصكوك أخرى ظهر فيها اسم مليسند منها ذلك الصك الذي صدر في منتصف عام 523هـ/1129م، وقد كان هذا الصك موجها إلى دير القديسة ماري ، والذي نجد فيه اسم مليسند متصدرا قائمة رجال الدين، كما وجد صك ثالث اختلفت الآراء حول تحديد تاريخه على وجه الدقة فهو يقع بين (525-526هـ/1130-1131م)، وأصدره بلدوين للقبر المقدس أيضا وقد أشير فيه إلى المنحة المقدمة وجاء اسم مليسند على أنها خليفته، والحقيقة أن كل تلك الصكوك أكدت أحقية مليسند في وراثة العرش[4].

من هنا يمكن القول أن زواج مليسند وريثة مملكة بيت المقدس من الأمير فولك حول جل امتيازاتها إلى زوجها وهذا ما يظهر جليا في تلك المواثيق التي أصدرها الملك بلدوين الثاني بعد524هـ/ 1129م أي بعد زواج مليسند والتي ظهر فيها اسم فولك واختفى اسم الوريثة الشرعية مليسند من المراسيم، ومما يؤكد ذلك صدور صك يحمل رقم (137) وقد تم فيه تعديل يبين أن فولك هو الوارث الوحيد للعرش طبقا للاتفاقية المبرمة بينه وبين البلاط الملكي وإسقاط لقب الخلافة عن مليسند إلى أمير أنجو وكان ذلك في 524هـ/ 1129م و هذا دليل على سقوط اسم مليسند وإقصائها من لقب الوراثة و إحلال اسم فولك بدلا منها[5].

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص 633.

2 عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس ،18، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص31.

3 Marsy , fragment d'un cartulaire de l'lorder de st.Lazare en terre sainte ,Cf.A.O.L,t Ⅱ , paris , 1884 , p p 120 -128.

4 Mayer , Queen Melisend ,p 99

5 Ibid ,p 99

وعندما اشتد المرض على الملك بلدوين الثاني وأحس بدنو أجله أقام بمقر البطريركية، ثم دعا وهو على فراش الموت ابنته مليسند وزوجها وابنهما بلدوين الثالث الذي كان في عامه الثاني، وفي حضور البطريرك والأساقفة والبارونات الذين صادف أن كانوا هناك، وقرر بلدوين أن يكون على رأس حكومة بيت المقدس ثلاثة أفراد فولك ومليسند وابنهما بلدوين الصغير، وبعد وفاة الملك بلدوين الثاني وتمت مراسيم الدفن بالقبر المقدس في شعبان 525هـ/ أوت 1131م تم تتويج فولك ملكا على بيت المقدس ومليسند ملكة شريكة له على أن ينتقل العرش بعدهما إلى بلدوين الثالث، وبذلك قسمت السلطة على الثلاثة وتم التنصيب في حضور مجلس البارونات ومباركة من الجميع [1].

لقد أراد الملك بلدوين أن يؤكد وراثة الملكة مليسند وابنها بلدوين، وخشى أن يذهب عرش المملكة إلى أولاد فولك من زوجته الأولى أو من زواج ثالث ربما يقدم عليه الملك فولك، ولكي يمنع بلدوين الثاني انتقال العرش إلى حاكم أجنبي ويضمن أن يبقى العرش في أولاد فولك من مليسند دون سواهم، عمد إلى التقسيم الثلاثي للسلطة وهو لا يعني بذلك تقسيم المملكة ذاتها بينهم فلا يعقل أن تنقسم مملكة صغيرة بينهم مما يعرضها للكثير من المخاطر الخارجية، ولكن التقسيم يعني تداول السلطة بينهم جميعا[2].

ظلت الملكة مليسند خلال الخمس سنوات الأولى من حكمها لا تشارك زوجها الملك فولك في تدبير أمور المملكة ولا تملك النفوذ الذي كانت تتمتع به من قبل في حياة أبيها، ولعل سلوكها خلال هذه الفترة كان عاملا هاما في تقلص سلطاتها أمام زوجها الملك فلم تكن الملكة تهتم بزوجها رغم الحب الذي كان يكنه لها هذا في الوقت الذي أظهرت فيه تقارب وعطفا وصداقة تجاه ابن عم والدها الكونت" هيو "سيد يافا فأشعل ذلك نار الغيرة في قلب فولك وزرع الشك في قلبه تجاه زوجته فحدث تشاحن بين الملك وسيد يافا انتهى بوفاة هذا الأخير وسخط مليسند على الملك فولك ما جعله يسعى إلى استرضائها بسبب اتهامها بالخيانة وتعريض سمعتها للأقاويل بعد أن ثبت له خطأ مظانه [3].

هنا تبدأ نقطة التحول حيث تم الصلح بينهما سنة 531هـ/ 1136م وعادت مليسند من جديد تمارس سلطاتها كملكة تشارك فولك في إدارة شؤون المملكة وإصدار الوثائق الرسمية المتعلقة بالمملكة[4]، ووصل نفوذها إلى درجة أن الملك فولك كان يخضع لها ولا يبث في أي أمر مهما صغر شأنه دون مشورتها، حتى أصبحت مليسند في السنوات الأخيرة من حياة الملك فولك هي الحاكمة والمسيطرة على كل أمور المملكة، خاصة بعد أن فشل فولك في اجتذاب الجانب الأكبر من نبلاء المملكة إلى جانبه[5].

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص 650-651، رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص 295.

2 Mayer , op, cit ,p101.

3 تناولنا هذه الجزئية بالتفصيل في الفصل الثاني (الحياة الاجتماعية)

4 و تعتبر أول وثيقة شاركت فيها بعد الصلح مع زوجها الملك فولك هي المتعلقة بالهبة التي منحها بيت جبلين إلى الإسبتارية عام 532هـ/ 1137م أنظر :
Delavile le Roulx , Cartulaire General de l'ordre des Hospitaliers de st . Jean de Jerusalem (1100-1310) 4 vol , Paris 1894, p 116.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 678، أسامة زكي زيد ،ملكات بيت المقدس ،ص 32-33.

بوفاة الملك فولك سنة 538هـ/ 1143م متأثرا بجراحه نتيجة لوقوعه من فوق جواده أثناء خروجه لرحلة صيد ، انتقلت السلطة الفعلية إلى مليسند عن طريق الإرث الشرعي، فبادرت بتولي مقاليد الأمور في المملكة، خاصة وأنها قد رزقت بولدين من الملك فولك وهما بلدوين الذي كان في الثالثة عشر من عمره وعموري الذي لم يتجاوز السابعة ، ولم تلبث أن نصبت ابنها الأكبر قسيما معها في الحكم نزولا عند رغبة بارونات المملكة لأنه لم يخطر ببالهم فكرة انفراد الملكة بالحكم، ونظرا لأن ابنها بلدوين كان أقل من السن القانوني الذي يجيز له مباشرة أمور المملكة بمفرده فقد تولت مليسند كل مقاليد الأمور[1]، وقد أشار وليام الصوري[2] أنه قد تم تتويج ميليسند و ابنها بلدوين معا بعد وفاة الملك فولك على يد بطريرك بيت المقدس بكنيسة القيامة يوم عيد الميلاد لسنة538هـ/ 1143م وذلك وسط حشد كبير من الناس.

غير أنه ما لبثت أن تفاقمت مشكلة وراثة العرش مجددا في مملكة بيت المقدس وذلك في عهد الملك بلدوين الرابع الذي كان مريضا بالجذام منذ صغره وكانت أخته "سيبيلا" الوريثة الشرعية للمملكة، خاصة وأن بلدوين الرابع وبسبب مرضه لم يكن قادرا على الزواج والإنجاب ومن المحقق لأنه لن يعيش طويلا فتطلب الأمر ضرورة تولي أمير قوي العرش من بعده فوجد ضالته في الأمير " وليام مونتفرايت " William Montferrat [3]لذا شجعه على الزواج من بأخته سيبيلا وقد تم ذلك بالفعل سنة 572هـ/ 1176م وارتضاه جميع البارونات وريثا للعرش خاصة وأن وليام كانت تربطه صلات عديدة بالأسرات الحاكمة في غرب أوروبا، على أن الآمال التي انعقدت على نشاطه وصلاته الرفيعة الشأن قد تبددت ففي أوائل سنة573هـ/ 1177م خر مريضا بالملاريا وظل يعاني المرض بضعة شهور حتى توفي في نفس السنة وقد أنجبت أرملته ابنا له يعتبر وريثا للمملكة، وهو الذي عرف فيما بعد ببلدوين الخامس[4].

وبهذا تلاشت الآمال المتعلقة باستقرار الحكم في بيت المقدس على يد أمير قوي تجمع أصوله سلالة ملكية متينة فضلا عما كان يتمتع به رباطة جأش ومواهب سياسية تمكنه من الهيمنة على الأمور، ومما زاد الطين بله تفاقم المرض على الملك بلدوين الرابع وصارت ظروفه الصحية تتطلب ضرورة الإسراع بالبحث عن ولي عرش جديد يحل محل الراحل وليام منتفرايت ويصبح زوجا لسبيلا مما خلف نزاعا داخليا بين العناصر المتناقضة سياسيا في المجتمع الصليبي حول الزوج المناسب للأميرة[5].

---

1 أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ، ص35.

2 تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص732.

3 **وليام منتفرايت** : من أفضل أمراء العالم المسيحي في ذلك الوقت ، و قد لقب بذي السيف الطويل (long – sword) ، و هو الابن الأكبر لوليم ماركيز مونتفرايت ابن أخو الملك الفرنسي لويس السابع و الإمبراطور فردريك بربروسا ، فصلاته الملكية جعلت منه أبرز الشخصيات لأن والده هو عم لويس السابع ، كذلك فإن والدته كانت شقيقة كونراد إمبراطور ألمانيا و خاله الالإمبراطور "فري " **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق ،ج2، ص 663،
Grousset , op , cit , p 163.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص988، رنسيمان ، المرجع السابق، ح2، ص663.

5 Eracles , l’ histoir de Eracles ,p21.

في نفس السنة وصل "فيليب أوف فلاندرزو" قريب الملك بلدوين الرابع إلى مملكة بيت المقدس وكان معه عدد كبير من الفرسان ويذكر المؤرخ اللاتيني أرنول[1] أنه قد طلب من الأمير فيليب ترتيب زواج سبيلا من أحد مواليه ولكن مجلس البلاط الملكي رفض هذا الطلب وأخذ "بلدوين دبلين" صاحب الرملة يسبه ويشتمه جهرا حتى اشتد بفيليب الغضب وترك المملكة اللاتينية عائدا إلى بلاده ،ويعلل أرنول ذلك التصرف من صاحب الرملة بأنه كان على علاقة حب مع الأميرة سبيلا ويرغب في الزواج منها ليضمن تتويجه ملكا على بيت المقدس بعد وفاة الملك المجذوم .

غير أن الحقيقة تبدو مخالفة لما ذكره المؤرخ اللاتيني أرنول، لأنه لا توجد أية إشارات في المصادر أو المراجع تفيد بأن "بلدوين دبلين" قد طلب الزواج من سبيلا بعد هذا الحادث، فإذا كان لديه الرغبة الصادقة في الزواج منها وفق ما أشار إليه أرنول لما تأخر بعد أن عرف أن هناك من يطلب الزواج بها، وعلى ذلك يجب ألا نأخذ بهذا التعليل وأن نعتبره نوعا من تشويه الحقائق الذي أفرده أرنول دون بقية المؤرخين، ولعل سبب هذا الادعاء يعود لإخلاص هذا المؤرخ لآل إبلين حيث كان يعمل في خدمة "باليان دبلين" أخو بلدوين دبلين، كما كان تابعا أمينا له[2].

حيث أن فيليب كونت فلاندرز عند قدومه لم يتمكن من لقاء الملك الصليبي بلدوين الرابع لشدة مرضة، لذلك أرسل إليه بعض باروناته للترحيب به ،حيث اجتمع بأهم بارونات المملكة ورجال الدين وهيئتي الاسبتارية والداوية واقترحوا عليه الوصاية على بيت المقدس وتمنح له جميع الصلاحيات لإدارة الممكلة دون قيد أو شرط، غير أن فيليب بعد أن درس الموضوع مع أتباعه رفض هذا العرض، وأعلن أنه لم يأت إلى الشرق لاستلام السلطة إنما أتى للحج والعبادة، ورحل بعد ذلك بفترة وجيزة عائدا إلى بلاده [3].

في خضم تلك الأحداث برز في الأفق البارون "جاي دي لوزجنيان " القادم من بواتيه، وكان محظيا بعطف الملكة الأم " أجنس دي كورتناي "، فوقع اختيار الأميرة سبيلا عليه ليصبح زوج المستقبل خاصة وأنها أعجبت بوسامته وجمال طلته، وذهبت احتجاجات أخيها الملك بلدوين الرابع أدراج الرياح فلم يكن "جاي " إلا صبيا ضعيفا أحمق لا يستطيع إدارة شؤون المملكة ولا يصلح للزواج من وريثة العرش فاشتد غضب البارونات والنبلاء، غير أن أجنس وسبيلا ظلتا تلحان على الملك المريض الخائر القوى حتى رضخ لهما، فتزوج " جاي " من " سيبيلا " يوم عيد القيامة سنة 576هـ/ 1180م[4].

والراجح أن السبب الحقيقي وراء قبول الملك بلدوين الرابع لهذا الزواج هو تلك العلاقة القوية التي نشأت بين الأميرة سبيلا وجاي والتي فاقت كل حد للدرجة التي لم تسمح بالانتظار طويلا، وفي سبيل احتواء الفضيحة تم الزواج في

---

1 Ernoul , La chronique d' Ernoul , p33 ,

رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص683.

2 ،أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص51-52.

3 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص990-995.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص1016، رنسيمان ، المرجع السابق ،ج2،ص684-685، زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص 147، عبد الحفيظ محمد علي ، مشكلات الوراثة ، ص122،

Setton , op, cit, vol Ⅱ , p 596.

أسبوع عيد الفصح رغم أنها فترة محظور فيها الزواج[1]، وهنالك رأي آخر يقول بأن السبب في التعجيل بزواج الأميرة سيبيلا وجاي لوزجنيان هو أن هذا الزواج جاء موجها ضد ريموند الثالث كونت طرابلس الذي كان وصيا لعرش المملكة فيما سبق، لذلك عندما سمع بالزواج دخل مع صديقه بوهيمند الثالث أمير أنطاكية مملكة بيت المقدس بالقوة مع قوات من الفرسان، وسبب ذلك قلقا كبيرا للملك بلدوين الرابع لأنه خشي أن يقوما بثورة لتنحيته على العرش ،فاستعجل زفاف أخته خاصة و أن عددا من نبلاء المملكة كانوا على استعداد أن يتحدوا و يتعاونوا مع من لديه الكفاءة لخدمة المملكة، فقدم الملك مصلحته الخاصة و أمر بإتمام الزواج في أثناء عيد الفصح عكس ما جرت به العادات و التقاليد المتبعة، و عاد كل من ريموند الثالث و بوهيمند الثالث إلى بلدهما[2] .

أراد ريموند الثالث أن يستخدم القوة لمنع زواج سيبيلا من جاي لوزجنيان إلا أنه لم يستطع أن يفعل شيئا ، رغم أن مجموعة كبيرة من نبلاء المملكة اللاتينية الذين امتازوا بالثراء والحكمة كانوا يقفون إلى جانبه، وذلك يعود إلى أن قوانين مملكة بيت المقدس كانت تساند تصرفات الملك الخاطئة، بالإضافة إلى أن نظام الوراثة أصبح راسخا في المملكة لدرجة أن هذا العدد من النبلاء وقف عاجزا لإنقاذ هذا الوضع المتردي ، وهكذا فإننا نميل إلى القول بأنه في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين الأيوبي يسير بخطوات ثابتة لتوحيد القوى الإسلامية في الشام ومصر ضد الكيان الصليبي كانت مملكة بيت لمقدس تعاني من والانقسامات والخلافات الداخلية[3].

رغم الظروف التي أحاطت بذلك الزواج إلا أن نتيجته الإيجابية تمثلت في استقرار مبدأ الوراثة مرة أخرى في مملكة بيت المقدس، كما وقرر الملك بلدوين الرابع تولية جاي لوزجنيان إمارة كل من يافا وعسقلان خلفا للأمير "وليام مونتفرايت" زوج سبيلا المتوفي، وعندما اشتد المرض على الملك بلدوين ولم يعد بوسعه أن يستخدم ذراعيه وساقيه حتى أصبح في حالة يرثى لها[4]، و إزاء تلك الحالة الصحية المتردية كان لابد من وجود وصاية على عرش المملكة لإدارة شؤونها نيابة عن الملك المريض، فنجحت أمه وأخته سبيلا وبتأييد من البطريرك هرقل في إقناعه بأن يعهد بالوصاية على العرش إلى زوج أخته "جاي لوزجنيان"، الذي صارت السلطة التامة على المملكة بيده باستثناء بيت المقدس التي اختص بها الملك نفسه[5] .

طلب الملك بلدوين الرابع على سبيل الحيطة من جاي لوزجنيان أن يقسم له يمين الولاء أمام حشد من البارونات تعهد فيه بعدم التطلع إلى انتزاع الملك طالما كان بلدوين على قيد الحياة، وألا يستحوذ على أية إقطاعية أو قلعة أو حتى يتصرف في خزانتها، غير أن لوزجنيان لجأ أحيانا إلى المناورة السياسية بأن وعد كبار البارونات ببعض الأمور و كأنما أراد بذلك كسب مجلس البارونات لصفه ليساندوه إذا ما هو تطلع للملك، غير أن سلوك جاي لوزجنيان تجاه بارونات

1 Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem,T.L ,1969 ,p589,Grousset, op,cit,p167.

2 وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 1016.

3 عبد الحفيظ محمد علي ، المرجع السابق، ص123.

4 Ernoul , La chronique d' Ernoul , p279

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص 1059، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص54،

Aubé , p , Baudouin Ⅳ de Jerusalem , le roi le preux , paris , 1981, p336.

المملكة قد أثار الملك وجعله يتحين الفرصة المناسبة لعزله من الوصاية، وحدث ذلك عندما رفض جاي أن يحقق رغبة الملك في منحه مدينة صور مقابل أن يسلمه مدينة بيت المقدس، فتأكد الملك من نوايا جاي وزاد يقينه من ضرورة اقصائه عن وراثة عرش المملكة اللاتينية[1].

بعدما بدر من لوزجنيان ازدادت حدة الكراهية بينه وبين بلدوين الرابع إلى الدرجة التي استدعى فيها هذا الأخير البطريرك الذي قام بتزويج سيبيل من لوزجنيان، وطلب منه أن يقوم بإجراءات الطلاق بينهما وفسخ عقدهما معللا ذلك بفساد أخلاق زوج أخته، وبالفعل استدعى البطريرك الذي زوجهما مطالبا اياه بضرورة فسخ العقد نظرا لسوء سلوك جاي و عدم وفائه، وطلب بلدوين من البطريرك تحديد يوم لذلك في حضوره شخصيا وليأخذ الصيغة الرسمية، ولما أدرك "جاي" ما يدور من ورائه توجه من فوره إلى عسقلان وأرسل في طلب زوجته التي لحقت به حتى لا تكون تحت قبضة أخيها الملك في بيت المقدس، وبالفعل دبرت الأميرة سبيل رحلة الهروب ونجحت في الإفلات من قبضة أخيها وفشلت محاولة تطليقها لأنه لا يمكن على الاطلاق طبقا للقوانين المتبعة حينذاك النظر في فسخ الزواج ما لم يحظر الزوجان معا [2].

لما علم بلدوين الرابع بما قام به جاي لوزجنيان أصدر أمرا ملكيا بمثوله بين يديه، وكان ينوي محاكمته و إقصاءه عن وصاية العرش بيد أن لوزجنيان اعتذر عن المثول بحجة مرضه الشديد، لذا قرر بلدوين الذهاب بنفسه إلى عسقلان بصحبة مجلس باروناته لوضع حد لهذا العبث، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان فقد أغلقت أبواب عسقلان في وجه الملك ومن معه ولم تَجِدِ أوامره بفتح الأبواب ولم يصغ الحراس له، ووصل الأمر إلى أنه طرق الأبواب ثلاثا ولم يستجب له أيضا، فما كان من بلدوين إلا أن رحل وهو في قمة الغضب وسط دهشة سكان الحصن العاجزين عن عمل أي شيء[3].

كان لابد من رد فعل سريع ومناسب لما حدث فتوجه بلدوين مباشرة إلى يافا واستدعى قادة الجيوش والنبلاء ونصبت رايته على أسوار المدينة، في إشارة صريحة لإقصاء لوزجنيان عنها وتم ذلك دون مقاومة تذكر، وهكذا حولت روح الانتقام ذلك الملك العليل إلى شعلة مدمرة فاتجه بلدوين إلى عكا وعقد مجلسا كبيرا ضم البارونات ورجال الكنيسة وعلى رأسهم البطريرك هرقل الذي أحضر معه كل من مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وذهبوا مباشرة إلى بلدوين آخذين في استعطافه ومتوسلين إليه أن يصفح عن جاي أمير يافا، وأن يتجاوز عما بدر منه و بخاصة بعدما أصبح مستعدا الآن للمثول بين يديه، إلا أن الملك بلدوين أبى حتى مجرد الإنصات إليهم[4].

وصل الأمر بالبطريرك هرقل أن جثا على ركبتيه متضرعا إلى بلدوين للعدول عن تلك النية الخطيرة والتي قد تطيح بالجميع أمام المخاطر الخارجية والمتمثلة في جيوش صلاح الدين التي تزداد في تقدمها نحو القدس، ولكن بلدوين ظل مصرا على موقفه في الإطاحة بجاي لوزجنيان مما أصاب الجميع بالإحباط الشديد، وأدركوا أن ذلك الرجل صاحب الجسم

1 رنسيمان ، المرجع السابق،ج2،ص 705-710.

Grousset , op , cit, p170

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 1074، رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص710، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص55.

3 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P12.

4 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 1075.

العليل يمتلك قلبا مليئا بالأحقاد، ولن تجدي معه أية محاولات للاستعطاف، لذا كان لابد من الاستغاثة بقوة أكبر تستطيع مجابهته والضغط عليه لإرغامه على قبول رأيهم، فأرسلوا إلى ملك فرنسا وبقية بلدان أوروبا للاستنجاد بهم لينقذوا المملكة اللاتينية من حرب أهلية[1].

لما أدرك جاي أن بلدوين لن يصفح عنه، وأن عليه أن يسلك طريقا آخر زاد من سوء سلوكه بأعمال أكثر عنفا حيث استدعى أكبر عدد من الفرسان وتوجه بهم نحو قلعة الداروم التي يقطنها البدو كما كان الأتراك يمتلكون فيها مزارع واسعة وقطعان عظيمة العدد من الماشية التي كانوا في حاجة لحمايتها ، وكان الملك قد وعدهم بالحماية مقابل ضريبة يقدمونها إليه، ولما أدرك جاي لوزجنيان ضعفهم وعدم قدرتهم على المقاومة وجه إليهم هجوما قويا وسلب ممتلكاتهم و عاد بها إلى عسقلان[2]، فلما وصل الخبر إلى بلدوين استشاط غضبا وعزم على أن يصل بقرار عزل لوزجنيان عن وراثة العرش إلى حيز التنفيذ، فأسرع باستدعاء كبار رجال المملكة إضافة إلى أمير أنطاكية بوهينمد الثالث وكونت طرابلس ريموند الثالث وقرر أمامهم في ذي الحجة 578هـ/ مارس 1183م عزل "جاي" من الوصاية على العرش و احلال بلدوين الخامس ابن أخته سبيلا من زوجها السابق وليم أوف مونتفرات محله ولم يكن بلدوين وقتذاك قد تجاوز السادسة من عمره .[3]

غير أن مشكلة وراثة عرش بيت المقدس لم تحل تماما بتولية بلدوين الخامس، فقد كان طفلا صغيرا يحتاج إلى وصاية شخص قوي قادر على مواجهة المصاعب وعلى قيادة المملكة اللاتينية في حال نشوب الحرب مع المسلمين، فلم يجدوا أجدر من ريموند الثالث كونت طرابلس الذي كان أقرب لصفات الملك أكثر من أي شخص آخر، فسلم الملك بلدوين الرابع إليه إدارة المملكة لثقته في حكمته وشهامته، وقد جاء هذا القرار محققا لرغبة أغلب البارونات لأنه كان من الواضح أن الأمان الوحيد للصليبيين في أن تؤول شؤون المملكة لكونت طرابلس[4].

استمرت وصاية ريموند الثالث على وريث العرش بلدوين الخامس حتى أوائل 581هـ/1185م عندما أحس الملك بلدوين الرابع بدنو أجله وأن الأمل ميؤوس من شفائه، فأعلن وصيته أمام مجلس البارونات وقرر أن يخلفه على العرش بلدوين الخامس ابن أخته سيبيلا على أن يستمر كونت طرابلس في منصب الوصاية عليه حتى يبلغ السن القانوني لتوليه أمور المملكة بنفسه، وبذلك يكون بلدوين الرابع قد حجب عن جاي لوزجنيان الفرصة في الوصول إلى عرش المملكة[5].

لكن المتمعن في وصية بلدوين الرابع يجدها تتعارض وقوانين وأعراف المملكة، فمن المفترض أن تخلف "سبيلا " أخاها بلدوين الرابع على عرش بيت المقدس على اعتبار أنها صارت إقطاعا، لكن مجلس البارونات والملك قرروا تجاوزها

1Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P 2.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، 1075، يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ص 18، رنسيمان ، المرجع السابق ،ج2،ص710، عاشور ، الحركة الصليبية ،ج2،ص762.

3 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P 2.

أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ،ص54.

4 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص 715-716، عبد الحفيظ محمد علي ، مشكلات الوراثة ، ص136.

5 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P10 , Grousset, op,cit,p176.

ومنح وراثة العرش لابنها منتهكين حقها في وراثة العرش ولابد أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو تقديم المصلحة العامة للصليبيين على حق وراثة العرش، خاصة وأن أغلب البارونات قد اتفقوا على عدم كفاءة زوج "سبيلا "" جاي لوزجنان" وعجزه الواضح في إدارة الحاميات التي كانت تحت يده، إضافة إلى الكراهية الشديدة التي يكنها له الملك[1].

كما أضاف بلدوين الرابع لوصيته أنه في حالة وفاة الطفل بلدوين الخامس الذي اشتهر بسوء صحته دون أن يعقب وريثا للعرش، كان لزاما على الأمير ريموند الثالث أن يبقى في الوصاية حتى يفصل في الدعاوي بين الأميرتين سبيلا وإيزابيلا الحكام الأربعة بالغرب وهم البابا وإمبراطور ألمانيا وملك فرنسا وإنجلترا ويحددوا من سيخلف الملك الصبي ، غير أن ريموند وصل إلى قرار مضمونه رفض القوامة الشخصية على الطفل وقبول الوصاية العامة لمدة عشر سنوات لخوفه من أن يموت الطفل ويتهم بأنه وراء ذلك، وبذلك تولى جوسلين الثالث كندسطبل المملكة وخال الملك بلدوين الرابع الحراسة الشخصية على بلدوين الخامس، وأعطيت قلاع الملك لهيئة فرسان الداوية لحراستها، كما أعطيت مدينة بيروت إلى ريموند الثالث مقابل قيامه بالوصاية [2].

توفي الملك بلدوين الرابع في ذي الحجة 580هـ/ مارس 1185م متأثرا بمرض الجذام الذي عانى منه طويلا ، و قبل أن يموت الملك بأسابيع قليلة تم تتويج بلدوين الخامس في كنيسة القيامة، وأدى له جميع البارونات قسم الولاء ، كما أدى هؤلاء قسم الولاء لريموند كوصي على المملكة، وقد مات بلدوين وهو يعرف أنه ترك المملكة لرجل يعتبر من أقدر المحاربين الصليبيين[3].

لم تمض سوى عدة شهور حتى ساءت حالة الملك الصبي بلدوين الخامس، إذ وافته المنية أثناء تواجده في عكا ولم يبلغ التاسعة من عمره بعد، وحضره على فراش الموت الوصي ريموند الثالث وجوسلين الثالث صنجيل المملكة والحارس على الملك الصبي بلدوين الخامس[4]، واستطاع هذا الأخير أن يخدع الكونت ريموند وأعرب عن حرصه على التعاون معه وأقنعه بالتوجه إلى طبرية للاجتماع بالبارونات لتنفيذ وصية الملك بلدوين الرابع بعيدا عن البطريرك هرقل ومؤامراته، وتعهد جوسلين بنقل جثمان الملك إلى بيت المقدس ووثق ريموند في كلامه وتوجه إلى طبرية[5].

ولم يكد كونت طرابلس أن يخرج من مدينة عكا حتى استولى عليها جوسلين بواسطة قواته، وحملت جثة الملك بلدوين الخامس إلى بيت المقدس في حراسة هيئة فرسان الداوية، بينما خرج هو على رأس قواته متجها إلى بيروت التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للكونت ريموند واستولى عليها، ثم أرسل إلى "سبيلا "و زوجها "جاي لوزجنيان"و أخبرها بضرورة التوجه إلى بيت المقدس مع كل فرسانها، وبعد إجراءات دفن الملك بلدوين الخامس تقوم باحتلال المدينة وتحصنها وتتوج نفسها ملكة على عرش بيت المقدس[6].

---

1 عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة، ص134.

2 Ernoul , La chronique d' Ernoul ,pp 115-118.

3 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P 8

4 رنسيمان ، المرجع السابق ، ج2،ص722، عاشور، الحركة الصليبية،ج2،ص75.

5 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P25.

6 Ernoul ,La Chronique d'Ernoul ,pp 125-126.

وعندما اكتشف ريموند الخدعة التي تعرض لها توجه إلى نابلس واستدعى جميع بارونات المملكة بصفته الوصي الشرعي، ودعا إلى عقد المحكمة العليا للبارونات وذكرهم بالقسم الذي أدوه أمام الملك بلدوين الرابع، فلبى الجميع النداء وكان في مقدمة الحاضرين "باليان دبلين" وزوجته الملكة السابقة ماريا وابنتها "إيزابيلا"من الملك عموري وزوجها "همفري دي تورون" [1] وجميع بارونات المملكة فيما عدا الأمير جوسلين الثالث والأمير رينو دي شاتيون صاحب الكرك، وجيرارد رئيس هيئة الداوية والبطريرك هرقل بطريرك بيت المقدس ،وأثناء اجتماعهم وصل مندوبين من"سبيلا "يحملون دعوة منها لحضور حفل تتويجها ملكة على بيت المقدس ولكنهم رفضوا الحضور وأرسلوا راهبين لمقابلة بطريرك بيت المقدس ورئيسا هيئة الداوية والإسبتارية لمنعهم من اتخاذ اجراءات التتويج حتى تنظر المحكمة العليا في الأمر[2].

غير أن الموجودين في بيت المقدس لم يلتفتوا إلى هذا التهديد وأصروا على مواصلة إجراءات تتويج "سبيلا " بعد أن تم دفن الطفل الملكي بلدوين الخامس، كما قاموا بإغلاق أبواب مدينة بيت المقدس وأقاموا عليها حراسة مشددة لمنع أية محاولة للهجوم عليها من قبل البارونات الموجودين في نابلس، وعندما بدأ حفل التتويج حضر رئيس هيئة الداوية جيرارد و هو العدو القديم للكونت ريموند الثالث– كما ذكرنا سابقا– و رينو دي شاتيون ، أما رئيس هيئة الإسبتارية[3] فقد رفض أن يشترك في حفل التتويج احتراما للقسم الذي أداه للملك بلدوين الرابع[4] .

بدأ البطريرك هرقل مراسيم التتويج فألقى رينو صاحب الكرك خطبة على الحاضرين قال فيها "أيها السادة إنكم تعلمون جيدا أن الملك بلدوين الرابع وابن أخته اللذين توجا ملكين قد توفيا وأصبحت المملكة بدون حاكم أو وريث و نحن نرغب في تتويج "سبيلا " ابنة الملك عموري وأخت الملك بلدوين الرابع، لأنها أقرب المستحقين لوراثة عرش المملكة " وعند ذلك أجاب الحاضرون في صوت واحد " اننا نحب ابنة الملك عموري أكثر من أي شخص آخر "[5]، ونظرا لما يكنه الناس من كراهية تجاه جاي لوزجنيان فقد قام البطريرك هرقل بتتويج سبيلا وحدها و وضع التاج الملكي على رأسها ووضع التاج المخصص للملك بجانبها وترك لها أن تختار الرجل الجدير بأن يصبح ملكا ويستحق أن تضع التاج فوق رأسه ،فأخذت الملكة التاج ووضعته فوق رأس زوجها الذي أصبح بموجب وراثتها للعرش ملكا على الصليبيين وقد تم ذلك في 13 جمادى الآخر 582هـ/ 15 سبتمبر 1186م[6].

---

1 **همفري دي تورون** **Hainfroi de toron** :و هو أمير تبنين و ابن ستيفاني أو " إتيت دي ميلي " وريثة إقطاع الأردن ، و قد كان همفري يتكلم العربية بطلاقة لذلك فقد كان المترجم الخاص لريتشارد قلب الأسد في محادثاته مع صلاح الدين الأيوبي ،**أنظر**: وليام الصري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص759.

2 Eracles ,L'Estoire D'Eracles , P25

3 كان رئيس الإسبتارية حينئذ يدعى "روجيه دي مولان" Roger de moulins (573-583هـ/ 1177-1187م) ،**أنظر** ، رنسيمان ، المرجع السابق ،ج2،ص 733.

4 Eracles ,L'Estoire D'Eracles ,p27

5 Ernoul ,La Chronique d'Ernoul ,p127 .

6 رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص723.

عندما وصلت أنباء تتويج " سبيلا " و " جاي " ملكين على بيت المقدس إلى البارونات المجتمعين في نابلس ، اقترح عليهم الكونت ريموند صاحب طرابلس التوجه جميعا إلى بيت المقدس وفي صحبتهم همفري دي تورون وزوجته إيزابيلا البنت الصغرى للملك عموري من زوجته الثانية ماريا وأخت الملكة المتوجة، والعمل على تتويجها هناك طالما أن معظم بارونات المملكة وفي مقدمتهم سيد الاسبتارية غير موافقين على تتويج "جاي "[1].

في الواقع فإن الخطوة التي أقدم عليها البارونات في نابلس تتعارض مع قوانين بيت المقدس التي تعطي الحق في الوراثة للطفل الذي جاء من الزواج الأول مفضلة له على الذين جاؤوا من الزواج الثاني، أي أن سبيلا ابنة الملك عموري من زواجه الأول من أجنس كورتناي هي الأحق بوراثة العرش من أختها الصغرى إيزابيلا ابنة الملك عموري من زوجته الثانية ماريا كومنين، لكن البارونات استندوا إلى قاعدة دستورية أقوى، وهي حق المحكمة الدستورية في اختيار الحاكم، وحتى في هذا المجال فإنهم لم يحاولوا أكثر من اختيار أحد أعضاء البيت المالك و تفضيله ولم يحاول البارونات تعيين أحد من خارج الأسرة الحاكمة، حتى ريموند الثالث الذي كانت له صلة قرابة بالأسرة المالكة لم يقدم للترشيح لعرش المملكة، مع أنه أقوى بارون في المملكة والقائد المعترف به من البارونات ضد جاي لوزجنيان [2].

لكن عندما علم هنفري ما عزموا عليه من تتويجه ملكا على بيت المقدس أحس أنه أمر فوق طاقته وعزم على الفرار من تلك المسؤولية خاصة وأنه ضعيف الهمة ومعدوم العزيمة ولا يمتلك مقومات الرجولة ، فركب فرسه في مساء ذلك اليوم هاربا من مواجهة البارونات، وفر إلى بيت المقدس ليعلن خضوعه أمام الملكة سبيلا لكنها لم ترحب به في بداية الأمر لمعارضته إجراءات التتويج وعدم حضوره الحفل وانحيازه إلى بارونات المملكة المجتمعين في نابلس، ولكن عندما علمت منه حقيقة الأمور وبعدم رغبته في الانقياد وراء مطلب البارونات أظهرت عفوها ورضاها عليه وطلبت منه الوقوف بين يدي الملك جاي وتقديم قسم الولاء والتبعية له، فلم يتردد في ذلك واستقر بعد ذلك في بيت المقدس[3].

إزاء هذا الموقف المتخاذل من قبل " هنفري " قرر البارونات المعارضين تعديل موقفهم بالتوجه نحو بيت المقدس وإعلان ولائهم "لجاي لوزجنيان " و الملكة "سيبيلا "، فلن يكونوا أكثر ملكية من الملك نفسه الذي تخلى عن حقه في العرش، وأعفاهم ريموند الثالث من القسم الذي أدوه " لهمفري " وبالفعل توجهوا إلى القدس الواحد بعد الآخر ليعلنوا إذعانهم وولاءهم لجاي، باستثناء الكونت ريموند الثالث الذي رفض الذهاب معهم فضل الذهاب إلى طبرية و أقسم أنه لن يبذل الولاء مطلقا للملك الجديد، كما أن بلدوين إبلين سيد الرملة قد رأى أن يتنازل عن إقطاعيته لابنه ويغادر المملكة إلى أنطاكية ولا يقبل بجاي ملكا، وقد رحب به أمير أنطاكية بوهيمند الثالث ومنحه إقطاعية تتناسب مع مركزه المرموق[4].

1 Ernoul ,La Chronique d'Ernoul , p 30

2 عبد الحفيظ محمد علي ، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس،ص141.

3 Ernoul ,La Chronique d'Ernoul ,p30 , Eracles ,L'Estoire D'Eracles , p31.

4 رنسيمان ، المرجع السابق، ج2،ص 726،

بذلك نجحت جهود جاي لوزجنيان للوصول إلى عرش مملكة بيت المقدس، وفشل ريموند الثالث ومن سانده من البارونات في مسعاهم لإقصائه، ولعل من أسباب ذلك إضافة إلى انسحاب "همفري " عجز المحكمة العليا في مملكة بيت المقدس والتي عقدت في نابلس أن تستخدم حقها في الانتخابات في اللحظات الحاسمة، حيث لم تستطع ترشيح ريموند الثالث ملكا على الصليبيين وذلك بسبب نظام الوراثة الذي كان قد توطد وثبت في تلك الآونة[1]، وقد عارض ريموند سياسة جاي لوزجنيان وكانت سياسة كونت طرابلس مبنية على التقارب مع صلاح الدين الأيوبي حيث كان يرى أن السلام بين الصليبيين والمسلمين في هذه الفترة ضرورة حتمية لمملكة بيت المقدس، فعقد مع صلاح الدين صداقة شخصية على حساب الجانب الصليبي على أن يساعده صلاح الدين في تحقيق طموحاته التي فقد جزء منها[2].

ولم يمثل تتويج "سبيلا "و "جاي" ضربة قاسمة لريموند الثالث فقط بل كان بمثابة ضربة كبرى موجهة إلى والدة الأميرة إيزابيلا "ماريا كومنين" لأنها كانت تضع كل آمالها في أن تصبح ابنتها ملكة بيت المقدس بدلا من أختها سيبيلا لتتاح لها فرصة استعادة التي لم تتمتع بها طويلا أثناء وجودها ملكة مع زوجها عموري الأول، ولذلك كان صدرها يمتلئ غيرة و حقدا على الملكين المتوجين، خاصة وأن زوجها باليان إبلين لم يكن في وسعه إلا أن أذعن " لجاي " وأقسم له بالطاعة و الولاء[3].

استقرت الأوضاع الداخلية للملكة بعد نجاح تتويج الملكين، وكانت "سبيلا" تشارك زوجها في معظم أمور المملكة غير أن هذا الهدوء لم يستمر طويلا، إذ قام صلاح الدين بالهجوم على بيت المقدس وحدثت موقعة حطين الشهيرة سنة 583هـ/ 1187م والتي وقع فيها جاي لوزجنيان أسيرا وأعتقل في نابلس، وعندما دخل صلاح الدين بيت المقدس نجح رجاله في أسر الملكة سبيلا وماريا كومنين، لكن صلاح الدين عاملهما معاملة طيبة تليق بمكانتيهما، بل سمح للملكة سيبيلا بأن تلحق بزوجها في نابلس وتعيش معه طوال فترة اعتقاله[4].

ب– على إمارة أنطاكية :

لقد لعبت المرأة دورا سياسيا هاما كوريثة على إمارة أنطاكية، غير أنه في الواقع لا يساوي ما كان من حظ نظيرتها في بيت المقدس، وقد بدأ ذلك الدور في الظهور بعد وفاة "تنكرد" أمير أنطاكية في جمادى الآخرة 506هـ/ديسمبر1112م الذي لم يوصي قبل وفاته بترك حكم إمارته لزوجته "سيسيليا " على الرغم من أنه لم ينجب منها طفلا يورثه حكم الإمارة، فقد كان من المتعارف أن الزوجة التي يتوفى زوجها الملك أو الأمير دون أن يترك وريثا تصير صاحبة العرش حتى تتخير زوجا مناسبا يتولى شؤون البلاد، إلا أن الأمير تنكرد خالف تلك القاعدة وعهد إلى الطفل "بوهيمند الثاني" ابن " بوهيمند الأول " مؤسس إمارة أنطاكية بوراثة عرش الإمارة على أن يتولى " روجر بن ريتشارد "

1 السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ،ص98.

2 , Eracles ,L'Estoire D'Eracles , pp32-34.

3Eracles ,L'Estoire D'Eracles , p31 ,

أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ، ص58.

4 Ernoul ,La Chronique d'Ernoul ,p 84-85.

أحد أقارب تنكرد الوصاية نظرا لحداثة سن " بوهيمند الثاني "إلى أن يبلغ هذا الأخير سن الرشد التي تؤهله للانفراد بالحكم[1].

إن ما قام به تنكرد يرجع إلى أنه كان يحكم بصفته وصيا على بوهيمند الثاني فلم يكن حاكما مطلقا على أنطاكية بل وصيا فقط، لذلك لم يكن يحق لزوجته أن ترث عرش الإمارة من بعده والراجح أن تصرفه كان نابعا من حبه الشديد لبوهيمند الأول باعتباره ولي نعمته فأراد أن يحفظ جميله في ذريته، كما أن تنكرد لم يرد إعطاء رجال الدين أية فرصة لتأليب الرأي العام ضده في أنطاكية إذا ما تم حرمان صاحب العرش الحقيقي من ميراثه[2]، أما زوجتة سيسيليا فقد أوصى بزواجها من الأمير بونز أمير طرابلس وذلك بعد وفاته –كما ذكرنا سابقا –.

ننتقل إلى مثال آخر تظهر فيه المرأة الأنطاكية كوريثة للعرش، فبعد وصول الأمير "بوهيمند الثاني" أمير أنطاكية إلى الشرق سنة520هـ/ 1126م رحب به الملك بلدوين الثاني ورد عليه إقطاعية أبيه كاملة ثم زوجه من ابنته " أليس" في العام التالي[3]، ورغم ما كان عليه بوهيمند من فتوة وشجاعة إلا أن المنية لم تمهله إذ سرعان ما لقى حتفته في حربه ضد الدانشمند في524هـ/ 1130م وهو في مقتبل العمر لتصبح " أليس "أرملة وهي في ريعان شبابها[4].

كان لبوهيمند عند وفاته ابنة واحدة من زوجته أليس تدعى "كونستانس" في نحو الثالثة من عمرها ولما كانت هي الابنة الوحيدة أصبح لها حق إرث أبيها، ونظرا لأنها كانت قاصرة كان من حق الملك بلدوين الثاني – بوصفه السيد الإقطاعي الأعلى – أن ينظم شؤون وصايتها إلا أن ابنته أليس لم تنتظر وصوله إلى أنطاكية كما لم تعط لغيرها فرصة للتدخل وأعلنت نفسها الوصية على ابنتها، مما يكشف لنا عن شخصية تلك الأميرة وطموحها إلى الحكم والسيطرة، إذ عملت منذ الوهلة الأولى لوصايتها على تثبيت أقدامها في الحكم والعمل بشتى الطرق على الاستئثار به وإن كان ذلك على حساب حقوق ابنتها كونستانس، الأمر الذي أثار ضدها حفيظة العديد من أمراء الفرنج الذين طلبوا من الملك بلدوين الثاني ضرورة التدخل في الأمر[5].

لما علمت الأميرة أليس بما يدبره لها مناوؤها عملت على استقطاب قوة كبيرة تكون لها خير عون وتضمن لها بقاءها في الحكم فوجدت ضالتها في الأمير عماد الدين زنكي – صاحب الموصل وحلب – فأرسلت إليه رسولا تعرض عليه ولاءها مقابل ضمان استقلال إمارتها وحمايتها من أعدائها ضاربة بكل أعراف قومها عرض الحائط ولو كان ذلك على حساب ابنتها، وكانت تلك خطوة غير مسبوقة من امرأة صليبية توضح مدى شغفها بالسلطة ورفضها الخضوع لوالدها

1 ألبرت فون آخن ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ،ص 302-303، متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي، ص182-183، ميخائيل السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ص 107، وليام الصوري، الحروب الصليبية ،ج1،ص 547، عاشور ، الحركة الصليبية ،ج1،ص 330، حسين مُحَّد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص137-138.

2 فوشيه الشارتري، الحملة إلى القدس،ص160.

3 ميخائيل السرياني ، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، ص116 ، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص639

4 ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج9،ص256، ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج2،ص246.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2 ، ص649، رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص292-294.

ملك بيت المقدس، ولسوء حظها انكشف مخططها عندما وقع رسولها في أيدي رجال الملك بلدوين الثاني مما زاد من غضبه واصراره على أحقية "كونستانس" الابنة في عرش أنطاكية بدلا من أمها " أليس" [1].

برغم محاولات الأميرة "أليس" إقناع ابنتها "كونستانس" للدخول في إحدى الأديرة كي تصبح أنطاكية في حوزتها مدى الحياة[2] إلا أن موقفها هذا أثار الرأي العام في أنطاكية كما ألب عليها أشراف ونبلاء المدينة أمثال "بطرس لاتيناتور"" Potros Latenotor" وهو راهب في دير القديس بولس و"وليم أفيرسا" "William Afasa"، اللذان بادرا بالاتصال بالملك بلدوين الثاني مظهرين له تأييدهم التام لرؤيته واستعدادهم لمساعدته لدخول أنطاكية خاصة بعد أن أعلنت أليس العصيان وأغلقت بوابات المدينة في وجه أبيها واستعدت للمقاومة فألقى بلدوين الحصار على المدينة وتمكن من كسب المزيد من العناصر داخل أنطاكية حيث فتحوا له عدة بوابات فدخلها [3]ما أوقع أليس في مأزق كبير فبادر خواصها بتوجيه النصيحة لها بأن تمثل بين يدي والدها طالبة الصفح والغفران، عندئذ توالت الوساطات بينها وبين والدها والراجح أنها توجت بنتائج ايجابية حتى أنها حركت مشاعر الأبوة لدى الملك بلدوين الثاني فاضطر إلى الموافقة على ما قدمته تلك الوساطات من اعتذارات[4].

غير أن الملك بلدوين الثاني لم يتخذ القرار الصارم الذي يعيد الأمور إلى نصابها والذي يحول دون مطامع ابنته في الانفراد بالحكم مرة أخرى، ففي الوقت الذي كان يعلم يقينا أن شخصية ابنته ذات طابع ينزع للتملك وحب السيطرة وأنها في سبيل الوصول لها تطأ كل القيم والمبادئ، قام باسترضائها بمديتين ساحليتين هما اللاذقية وجبلة[5] اللتان كانتا تمثلان بائنتها عند زواجها من الأمير بوهيمند الثاني، كي لا تعاود التحرش ثانية بعرش أنطاكية ظنا منه أن ما قام به سيحد من مطامعها دون خسارة كبيرة، ولضمان تنفيذ هذا القرار عهد إلى أمير الرها جوسلين دي كورتناي بالوصاية على الطفلة "كونستانس" برعاية مشمولة من الملك بلدوين نفسه[6].

إن كانت الأميرة أليس قد فشلت في محاولاتها السابقة للاستئثار بحكم انطاكية وحرمان ابنتها من وراثة العرش بعد نجاح والدها في الحد من طموحها، فها هي الفرصة تلوح لها من جديد لتحي آمالها في الاستحواذ على العرش وساعدها

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص649-650، محمد عبد الحميد فرحات ، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى ،ص55.

2 Duggan (A) , The story of the crusades (1097- 1291) , London ,1963,pp 99-100

3 يذكر ابن العديم أن الملك بلدوين الثاني قام بقطع أيدي و أرجل من تمرد عليه من الموالين لابنته، و عفا عن ابنته التي اعتذرت له بصورة مهينة ، أنظر : زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ج2،ص219-230.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص650

Archer And Chales .L. Kinsford, The Story Of The Crusades ,p184.

5 و عن موقع مدينتي اللاذقية وجبلة أنظر الخريطة رقم (01)

6 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص650، علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها ،ص228، كلود كاهن ، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية ،ص150.

Duggan (A) , The story of the crusades ,p 99.

في ذلك وفاة أبيها بلدوين الثاني والأمير جوسلين الأول أمير الرها الذي كان يتولى الوصاية على أنطاكية، كما ساعدتها أختها الكبرى الملكة ميليسند صاحبة النفوذ القوي والتأثير الكبير على زوجها الملك فولك الأنجوي الذي تولى عرش مملكة بيت المقدس بعد والدها، فعادت من منفاها باللاذقية إلى أنطاكية لتتولى بنفسها الوصاية على ابنتها وتدير شؤون البلاد[1].

وإن كانت قد فشلت في محاولتها السابقة في التحالف مع المسلمين فقد اعتمدت هذه المرة على الأمراء الفرنج فعمدت إلى جذب بعض من ذوي المكانة إلى الوقوف بجانبها ومناصرتها في تنفيذ مخططها ونجحت في استقطاب الأمير جوسلين الثاني Joscelin II أمير الرها (526 -545هـ/ 1131-1150م)، والأمير بونز Pons أمير طرابلس (506-532هـ/ 1112-1137م) وغيرهما من الأمراء، ولعل ما اتصف به جوسلين الثاني من ضعف وسوء أخلاق ومعاقرته للخمر ومحبة للملذات هو الذي جعل أليس تستميله هذا فضلا عن أن كلا الأميرين – جوسلين وبونز – قد أغراهما ما تنفقه "أليس" وما تقدمه من هدايا هذا من جهة، كما أنهما أرادا أن يطرحا طاعة الملك فولك جانبا خاصة وأن هذا الأخير لم تكن له نفس مقدرة سلفه بلدوين الأول والثاني، فإذا ما نجحت "أليس" في تحقيق مخططها حذا كلاهما حذوها في الاستقلال وعدم التبعية للملك[2].

على أية حال، فقد كان لأليس كذلك أنصار في أنطاكية ذاتها غير أن معظم نبلاء المدينة كانوا يخشون حكم تلك الأميرة وحينما سمعوا بذلك التحالف أرسلوا إلى ملك بيت المقدس فولك الأنجوي يستنجدون به لإجهاض تلك المؤامرة قبل أن تكتمل، وفي الحال استجاب الملك للدعوة الموجهة إليه من قبل الأنطاكيين وأسرع بدوره على رأس جيشه صوب أنطاكية و عندما وصل إلى طرابلس رفض بونز أميرها السماح له بالمرور عبر كونتييته فاضطر إلى استكمال رحلته حتى وصل إلى بيروت بحرا ودخل على الفور في معركة دامية مع حزب أليس المعارض وتمكن من إنزال الهزيمة به وأجبرهم على الفرار وأجبر أليس على العودة والإقامة باللاذقية[3]،وبقي الملك فولك بين الأنطاكيين بعض الوقت بناء على رغبة بارونائها مثلما فعل بلدوين الثاني من قبل لتنظيم أحوال الإمارة وكي يطمئن على هدوء الأحوال بين الأحزاب المتصارعة، وعهد إلى " رينو دي ماسويه " Renou d'masoier أمير مرقب (528هـ/ 1133م)[4] بتولي شؤونها ثم عاد أدراجه إلى بيت المقدس[1].

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص658،

2 سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ،ج1،ص419-418 ،طه الطراونة، المرأة الصليبية،ص75

Stevenson, op, cit, p131.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص659، ميخائيل السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، ص 232، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص293.

Grousset,op,cit,pp109-110.

4 قلعة المرقب" Marqab": وهي قلعة حصينة على الساحل السوري بالقرب من مدينة بانياس، تقع فوق ذروة جبل صخري متاخم للبحر مباشرة، وتعتبر وتعتبر من أهم قلاع الصليبيين بإمارة أنطاكية، وأصبحت تابعة لأميرها روجر بعد أن تنازل عنها صاحبها ابن محرز سنة512هـ/ 1118م مقابل مناطق أخرى، وفي سنة 582هـ/ 1186مانتقلت القلعة إلى حيازة الاسبتارية وأصبحت من أقوى حصونهم، سقطت زمن على يد السلطان قلاوون سنة684هـ/ 1285م .

وهكذا أصبحت الحاجة الملحة لإيجاد زوج مناسب للأميرة الصغيرة "كونستانس" لضمان حمايتها من أطماع أمها ومحاولاتها الانقلابية فاستقر الرأي على الأمير " ريموند بواتييه " كي يكون الرجل المناسب لتلك الظروف، إلا أن ذلك الزواج صادف مصاعب شديدة على رأسها الأميرة أليس والدة كونستانس التي كانت بمثابة حجر عثرة أمام ما يحد من سلطتها أو يحاول أن ينال منها، عندئذ ظهرت على مسرح الأحداث شخصية كان لها دورها الهام في توجيه دفتها ونعني بها " رالف" Ralph (530-535هـ/ 1135-1140م) بطريرك أنطاكية الذي رسم خطة قامت على أساس نفسي يرضي الأميرة الأم ويحقق أهدافه في نفس الوقت، حين أوهم الأميرة أليس بأن ريموند قادم لخطبتها هي لينال ودها ويحد من سطوتها في مقاومة ريموند إذ ما أحست أنه قادم لخطبة ابنتها، وليضمن كذلك أن تحد من سلطتها على رجال الدين[2] .

هنا نجد أن ما قام به البطريرك رالف الذي كان مواليا للأميرة أليس في البداية يعود إلى إقدامها على عرض زواج ابنتها من الأمير مانويل الابن الأصغر للإمبراطور يوحنا كومنين (512-538هـ/ 1118-1142م) ما أفقدها ولاء مؤيديها وحلفاءها داخل الإمارة وعلى رأسهم البطريرك رالف الذي لم يفكر مطلقا في أن يتخلى عن منصبه لبطريرك آخر من الأرثوذكس ولذا تخلى عن مناصرتها وانحاز إلى معارضيها[3]، أما الباحثة فترى أن الدافع الأساسي "لرالف" من وراء مساعدته للأمير ريموند كان يكمن في رغبة خفية للسيطرة على الحاكم الجديد كي يهيمن على الأمور بأنطاكية.

هكذا بلعت الأميرة "أليس" الطعم، وبمعنى أصح لم تستطع أن تكتشف النوايا الحقيقية "لرالف" برغم دهائها السياسي وبقيت في قصرها تنتظر وصول الأمير ريموند للزواج منها، وكان وصول الأمير إلى أنطاكية سنة530هـ/ 1136م وفي الوقت نفسه قام البطريرك بخطف الأميرة كونستانس ذات التسع سنوات وذهب بها إلى كاتدرائية المدينة وبينما كانت الفتاة الصغيرة تتساءل مندهشة عن سبب وجودها في الكنيسة، قام البطريرك رالف بعقد زواجها على الأمير ريموند ليصبح الأخير صاحب الحق الشرعي في إدارة شؤون الإمارة من (531- 544هـ/1136-1149م)، وفوجئت "أليس" بالأمر ولم يكن بوسعها القيام بأي شيء نظرا لأن القانون الإقطاعي يعطي الحق لزوج الوريثة في أن يصبح سيد الإقطاع وهكذا خدعت أليس وضاع حلمها في الزواج من ريموند كما قضي على آمالها في الاستمرار في حكم الإمارة ولم تجد أمامها من سبيل سوى الانزواء على نفسها باللاذقية لتقضي ما تبقى من عمرها الذي لم يطل بها، وماتت هناك دون أن تحقق ما أرادت[4].

أنظر: أبو الفداء، تقويم البلدان،ص255، فولفغانغ مولر- فينز، القلاع أيام الحروب الصليبية،ص71-72، نبيلة ابراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص82-83.

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص803.

2 Stevenson,op ,cit, p135 , Archer And Chales .L. Kinsford, The Story Of The Crusades ,p191.

3 Kinnanos, Deeds of John and Manuel comneuus , New York, 1976, p23

مُحَمَّد عبد الحميد فرحات، قضاي من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، ص.61

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص678، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص317.

على أن زواج الأميرة كونستانس من ريموند بواتيه قد أثار مشكلة سياسية أخرى تمثلت في تدخل الدولة البيزنطية في شؤون الصليبيين بعامة وإمارة أنطاكية بصفة خاصة، فقد اعتبر الإمبراطور يوحنا أن زواج كونستانس من ريموند بواتيه دون إذن منه انتهاك صريح من قبل الصليبيين لسيادته على أنطاكية و أخذ يعد العدة لإحقاق الحق البيزنطي في أنطاكية بقوة السلاح[1]، و بذلك جعل من قضية زواج كونستانس بابا للتدخل في شؤون أنطاكية و شن ضده حملة في صيف 531هـ/1137م أرغم فيها الأمير ريموند على الاعتراف بتبعية أنطاكية للدولة البيزنطية و أكثر من ذلك حيث اتفق الإمبراطور مع ريموند على القيام في العام التالي بحملة عسكرية ضد المسلمين يكون من أهدافها انتزاع حلب و حمص و حماة و شيزر من أيدي المسلمين و منحها إلى ريموند في مقابل تنازل الأخير عن أنطاكية للإمبراطور[2].

وبسماع الأنطاكيين بتلك الأخبار، زادت مخاوفهم من ريموند بسبب ميله الشديد إلى الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين، خاصة و أن هذا الاتفاق يعني التنازل عن أنطاكية أو جعلها ولاية تابعة لبيزنطة، إلا أن واقع الأحداث ضرب بكل الآمال عرض الحائط إذ لقى ريموند بواتيه مصرعه على يد جيوش نور الدين سنة 543هـ/1148م، و بوفاة ريموند أصبح "بوهيمند الثالث" ابن كونستانس الوريث الشرعي لإمارة أنطاكية و هذا الوضع الجديد جعل من كونستانس وصية على عرش أنطاكية [3].

ج- على المقاطعات الصليبية الأخرى :

يتجلى دور المرأة الصليبية في إقليم الجليل وطبرية من خلال دور الأميرة "إشيفا" " Echiva" زوجة الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس (547-583هـ/ 1152-1187م) الذي صار إليه حكم كل من الجليل وطبرية عن طريق الإرث الشرعي ولما تزوجت إشيفا من ريموند صار هو حاكم هذين الإقليمين مما أعطاه قوة وسندا قانونيا بالإضافة إلى الثقل السياسي الذي اكتسبه بتلك الزيجة مما مكنه من أخذ الوصاية على عرش بيت المقدس، وهو ما يفسر حرصه على إشيفا ورغبته في نيل رضاها بل واسباغه عاطفة أبوية على أطفالها الأربعة من زيجاتها السابقة، وهكذا ساد الاستقرار تلك الأسرة[4].

كانت وراثة الحكم في "قلعة القرين"[5] في حوزة "جوسلين كورتناي" لأنها من ضمن إقطاعه، فلما توفي آلت ملكيتها إلى بناته وكانت إحداهن كانت زوجة لفارس يدعى " أوتو دي هنبرج " Otto de Hennebrg، فلما توفيت تلك

1 محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول،ص75.

2 للمزيد من التفاصيل عن تللك الأحداث أنظر:

Kinnanos, Deeds of John and Manuel comneuus,p23,

ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص300، ابن العديم، زبدة الحلب،ج2،ص214، النوري، نهاية الأرب في فنون الأدب،ج27،ص 134 .

3 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص525.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص977، عبد العزيز محمود عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر،ص140،

Slaughter (G), Saladin (1138-1193) , New york , 1955,pp 116-139.

5 **قلعة القرين (Mont fort)** : من أهم قلاع هيئة التيوتون في بلاد الشام، و تقع شمالي فلسطين على الهضبة الغربية لنهر الجليل و على الجبال الواقعة شمال شرق عكا، أي أنها تقع بين مدينتي صور و عكا، على نحو 32كيلومتر شمالي حيفا،غير أن أهميتها الاستراتيجية محدودة لوقوعها في منطقة نائية تبعد عن

الأميرة انتقل نصف ميراث تلك القلعة إلى حوزته لكنه تبرع بذلك الميراث إلى هيئة التيوتون، أما ابنة جوسلين الثاني فقد تزوجت "بجاك مندليه" " Jacques de la Mandle" فإذا به يقوم ببيع ما حازه من إقطاع القرين إلى هيئة التيوتون ومن هنا صارت القرين أقوى معاقلهم، وقد حولوها بعد ذلك إلى مستودع لمحفوظاتهم من الوثائق والأموال الخاصة بالرهبان[1].

يظهر دور المرأة كوريثة للعرش في إقطاع الأردن[2] لدى الأميرة "إتينت دي ميلي" "Etiennet de Milly" و التي تعرف بالأميرة "ستيفاني" والتي ورثت الإقليم عن والدها "فيليب دي ميلي " "Phillp de Milly" أمير نابلس حيث حصل بدوره على الأردن وحصن مونتريال بناء على الاتفاقية المبرمة مع الملك بلدوين الثالث في سنة 557هـ/ 1161م، والتي حاز بمقتضاها تلك البلاد مقابل التنازل عن نابلس للملك، ويقال أن فيليب أدركته حالة من الزهد عقب وفاة زوجته" إيزابيلا " فاعتكف في المعبد زهاء العام حتى توفي سنة 563هـ/ 1167م[3].

لما ورثت "إتينت" تلك البلاد وكانت قد تزوجت من همفري أمير تبنين آلت سلطة حكم إقطاع ما وراء النهر إلى ذلك الأمير من (562هـ-568هـ/ 1167-1172م) أي حتى وفاته، وعقب تلك الوفاة تزوجت " إتينيت " مرة ثانية من "ميلون دي بلانسي" " Milon de Plabncy"[4] فانتقل الحكم إلى حوزته لكنه لم يهنأ به أكثر من عامين فقط اغتيل سنة 570هـ/ 1174م عندئذ وجهت إتنيت اصبع الاتهام إلى ريموند الثالث أمير طرابلس، وفي تلك الأثناء أطلق الحلبيون سراح " رينو دي شاتيون " سنة 573هـ/ 1177م فحاول التقرب من " إتينت دي ميلي" وأقنعها بفكرة الاقتران به أملا منه في أن يحوز إقطاع الأردن عن طريق ذلك الزواج[5]، وكأنه أراد أن يعوض إقطاع أنطاكية بإقطاع الأردن.

كان "رينو دي شاتيون" أو كما يسميه العرب "أرناط" يحلم أن يحكم من خلال ذلك الزواج الإقطاعية ذات الموقع الفريد، حيث كانت تحرس حدود الممالك الصليبية عبر البحر الأحمر وكانت ملتقى القوافل العابرة بين مصر وكل من الشام والجزيرة العربية، ومن ثم فقد صارت الضرائب المفروضة على تلك القوافل تمثلا دخلا لابأس به يسيل له لعاب

أي طريق عام كما أن الطرق التي ربطت القلعة بالقرى المجاورة لم تكن سوى طرق ثانوية، و لعل ذلك ما جعل من امتلكها من الإقطاعيين يسعى للتبرع بها أو بيعها لهيئة الرهبان العسكرية، و قد سقطت القلعة في يد السلطان الظاهر بيبرس سنة 670هـ/1271م ،**أنظر**: نبيلة ابراهيم مقامي، فرق الرهبان ،ص170 .

1 قولفغانغ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، مراجعة : سعيد طيان، دار الفكر، ط2، دمشق، 1982 .

2 **إقطاع الأردن** : يتكون من عدة حصون بنيت على طول طرق القوافل بين دمشق من ناحية ومصر و عكا من ناحية أخرى، و كان أمنع تلك الحصون حصن الكرك و حصن مونتريال (الشوبك) اللذان كانا يحميان الحدود الأمامية للمملكة الصليبية، **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص705.

3 Grousset,op,cit,p144.

4 **ميلون دي بلانسي**: من كبار رجال المملكة، وكان من أتباع الملك عموري الأول حيث كان يعمل في الجيش وقد اتصف بالوضاعة ،**أنظر**: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص974-975.

5 عاشور،الحركة الصليبية،ج2، ص56.

شخص كأرناط وصل به الطمع إلى الحد الذي لا يليق بصاحب إقطاع، حيث هاجم تلك القوافل و نهبها وكأنه لم ينس دوره السابق كجندي مرتزقة[1].

أعتبر وصول أرناط إلى حكم الأردن وبالا على الصليبيين أيضا حيث مثلت غطرسته وميله للسلب والنهب خطرا شديدا عليهم لأنه اخترق بذلك بنود الهدنة المعقودة بين مملكة بيت المقدس وصلاح الدين الأيوبي، فاستثار بتلك الحماقات غضب الجيوش الإسلامية التي اجتاحت أراضي مملكة بيت المقدس بما فيها أراضيه هو نفسه سنة 583هـ/ 1187م بل واستولت على بيت المقدس كأنه بتلك الأفعال الطائشة دق المسمار الأخير في نعش الصليبيين بل ودفع ثمن جرائمه من حياته ذاتها حيث قتله صلاح الدين بسيفه جراء تطاوله على الحرمات والمقدسات، وجزاء لتلك المآثم و الشرور التي طالت أبرياء القوافل دون جريرة منهم ناحيته[2].

كانت الأميرة "إتينت" كانت من بين أسرى صلاح الدين في إلى جانب زوجها أرناط وابنها " همفري "أمير تبنين، غير أنه تم افتداؤها، أما ابنها فلم يبادر أحد بافتدائه فطلبت أمه الأميرة " إتينت "من صلاح الدين إطلاق سراحه مقابل تنازلها عن حصني الشوبك[3] والكرك[4] فأجابها لطلبها فلما توجه لتسلمهما صادف مقاومة غير متوقعة من سكان الحصنين ولم تستطع الأميرة فعل شيء سوى إعادة ابنها للأسر غير أن شهامة صلاح الدين منعته من قبول الوضع وأعاد لها ابنها دون مقابل افتداء، هنا وجه صلاح الدين حملتين إحداهما إلى الكرك والأخرى نحو الشوبك إلا أنهما لم تحققا الهدف المرجو منهما نظرا لقوة تحصينات هذين الحصنين، وبالتالي لم يتمكن من الاستيلاء على الكرك إلا في نهاية 584هـ/ 1188م وسقطت الشوبك بعدها بعدة أشهر[5].

أما إمارة نابلس فقد انتقلت إلى الأميرة البيزنطية "ماريا كومنين " عقب وفاة الملك "عموري الأول"، فلما تزوجت من "باليان الثاني " سنة 573هـ/1177م انتقلت إليه بالتبعية[6].

المبحث الثاني : المرأة الصليبية كوصية على الحكم

ظهر نظام الوصاية في المجتمع الصليبي بسبب موت الكثير من النبلاء والأمراء في ميادين الحروب أمام المسلمين و كذا بسبب الاغتيالات المختلفة التي تعرضت لها الكثير من الشخصيات الصليبية والتي ظهرت في القرن 6هـ/12م على

1 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص696.

2 عاشور، الحركة الصليبية،ج2،ص 56-68،

3 **الشوبك** (مونتريال): قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك و هي على جبل الشراة.**أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج3، ص370، القلقشندي، صبح الأعشى،ج4،ص156 .

4 **الكرك**: قلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها ، بين أيلة و بحر القلزم و بيت المقدس،**أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج 4 ،ص453 ،القلقشندي، صبح الأعشى ،ج4،ص155.

5العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،ص143-144، ابن الأثير،الكامل،ج10،ص175، أبو شامة، كتاب الروضتين،ج3،ص27-28،ابن 28،ابن و اصل، مفرج الكروب،ج2،ص271-272،محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية،ص142-143.

6 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص722

يد الحشاشين، ما اضطر الكثير من الأرامل للوصاية على أبنائهم القُصر لتسهيل تسيير أمور الاقطاعية أو الأمارة أو حتى المملكة، حتى يبلغ الوريث الشرعي سن الرشد ويسترد حقه في الإشراف على أملاكه.

1- عرش مملكة بيت المقدس:

وهنا يبرز دور الملكة "مليسند "حيث صارت وصية على ابنها " بلدوين الثالث " بعد وفاة زوجها الملك فولك سنة 538هـ/1143م متأثرا بجراحه نتيجة لوقوعه من فوق جواده أثناء خروجه لرحلة صيد، وعلى هذا تولت الملكة "ميليسند" مقاليد الأمور في المملكة باعتبارها وصية على ابنها القاصر بلدوين الثالث الذي كان يبلغ الثالثة عشر من عمره، ولم تلبث أن نصبت ابنها قسيما معها في الحكم نزولا عند رغبة بارونات المملكة لأنه لم يخطر ببالهم فكرة انفراد الملكة بالحكم و قام بطريرك بيت المقدس بتتويجهما معا في كنيسة القيامة يوم عيد الميلاد من السنة نفسها[1].

ويمتدح وليام الصوري أفعال الملكة ميليسند وصفاتها وينعتها برجاحة العقل وحسن التدبير والتصرف ما فاق كل من سواها من بنات جنسها، فهذه الصفات جعلتها مؤهلة لمجابهة أقسى الظروف التي تعترضها، وجعلتها على مقدرة في تسيير دفة الأحداث لصالحها، وكانت الملكة ميليسند من القدرة والكفاية ما يجعلها تصيب نجاحا كبيرا أثناء فترة حكمها فكانت تنظر في الأمور الهامة في الدولة وكان طموحها أن تباهي وتنافس أعظم نبلاء المملكة اللاتينية وأمرائها حتى تظهر تفوقها عليهم في الحكمة والرزانة، وفي سبيل ذلك جعلت لنفسها مجلسا استشاريا مكونا من أكفأ بارونات المملكة و أقدرهم على مواجهة الأمور بحنكة وشجاعة[2].

على الرغم من تجمع كل السلطات في قبضة الملكة ميليسند إلا أن أنوثتها كانت تمنعها من تولي أمر الجيش بنفسها ولخطورة هذا المنصب وأهميته كان عليها أن تتريث في اختيار من هو أهل بهذا المنصب من أهل الثقة والمقربين إليها، وقد وقع اختيارها على ابن عمها " منسيس هيرج " Monasses of Hirges [3] وعينته كندسطبل[4] للمملكة وبهذا تكون الملكة قد تجنبت إعطاء هذا المنصب الخطير إلى أحد أتباعها أو رعاياها الغير موثوق فيهم حتى لا يؤدي هذا إلى

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 734، رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص376، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث، ص63.

2وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص736،

3 **منسيس هيرج** : و هو ابن سيد والوني، قدم من الغرب يافعا إلى بلاط ابن عمه الملك بلدوين الثاني و كان قد سبق و تزوج من شقيقة الملك "هيوديرنا ريثل"، و قد كفلت له مواهبه و صلاته بالأسرة الملكية الارتقاء السريع في سلك الوظائف الملكية، و لما مات " باليان إبلين الكبير" سيد يبنـة عقب وفاة الملك فولك الأنجوي تزوج منسيس أرملته " هلفيس" التي ورثت إقطاع الرملة و التي صارت بفضل مالها و ما لأبنائها من حقوق تسيطر على كامل سهل فلسطين لكنها كانت سيدة قاسية حادة الطباع و لها ثلاث أبناء هم هيج و بلدوين و باليان الصغير حاكم الرملة، و قد استطاع منسيس من خلال ذلك الزواج أن يستحوذ على أموال كثيرة و يزيد من مساحة إقطاعه، **أنظر**: وليام الصوري،تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص796، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص376.

4 وتعتبر هذه الوظيفة أعلى المراتب العسكرية في المملكة فصاحبها هو القائد الأعلى للجيش و يتمتع بسلطات كبيرة خاصة إذا كان الملك دون السن القانونية القانونية لتولية أمور المملكة و تكون الوصية امرأة، و من أهم وظائفه تعيين قادة الجيش الملكي ، و يعتبر ممثلا لسلطة العدالة العسكرية في الجيش و له المكانة العسكرية الثانية بعد الملك و له حق الإشراف على البلاط الملكي أثناء غياب الملك و مكانه في مقدمة الجيش في الحروب **أنظر**:

Setton , op,cit,Vol Ⅱ ,p142.

ضعف السلطة الملكية فيما بعد، ولكن يبدو أن " منسيس " قد تعالى على كبار البارونات في المملكة ولم يظهر لهم الاحترام اللائق بهم فأدى هذا إلى نفور البارونات منه ولولا مهابة الملكة وسلطاتها الواسعة عليهم في ذلك الوقت لتعرضت المملكة لخطر حرب أهلية ولعل السر الكامن في تجاوز "ميليسند" لأفعال مناسيس وتثبيت منصبه هو رغبتها في تأمين سلطتها السياسية، فلم يكن لديها الرغبة في تعيين قائد يتحالف مع غيرها بل قائد يعتبرها ولية نعمته وأن ولاءه لا يمكن أن يتجه إلى سواها[1].

حرصت الملكة "ميليسند" على تأكيد حكمها المشترك مع ابنها بلدوين وأصدرت صك بذلك يحمل رقم (227) سنة 540هـ/ 1144م يثبت قانونية حكم الملكة المشترك مع ابنها، ويماثله في نفس المعنى الصك الذي يحمل رقم (226) بشأن المنحة المقدمة من الملكة ميليسند وزوجها الملك فولك لمرضى الجذام وصار مبدأ إصدار صك مشترك بين ثلاثتهم معمولا به فترة غير قصيرة إلى أن بلغ ابنها سن الرشد، وكانت ميليسند لا تنكر على بلدوين حقه المشترك معها، ونصيبه في الحكم المسند إليه منذ سنة 526هـ/ 1131م من قبل جده الملك بلدوين الثاني[2].

واستنجدت به خاصة في الجانب العسكري الذي لم تكن تجيده، فعلى سبيل المثال عندما ثار أهالي وادي موسى[3] بالأردن على الصليبيين سنة 539هـ/1144م محتمين بالقوات الإسلامية وفتحوا لهم أبواب قلعتهم ليتمكنوا منها كان بلدوين آنذاك يقود القوات العسكرية لمملكة بيت المقدس متجها نحوهم، وبعد سلسلة من المفاوضات استطاع اقناع أهالي وادي موسى بالعودة تحت سلطة الصليبيين وتمكن من إخراج المسلمين من القلعة وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على قدرته السياسية والحربية في معالجة قضايا الصالح العام الصليبي[4].

غير أن الملكة لم يرقها بزوغ نجم ابنها وأنه أصبح قائدا عسكريا ذا كفاءة سياسية وحاولت اقصائه من تلك المهام العسكرية لتنفرد هي بها، ولعل السبب في ذلك هو أن الملكة كانت تكره من ينافسها في التفوق والسلطان فخشيت أن يكتسب ابنها سمعة طيبة في المجال العسكري ترفعه إلى مراتب القادة العظام فيزيد تأييد البارونات له مما يؤدي إلى شعوره بأنه قائد سياسي أيضا[5]، و يصف وليام الصوري[6] حياة بلدوين في سنوات وصاية أمه بأنه كان مستسلما لشهوات البدن البدن فقد كانت أمه كانت تريد اشغاله بتلك الشهوات حتى لا يستغني عن وصايتها عليه في حكم المملكة عندما يبلغ السن القانوني.

كانت فترة حكم الملكة "ميليسند" لبيت المقدس كوصية على ابنها من أصعب الفترات التي مرت في تاريخ المملكة إذ واكبتها تغيرات كبيرة في موازين القوى بالمنطقة مالت فيها لصالح المسلمين أكثر منها لصالح الفرنج، كما أنها شهدت

1 Livre au roi, CF. Assises de jerusalem, T.I,Paris,1841,p615 ,
2 Mayer, Queen Melsinde, p115.

3 **وادي موسى**: يقع في منطقة وادي عربة شرقي الأردن ، يكثر بجانبه الزيتون، ويسمى بوادي موسى نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام عندما خرج من التيه ومعه بني اسرائيل، فعبر هذا الوادي. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص346.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص741.

5 أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر، ص37.

6 تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص736-737.

محاولات جادة لإعادة النفوذ البيزنطي من جديد بالمنطقة[1]، فما كان لملك بيت المقدس من مكانة باعتباره سيدا أعلى للإمارات الصليبية تغلبت فيها الناحية النظرية على الناحية العملية، حيث لم يولي أمراء شمال الشام جوسلين الثاني كونت الرها ولا حتى ريموند بواتيه أمير أنطاكية أهمية كبيرة لسيادة امرأة وطفل ولم يرق لهم الاعتراف بسيادة النساء عليهم، وذلك كان عكس الماضي – زمن الملوك الأوائل – فما كاد يقع النزاع بين أمراء الصليبيين حتى ينتهي مثلما بدأ كما حدث زمن الملك بلدوين الثاني الذي كان بمجرد سماعه بنشوب نزاع بين أمراء الصليبيين يتجه بجيشه نحو الشمال و يجبرهم بالقوة لتسوية النزاعات [2].

ونتيجة لذلك التشتت الذي خيم على أحوال الصليبيين في تلك الفترة وعدم وجود قيادة موحدة لهم أخذت النكبات تتوالى عليهم خاصة مع بداية الصحوة الإسلامية على يد عماد الدين زنكي صاحب الموصل الذي هاجم إمارة الرها وأظهر إصرارا كبيرا على إسقاطها، ولم تجد نفعا الاستغاثة التي طلبها جوسلين الثاني كونت الرها من ريموند بواتيه أمير أنطاكية لذا طلب النجدة من الملكة ميليسند التي سارعت لعقد المجلس الملكي لمناقشة موضوع انقاذ الرها ففوض المجلس الملكة لحشد جيش كبير لهذا الغرض لكن جوسلين الثاني لم يتمكن من الوقوف لوقت طويل أمام قوات المسلمين التي فاقته من حيث القوة والعدد وانتظر بقلق شديد وصول النجدات من بيت المقدس لكنها وصلت متأخرة [3]بعد سقوط المدينة في يد عماد الدين زنكي في 16 جمادى الآخر 539هـ/ 23 ديسمبر 1144م[4].

رفضت الملكة أن تشرك ابنها بلدوين في هذه الحملة وفي باقي الحملات العسكرية والراجح أنه لو كان متواجدا فيها لكانت النتائج مختلفة نظرا لكونه ملك بيت المقدس ولما يملكه كذلك من كفاءة عسكرية يعتد بها، ويبدو أن ميليسند قد استمرت في سياستها السابقة والمتمثلة في ابعاد ابنها عن المشاركة في الحروب كقائد عام خوفا من أن تكسبه الانتصارات العسكرية مكانة سياسية وزعامة قد تطيح بمركزها السياسي، فلو شارك بلدوين في تلك المعارك لاكتسب استقلالية القرار والأقترب من زعامة المملكة إضافة إلى اقتراب سنه آنذاك من سن الرشد، وهي عوامل كانت تقربه بلا شك من منصة التتويج والانفراد بالحكم وهو ما كان يتعارض مع رغبة أمه[5].

وقد كان للملكة ميليسند أيضا دور كبير في دعوة قادة الغرب الأوروبي للحضور إلى بيت المقدس على رأس جيوشهم في الحملة الصليبية الثانية لمحاولة استرداد الرها من المسلمين، وفي الاجتماع الذي حضرته الملكة وابنها بلدوين الثالث وكبار رجال المملكة من العلمانيين ورجال الدين فضلا عن قادة الحملة وذلك في مدينة عكا بتاريخ محرم 543هـ/ جوان 1148م ناقش المجتمعون تحديد وجهة الحملة واستقر الرأي في النهاية على مهاجمة مدينة دمشق بدلا من الرها[6]،

1 محمد عبد الحميد فرحات، المرجع السابق، ص75.

2 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص377، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث،ص68.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص737.

4 عن تفاصيل استرداد عماد الدين زنكي للرها، **أنظر**: ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص436، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج9،ص 331،ابن العديم، زبدة زبدة الحلب، ج2،ص279،ابن واصل، مفرج الكروب،ج1،ص94 .

5 Mayer, Queen Melsinde,p118.

6 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص777، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص 453.

وهذا يدل على مدى القصور السياسي لدى الملكة ميليسند خاصة والأمراء الصليبيين عامة إذ سمح الصليبيون بهاجمتهم مدينة دمشق لصاحبها "معين الدين أنر " بالاتصال بنور الدين محمود وطلب العون منه وهذا يمثل خطرا كبير على الوجود الصليبي في شمال الشام[1]، كما أن مهاجمة دمشق قد أفقد الصليبيون حليفا كبيرا طالما وقف حجر عثرة أمام إتمام الجبهة الإسلامية المتحدة التي دأب نور الدين محمود ومن قبله عماد الدين زنكي على محاولة تحقيقها .

من الأسباب الهامة التي أدت إلى توجه الصليبيين نحو دمشق رغبة الملك بلدوين الثالث في التخلص من سيطرة والدته عليه فحتى ذلك الحين ورغم بلوغه السن القانوني الذي يسمح له بالانفراد في تولي شؤون المملكة إلا أن الملكة لم تظهر أي بادرة تشير إلى عزمها على التنازل لابنها عن العرش، فرأى الملك بلدوين في الاستيلاء على دمشق فرصة الانفراد بحكمها بعيدا عن سطوة أمه، غير أن فشل الحملة الصليبية الثانية في الاستيلاء على دمشق قد أضاع معه أي أمل في استعادة الرها مرة أخرى من أيدي المسلمين[2].

لقد توالت الخسائر العسكرية التي مني بها الصليبيون إبان وصاية ميليسند وألمت النكبات بالصليبيين فبعد قطع التحالف مع دمشق وخسارة الأراضي الداخلية لإمارة أنطاكية شرق نهر العاصي بالإضافة إلى الوفاة المأساوية لحاكمها " ريموند بواتيه "1149م في العام التالي 1150م وقع جوسلين الثاني أمير الرها أسيرا عند المسلمين كما وافقت الملكة ميليسند على بيع ما تبقى من إمارة الرها إلى البيزنطيين، كل ذلك كان يحتم ضرورة تولي بلدوين الثالث للقيادة وأن يكون هو المحرك لدفة الحكم[3].

ظهر أول دور سياسي للملك بلدوين الثالث حين أدار شؤون أنطاكية حيث استدعاه بطريرك أنطاكية لإنقاذ المدينة من السقوط بيد نور الدين، وقد توجه الملك بلدوين إلى أنطاكية في النصف الثاني من عام544هـ/ 1149 م وأدى ظهوره في مدينة أنطاكية أن وافق نور الدين محمود على عقد معاهدة صلح مع الفرنج وبذلك استطاع بلدوين انقاذ أنطاكية وقام بالدور الذي قام به أجداده سابقا وأدى ذلك إلى تدعيم مركز بلدوين السياسي ورفع من شأنه في مملكة بيت المقدس، وقد بقي بها فترة إلى أن استقرت الأمور تم عاد إلى بلاده لمعالجة أموره الداخلية ولخوفه من أن تسيطر أمه على الأمور في بيت المقدس[4].

بعد عودة الملك بلدوين الثالث إلى بيت المقدس ازدادت مخاوف الملكة ميليسند من ازدياد نفوذ ابنها وأخذت تقلص من دوره ما استطاعت إلى ذلك سبيلا فقللت من وضع الملك القانوني في الوثائق التي تصدر في المملكة وأصبحت تصدر الوثائق باسمها وتذكر فقط موافقة بلدوين الثالث عليها، حيث أصدرت الصك رقم (256) مختوما

1 ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص463 ، ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص 353.

2 عبد الحفيظ محمّد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس،ص43

3 محمّد عبد الحميد فرحات ،قضايا في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب، ص75.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص792.

باسمها ولا يحتوي إلا على مجرد إشارة ضمنية ضعيفة تبين موافقة بلدوين[1]، وبذلك أصبح واضحا من تصرفات الملكة ميليسند ومن التحول التدريجي لوضع بلدوين الثالث في الوثائق الملكية أن العلاقات بين الأم وابنها قد توترت.

سعت الملكة الأم إلى إنشاء إدارة مستقلة خاصة بها فقامت بعزل " رالف " " Ralph" رئيس دار الوثائق الملكية مستشار البلاط الملكي والموثق العام وذلك في547هـ/ 1152م، وأصبح ذلك المنصب شاغرا ولم يصل له مستشار له خبرة بذلك العمل، وقد اختارت ميليسند بدلاً منه مجموعة من عمالها الذين تثق فيهم للقيام بكتابة وثائقها، وقد كان للملكة السلطة الكافية التي تمكنها من ابعاد رالف إلا أنه لم تكن لها السلطة لتعيين خلفا له لأن ذلك يحتاج موافقة الملك بلدوين الثالث بالإضافة إلى اجراءات قانونية أخرى، ويبدو أنه كان هنالك شبه اتفاق بين الطرفين لعدم تعيين مستشار ملكي واختص كل طرف بإصدار وثائقه في دار وثائقه الخاصة[2].

وهنا يبدو واضحا أن الخلاف بين الملكة ميليسند وابنها الملك بلدوين الثالث قد زاد وبدا ظاهرا للعيان، فقد تأكدت الملكة أنها لا تستطيع أن تبعد بلدوين الثالث كلية عن المسرح السياسي إلى الأبد كما أنه باعتبارها امرأة لا تملك كل صلاحيات الملك، وأنها تعلم أن نبلاء بيت المقدس يرفضون تماما أن تحكمهم امرأة بمفردها لذا فإن انشاء دارين منفصلين لإصدار الوثائق حل وسط بالنسبة للطرفين، وقد أنقذت هذه التسوية مملكة بيت المقدس من قطيعة عائلية بين الملكة الأم والملك بلدوين الثالث، هذه القطيعة التي لم يكن الملك قويا لمواجهتها ولن تكسب الملكة شيء من ورائها، و أن إنشاء ميليسند لدار خاصة بها لإصدار الوثائق الرسمية هو علامة لبداية تقسيم المملكة إلى كتلتين مختلفتين[3].

غير أن وفاة " ألينارد Elinard " أمير الجليل (537-543هـ/ 1142-1148م) والتابع المخلص لميليسند وأكبر أعوانها أدت إلى ميل ميزان القوى السياسي لصالح بلدوين الذي سنحت له الفرصة لانتزاع إقليم الجليل وبسط نفوذه عليه وبذلك خرجت من نفوذ الملكة أكبر إقطاعية من إقطاعيات التاج الملكي في بيت المقدس خاصة وأن وريث الإقطاع المدعو "سيمون Simon " قد أعلن ولاءه للملك من خلال ظهور اسمه كشاهد في صك أصدره بلدوين الثالث وذلك يدل دلالة واضحة أن إمارة الجليل قد انتقلت إلى بلدوين[4].

لكن الملكة ميليسند لم تتوقف عند هذا الحد بل أجرت جملة من التغيرات والتحركات تحسبا لأي طارئ، حيث شرعت في تكوين جهاز حكومي خاص بها مختلف عن جهاز الحكومة الخاص بالمملكة وكان لها حاجبها الخاص وحرسها الخاص المنفصل عن الحرس الملكي، وبذلك كانت تعد نفسها لحسم النزاع القائم بينها وبين الملك بلدوين

---

1 و كان هذا الصك بخصوص مقايضة مع فرسان القديس يوحنا الذين تنازلوا عن الحمامات العامة التي تقع في شارع القديس ليونارد في عكا مقابل الحصول غلى استراحة تقع أمام كنيسة يوحنا المعمدان ، و التي كانت بحوزة ميليسند و لم يكن في نيتها أن تشارك بلدوين في إصدار ذلك الصك لولا أن المقابل لتنازل الفرسان كان يشمل مقر إقامة بلدوين في مركز المملكة و من ثمة وجب توقيعه، أنظر:

Mayer, op ,cit,p129.

2 عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة،ص48.

3 Mayer, op ,cit,p136.

عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة،ص48

4 Mayer ,op, cit, pp 136-137.

الثالث، ويرجع السبب في انشاء ذلك المكتب إلى رغبة الملكة في أن تصير مستقلة تماما عن سيطرة الملك بلدوين الذي قد يهيمن يوما ما على تلك المكاتب فأرادت أن تمارس صفة الحاكم بعيدا عنه فتنتفع بها في حالة النزاع، كما خطت خطوة أكبر عندما كونت لنفسها حزبا مؤيدا لها من بين بارونات المملكة الذين يكون إخلاصهم للملكة ميليسند فقط وليس لمملكة بيت المقدس وبذلك تورطت في اتباع خطوات متسارعة لتفكك المملكة وخاصة وأن هذه الخطوة الأخيرة كان لا يمكن السكوت عليها لأنها تؤدي إلى تحطيم القوة العسكرية للمملكة، كما يمكن استنتاج أن قوة ميليسند السياسية ارتكزت على مناصرة البارونات لها وإلا لحرمت من سلطة التاج منذ زمن بعيد[1].

وبلغ الوضع من التفاقم درجة أن الملك بلدوين الثالث عندما اضطر للتوجه شمالا بعد أسر جوسلين الثاني سنة545هـ/ 1150م[2]ترك تحصين غزة جنوب بيت المقدس وبادر بالإسراع والعودة إلى بيت المقدس مع أن التحصينات والأشغال لم تنته بعد هناك، وأعد العدة للتوجه إلى شمال الشام، إلا أن أتباع الملكة ميليسند من الأمراء رفضوا تلبية دعوته بحجة أنه ليس سيدهم على الرغم من أن الملك قد أقدم على خطوة غير معهودة بأن دعاهم إلى ذلك كتابيا فبدل أن يصدر استدعاء عاما عن طريق السفراء كما كان متبعا في حالة الحرب قام باستدعاء البارونات الممتنعين شخصيا وذلك بكتابة أوامر رسمية، والهدف من ذلك كان واضحا وهو الحيلولة دون ممارسة الملك لحقه الشرعي باعتباره حامي الإمارات الصليبية[3].

وحقيقة الأمر أن ميليسند حاولت أن تمنع بلدوين الثالث من الذهاب إلى شمال الشام وكانت هي السبب الفعلي لعدم تلبية البارونات لنداء الملك بلدوين الثالث وهنا يظهر مدى تأثيرها على الصعيد السياسي، فقد كانت تعمل على ضمهم إلى صفها بينما كان القانون الساري في ذلك الوقت يعتبر تصرف البارونات حين رفضوا تنفيذ الأوامر الملكية بمثابة مُروق ورفض لآداء الخدمة العسكرية التي تعتبر بالنسبة للنظام الإقطاعي جناية عظمى، إلا أنهم برروا موقفهم بنوع من المناورة وهو أنهم لا يرفضون أداء الخدمة العسكرية لكنهم يؤدونها للملكة فقط وهي لم توجه لهم أي استدعاء لأنها لم توافق أساسا على ذهاب بلدوين إلى الشمال[4].

فعلت الملكة ميليسند ذلك لأنها كانت تعلم أن مثل هذه الحملة سوف تكسب بلدوين سمعة طيبة لقيامه بالدفاع عن شمال الشام وقيامه بالوصاية على أنطاكية والبقية الباقية من إمارة الرها لذا أرادت أن تخرب مشاريعه وتضع أمامه

---

1 Ibid, pp 144-147

2 أسر جوسلين الثاني من طرف التركمان عندما كان متجها من مدينة عزاز إلى مدينة أنطاكية ليلا بعد أن سمع بمقتل ريمون دي بواتيه أميرها، وقد كان مع عدد قليل من رجاله وبينما هو في الطريق توقف وأخذ جانبا لوحده و انشغل في ملذاته و شهواته مع النساء فأسره التركمان وهو يزني بامرأة و على ما يبدو أن جوسلين لم يأخذ حذره بالحراسة المسلحة رغم عدائه للمسلمين و كثرة إغارته على أراضيهم و كان ذلك في 545هـ/ 1150م، و رفض التركمان بيعه لبعض المسيحيين الذين تعرفوا عليه و ذهبوا به إلى مدينة حلب حيث أمر نور الدين بوضعه في السجن، و لم تتفطن عناصر حراسته لغيابه إلا عند الفجر لكنها لم تتمكن من العثور عليه .**أنظر** : وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص793، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ، ج3،ص 274،ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص 369، ابن العديم، زبدة الحلب،ج2،ص302.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص796.

4 رنسيمان، ا لمرجع السابق ،ج2، ص529.

العقبات، فمنعت الأفصال الذين كانوا يدينون لها بالولاء من الانضمام إلى جيوش مملكة بيت المقد وكان هذا التصرف من جانب ميليسند من أخطر التصرفات التي أدى إليها الصراع على السلطة بين الملك بلدوين والملكة ميليسند والتي كانت لها عواقب وخيمة على تاريخ الحركة الصليبية[1].

ظل الملك بلدوين الثالث ماكثا في عكا على الرغم من ضرورة تواجده في أنطاكية إلا أنه قرر في الأخير الذهاب إلى شمال الشام رغم رفض أفصال ميليسند الانضمام إلى جيشه، وبذلك أحبط تلك المساعي بأن توجه بقوات نجح في تجميعها أثناء توجهه إلى شمال الشام فقد انضم إليه أمير طرابلس بجيشه و" همفري" أمير تبنين و " جي " أمير بيروت Guy of Bairut (533-551هـ/ 1137-1156م) ويبدو أن الملك حصل على قوات من عكا وصور وإقليم الجليل التي أصبحت تحت سيطرته وذلك تبعا للقائمة التي أوردها "حنا إبلين "[2]، وقد ترك بلدوين جزء من قواته لحماية ممتلكاته حتى لا تهاجمها الملكة ميليسند أثناء غيابه عنها مما يوضح تلك العلاقة الشائكة التي وصل إليها بلدوين و أمه الوصية عليه، غير أن بلدوين استطاع أن يثبت قدرته وصلابته في مواجهة الأحداث واستطاع أن يفوز بتلك الجولة أمام أمه الملكة .

رغم الهزيمة السياسية لميليسند فإنها قد وجهت سهامها عن طريق آخر تمثل في ابنها الأمير عموري الذي كان يبلغ الخامسة عشر من عمره كي تحقق من خلاله مصالحها السياسية فابتدأت بتعيينه أميرا على يافا سنة546هـ/ 1151م وكان عموري من حزب أمه ومن المخلصين لها وظل إلى جانبها إلى آخر لحظة من الصراع الذي كان بينها وبين بلدوين الثالث، وقد أخذت والدته في تقوية نفوذه وسلطته حتى ترجح كفته على كفة أخيه، خاصة وأن تعيينه في يافا لن يمكن الملك بلدوين من توسيع ممتلكاته في الجنوب وستكون السيطرة على تلك المناطق لكونت يافا الذي تستطيع الملكة ميليسند الاعتماد عليه، وكأنها كانت ترمي إلى أن يصبح عموري ملكا فتصير هي وصية عليه وتستعيد كامل سلطاتها بدلا من أن يتقلص نفوذها ويبعدها بلدوين الثالث في الأخير[3].

لم تلبث الأمور أن زادت تعقيدا في المملكة اللاتينية خاصة بعدما بلغ بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره في ربيع557هـ/ 1152م فقد سعت حاشية الملك بلدوين وأتباعه على تحريضه على ضرورة إنهاء وصاية أمه الملكة عليه و الإسراع في تتويجه كملك على رأس مملكة بيت المقدس، إلا أن والدته رفضت وأصرت أن تكون معه شريكة في عرش المملكة ما جعل بلدوين يفكر جديا في إقصاء أمه عن عرش المملكة، غير أن الملكة كانت قد اتفقت مع بطريرك بيت المقدس" فولشر" "Fulcher" (540-552هـ/1145-1157م) على أن يعاد تنصيبها هي وابنها مرة أخرى يوم عيد الميلاد إلا أن بلدوين لما علم بهذا الاتفاق فأخذ يماطل ويؤجل الموعد حتى لا يكون اقرارا منه بحق أمه في الحكم، غير

1 Mayer, op,cit,pp148-149.

2 Assises de Jerusalam , op ,cit ,p 422.

3 عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس،ص57، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص539.

أنه في يوم غير متوقع من جانب الملكة اقتحم بلدوين كنيسة القيامة مع حرس من فرسانه و طلب من البطريرك أن يتوجه بدون حضور أمه وخرج على الناس يزين رأسه التاج الملكي وكان ذلك إيذانا بالقطيعة الصريحة بين بلدوين وميليسند[1].

وعندما انتهت اجراءات التتويج دعا الملك إلى عقد مجلس للمحكمة العليا للملكة للبت في إيجاد حل وسط لإنهاء أزمة العلاقات السيئة بينه وبين أمه، وتم الاتفاق على تقسيم المملكة بين الملكة ميليسند والملك بلدوين على أن يأخذ الملك بلدوين مدينتي عكا وصور بكل ملحقاتهما إضافة إلى إقليم الجليل أما نصيب ميليسند فتمثل في كل من القدس ويافا ونابلس وغيرها من المدن التابعة لهما، أما كونتية يافا فكانت من نصيب عموري [2].

لقد ساد الهدوء أنحاء المملكة بعد التقسيم لمدة قصيرة، والواقع أن هذا الحل لم يرض الملك بلدوين الثالث الذي أراد إبعاد أمه كلية عن الحكم وطالبها بأن تتنازل عن بيت المقدس وحجته بأنه من غير بيت المقدس لا يستطيع الدفاع عن المملكة في ظل تزايد قوة نور الدين محمود يوما بعد يوم وعندما سمعت الملكة بذلك شعرت أن الملك بلدوين يريد أن يحرمها من الجزء الباقي في يدها وأصرت على موقفها، فأعد بلدوين جيشا وغزا الأراضي الخاضعة لسلطانها ولما علمت ميليسند بما حدث خرجت من مدينة نابلس واتجهت إلى بيت المقدس تاركة المدينة التي لم تكن محصنة في حماية رعاياها من النبلاء المنحازين إلى صفها وأسرعت إلى بيت المقدس وشرعت في تحصينها لمناوأة ابنها[3].

عندئذ لجأ بلدوين إلى مناورة ذكية حيث ترك والدته مقيمة في بيت المقدس واتجه إلى الشطر الآخر من أملاكها عاملا على ضمه و لو بالقوة إليه، حيث توجه بجنده إلى " قلعة ميرابل Mirable "[4] لحصار الكندسطبل "مناسيس" فأسروه في قلعته ولم يُبق على حياته إلا بعد أن وعده بمغادرة المملكة والشرق إلى الأبد، ثم اتجه بلدوين بعد ذلك إلى نابلس واستولى عليها بسهولة نظرا لعدم وجود دفاعات أو تحصينات قوية تحميها من الهجوم، وحاولت ميليسند أن تمتنع في بيت المقدس بعد أن هجرها البارونات عندما أدركوا ضعف موقفها وفروا للجانب الأقوى، ووضعوا مصلحتهم الخاصة فوق كل اعتبار، ولم يبق بجانبها سوى فئة قليلة من المخلصين مثل عموري ابنها كونت يافا وفيليب Philip صاحب نابلس وبطريرك بيت المقدس وأتباعهم، حتى أن أهل مدينة بيت المقدس خرجوا عن طاعتها[5].

وعندما علمت الملكة بأن قوات بلدوين في طريقها إلى مدينة القدس لحصارها والاستيلاء عليها انسحبت مع أتباعها المخلصين إلى قلعة المدينة متخذين من برج داوود مكانا للدفاع عن أنفسهم، وسرعان ما وصل الملك بقواته أمام أبواب

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص797.

2 Mayer, op ,cit ,p 149

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 798، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص539،

Grousset,op,cit,p135.

4 **قلعة ميرابل** : تقع هذه القلعة في منطقة كفر سلام على حافة السهل الساحلي و تبعد مسافة عشرين كيلومترا عن مدينة قبسارية على الطريق إلى نابلس ، و مكانها حاليا يسمى مجدل يابا و تقع شمال شرق مدينة يافا ، أنظر: رنسيمان، المرجع السابق،ج2،التهميش رقم(1) ص539،محمد عبد الحميد فرحات ، قضايا في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب ،ص78، أنظر الخريطة رقم(02).

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 798.

المدينة وتبادل الطرفان المتحاربان الضربات وقد شعر البطريرك "فولشر" أن الأمور تزداد سوء وخطورة على أمن وسلامة المملكة فلم يتردد في الذهاب مع مجموعة من رجال الدين إلى معسكر الملك وطلب منه أن يكف عن القيام بهذا العمل الخطير ونصحه بضرورة الالتزام ببنود الاتفاقية القائمة بينه وبين ميليسند بشأن تقسيم أراضي المملكة بينهما،ولم تأت هذه المحاولة من جانب البطريرك بفائدة لأن بلدوين كان يعلم أن الكنيسة كانت تقف لجانب أمه وتدعمها واضطر فولشر للعودة إلى المدينة يحمل معه بغض الملك وكراهيته، وواصل الملك حصاره للمدينة فخاف أهالي بيت المقدس من سخط و انتقام الملك وفتحوا له أبواب المدينة[1].

والباحثة ترى أن ذلك التصرف من قبل الأهالي الذين كانوا يساندون ميليسند دائما يعود إلى يقينهم من أن عودة الملكة إلى الحكم في حكم الميؤوس منه وأن الحكم كان سينتقل عاجلا أو آجلا إلى الملك بلدوين الثالث لذلك آثروا مسالمته وكسب وده.

أخيرا دخل الملك بلدوين الثالث مدينة بيت المقدس بقواته وضرب الحصار مباشرة على برج داوود الذي تحصنت فيه الملكة محاولا الاستيلاء عليه وأخذ يُصعد من هجومه فنصب آلات الحصار ورماها بوابل من القذائف إلا أن تلك المحاولات رغم قسوتها لم تجد في اقتحام القلعة نظرا لشجاعة المدافعين عنها واتباعهم نفس أسلوب المهاجمين، ونتيجة لطول الحصار وعدم تحقيق أي تقدم من قبل بلدوين الثالث إلى جانب تأكد ميليسند من أن موقفها ميؤوس منه وأن البرج لا يستطيع الدفاع إلى مالا نهاية، فبادر بعض الأشخاص بالتوسط بين بلدوين والملكة الأم وتم الصلح بين الطرفين على أن تكتفي الملكة ميليسند بنابلس وملحقاتها وتتنازل عن بيت المقدس عاصمة للملكة مع تقديم كافة الضمانات من قبل بلدوين، وقد أقسم بلدوين أن لا يتعرض لأمه بسوء وهكذا عاد الهدوء إلى المملكة[2].

وهكذا انتهت الحرب الأهلية في بيت المقدس والتي استمرت لثمان سنوات بانتصار بلدوين الثالث وأصبح هو الملك الشرعي الوحيد على عرش مملكة بيت المقدس منذ عام 547هـ/1152م، وعادت ميليسند إلى نابلس ويبدو أن الاتفاق بينهما نص على عدم اشتراك ميليسند في الشؤون السياسية كما أن أي عمل تقوم به الملكة في المستقبل لابد من الحصول على موافقة الملك عليه أولا، و لم تكن الملكة ميليسند فقط من رضخت للملك بلدوين بل كان على الكنيسة التي طالما ساندت الملكة أن تلتفت إلى مصالحها في ظل حكم الملك الجديد ففتحت صفحة جديدة مع بلدوين الذي عامل رجال الدين بالمثل لشدة احتياجه لمساندتهم له وأغدق عليهم الهدايا والهبات والممتلكات لكسب ثقتهم وإعادة العلاقات الجيدة معهم[3].

---

1 المصدر نفسه،ج2،ص799 ،

Stevenson,op,cit,p170, Archer,op,cit,p224

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص799، أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص40،عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث،ص73-74.

Archer,op,cit,p224,Mayer,Queen Melisnde,p169,Stevenson,op,cit,p 170.

3 Mayer,op,cit,p170.

لم يلبث بلدوين الثالث أن سمح لوالدته بالمشاركة شبه الرسمية فيما يتخذه من قرارات كنوع من الحرص على المظاهر والبروتوكولات الملكية مثال ذلك أنه عندما استولى على عسقلان من يد الفاطميين سنة 548هـ/1153م عمل بنصيحة والدته في بيع الأراضي والأملاك التي داخل المدينة وحولها، وذهب الجانب الأكبر إلى أخيه عموري أمير يافا حيث صارت عسقلان إقطاعا خاصا به في نفس السنة، وتظاهر بلدوين بالامتثال لوالدته كأنما أراد أن يكفر لها عن ما بدر منه سابقا[1].

لم يتشدد بلدوين مع أمه ميليسند بعد أن جردها من سلطاتها السياسية بل سمح لها أن تبدي برأيها أحيانا في الأمور السياسية، ففي رمضان 552هـ/ نوفمبر 1156 عقد الملك اتفاقية مع مدينة بيزا وكانت هذه الاتفاقية تقضي بمنح البيزيين مؤسسات تجارية وشوارع في مدينة صور في مقابل أن تمتنع بيزا عن بيع المواد الحيوية كالسلاح والمواد الخام الخاصة ببناء السفن لمصر، وقد حصل بلدوين على موافقة ميليسند على هذه الاتفاقية، وفي العام التالي سنة553هـ/ 1157م اشترط الملك بلدوين موافقة الملكة ميليسند وأخيه عموري على منحة كان همفري أمير تبنين قد أهداها إلى فرسان الإسبتارية من خلال صك يحمل رقم (325) وكانت المنحة تضم الأراضي الإقطاعية التي تقع في شمال المملكة وليس لميليسند أو عموري أي نفوذ فيها، لذا فقد كانت مشاركتهما في الصك تعد نوعا من التكريم الأدبي والمجاملة أي مشاركة صورية[2].

لكن هذا لا ينفي أن الملك بلدوين الثالث قد باشر حقوقه الملكية في كافة أنحاء المملكة وحتى في نابلس أين تتواجد ميليسند، حيث أصدر الصك رقم (321) سنة 551هـ/ 1156م ليؤكد فيه على أملاكه في نابلس، والمعروف أن التأكيد العام يمثل إحدى النشاطات الملكية التي تدخل ضمن اختصاصات الملك بلدوين وليست اختصاصات الملكة ميليسند التي اكتفت فيما يبدو بما تدره عليها نابلس التي كانت تحكمها بموجب تاج ابنها وليس من قبل حقها في الحكم المشترك، كما حرصت ميليسند على أن تمهد لكل تصرف تتخذه بالحصول على موافقة ولدها بلدوين كما يتضح ذلك في الصكوك التي تحمل الأرقام (313- 338 – 339 -359) والتي ضمت كلمة (موافقة الملك بلدوين)[3].

برز دور ميليسند من جديد حين نابت عن ابنها بلدوين أثناء فترة غيابه في شمال الشام لإنهاء بعض شؤون الحكم، حيث أصدرت قرارا بشأن تعيين عموري أوف نسل Amaury of Nesel في منصب بطريرك بيت المقدس الذي أصبح شاغرا بوفاة البطريرك السابق فولشر وكان ذلك عام 552هـ/ 1157م وهذا يدل على أن الملك قد فوض إليها

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص823.

Archer, op,cit,p224.

2 Mayer, op,cit,p43

3 Mayer, op ,cit ,p174.

القيام بإدارة شؤون الحكم في غيابه خاصة وأن منصب بطريرك بيت المقدس يعتبر من المناصب الهامة والخطيرة على مستقبل ومصير المملكة[1].

لكن ميليسند اختفت تماما من مسرح الأحداث بالمملكة اللاتينية اعتبارا من محرم 555هـ/جانفي 1160م فلم تمكنها حالتها الصحية من ممارسة أي نوع من مظاهر الحياة ومشاكلها داخل المملكة أو خارجها، إذ وقعت صريعة مرض خطير قضى على حياتها في 20 رمضان 556هـ/ 11سبتمبر 1161م، وقد استولى بلدوين على أملاكها في نابلس وما حولها وجعل المنطقة كلها تابعة للأراضي الملكية[2]، وقد وصفت ميليسند بأنها امرأة مقتدرة تستطيع في وقت السلم أن تحكم بكفاءة ونجاح، ويقول وليام الصوري[3]في شأنها " لقد حكمت المملكة بعزيمة تفوق قدرة معظم النساء، وكان حكمها عادلا وحكيما "، غير أن فترة وصايتها على ابنها كانت تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ التكتل الصليبي، لانصراف تلك الملكة إلى تصرفات وأعمال كان من شأنها إبقاء السلطة في يدها والاستئثار بها دون ابنها – بلدوين الثالث– وتغلبت مطامعها الشخصية على الصالح الصليبي العام[4]، تلك الملكة التي ذاقت طعم السلطان منذ أن أسلم لها زوجها فولك الأنجوي نفسه فتكالبت على السلطة ولم تشأ أن تتركها[5].

ب– على إمارة أنطاكية:

ظهر دور المرأة كوصية على إمارة أنطاكية في شخصيتين بارزتين هما الأميرة " أليس" ابنة الملك بلدوين الثاني التي كانت وصية على ابنتها "كونستانس" والأميرة كونستانس نفسها التي أصبحت فيما بعد وصية على ابنها بوهيمند الثالث بعد وفاة زوجها ريموند دي بواتيه، وكيف حاولت كلتا الأميرتين الاستئثار بحكم الإمارة لأنفسهن وإلغاء الحق الشرعي للورثة الشرعيين فاستخدموا الوصاية للوصول إلى السلطة أبين تركها لأبنائهن.

كانت البداية مع الأميرة" أليس" ففي عام 524هـ/ 1130م قتل زوجها بوهيمند الثاني حاكم أنطاكية –كما ذكرنا سابقا– فما كان من أليس إلا أن بادرت إلى أن تتولى بنفسها الوصاية على ابنتها كونستانس التي لم تتجاوز الثلاث سنوات، ولما كانت الابنة الوحيدة أصبح لها حق إرث أبيها، ولم تنتظر أليس ما سوف يقوم به والدها من تعيين وصي باعتباره سيدا أعلى على الافرنج في الشرق، كما لم تعط لغيرها فرصة للتدخل فقد كانت شديدة الطموح وسرعان ما تردد في أنطاكية بأن أليس أرادت أن تحكم على أنها أميرة مستقلة لا مجرد وصية على العرش، مما يكشف لنا شخصية تلك الأميرة و طموحها إلى الحكم والسيطرة[6].

---

1 أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس، ص43

2 Mayer,op,cit,p175 , Archer, the crusades,p224.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص736.

4 أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص43.

5 ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق، ص279، ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت)، ص 68.

6 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص649، جمال الزنكي، تطلع المرأة للسلطة ،ص39.

كانت الأميرة أليس تصبو لبلوغ السلطة كحاكم ذي سلطات كاملة وليس كوصي فقط، فإنها لم تعدم الوسيلة للخلاص من طفلتها صاحبة الحق الشرعي في العرش وكان الحل إما بإدخالها إلى أحد الأديرة أو بتزويجها إلى شخص لا أهمية له، ثم زادت الأمر تعقيدا عندما أرسلت إلى الأتابك عماد الدين زنكي في حلب تعرض عليه خضوعها له مقابل ضمانه ملكيتها لأنطاكية وذلك بعد أن بلغها خبر خروج والدها الملك بلدوين الثاني من بيت المقدس نحوها[1].

سار الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية لوقف تهور ابنته وترتيب شؤون أنطاكية وحفظ حق حفيدته ووريثة عرش الإمارة وتعيين وصي عليها، وما أن اقترب جنوده من المدينة حتى ألقوا القبض على رسول ابنته وعندما أحضر أمام الملك اعترف بكل تفاصيل المؤامرة فأمر الملك بإعدامه على الفور[2]، ولما ظهر "بلدوين الثاني" أمام أسوار مدينة أنطاكية أمرت "أليس" بإغلاق أبواب المدينة في وجه والدها، ونالت مساعدة عاجلة من المسيحيين الوطنيين بسبب الأموال التي بذلت لهم غير أن نبلاء الفرنج لم يؤيدوها في معارضتها الملك ولم يمر إلا بضعة أيام حتى فتحت أبواب مدينة أنطاكية ليدخل الملك بلدوين الثاني المدينة، واعتصمت ابنته في أحد الأبراج ولم تظهر إلا بعد أن تعاهد أعيان المدينة بضمان حياتها، وعفا عنها والدها تجنبا للفضيحة إلا أنه عزلها عن الوصاية وتقرر نفيها إلى جبلة واللاذقية على الساحل الشامي المدينتان اللتان كانتا مهرها من بوهيمند الثاني، ثم عهد الملك إلى جوسلين حاكم الرها بالوصاية على أنطاكية وأميرتها كونستانس[3].

وإن كانت الأميرة أليس قد فشلت في محاولاتها السابقة للاستئثار بحكم أنطاكية وحَد والدها من طموحها فها هي الفرصة تلوح لها من جديد وساعدها في ذلك وفاة والدها الملك بلدوين الثاني سنة 526هـ/ 1131م والأمير جوسلين الأول أمير الرها الذي كان يتولى الوصاية على أنطاكية، كما ساعدتها أختها الملكة ميليسند صاحبة النفوذ والتأثير الكبير على زوجها الملك فولك الأنجوي فعادت من منفاها باللاذقية إلى أنطاكية لتتولى بنفسها الوصاية على ابنتها وإدارة شؤون البلاد[4].

وقد اعتمدت هذه المرة على الأمراء الفرنج الذين قد أغرتهم بالهدايا وبذل العهود فنجحت في استقطاب الأمير جوسلين الثاني أمير الرها الذي لم يستسغ أن يصبح فولك سيدًا عليه والأمير بونز أمير طرابلس الذي توافقت مطامعه مع الانفصال عن نفوذ الملك فولك والسبب الحقيقي هو أن زوجته "سيسيليا " قد ألت إليها قلعتي اليحمور (الروج) وقلعة أرزغان عن طريق الوراثة من زوجها الراحل تنكرد ومن ثم أصبح بونز أحد أكبر بارونات أنطاكية فزاد طمعه الذي صور له أن تحرره من سيطرة فولك سيزيد من موارد إمارة طرابلس وينفرد بمخصصاتها، وأدرك بونز أن تحرر أنطاكية من سيادة بيت المقدس سوف يجعل طرابلس تنتهج طريقها، إضافة إلى مجموعة أخرى من البارونات التي استطاعت أن تؤمن وقوفهم إلى جانبها، غير أن رفض أكثر البارونات الأنطاكيين لفكرة "حكم امرأة " وسلب الوريثة الشرعية كونستانس

1 Setton, A History of crusades , Vol Ⅱ,p341.

2 ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص233، الزنكي ،تطلع المرأة الصليبية للسلطة،ص39.

3 فايزة عبد الرحمان حجازي ، بعض الجوانب من حياة المرأة الفرنجية ،ص447-448.

4 طه الطراونة، المرأة الصليبية،ص75.

لحقها دفعهم إلى استدعاء الملك فولك الذي قدم إلى أنطاكية تلبية لطلبهم وتمكن من خلع " أليس" من الوصاية وأعيدت إلى ممتلكاتها ،وعادت الوصاية إلى الملك فولك[1].

غير أن الأميرة" أليس" لم تقف مكتوفة اليدين واستنجدت بأختها الملكة "ميليسند" التي أقنعت زوجها الملك فولك بالسماح "لأليس" بالعودة إلى أنطاكية على أن تبقى الوصاية على العرش بيد الملك وأن تشترك الأميرة" أليس" والبطريرك "رالف" بطريرك أنطاكية في تسيير شؤون الحكم، وفي نهاية سنة530هـ/ 1135م أرسلت أليس إلى القسطنطينية لتعرض زواج ابنتها "كونستانس" من الأمير البيزنطي مانويل كومنين، ومن جهة أخرى قرر الملك فولك وبارونات أنطاكية تزويج الأميرة كونستانس من الأمير ريموند دي بواتيه وكان ذلك بالفعل حيث تم زواج كونستانس من ريموند – كما أسلفنا ذكر ذلك سابقا – عن طريق مكيدة البطريرك "رالف " التي خدع بها أليس حتى تم زواج ابنتها واضطرت للتسليم بالأمر الواقع، وقد كانت تلك الخطوة هزيمة نكراء لحقت بالأميرة أليس لأنه لم يكن لديها أي سلاح تقاوم به زواجا شرعيا فعادت إلى اللاذقية لتمضي بقية حياتها[2].

أما الشخصية الثانية التي تولت الوصاية على إمارة أنطاكية الصليبية هي الأميرة "كونستانس" التي أصبحت وصية على ابنها بوهيمند الثالث عقب مقتل زوجها ريموند بواتيه سنة 544هـ/ 1149م، وعلى هذا أصبحت كونستانس أميرة على أنطاكية بحكم حقها الشرعي غير أنه لابد للإمارة في هذه الأحوال أن يحكمها رجل خاصة وأنها محاطة بالمخاطر من كل جهة، كما أن ابنها بوهيمند الثالث لم يتجاوز عند وفاة أبيه الخامسة من عمره فكان من الضرورة أن يتولى الوصاية على العرش رجل حتى يبلغ بوهمند سن الرشد[3].

وبناء على هذا الوضع إضافة إلى سن "كونستانس" الصغير الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين شارك بطريرك أنطاكية "إيمري" في إدارة شؤون الإمارة إلى جانب الأميرة كونستانس حتى يبلغ بوهيمند الثالث سن الرشد وراح يدير الإمارة في وقت المحنة، ونظرا لثرائه الواسع فقد أمد أنطاكية بما تحتاجه من مال وعتاد وتجنيد القادرين على الدفاع عنها، غير أن العلمانيين من أمراء وبارونات الإمارة كرهوا فكرة أن يتولى الوصاية أحد رجال الدين، هذا في الوقت الذي كان فيه ابن خالتها بلدوين الثالث أصلح وصي على بوهيمند الثالث لا باعتباره سيدا أعلى بل لأنه كان أدنى الأقارب الذكور للأميرة كونستانس[4].

غير أن ذلك كان عبئا ثقيلا على الملك بلدوين الثالث الذي ناشد الأميرة "كونستانس" الزواج من أحد الأمراء اللاتين كي يعول عليه في إدارة الإمارة وحمايتها غير أنها لم تقبل أحدا ممن رشحهم لها بلدوين الثالث للزواج منها نظرا

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص657، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص301،سرور علي عبد المنعم علي، السياسة الداخلية و الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي ،ص82.

2 Stevenson,op ,cit, p135 , Archer And Chales .L. Kinsford, The Story Of The Crusades ,p191

3 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص533، عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص505.

Setton ,op, cit, Vol Ⅱ ,p 408.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص744.

لرغبتها في الانفراد بالسلطة، تلك السلطة التي سيسلبها من قبضتها الزوج الذي ستقبله[1]، ويرجح وليام الصوري [2]المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث أن تحريض البطريرك "إيمري" للأميرة وتشجيعها لرفض الزواج من أحد الأمراء الصليبيين هو ما جعلها تتشبث برأيها، والسبب هو خوف البطريرك من فقدان سلطانه ومكانته الدينية في الإمارة .

بقيت كونستانس على موقفها الرافض للزواج حتى قابلت "رينو دي شاتيون" ذلك الشاب الفرنسي المغامر الذي جاء إلى الشرق في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، فوقعت في غرامه وقررت الزواج منه رغم عدم تمتعه بمنزلة اجتماعية رفيعة تليق بأميرة أنطاكية، وبالفعل تم ذلك بموافقة الملك بلدوين سنة 545هـ/ 1135م وبذلك أصبح رينو دي شاتيون أو كما يسميه العرب " أرناط " قائدا لأهم الإمارات الصليبية بحكم أنه تولى الوصاية على ابن "كونستانس" "بوهيمند الثالث" إلى أن يبلغ سن الرشد[3]، غير أن تهور أرناط الذي جعل شغله الشاغل هو السلب والنهب وعدم مراعاة العهود وإحلال التوتر في شمال الشام عرضه للأسر على يد الجيش الإسلامي فبقي أسيرا في حلب عند نور الدين في الفترة (556-572هـ/1160-1176) أي ما يناهز الست عشرة عاما دون أن يفكر أحد من أمراء الصليبيين ولا حتى زوجته في افتدائه[4]، لأن "كونستانس" أدركت أنها أخطأت الاختيار وأن رجوع "رينو" إلى أنطاكية سيدخل الإمارة في مشاكل جديدة هي في غنى عنها[5].

وبذلك غدت إمارة أنطاكية مرة أخرى دون رجل قوي يدافع عنها، حيث أن بوهيمند الثالث ابن كونستانس والوريث الشرعي للإمارة كان لا يزال في السادسة عشر من عمره، وقد رغبت الأميرة كونستانس في أن تسيطر على زمام الأمور بنفسها مرة أخرى حيث زعمت أن زوجها رينو دي شاتيون كان يحكم على أنه زوجها وبأسره وابعاده عن أنطاكية عادت السلطة إليها وعينت نفسها وصية على ابنها، غير أن نبلاء أنطاكية وأعيانها قاموا بدعوة الملك بلدوين الثالث لفك النزاع فأسرع إلى أنطاكية حيث قرر الحفاظ على حقوق بوهيمند الثالث الشرعية في الحكم وعينه أميرا شرعيا على أن يساعده في شؤون الحكم – إلى أن يبلغ سن الرشد – البطرق " أيمري " [6].

1 عاشور،الحركة الصليبية ،ج2،ص533،عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث، ص125

2 تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص745.

3 حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمين ، ص152.

Stevenson , The crusaders in the east , p 166 , Grousset ,L'épopée des Croisades ,p 137.

4 أبو شامة، الروضتين، ج1، ص75، عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص506،

5 جمال محمد حسن الزنكي، تطلع المرأة للسلطة، ص63

6 عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص506

لكن هذا الحل لم يعجب كونستانس فاستنجدت بالإمبراطور البيزنطي الذي توفيت زوجته سنة554هـ/ 1159م وعرضت عليه أن يتزوج من ابنتها "ماري" وبالفعل كان لها ما طلبت وتزوج الإمبراطور مانويل كومنين من الأميرة ماري الأنطاكية سنة 1161م، وبذلك انتصرت كونستانس وتمكنت من تثبيت سلطانها في أنطاكية[1].

لما بلغ الأمير بوهيمند الثالث الثامنة عشر من عمره سنة 1162م ووصل السن القانونية التي يباشر فيها الحكم، أحست كونستانس أن نبلاء أنطاكية وباروناتها يسعون لتنصيب ابنها وإقصائها من الوصاية فما كان منها إلا أن التمست النجدة من القائد البيزنطي" قنسطنطين كولومان " الذي كان مشرفا على حامية قليقية ليساندها في البقاء على رأس الحكم في الإمارة ويمكنها من الاحتفاظ بسلطتها، وبمجرد انتشار الشائعات في مدينة أنطاكية عما فعلته كونستانس واستنجادها بالبيزنطيين تقرر نفيها وإحلال بوهيمند الثالث مكانها ولم تلبث أن ماتت بعد ذلك بوقت قصير، ولم يعترض الإمبراطور البيزنطي على ما حدث من تغيير في الحكم في أنطاكية[2].

وهكذا لعبت كونستانس نفس الدور الذي لعبته أمها أليس سابقا وحاولت الاستئثار بحكم أنطاكية لنفسها واقصاء الوصي عن حقه الشرعي، وذلك عن طريق تقوية مركزها من خلال توطيد العلاقة مع الإمبراطورية البيزنطية.

ج- إمارة الرهـــا :

برز دور المرأة كوصية على إمارة الرها بعد أسر جوسلين الثاني حاكمها سنة 545هـ/1150م، حيث تم أسره على يد بعض الفرق التركمانية وصار الخطر محيطا بما تبقى للصليبيين من قلاع تابعة لإمارة الرها، عندئذ تولت زوجته الأميرة "بياتريس" "Beatric"[3] مهام الوصاية على ولدها جوسلين الثالث الذي كان لا يزال صبيا في المهد ويذكر وليام الصوري[4] " أنها لو تخلت عن تلك المسؤولية لصارت البلاد لقمة صائغة لكل مغامر مغتر " ويقصد وليام الصوري بكل مغامر مغتر المسلمين أصحاب البلاد الأصليين.

بالفعل هاجم سلطان قونية مسعود الأول بن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى (510-551هـ/1116-1156م) إمارة الرها فاضطر بعض الأهالي إلى تسليم ما بحوزتهم من حصون شريطة خروجهم سالمين إلى تل باشر[5] التي كانت مقرا لحكم جوسلين الأسير ومن ثم صارت من أكثر الأماكن ازدحاما بالصليبيين الرهويين وأقلها اضطرابا سياسيا وعسكريا، ولم يلبث نور الدين أن يعاود هجومه على تل باشر مما جعل مؤرخا مثل وليام

---

1 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص872 ،رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص 579، عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، بلدوين الثالث،ص275-276، اسحق عبيد، روما و بيزنطا، ص 223، محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول (1143-1180م) ، دار المعرفة ،1985، ص265-266.

2 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص588.

3 كانت بياتريس أرملة حاكم صهيون قبل زواجها من جوسلين الثاني الذي أنجبت منه ولدا و هو جوسلين الثالث و بنتين و هما أجنس و إيزابيلا، **أنظر**: علية الجنزوري، إمارة الرها،ص126.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص792.

5 **تل باشر**: قلعة حصينة شمالي حلب، بينها و بين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 40.

الصوري[1] يقر في مرارة " أن نور الدين أعظم مضطهدي شعبنا فقد كان أميرا تركيا شديد البطش وكان يجتاح الإقليم كله" وقد بادرت الأميرة بياتريس بتشديد التحصينات أمام جيوش نور الدين مما دفعه للانسحاب أمام تلك القوى[2]، بيد أننا نستبعد ذلك لأن الأحداث الفعلية أثبتت أن جيوش نور الدين قد اجتاحت تلك المنطقة بأكملها فلم يكن من الصعب عليه تدمير تل باشر.

وأمام كل تلك الضغوطات استعدت الأميرة بياتريس إلى التخلي عن بلادها، غير أن رسالة جاءتها من الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين يعرض عليها أن يشتري ما تبقى من كونتية الرها، و بالفعل تم عقد الصفقة مع الامبراطور حيث سيتم بمقتضاها تنازلها بالبيع عن تل باشر وبقية الحصون الأخرى[3]نظير تعويض مالي كبير من الإمبراطور البيزنطي لأنه كان الأقدر على صد هجومات نور الدين، والغريب في الأمر أن الملك بلدوين الثالث صادق على تلك الاتفاقية[4] ،و يبدو أن الدافع الحقيقي وراء عرض الإمبراطور البيزنطي يكمن في رغبته الدفينة في استعادة تلك الأجزاء القديمة من إمبراطوريته دون كثير من العناء و المشقة، كذلك تقوية حدود إمبراطوريته بتلك التخوم فيصبح من السهل عليه الوصول إلى مراكز المناوئين له في بلاد الشام من مسلمين وصليبيين[5].

تمت الاتفاقية بين الإمبراطور البيزنطي وصليبي الشرق حول بيع تلك المعاقل بموافقة "بياتريس" وأبنائها القُصر وفي موعد التسليم توجه الملك بلدوين الثالث إلى الإمارة مصطحبا معه أمير طرابلس ريموند الثاني و نبلاء المملكة الصليبية و أمراء أنطاكية ومكث في تل باشر ينتظر رسل الإمبراطور مانويل كومنين الذين أسبغوا حمايتهم على الأميرة بياتريس و أبنائها، كما شملت حمايتهم أهالي تلك المناطق من أرمن ولاتين، ومن ثم تم تسليم القلاع الصليبية للبيزنطيين[6].

ومن هنا يمكن القول أن تلك الاتفاقية مثلت دليلا على عجز كلا من الأميرة بياتريس في إدارة بلادها والملك بلدوين الثالث في الوصاية على تلك البلاد حيث قبل ببيعها دون أن يحرك ساكنا و كأنه أزال عبئا على كاهله.

د- إمارة طرابلس:

فيما يخص إمارة طرابلس فقد مثلت دور الوصية الأميرة " هوديرنا " ابنة الملك " بلدوين الثاني " وزوجة الكونت ريموند الثاني Raymond II (532-547هـ/1137-1152م) أمير طرابلس، وقد كانت علاقة الكونت بزوجته

1 تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص844.

2 رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص529.

3 سلمت الأميرة بياتريس للإمبراطور البيزنطي ستة معاقل و هي : تل باشر، الراوندان ، سمسياط ، عين تاب ، و دلوك و ألبيرة ،**أنظر**:رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص530.

4 ما إن جاءت رسالة الإمبراطور مانويل كومنين إلى الأميرة بياتريس يعرض فيها طلبه بشراء ما تبقى من إمارة الرها حتى رفعت الأميرة ذلك الطلب إلى الملك بلدوين الثالث الذي كان وقتذاك في أنطاكية، و تناقش مع من كان معه من بارونات مملكة بيت المقدس فضلا عن بارونات أنطاكية و كرهوا جميعا تسليم البلاد إلى يوناني بغيض عندهم غير أنهم قرروا بأنه إذا فقد العالم المسيحي هذه المواضع فسوف يكون ذلك راجعا على الأقل إلى خطأ الإمبراطور، **أنظر**: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص794، يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص141.

5 حسن حبشي، نور الدين و الصليبيون، ص77.

6 وليام الصوي، تاريخ الحروب الصليبية ج2،ص794.

هوديرنا غير مستقرة بل إنه لم يكن سعيدا في حياته الزوجية معها لكثرة الخلافات بينهما كما أن "هوديرنا" لم تكن تختلف عن شقيقاتها ميليسند وأليس في العناد والميل إلى المرح، كما أن الشكوك التي تهامس بها الناس حول شرعية ابنتها ميليسند زادت من شدة الخلاف بينهما وأثارت الغيرة في قلب ريموند الثاني، فحاول أن يفرض عليها التزام البيت على ما هو معروف بالشرق[1].

إن تلك القيود التي فرضها ريموند الثاني على زوجته زادت من حدة الخلافات بين الزوجين ومع بداية عام 547هـ/1152م بلغت العلاقة بينهما درجة كبيرة من السوء استوجبت تدخل الملك بلدوين الثالث وأمه ميليسند بحكم الصلة العائلية بينهما لفض النزاع بين أمير طرابلس وزوجته وسافرا إلى طرابلس حيث اقترحت الملكة ميليسند أن تصحب معها أختها "هوديرنا "إلى نابلس لتنعم ببعض الهدوء والراحة، وعند مغادرتهما طرابلس نحو بيت المقدس رافقهما الكونت ريموند الثاني إلى خارج حدود المدينة وبينما كان الكونت يجتاز المدخل الجنوبي للمدينة عند عودته وثب عليه جماعة من الاسماعيلية الحشيشية فقتلوه في سرعة عجز معها حرسه القبض عليهم، وقد أتهمت هوديرنا وتشكك الناس في تآمرها على قتل زوجها[2].

تولت "هوديرنا" بعد وفاة زوجها ريموند الثاني الوصاية على ابنها ريموند الثالث Raymond III (547-582هـ/ 1152-1187م) الذي ناهز الثانية عشر من عمره حتى يبلغ سن الرشد، لكن الحاجة كانت ماسة لرجل يتولى الاشراف على حكومتها، وكان على الملك بلدوين الثالث أن يتولى أمر الوصاية باعتباره أدنى الأقارب الذكور، و من دواعي العجب أن هوديرنا الوصية على ريموند الثالث كانت هي نفسها تحت وصاية الملك بلدوين الثالث فلم تتمتع بالسلطة المطلقة[3].

ظلت "هوديرنا" وصية على ابنها ريموند الثالث حتى بلغ سن الرشد، وعندما تخلت على الوصاية صار ابنها الأمير الفعلي لإمارة طرابلس ولعل ما حصل من خلاف بين أختها الملكة ميليسند وابنها الملك بلدوين الثالث وما نشب بينهما من حروب أقنعها بعدم الاقتداء بها فنجدها تتنازل طواعية عن الحكم لابنها دون معارضة، ولم يذكر بعد ذلك أي دور سياسي لها بقية حياتها [4].

المبحث الثالث : دور المرأة الصليبية في النزاعات الخارجية

بعد أن تطرقنا في المباحث السابقة إلى دور المرأة الصليبية في القضايا والنزاعات الداخلية حول وراثة العرش والوصاية على أبنائها الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد، سنحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على بعض المواقف والأدوار التي لعبتها المرأة الصليبية في النزاعات الخارجية مع جيرانها إما مع الجانب الإسلامي أو البيزنطي أو حتى مع

1 رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص536، جمال الزنكي، تطلع المرأة للسلطة،ص61

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 805، عبد العزيز محمود عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر،ص88، طه الطراونة، المرأة الصليبية،ص76.

3 المصدر نفسه،ج2،ص805-806 ،السيد عبد العزيز سالم ،طرابلس الشام،ص185.

4 محمد عبد الحميد فرحات، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب،ص85

الأرمن، حيث أخذ ذلك الدور يتشكل تبعا لطبيعة العلاقات مع جيران الإمارات الصليبية وما تتسم به تلك العلاقات من تعاد أو توافق .

أ-المرأة الصليبية والمسلمين:

كانت بدايات علاقات المرأة الصليبية السياسية بالمسلمين مع أول ملكة صليبية وهي زوجة الملك بلدوين الأول الملكة الأرمينية "أردا"[1]، ذلك أنه لما تأسست المملكة اللاتينية في الشرق وتولى حكمها الملك جودفري البويوني لم يكن متزوجا بعد، كما أن فترة حكمه كانت قصيرة فلم يظهر دور المرأة السياسي إلا اعتبارا من حكم أخيه الملك بلدوين الأول الذي ما أن علم بوفاة أخيه جودفري حتى أسرع بمغادرة إمارة الرها متجها نحو بيت المقدس، تاركا زوجته "أردا "في أنطاكية لانتظار نقلها على احدى السفن واللحاق به حتى تكون تحت حراسة بحرية قوية تحفظها من أي اعتداء عليها من جانب السفن الاسلامية، خاصة وأن معظم مدن الساحل الشامي كانت في ذلك الوقت لا تزال في قبضة المسلمين[2].

مع وصول الملكة "أردا" إلى يافا عام 494هـ/1101م في حراسة الأسطول الجنوي، عاصرت وهي بمدينة يافا استعدادات الصليبيين لخوض معركة الرملة الأولى عام 494هـ/1101م، حيث كان زوجها الملك بلدوين الأول هناك يراقب تحركات الفاطميين الموجودين بالقرب من الرملة بهدف الاستيلاء عليها، وقد دارت أحداث المعركة في السهل الواقع جنوب غرب مدينة الرملة[3].

كان للملكة "أردا" موقف مشهود جعلها من أولى النساء اللاتي تدخلن بالقرار السياسي واكتسبن شجاعة كبيرة للتصرف في أحلك الظروف التي أحاطت بالصليبيين، فعندما وصلتها الإشاعة التي روجها الفاطميون بانتصارهم وتدميرهم للجيش الصليبي في معركة الرملة واغتيال بلدوين الأول، دعت الملكة أردا في الحال إلى عقد اجتماع يضم بارونات مدينة يافا وأهلها وقرروا الكتابة إلى" تنكرد" صاحب أنطاكية يطلبون منه امدادهم بالمساعدات اللازمة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى اخلاص الملكة التام وحبها لزوجها ولشعبها في الأزمة العصيبة التي مرت بهم[4]، خاصة وأن بلدوين عاد سالما إلى يافا، غير أن هنالك من انتقد تصرف الملكة" أردا" واستنجادها بتنكرد خاصة وأنه كان خصم زوجها،[5]ولم تذكر المصادر عتب لبلدوين على زوجته[6].

---

1 زنكي ، تطلع المرأة للسلطة، ص 28.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج1،ص483، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج1،ص465.

3 أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس، ص 23، عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص 232، رقية عبد اللطيف شحادة، تاريخ مدينة الرملة حتى نهاية العصر الأيوبي، رسالة ماجستير كلية الآداب ،بيروت، 1985،ص42.

Stevenson ,op. cit , p 44-45.

4 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص 120-121، ألبرت أوف أكس ، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، ص 224-225، وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص501.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج1،ص505-506.

6 جمال الزنكي ، تطلع المرأة للسلطة ،ص28.

أما المثال الثاني لعلاقة المرأة بالجانب الإسلامي فكان للملكة "مورفيا" زوجة الملك بلدوين الثاني الذي لم يتح الفرصة لزوجته في مشاركته في إصدار القرارات المتعلقة بالمملكة، رغم أن الأحداث التاريخية أثبتت جدارتها وقدرتها الفائقة في تحمل مسؤوليات كثيرة في الشؤون السياسية الخطيرة المتعلقة بأمن المملكة[1]، ولعل ذلك يتضح عندما خرج الملك على رأس قواته لتخليص جوسلين كورتناي صاحب الرها من أسره لدى المسلمين ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك هو الآخر أسيرا على يد قوات أمير حلب بلك بن أرتق في سنة 517هـ/1123م[2]، وقد ساد الحزن أنحاء المملكة وأصبح الأمر يشكل خطورة كبيرة، ويحتاج إلى عقل مدبر يعمل على استقرار الأمور داخل المملكة حتى يتم تعيين نائب عن الملك أثناء غيابه في الأسر، وكان ذلك العقل متمثلا في الملكة مورفيا فسرعان ما أعدت الترتيبات اللازمة من أجل محاولة إطلاق سراح زوجها من قلعة حران، فاتفقت على استئجار عدد كبير من الأرمن المنتمين إليها والذين يدينون لها بالطاعة ودبرت لهم خطة للتنكر في شكل أتراك ثم التسلل إلى المعسكر المسجون فيه زوجها لمساعدته على الهرب، لكنها لم تنجح في ذلك [3].

عندما فشلت خطة الملكة اضطرت للسفر إلى شمال بلاد الشام خاصة بعد سماعها بوفاة صاحب حلب "بلك بن أرتق" سنة 518هـ/ 1124م وأن من خلفه وهو "تمرتاش بن إلغازي" كان كارها لتحمل مسؤولية الأسرى الصليبيين وآثر فكرة الحصول على فدية كبيرة، وهنا توسطت الملكة مورفيا لدى الأمير سلطان بن منقذ أمير شيزر[4] وتمت المداولات المداولات حول فك أسر الملك بلدوين مقابل فدية ضخمة قدرت بمائة ألف بيزنت وأن يعيد إلى حلب التي خلف بلك في حكمها مدن الأثارب وزردنا وعزاز وكفر طاب[5] والجزر[6] ومجموعة من الرهائن على رأسهم ابنة الملك الصغرى "يوفيتا " "يوفيتا " وكانت في الخامسة من عمرها لتكون رهينة لديهم حتى تتم دفع الفدية كاملة[7]، وعلى أساس هذه الشروط تم

---

1 أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص29-30.

2 ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص223، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج2،ص211.

3 وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية ، ج1،ص 590-591.

4 **شيزر**: وهي ذات قلعة حصينة، ونهر العاصي يمر بطرفها الشمالي، و هي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة، بينها وبين حماة ما يقارب الكيلومترين وبينها و بين حمص خمس كيلومترات، وهي نفس المسافة بينها وبين أنطاكية، **أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 263

5 **كفرطاب**: بلدة بين المعرة النعمان و مدينة حلب و هي قاحلة قليلة المياه،و هي على الطريق بين المعرة و شيزر، **أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان ،ص263، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 470

6 أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص103.

7 غادر بلدوين الثاني متجها إلى أنطاكية حيث أنكر عليه بطريك أنطاكية برنارد دي فالنس رد المدن و القلاع السابقة للمسلمين ،لأن ملك بيت المقدس بوصفه وصيا على إمارة أنطاكية كان ينبغي أن يراعي الأمانة و ألا يفرط في أملاك أنطاكية و أراضيها ثمنا لحريته، فتراجع الملك بلدوين عن تسليم القلاع للتمرتاش و قرر مهاجمته في حلب التي تخلى عنها أميرها و بقي بعيدا في ماردين فأرسل أهل حلب إلى أمير الموصل أقسنقر البرسقي الذي اتسم بالشجاعة لتسلم قلعة حلب فتسلمها و انهار تحالف الفرنج الذين عادوا إلى أراضيهم و أصبح أقسنقر البرسقي أميرا على الموصل و حلب و شكل خطرا كبيرا على التواجد الصليبي، و في شهر صفر519هـ/مارس 1125م سلم الملك بلدوين الثاني باقي مبلغ الفدية الذي كان يدين به لافتداء الرهائن فقبله البرسقي و أعاد الرهائن إلى الفرنج و كان منهم ابنته يوفيتا و ابن جوسلين كورتناي و وريثة "جوسلين الثاني " الذي بلغ احدى عشر سنة و عشرة من أبناء النبلاء الصليبيين **أنظر**: ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص 230،ابن العديم، زبدة الحلب ،ج2،ص120، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص274-277.

Grousset, op, cit, p100.

الإفراج عن الملك بلدوين الثاني وغادر حران في أواخر 518هـ/1124م وهنا تتجلى معاني التضحية والإخلاص التي بذلتها الملكة لأجل زوجها فقد خاطرت بحياة ابنتها لفك أسره[1].

ننتقل إلى علاقة الملكة ميليسند مع الجانب الإسلامي والتي تبرز إبان حصار عماد الدين زنكي للرها سنة 539هـ/1144م عندما استنجد الرهاويون بحكومة بيت المقدس طالبين مساعدتهم خاصة وأن جوسلين الثاني كونت الرها كان متغيبا عنها في "تل باشر" ولم يشأ الذهاب للدفاع عن عاصمته بل قنع بالبقاء حيث هو واعتقد أن قوته لا تسمح له بمنازلة زنكي واكتفى بطلب النجدات من أنطاكية وبيت المقدس[2]، فدعت الملكة ميليسند باعتبارها وصية على عرش المملكة لعقد مجلس الملكي للانعقاد ومناقشة موضوع انقاذ الرها ففوض المجلس الملكة لحشد جيش كبير سيرته بقيادة الكندسطبل "مانسيس" و"فيليب سيد نابلس" و"إلياند بورس" أمير الجليل[3]، على أن جيش ميليسند لم يصل إلا إلا بعد فوات الأوان حيث شدد زنكي الحصار على المدية التي سقطت في يده في26 جمادى الآخرة 539هـ/ 23 ديسمبر 1144م رغم ما كانت عليه من قوة وحصانة[4].

رغم ما بذلته ميليسند من جهود في تجهيز الجيش لإنقاذ الرها إلا أن سرعة الأتابك عماد الدين زنكي في تحقيق النصر حالت دون وصول النجدة للمدينة، حيث لم تزد فترة الحصار أكثر من ثمانية وعشرين يوما تمكن خلالها المسلمون من اقتحام الأسوار والدخول للمدينة وتحقيق النصر[5]، و بذلك فشلت الملكة في الحفاظ على الأراضي الصليبية من جهة جهة و في توحيد كلمة الصليبيين تحت سلطتها من جهة أخرى حيث لم يلق ريموند بواتيه أمير أنطاكية بالًا لدعوة جوسلين الثاني له لمساعدته على رد الهجوم الإسلامي حتى أنه لم يطع أوامر الملكة ميليسند نفسها والتي بعثت له بضرورة اللحاق بالجيش الصليبي المتجه نحو الرها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن ميليسند لم تنجح في قيادة الصليبيين كما فعل والدها وزوجها من قبل ما مهد لبداية تمزق الحلف الصليبي في مقابل بداية ظهور صحوة إسلامية على يد البيت الزنكي[6].

أما عن رد فعل الصليبيين بعد سقوط الرها فعلى الرغم من أهمية وخطورة استرداد عماد الدين زنكي لها فإنه بفقدان الصليبيين لها قد فقدوا معها الحماية من الجانب الشمالي الشرقي للكيان الصليبي في الشام، وعلى الرغم من هذا إلا أن أيا منهم لم يقم بعمل سريع ومباشر ضد زنكي بسبب تدهور أوضاعهم إذ كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لا يزال قاصرا تحت وصاية أمه ميليسند التي كانت منشغلة في تسيير أمور المملكة الداخلية وجمع الحلفاء من نبلاء وبارونات لإطالة فترة بقائها على العرش واستبعاد ابنها عن المسؤولية فلم تهتم بالمصالح العامة للصليبيين ولم تلقي بالا

1 فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص 219، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ، ص30

2 علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، ص307

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص.739

4 ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص436، ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص ،ابن العديم، زبدة الحلب، ج2،ص279 .

5 ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ص69، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق: دار التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، ط3، ط3، 1980بيروت، ص187.

6 محمد عبد الحميد فرحات، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب،ص71.

لاسترجاع إمارة الرها، كما أن ريموند بواتييه أمير أنطاكية الذي أرعبه سقوط الرها قد أصبحت أراضي إمارته في متناول يد زنكي الذي اعتقد بعدم قدرته على مجابهته لوحده لذا هرع إلى القسطنطينية لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذي وعده بمساعدته ضد غريمه[1].

تدخلت الملكة ميليسند في العلاقات مع الجانب الإسلامي وحاولت استغلال الشقاق الذي حدث بين حاكم دمشق "معين الدين أنر"[2] وأحد أمرائه المدعو "التونتاش"[3] أمير بصرى[4] وصرخد[5] الذي أراد الاستقلال عن دمشق فذهب سنة542هـ/ 1147م إلى بيت المقدس يلتمس المساعدة وعرض أن يتنازل للفرنج عن بصرى وصرخد مقابل معونتهم له كي يجعلوا له إقطاعا بإقليم حوران[6]، فبادرت الملكة ميليسند إلى دعوة المجلس للانعقاد لمناقشة هذا الاقتراح إذ إذ أن اتخاذ القرار في هذا يعتبر أمرا بالغ الأهمية لأن النهوض لمساندة التونتاش ليس معناه سوى فصم التحالف مع دمشق[7].

كان عرض التونتاش للصليبيين مغريا فأخذت الملكة تناقش اقتراحه مع المجلس وتستعرض الأمر من كل الجوانب محاولة الخروج بحل يمكن الصليبيين من استغلال الموقف والاستفادة منه لصالحهم، فالتحالف مع التونتاش يعني نقض الهدنة مع دمشق ونتائج ذلك قد تكون وخيمة ولن تنفعهم إغراءات التونتاش عند خسارة حليفهم معين الدين أنر خاصة إذا تحالف مع نور الدين محمود ضدهم ومن جهة أخرى فإن إقليم حوران الذي طلبه التونتاش كانت تسكنه أغلبية من المسيحيين أتباع المذهب الأرثوذكسي وبفضل مساعدة هؤلاء سيتيسر استغلال هذا الإقليم كما أن السيطرة عليه ستجعل دمشق تحت رحمة الفرنج، تردد بارونات بيت المقدس لكن سرعان ما قبلوا العرض واستعدوا لإرسال الجيش إلى طبرية لتنفيذ خطتهم[8].

---

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص384 ، عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص475.

2 كان معين الدين أنر شيخ دمشق العتيد و صاحب السلطة العليا فيها و كان يباشر توجيه سياسة أتابكية دمشق باسم الأتابك مجير الدين أبق الذي كان لا يزال صغيرا ،**أنظر**: عاشور، الحركة الصليبية،ج2،ص484.

3 **التونتاش**: وهو من أصل أرمني، اعتنق الإسلام وكان غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان والي صرخد وبصرى أولا. **أنظر**: ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 451، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 243.

4 **بصرى**: من كور حوران و هي مدينة قديمة و لها قلعة أرضها خصبة تقع شرقي دمشق على بعد منها ،**أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان ،ص253.

5 **صرخد**: من بلاد حوران، و يحرفها أهلها الآن و يقولون صلخد، و هي قلعة حصينة محدثة بنيت في قبل نور الدين زنكي بقليل على جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها .**أنظر**:ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج3،ص401،أبو الفداء ،تقويم البلدان،ص259،القلقشندي،صبح الأعشى ،ج 4 ،ص106،أمين واصف بيك، معجم الخريطة التاريخية،ص71

6 **حوران** : كورة واسعة من أعمال دمشق في جنوبها الشرقي، ذات قرى كثيرة و مزارع، **أنظر**: البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، تحقيق و تعليق: علي مُحَمَّد البجاوي، م1، دار الجبل، ط1، بيروت، 1992، ص 435.

7 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص742-743

8 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص389،

Stevenson ,op,cit,p158.

غير أن الملكة ميليسند حرصت على مهادنة حكومة دمشق وأرادت أن تُغلف تحركاتهم في صورة مقتضيات أملتها الظروف المحيطة وأرسلتها في صورة مقترحات إلى معين الدين أنر حيث أكدت في سفارتها على ضرورة إعادة التونتاش إلى وظيفته، فاستشاط حاكم دمشق غضبا لكنه أراد أن يتجنب نقض التحالف مع الفرنج لخوفه من نور الدين الذي كان يرغب في ضم دمشق إليه، وفي رده على سفارة الملكة أخذ يذكرها أنه وفقا لقانون الإقطاع عندها لا يجوز للأمير الفرنجي أن يساند تابعا لدولة صديقة على سيده وقد عرض عليها معين الدين أنر أن يؤدي لها كل النفقات التي تكلفتها الحملة التي اقترحت توجيهها لمساندة التونتاش[1].

لكن الملكة ما لبثت أن أرسلت إلى دمشق فارسا اسمه "برنارد فاشر" " Bernard Vacher"بالرد وأنها للأسف قد التزمت بمساعدة التونتاش الذي سوف يعيده جيشها إلى بصرى وتعهدت أنها لن تمس دمشق بضرر بحال من الأحوال، ولم يلبث برنارد أن عاد إلى بيت المقدس بعد أن أقنعه حاكم دمشق أن الاقتراح قام على أساس خاطئ واستطاع الفارس الفرنجي إقناع الملك بلدوين الثالث بآراءه فلما جرت مناقشة الأمر من جديد في مجلس بارونات المملكة تقرر التخلي عن الحملة حتى يتجنب الفرنج نتائجها الوخيمة، غير أن ثائرة الجند وحماستهم اشتدت بعد أن سمعوا بإلغاء غارة مثمرة على بلاد العدو واتهموا برنارد بالخيانة وأصروا على المضي للقتال فما كان من الملك والبارونات إلا النزول عند رغبتهم[2].

زحف الصليبيون وعلى رأسهم الملك بلدوين الثالث من طبرية إلى حوران في ذي الحجة 541هـ/ ماي 1147م، بعد أن كانوا قد منحوا التونتاش مبلغا ضخما ومرضيا عما لحقه، ثم عبروا نهر الأردن وإقليم الجولان وفي تلك الأثناء لم يقف حاكم دمشق أنر مكتوف الأيدي أمام ذلك التحدي من الصليبيين وإنما خرج على رأس جيش كبير من التركمان وسلاجقة دمشق لمضايقة الفرنج أثناء معاناتهم لالتماس الطريق من وادي اليرموك إلى درعا[3]ولسد طريق بصرى وصرخد في وجوههم فضلا عن أنه أرسل يستنجد بنور الدين الذي أسرع من حلب لنجدته وانعقد التحالف بينهما[4].

غير أن إصرار معين الدين أنر على التصدي للصليبيين والتحالف مع نور الدين رغم ما في ذلك من خطورة على استقلالية دمشق خاصة وأنه يعلم مطامع نور الدين ومن قبله والده زنكي في ضم دمشق لحلب يدل على مدى أهمية إقليم حوران[5] النسبة لدمشق لأن حوران تمدها بأهم مواردها الاقتصادية ما يفسر حساسية تلك المنطقة بالنسبة للجانب الدمشقي حتى في مواجهته مع الصليبيين، فالاستيلاء على حوران يهيئ للصليبيين السبيل للضغط العسكري والسياسي

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2،ص743.

2 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص389.

3 **درعا**: جنوب دمشق، و هي في منتصف الطريق الى بصرى، (100كم). **أنظر**: رنسيمان المرجع السابق، ج2، ص 390.

4 ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 451، أبو الشامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص 200، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 176، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 390، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص210

5 تصدرت حوران جميع مدن الشام في إنتاج الحبوب، فقد كان مخزن الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها، و يعود السر في ذلك إلى عناصر تربتها التي تتألف من مواد بركانية سوداء منحلة، وهي غنية بالمواد المغذية للنبات ، و تموّن حوران فلسطين و دمشق و لبنان بالقمح **أنظر**: مُحَمَّد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 131، فيلب حتي، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 45.

على دمشق وقد سبق وأن أحبطت جميع محاولات الصليبيين لغزوها،[1] وقد وافق الصليبيون من خلال معاهدة 502هـ/ 1108م[2] ومعاهدة 504هـ/1110م بخضوع حوران للحكم المشترك مع المسلمين على أن يقتصر على الجانب الاقتصادي فقط حيث يقسم انتاجها الزراعي إلى ثلاثة أجزاء متساوية تقسم بين دمشق والصليبين وسكان المدينة[3] دون أن تمتد الهيمنة للجانب العسكري أو السياسي بل وفرضت دمشق رقابة عامة على حوران فإذا كانت حكومة بيت المقدس تسعى لفرض سلطتها على حوران فلا بد أن يتم بالمشاورة مع حكومة دمشق أولا وإلا وصل الأمر لحد التصادم.

وصل الفرنج إلى درعا وفي تلك الأثناء كان معين الدين أنر ونور الدين قد اجتمعا عند صرخد، ومن هناك أسرعا أولا بالاستيلاء على بُصرى قبل أن يستولي عليها الصليبيون، فبادرت زوجة التونتاش بتسليمها لهما، على أن خبر تسليم بصرى لم يبلغ الفرنج إلا في المساء وقد أضناهم التعب والإرهاق، ونفذت المياه وأصبحت بصرى على مرمى نظرهم، ولما لم تسمح حالتهم بالمضي لقتال المسلمين، لم يسعهم إلا الارتداد، على أنهم صادفوا من العناء والمشقة أثناء عودتهم ما يزيد كثيرا على ما لقوه عند قدومهم، إذ نفذ القوت[4] وأضيف العجاج والحر الشديد والعطش إلى سهام المسلمين وهجماتهم[5]، وطبق المسلمون في المرحلة الأولى من المسير نفس الخدعة التي طبقت في المعركة خارج أنطاكية 491هـ/ 1098م والتي تكرر تنفيذها بعد ذلك في حطين عام 583هـ/ 1187م، حيث أضرموا النار بالحشائش على الطريق وأرهقوا رتل الفرنجة باللهيب والدخان[6].

حرص الفرنجة خلال جميع هذه المحن المتنوعة التي مروا بها على المحافظة على تشكيلاتهم المتراصة، ونقلوا جرحاهم وجثث قتلاهم ضمن تشكيلة الرتل، كي لا ترتفع معنويات أعدائهم باطلاعهم على الخسائر التي تكبدوها، واتخذت

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 243، مُحَّد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص 142، حسين مؤنس، نور الدين بن زنكين فجر الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، جدة، ط2، 1984، ص 204.

2 عقدت هذه الاتفاقية بين الأتابك طغتكين والملك بلدوين الأول، فمنذ بداية عهد الأتابك طغتكين في حكم إمارة دمشق 497هـ/ 1103م، لم يتوقف تبادل الغازات بين الدماشقة و أمراء الجليل خاصة و أن طغتكين قد أدرك أن متاخمتة لحدود الإمارة قد يهدد ملكه في دمشق و يحرمه من المناطق الخصبة التي كانت محط نزاع بين الطرفين، على أنه في النهاية سنة 502هـ/ 1108م، و نظرا لتشابك المصالح الرئيسية لبلدوين و طغتكين، قررا عقد هدنة لمدة عشرة سنواترر فيها تقسيم المنطقة إلى ثلاثة أقسام، الثلث الأول للأتراك و الثاني للإفرنج والثالث للفلاحين، **أنظر**: ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 263، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 130، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج2، ص 383.

3 تعرف هذه السياسة بالمقاسمات حيث تخضع هذه الأراضي للسيادة المشتركة الإسلامية و الصليبية، و لم يوافق الطرفان الصليبي و الإسلامي على تحصين المنطقة ، و من الغريب أن هذه المعاهدات قد ظلت سارية المفعول و معمول بها حتى سقوط دمشق في يد نور الدين عام 549هـ/ 1154م و أصبحت ضمن سياسة الوحدة الإسلامية التي تبناها نور الدين، و ظلت هذه المعاهدة كذلك حتى حدوث الهزيمة النكراء التي مني بها الصليبيون في موقعة حطين عام 583هـ/ 1187م،**أنظر**: يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 32- 33.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 252، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 390- 391، حسين مؤنس، نور الدين، ص 204، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 483.

5 و يذكر ابن القلاسي أن المسلمين "قد ملكوا عليهم المشرب و المسرب و ضايقوهم برشق السهام و إرسال نبل الحمام، و أكثروا فيهم القتل و الجراح و إضرام النيران في هشيم النبات في طرقهم و مسالكهم، و أشرفوا على الهلاك و الدمار". **أنظر**: تاريخ دمشق، ص 452.

6 ر. سي، سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 240.

إجراءات مشددة جدا لضمان عدم ترك ثغرة في ترتيب المسير يمكن أن يستغلها المسلمون[1]، وهكذا لم يستطع الصليبيون تحقيق أي هدف من أهداف حملتهم الفاشلة، وعادوا إلى بيت المقدس تحت تهديد جيوش نور الدين ومعين الدين أنر الذين كانوا يتخطفون من قدروا عليه من جنود ولم يصلوا إلى بيت المقدس إلا وقد هلك منهم المئات بين قتيل وأسير[2]، وسُلمت بصرى وصرخد إلى معين الدين وعاد إلى دمشق 24 محرم 542هـ/ 26 جوان 1147م[3].

وهنا يتبين أن تلك الأحداث قد أثبتت مدى بعد نظر الملكة ميليسند وحسن تقديرها للأمور حيث أدركت منذ البداية عواقب العداء مع دمشق حليفهم الوحيد من المسلمين ومخاطر التحالف بين دمشق وحلب في تهديد الوجود الصليبي في المنطقة وقد ظهرت الملكة في صورة أكثر حنكة من ابنها بلدوين الثالث حيث حاولت تنبيهه في المجلس الذي عقده البارونات لعدم جدوى تلك الحملة وأنها ستكون وبالا عليهم وأن خسائرها أعظم من مكاسبها إلا أن بلدوين أغفل نصائحها وانصاع إلى طبقة الغوغاء من الجنود فكانت النتيجة خسارته لحليفه في دمشق وتقوية شوكة نور الدين محمود.

كما كان للملكة ميليسند أيضا دور كبير في دعوة جميع القادة الصليبيين في الغرب الأوروبي للحضور إلى بيت المقدس على رأس جيوشهم للقيام بالحملة الصليبية الثانية ومحاولة استرداد الرها من المسلمين، وكان منهم لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا وعندما وصلوا إلى بلاد الشام وجهت إليهم الدعوة لحضور مجلس كبير ينعقد في عكا في محرم 543هـ/جوان 1148م وفي الاجتماع الذي حضرته الملكة ميليسند وابنها الملك بلدوين الثالث ورجال المملكة من العلمانيين ورجال الدين فضلا عن قادة الحملة، ناقش المجتمعون تحديد وجهة الحملة و استقر الرأي في النهاية على مهاجمة مدينة دمشق بدلا من الرها[4].

إن توجيه الحملة الصليبية إلى دمشق إن دل على شيء إنما يدل على القصور السياسي للملكة ميليسند خاصة للأمراء الصليبيين عامة، الذين لم يتعلموا الدرس من الحملة الفاشلة التي قاموا بها في السنة الماضية ضد حاكم دمشق ونتائجها الوخيمة عليهم، وبتوجيههم للحملة الصليبية الثانية ضد دمشق هذه المرة أيضا فقد سمحوا لمعين الدين أنر بالاتصال بنور الدين محمود مرة أخرى وطلب العون منه بما يمثله هذا من خطر على الوجود الصليبي، ففقد الصليبيون بذلك نهائيا وللأبد حليفا كبيرا طالما وقف حجر عثرة أمام إتمام الجبهة الإسلامية الموحدة التي دأب نور الدين على محاولة تحقيقها[5].

---

1 ذكر وليام الصوري بالتفصيل المشقة و المعاناة التي تكبدها الجيش الصليبي أثناء عودته إلى بيت المقدس، **أنظر**: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 253-255

2 ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية،ص91-92 عاشور، الحركة الصليبية، ج1،ص 483، حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 204.

3 ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 452، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 200

4 Setton, op,cit,vol I ,p467,

رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص397-451، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث، ص126.

5 ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص461-462، ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص353.

ومن الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى التوجه لمهاجمة دمشق رغبة الملك بلدوين في التخلص من سيطرة والدته عليه فحتى ذلك الحين ورغم بلوغه سن الرشد لم تظهر الملكة ميليسند أي بادرة تشير إلى عزمها على التنازل على العرش لابنها فرأى بلدوين في الاستيلاء على دمشق فرصة للانفراد بحكمها بعيدا عن سطوة والدته، ومن الأسباب كذلك طمع بارونات بيت المقدس في الحصول على البلاد الخصيبة التابعة لدمشق والثأر لما تعرضوا له من ذل وهوان مؤخرا على يد حاكم دمشق، فكانت لديهم رغبة جامحة للانتقام كلما تذكروا ما حدث لهم خاصة وأنهم وجدوا آذانا صاغية عند الملك الشاب الذي امتلأ فتوة ونشاط لم تكن لديه الخبرة الكافية لتحديد العواقب، ورغم كل ذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية في الاستيلاء على دمشق وضاع معها أي أمل في استعادة الرها مرة أخرى[1].

كما برزت علاقة المرأة الصليبية بالجانب الإسلامي خاصة زمن صلاح الدين الأيوبي مع الأميرة "ستيفاني" أميرة إقطاع ما وراء الأردن، فبعد استرداد المسلمين لبيت المقدس سنة 583هـ/1187م كانت الأميرة من الأسرى الذين تم افتداؤهم في بيت المقدس وقد طلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها "همفري" سيد تبنين فأجابها لما طلبت بشرط أن تسلم له حصني الكرك والشوبك فوافقت على ذلك فتقرر الإفراج عن همفري ليلتحق بأمه ستيفاني، وعند ذهاب صلاح الدين لتسلم الحصنين أبت الحامية في كل من حصني الكرك و الشوبك التسليم ولم تطع أوامر سيدتها، ومن هنا وقعت الأميرة ستيفاني في حرج كبير وأصبحت في مأزق مع صلاح الدين لذا لجأت الأميرة لحل عجيب هو أنها أعادت ابنها إلى الأسر بإرادتها لأنها لم توفي بالشرط وما قامت به من عمل نبيل كان قد أرضى صلاح الدين الذي أطلق سراح همفري بعد ذلك تقديرا لسمو أخلاق الأميرة واحترامها لعهودها[2] .

و يبدو أن الأميرة ستيفاني قامت بهذا السلوك لإدراكها المسبق بكرم أخلاق صلاح الدين وأن المناورة التي قامت بها كانت تعلم مسبقا نتائجها اعتمادا على أخلاق عدوها ولعل ما حدث في الماضي بينها وبين صلاح الدين جعلها تخاطر بإرجاع ابنها له، حيث أنه في سنة 579هـ/ 1183م حاصر صلاح حصن الكرك وصادف ذلك حفل زفاف ابنها همفري الثالث حاكم تبنين وايزابيلا الأخت الصغرى للملك بلدوين الرابع، وإزاء ذلك الموقف أرسلت والدة العريس ستيفاني أطباقا من أطعمة العرس إلى صلاح الدين، الذي أرسل في مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسين، ثم أصدر أوامره بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار وهذا التصرف ينم عن الأخلاق النبيلة التي يتمتع بها صلاح الدين والتي أوجبت عليه احترام فرحة العروسين رغم أنها فرصة جيدة للإطاحة بالصليبيين الذين كانوا داخل حصن الكرك[3].

بقي حصني الكرك والشوبك حجر عثرة في طريق المواصلات بين مصر والشام، وبعد سقوط بيت المقدس583هـ/1187م رتب صلاح الدين الجند لحصار الكرك وتولى قيادتهم أخوه العادل الذي لازم حصار قلعة

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص453.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 1067.

3 رنسيمان ،المرجع السابق،ج2،ص 167

Natacha, Women Crusading ,P128

الكرك لمدة طويلة حتى قلت مؤنهم و ذخائرهم، واضطروا لأكل دوابهم و صبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فأرسلوا للعادل يسلمون له القلعة و يطلبون الأمان لأنفسهم وكان ذلك في نهاية 584هـ/1188م ،أما حصن الشوبك فقد استسلم بعد ببضعة أشهر[1].

أما علاقة الملكة سبيلا بالجانب الإسلامي فتبرز بشكل خاص بعد أسر زوجها جاي دي لوزجنان في موقعة حطين 583هـ/1187م فقد توسلت "سيبيلا" إلى صلاح الدين أن يطلق سراح زوجها مقابل أية فدية يراها مناسبة فاشترط تسليمه عسقلان مقابل إخلاء سبيل الملك جاي، عندئذ أرسل الملك جاي سفارة إلى أهالي عسقلان متوسلا إليهم أن يقبلوا عرض صلاح الدين وأنه هو العرض الأمثل لهم لأن عسقلان لن تستطيع الصمود أمام قوة صلاح الدين وانتصاراته المتتالية وساعتها سيكون سقوطها دون مقابل غير أن عرضه لقي الرفض من طرف سكان المدينة[2].

دفع ذلك بصلاح الدين إلى اصطحاب "جاي" معه لحصار عسقلان في رجب 583هـ/ سبتمبر1187م ولما ظهر أمام أسوار المدينة جرى اخطار جاي بأنه لن يظفر بحريته إلا باستسلام عسقلان، فاتجه جاي نحو الأسوار وخاطب سكانها بصوت مرتفع وحاول اقناعهم بأن يكفوا عن القتال غير أن أهل المدينة لم يردوا عليه إلا بتوجيه الشتائم، و استبسلت عسقلان في الدفاع عن نفسها لكن صلاح الدين شدد عليهم الحصار حتى اضطروا للإذعان وسلموا له المدينة، فلما تلسمها صلاح الدين أطلق سراح الملك جاي دي لوزجنان الذي توجه إلى نابلس وأرسل إلى زوجته سبيلا لينبئها بالتوجه إلى نابلس مع زوجها لتقيم معه هناك لتتجنب ما سيحل ببيت المقدس من وبال الحصار، فأسرعت الملكة إلى نابلس ومكثت بها إلى أن تم لصلاح الدين ما أراد و تمكن من استرداد بيت المقدس، وهكذا أضيفت صفحة جديدة إلى السجل الأخلاقي لصلاح الدين الذي حرص دوما على التمسك به[3].

إضافة إلى ما سبق نذكر الأميرة "إشيفيا" أميرة طبرية وزوجة الكونت ريموند أمير طرابلس التي اصطدمت مع الجانب الإسلامي زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما باشر بحصار طبرية في ربيع الآخر 583هـ/ 5جوان 1187م ومن أسباب ذلك الهجوم هو نقض ريموند كونت طرابلس عهده مع صلاح الدين والانضمام إلا جانب ملك بيت المقدس جاي دي لوزجنان[4]، لكن المصادر الإسلامية[5] تعزو ما قام به صلاح الدين من محاصرة لمدينة طبرية إلى رغبته في استفزاز الجيش الصليبي المعسكر في صفورية التي تعتبر من أحسن المواضع الملائمة لأن يقوم بها المعسكر الصليبي

1 العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،ص143-144، ابن الأثير،الكامل،ج10،ص175، أبو شامة، كتاب الروضتين،ج3،ص27-28،ابن و اصل، مفرج الكروب،ج2،ص271-272،محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية،ص142-143.

2 Ernoul ,op ,cit,p185.

3 رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص746.

4 Ernoul , La chronique d' Ernoul ,p 146.

عاشور، الحركة الصليبية ،ج2،ص84.

5 ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج10،ص 146، ابن شداد ، النوادر السلطانية،ص127 ،ابن واصل، مفرج الكروب،ج1،ص، أبو شامة، الروضتين، ج3،ص.179

لما توفر بها من الماء والمراعي لخيولهم، وإجبارهم على ترك مراكزهم والمسير إليه حتى يصلوا متعبين ويكون هو مدخرا جهده وجهد جنوده.

ولما كان الملك جاي لوزجنان يُتم تجهيزاته لمواجهة المسلمين في عكا تفطن إلى ضعف تحصين طبرية والتي كانت قريبة من أراضي المسلمين ولم تكن بها سوى الأميرة "إشيفا" دونما حماية فطلب من ريموند التوجه إليها لتحصينها ضد أي هجوم مفاجئ خاصة وأنه قد ترامى إلى مسامعه نية صلاح الدين في التوجه إليها، فبادر الأمير ريموند في التوجه إلى طبرية لتنفيذ ذلك الغرض وبالفعل قام بتحصين المدينة و تقوية أسوارها وإمدادها بالرجال والسلاح والمؤن وفي نفس الوقت نبه زوجته وأتباعه إذا ما رأوا خطر صلاح الدين فوق طاقة مقاومتهم فعليهم أن يستقلوا السفن ويتحصنوا بالبحر إلى أن تأتيهم النجدات[1].

أثناء اقتراب الجيش الصليبي من عكا وصلت رسالة عاجلة من طبرية كانت قد بعثت بها الأميرة "إشيفيا" تفيد أن صلاح الدين وصل بجيوشه إلى طبرية وشدد الحصار حول قلعتها، وفعلا نجحت خطة صلاح الدين إذ ثارت ثائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية وغاظ ذلك الفرنج فعقد زعماؤهم مجلسا للحرب في عكا لبحث الموقف وفي ذلك المجلس رأى بعض زعماء الفرنج وعلى رأسهم "رينو دي شاتيون" ومقدم الداوية "جيرارد دي ريدفورت" ضرورة الزحف من صفورية إلى طبرية لإنقاذها من قبضة صلاح الدين في حين أن البعض الآخر وعلى رأسهم ريموند الثالث نفسه قد رأى خطورة تلك العملية لصعوبة الطريق وقلة المياه، وكان من المفروض أن يكون ريموند الثالث على رأس المتحمسين للزحف على طبرية لإنقاذ المدينة وزوجته[2]ولكنه أدرك خطورة ذلك العمل وعبر عن رأيه بخطبة ألقاها على زعماء الصليبيين ذكر فيها الأدلة التي تدعم وجهة نظره وأهمها أن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا بعد الاستيلاء على طبرية وأنهم لن يلبثوا أن ينصرفوا إذا تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم، فإذا قرروا أن يزحفوا إلى الصليبيين في صفورية فإن الصليبيين سيكونون في مركز أفضل وأنه من الحماقة التخلي عن موقعهم الحالي والمخاطرة بالسير على جانب التل الأجرد في غيظ فصل الصيف، كما ذكر أن طبرية مدينته وأن زوجته هي من تتولى الدفاع عنها وأنه يؤثر أن تضيع طبرية بكل ما تحويه على أن تضيع المملكة الصليبية بكل جيشها[3].

فلما فرغ الأمير ريموند من حديثه عارضه كل من أرناط صاحب الكرك مقدم الداوية وأقنعوا الملك جاي لوزجنان بأن ريموند بالغ في التخوف من المسلمين وأنه يريدهم يميل إليهم خاصة وأنه سبق وأن فضلهم على بني جلدته حالفهم لأجل مصالحه ومصالح إمارته، فأمر ملك بيت المقدس جاي الجيش بالزحف على طبرية وما كان من حزب ريموند الثالث وكل من رأى رأيه أن يتبع أوامر الملك، هكذا بدأ الجيش الصليبي زحفه في ربيع الآخر 583هـ/جويلية1187م في

1 Eracle , OP,cit, p 47.

2Eracle , OP,cit, p 47, Ernoul , La chronique d' Ernoul ,p 146,Grousset, op,cit,p184-185

شوقي أبو خليل ،حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، دار الفكر، ط1،دمشق، ،2005،ص80،

[3] كما ذكر ابن الأثير ما جاء في خطبة الكونت ريموند الثالث أنظر: الكامل في التاريخ ،ج10،ص146

ظروف بالغة السوء من الحرارة الشديدة وقلة المياه وصعوبة الطريق، وفي نفس الوقت كانت ضربات صلاح الدين تتوالى على طبرية التي استطاع اقتحامها والاستيلاء عليها فيما عدا قلعتها التي احتمت فيها الأميرة إشفيا [1].

لما بلغ صلاح الدين خبر زحف الفرنج نحوه سُر بذلك وترك حصار طبرية وتقدم جهة الغرب عند قرون حطين بوصول الصليبيين إلى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك واشتد بهم العطش إضافة إلى الغارات الخاطفة التي شنها المسلمون على ذلك الجيش أثناء زحفه وأدت كل تلك الظروف مجتمعة إلى تحطم الروح المعنوية للصليبيين فلم يثبتوا أمام جيوش صلاح الدين وهزموا هزيمة كبرى[2].

لقد تم في حطين تدمير أضخم جيش للمملكة اللاتينية وأصبحت بدون مدافعين ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك إلا قطف ثمار النصر واستكمال مسيرته باستعادة الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون، وكانت بداية هذه الأعمال قلعة طبرية التي اتجه إليها في اليوم الموالي لموقعة حطين مباشرة يوم الأحد 25 ربيع الثاني/5 جويلية وتسلم القلعة من إيشيفا زوجة ريموند الثالث بعد أن حصلت على الإذن بالخروج سالمة مع متاعها وحاشيتها والاتجاه نحو طرابلس أين يتواجد زوجها ريموند الثالث[3] الذي نجا بأعجوبة من المعركة غير أنه توفي بعد ذلك بفترة قصيرة[4].

ب–البيزنطيون و المرأة الصليبية:

نمر إلى علاقة المرأة الصليبية مع البيزنطيين والتي لم تذكر عنها المصادر إلا ما شح من الحوادث ولعل أهمها ما كان بين الأميرة "بياتريس" زوجة جوسلين الثاني أمير الرها وبين الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين — كما سبق وذكرنا– فبعد سقوط إمارة الرها 539هـ/1144م على يد عماد الدين زنكي، تم لابنه نور الدين محمود أسر جوسلين الثاني 545هـ/1150م وكان أسره حافزا له للتقدم أكثر والتوغل فيما تبقى من أراضي إمارة الرها وحاصر عزاز واستولى عليها

---

1 Eracle , OP,cit, pp 49-50 , Ernoul, op, cit,p158.

رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص736–737،قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق و الغرب خلال القرن الثاني عشر و الثالث عشر الميلادي، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، ط1،بيروت، 1992،ص315.

2 و قد ألحق المسلمون خسائر فادحة بالصليبيين في هذه المعركة حيث دحر الجيش الميداني الصليبي و نتج نقص ملموس في الفرسان المحاربين بعد أن سقطت زهرة فرسان اللاتين و غالبية جيش مملكة بيت المقدس و بلغ عدد القتلى حوالي ثلاثين ألفا، و زاد عدد الأسرى عن ذلك و قيل أنه من شاهد القتلى يقول ما هنالك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هنالك قتيل، وقد حفظ صلاح الدين حياة غالبية الأسرى بما فيهم الملك جاي وأخوه الكندسطبل عموري وأخذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو بيعوا في الأسواق أو أتى من افتداهم فيما عدا أرناط الذي كان السلطان قد نذر دمه فقطع رأسه وكذا فرسان الداوية = =والإسبتارية الذين اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب فأمر بإعدامهم، وقد تم إعدام حوالي مائتي فارس منهم، وهكذا كانت نهاية المؤسسة العسكرية الصليبية.**أنظر**: وليام الصوري، ذيل وليم الصوري، ص64، ابن الأثير، الكامل ،ج10،ص144–146 ، ابن شداد، النوادر السلطانية،ص129،ألبير شاندور، صلاح الدين،ص202–206،جوناثان ريلي سميث، الإسبتارية،ص91–92،سهيل زكار،حطين،ص161.

3 الأصفهاني، الفتح القسي،ص48،ابن الأثير، الكامل، ج10،ص149،ابن واصل، مفرج الكروب،ج2،ص195–196،ابن خلدون،العبر،ج5،ص357، ألبير شاندور، المرجع السابق ،ص 214،محمود سعيد عمران، المرجع السابق،ص134،أحمد الشامي، المرجع السابق،ص131.

4 توفي ريموند الثالث في نهاية عام583هـ/1187م بعد فراره من حطين و لم يلبث أن خر مريضا بالالتهاب البلوري ، و يعتقد البعض أن ما حل به من مرض كان بسبب احساسه بالأسى و العار، لم ينجب ريموند أبناء لذا أوصى بإمارة طرابلس من بعده لريموند ابن بوهيمند الثالث أمير أنطاكية و هو ابنه بالمعمدانية و يعتبر أدنى قريب له من الذكور ، و بذلك انتهى عهد الأسرة البروفانسالية في طرابلس و أضيفت إلى أملاك بوهيمند الثالث ،**أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص759.

في ربيع الأول 545هـ/ 1150بالأمان[1]، كما هاجم سلطان قونية مسعود الأول بن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم إمارة الرها فاضطر بعض الأهالي إلى تسليم ما بحوزتهم من حصون شريطة خروجهم سالمين إلى تل باشر التي كانت مقرا لحكم جوسلين الأسير ومن ثم صارت تل باشر من أكثر الأماكن ازدحاما بالصليبيين الرهويين وأقلها اضطرابا سياسيا وعسكريا[2].

أمام كل تلك الضغوطات أدركت الأميرة "بياتريس" دقة الوضع وأن العاقبة تنذر بانتزاع المسلمين لباقي مدن الإمارة واستعدت للتخلي عن بلادها للجانب المسيحي الأقوى، فتنازلت سنة 545هـ/ 1150م عن قلعة الروم إلى جريجوار الثالث الكاثوليكوس الأرميني (1113 هـ/1166م)، وأصبحت تلك القلعة مقرا لأتباعه حتى عام693هـ/ 1293م عندما انتزعها منهم سلاطين المماليك في مصر[3]، فلما علم الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين ما آل إليه حال الرها بعث مندوبا إلى الأميرة بياتريس يعرض عليها أن تتنازل عما تبقى بيدها من أقاليم في كونتية الرها للبيزنطيين نظير تعويض مالي كبير من الإمبراطور البيزنطي لأنه كان الأجدر على صد هجومات نور الدين، ويبدو أن الدافع الحقيقي وراء عرض الإمبراطور البيزنطي هو رغبته الدفينة في استعادة تلك الأجزاء القديمة من إمبراطوريته دون كثير من العناء والمشقة، كذلك تقوية حدود إمبراطوريته بتلك التخوم فيصبح من السهل عليه الوصول إلى مراكز المناوئين له في بلاد الشام من مسلمين و صليبيين[4].

وافقت الأميرة بياتريس على عرض الإمبراطور بعد استشارة الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الذي فضل هو ورجال مملكته أن تنتقل تلك المناطق إلى جوزة البيزنطيين على أن تسقط في قبضة المسلمين، وتمت الاتفاقية بين الإمبراطور البيزنطي وصليبي الشرق حول بيع تلك المعاقل وهي" تل باشر و الروندان وعينتاب وبموافقة "بياتريس"و أبنائها القُصر وفي موعد التسليم توجه الملك بلدوين الثالث إلى الإمارة مصطحبا معه أمير طرابلس ريموند الثاني ونبلاء المملكة الصليبية وأمراء أنطاكية ومكث في تل باشر ينتظر رسل الإمبراطور مانويل كومنين الذين أسبغوا حمايتهم على الأميرة بياتريس وأبنائها، كما شملت حمايتهم أهالي تلك المناطق من أرمن ولاتين، ومن ثم تم تسليم القلاع الصليبية للبيزنطيين[5].

إن تلك الاتفاقية مثلت دليلا على عجز كلا من الأميرة بياتريس في إدارة بلادها والملك بلدوين الثالث في الوصاية على تلك البلاد حيث قبل ببيعها دون أن يحرك ساكنا وكأنه أزال عبئا على كاهله وهكذا تسلم البيزنطيون بقايا إمارة الرها أما غالبية سكانها ومعهم زوجة جوسلين وأولاده فقد صحبهم الملك بلدوين الثالث معه إلى بيت المقدس، على أن انتقال بقايا إمارة الرها الصليبية إلى أيدي البيزنطيين قد شجع نور الدين على المضي قدما لاستخلاص كافة أرجاء تلك

1 ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص 480، ابن العديم ، زبدة الحلب،ج2،ص302، ابن الكثير، البداية و النهاية،تحقيق:جودة مُحَمَّد جودة و مُحَمَّد حسني شعراوي ،ج11، دار ابن الهيثم،ط1،القاهرة، ص 179

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص799.

3 Grégoire le prêtre , Chronique de Grégoire le prêtre ,154.

علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية،ص333.

4 حسن حبشي، نور الدين و الصليبيون، ص77.

5 وليام الصوي، تاريخ الحروب الصليبية ج2،ص803 ، يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس ،ص141

الإمارة ال&محطمة ووضعها تحت سلطة المسلمين خاصة وأن البيزنطيين الذين عهد إليهم مهمة حماية ذلك بقايا إمارة الرها كانوا غير راغبين في الحرب مما جعل نور الدين يشدد هجماته عليهم حتى اضطرهم للانسحاب عن تلك الأراضي التي ضحوا من أجلها بأموال طائلة[1].

ج- النساء الصليبيات والأرمن:

أما عن علاقة المرأة الصليبية سياسيا بالأرمن فقد تمثلت في الأميرة "سبيل" " Sibylle" زوجة الأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، فعندما تولى الأمير ليو الثاني عرش أرمينيا عام 582هـ/1186م توالت هجمات التركمان على أرمينيا وشمال الشام فتوطدت العلاقة بينه وبين بوهيمند الثالث، كما تزوج ليو الثاني شقيقة "سبيل" زوجة بوهيمند[2] وكانت تلك الصداقة دافعا لبوهيمند في أن لا يتحرج من اقتراض مبلغ ضخم من ليو، ومضت الأحداث حتى أغار صلاح الدين على أنطاكية وهنا إلتزم ليو الحياد ولم يتدخل ودمر صلاح الدين حصن بغراس[3] واستولى عليه من الداوية في شعبان 584هـ/ سبتمبر 1188م[4]وبرحيل صلاح الدين عنه تمكن ليو من الاستيلاء عليه سنة 587هـ/ 1191م وحصنه بدلا من رده إلى فرسان الداوية، فأثار ذلك مخاوف بوهيمند حيث كان حصن بغراس يحمي مدخل الإمارة الشمالي فلما كاتب بوهيمند ليو في إعادة الحصن أجابه بالرفض القاطع عندئذ تقدم إلى صلاح الدين عارضا عليه شكواه مما أثار غضب ليو الثاني منه[5].

هنا قرر ليو الثاني حاكم أرمينيا الانتقام من بوهيمند الثالث خاصة وأنه قد قام سابقا بأسر شقيقه روبين الثالث[6]، الثالث[6]، واستطاع أن يحبك له مكيدة بمشاركة سيبيل زوجته التي وعدها بمساعدة ابنها وليم على يتولي حكم أنطاكية دون ريموند وبوهيمند أبناء زوجها من زوجته الأولى، فأرادت سبيل الاستفادة من ذلك الصراع وآثرت الوقوف إلى جانب حاكم أرمينيا ضد زوجها لتحصيل مصالحها ومصالح ابنها وبالفعل في رمضان 589هـ/ 1193م اقترح ليو لقاء لإنهاء مشكلة حصن بغراس فحببت سبيل لزوجها الذهاب لإنهاء الخلافات بينهما فلبى بوهيمند الثالث الدعوة دون أن ينتبه لما يدبر له في الخفاء واصطحب معه زوجته و ابنها إلى بغراس أين تم اعتقاله مباشرة مع الجزء الأكبر من حاشيته واشترط ليو

---

1 Archer, op,cit,p206,

علية الجنزوري، إمارة الرها، ص334-335 .

2 حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية،ص206.

3 **حصن بغراس**: قلعة مرتفعة و هي على طريق الثغور جهة شمال بلاد الشام بينه و بين أنطاكية ما يقارب العشرين كيلومتر، وهذا الحصن قد بني في الجبل المطل على قلعة حارم من جهة الشرق و هو جنوب دربساك ،**أنظر:** أبو الفداء، تقويم البلدان،ص259.

4 ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج10،ص184، أبو شامة،الروضتين،ج3،ص114.

5 رنسيمان، المرجع السابق،ج3،ص162.

6 بعد موت مانويل كومنين سنة 576هـ/ 1180م حدث صراع على الحكم داخل الإمبراطورية البيزنطية و تدخل روبين الأرميني شقيق ليو الثاني إلى جانب الطرف المعادي لبوهيمند وأخته ماريا أرملة الإمبراطور استدعاه بوهيمند الثالث سنة 581هـ/ 1185م متظاهرا بالاتفاق معه و اعتقله ما جعل ليو الثاني شقيق روبين يدفع فديته إلى بوهيمند حيث تنازل له عن (أذنة و المصيصة وطرسوس وغيرها من القلاع أي ما يقرب من نصف السهل القيليقي) وما أن عاد روبين إلى قيليقية حت استعاد كل تلك المناطق من الصليبيين ولم يستطع بوهيمند إلا القيام ببعض الغارات دون جدوى. **أنظر**: حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية،ص204.

في مقابل إطلاق سراحه أن يسلم له بوهيمند أنطاكية، وبالطبع أوهم ليو "سبيل" بأن حكم الإمارة سيكون لابنها وذلك بعد إتمام سيطرته عليها[1].

أرسل حاكم أرمينيا من ينوب عنه لتسلم مدينة أنطاكية وكان هيثوم Hethoum حاكم سيس زوج أليس ابنة أخيه روبين وبصحبته اثنين من أتباع بوهيمند منهما مارشال أنطاكية بارثاليو Barthelelmy مع جنود من الأرمن إلى أنطاكية، وهنا انقسم الرأي الأنطاكي على نفسه بين مؤيد لتلك السياسة ومعارض لها، فكان الفريق المؤيد ممن تجري في عروقهم الدماء الأرمينية ويدينون بالولاء للأرمن بينما كان الفريق المعارض من اللاتين واليونان والبيزنطيون فقد سهل النبلاء الذين من أصل أرميني" لبرثيلميو" مبعوث" ليو" الدخول للمدينة لكن قامت ثورة بقيادة النبلاء اللاتين اجتاحت المدينة وأجبرت الأرمن على الخروج من أنطاكية واجتمع أهل أنطاكية بقيادة البطريرك أيمر دي ليموج Aymeri deLimoge في كنيسة القديس بطرس وأقسموا يمين الولاء لريموند الابن الأكبر لبوهيمند الذي أرسل إلى أخيه بوهيمند حاكم طرابلس للقدوم لمساعدته ضد الأرمن ولم يجد "ليو" بدا من التراجع بعد نهب ضواحي أنطاكية[2].

وهكذا انتهى أمر الأميرة سبيل التي تلقت ضربة قاضية جزاء خيانتها فلم يتم لها ما أرادت من تنصيب ابنها بل الأشد قسوة أنها خسرت كل شيء، مكانتها كأميرة وزوجها الذي ساقته بنفسها إلى الأسر وابنها الذي فقد حقوقه في إمارة أنطاكية فخرجت بذلك خاوية الوفاض .

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج3،ص126

2 Ernoul , La chronique d' Ernoul , p343,

حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص238-239.

الفصل الرابع:

مساهمة المرأة في الحياة العسكرية و الدينية للصليبيين في بلاد الشام

أولا : الدور العسكري للمرأة الصليبية.

ثانيا : الحياة الدينية للصليبيات.

أولا: الدور العسكري للمرأة الصليبية:

المبحث الأول: المرأة الصليبية في ميادين القتال:

إن المشاركة القتالية للمرأة الصليبية قد ظلت مثار جدل بين المصادر التاريخية التي ركزت على دور الرجال وإنجازاتهم في ساحات القتال وحصروا دور النساء في إشارات متناثرة هنا وهناك عبرت عن بعض الأدوار الثانوية لها والمساعدة للرجل، غير أننا لا نستطيع إغفاله دور المرأة الصليبية كمقاتلة بدعوى أنه لا يضاهي دور الرجال فلو تتبعنا فاعلية النتيجة لوجنا أن له قيمة فعالة وإيجابية في أحداث الحروب الصليبية بالشرق.

منذ بداية الدعاية للحروب الصليبية على يد البابا أوربان الثاني والنساء تتوافد مع الحملات الصليبية القادمة للشرق، حيث شاركت الصليبيات في حصار نيقية سنة 491هـ/ 1097م ودارت بين الجانبين السلجوقي والصليبي حروب عنيفة، جعلت النساء تقاتل بحماسة جنبا إلى جنب مع الرجال حتى أضعفوا المدينة وقاربت على السقوط[1]، فقد سجل صاحب كتاب أعمال الفرنجة عن مشاركتهن في أثناء حصار نيقية بقوله " إن نساءنا أسدين إلينا في ذلك اليوم معونة عظمى ويدا مشكورة إذ حملن الماء لرجالنا ليطفئوا ظمأهم ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع "[2] ومما يؤكد بلاء النساء في هذا الحصار الذي استمر قرابة خمسة أسابيع ما ورد على لسان وليام الصوري [3]"كما قتل في تلك المعركة أربعة آلاف من عامة شعبنا من ذوي المنزلة الدنيا من الرجال والنساء على حد سواء".

كما ظهر دور النساء الفرنجيات عسكريا في حمل السلاح والقتال إلى جانب الجند في التصدي للمقاومة الإسلامية أثناء حصار الصليبيين لبيت المقدس في رجب 492 هـ/ جوان 1099م، حيث يصف وليام الصوري[4]شجاعتهن بقوله "واجترأت حتى النسوة بصرف النظر عن جنسهن أو وضعهن الطبيعي على حمل السلاح وحاربن بشجاعة بشكل يفوق طاقتهن...." ، كما ساهمت إلى جانب ذلك مساهمة فعالة في نصب الأبراج وصناعة آلات الحصار بغية تشديد الحصار على المدينة وتسريع الاستيلاء عليها، ويوضح ألبرت أوف آخن[5] كيف تم جمع النساء والأطفال والمشتغلين في أدوات الحصار في مكان واحد، وبدأوا بصنع مواد لحماية أبراج الحصار والآلات الأخرى من نيران المسلمين.

وكان من أثر إقدام المرأة الصليبية في حصار المدينة المقدسة بهذه الجرأة والروح العالية أنها قد زادت من معنويات الفرسان و الجنود، وكانت عاملا قويا من عوامل الحث والتحريض على اقتحام مدينة بيت المقدس من خلال ما أبدته النساء الصليبيات من حماس منقطع النظير، واستعدوا جميعا رجالا ونساء لشن هجومهم الكبير يوم الجمعة 23 شعبان 492 هـ/ 15 جويلة 1099م وتمكنوا من اقتحام المدينة والاستيلاء على ثرواتها ومصادرة بيوتها وكان الحصار قد دام ما

1 فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ص47.

August.c.Krey ,The first crusade, p102.

James .M.ludi.w.DD.LHD,The age of the crusdes, p92-93.

2 المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة ،ص39.

3 تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص 243.

4 تاريخ الحروب الصليبية،ج1، ص427.

5 تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ص134.

يقارب أربعين يوما، وقد جرت مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون مقاتلين ومقاتلات بحق سكان المدينة الآمنين من الشيوخ والنساء والأطفال[1].

لم تتوقف الصليبيات في القتال إلى جانب الرجال حتى بعد أن استوطنوا بلاد الشام، حيث قتل عدد كبير من النساء الصليبيات وأسر الكثير منهم في أثناء المعارك التي دارت بيت المسلمين والصليبيين، وذلك في الأحداث التي صاحبت هجوم السلاجقة على الصليبيين في مطلع عام 495هـ/1102م قبيل استيلاء الصليبيين على طرسوس[2]، حيث يذكر فوشيه الشارتري[3] " أنه قد ذبح النساء وحمل بعضهم معهم، وقد هلك كثير من الفرنجة الذين فروا هائمين في الجبال من الجوع والعطش.

برز دور المرأة الصليبية كمقاتلة حينما حاصر الفاطميون مدينة يافا 517هـ/ 1123م منتهزين فرصة أسر الملك بلدوين الثاني، وكان أن حشد الفاطميون حملة كبيرة في عسقلان اتجهت لحصار يافا وقد ثقل عبء الحصار على الرجال الصليبيين لقلة عددهم وصغر الحامية الصليبية في المدينة واشتداد حصار الفاطميين لهم برا وبحرا حيث حاصروا يافا من كل جانب[4]، وما زاد الأمر سوء عليهم حين وجه الفاطميون المجانيق القوية نحوهم والتي مكنتهم من توجيه قذائف ذات مدى بعيد، وهنا كان لابد لصليبي يافا اتخاذ التدابير اللازمة لصد ذلك الهجوم فشاركت حتى النساء بكل ما يمتلكنه من شجاعة مع الرجال في الدفاع عن المدينة وقاتلن بكل قوة كما كانت بعضهن تقدمن الحجارة والأخريات يقدمن المياه للشرب[5].

مما نستشف منه أن المرأة الصليبية كانت تقف في ميادين القتال كالرجال برغم الضغط الشديد الذي مارسه الفاطميون لإسقاط المدينة، وأنها تساهم بكل ما يمكن المساهمة به من مشاركة في القتال أو إسعاف للجرحى أو حتى تقديم المياه للمحاربين، غير أنه وفي الوقت الذي أوشكت يافا على الاستسلام إذا بنجدة صليبية تأتي لإنقاذها مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى "يبنا "على الطريق بين يافا وعسقلان حيث دارت بينهما معركة حاسمة هزم فيها الفاطميون شر هزيمة[6].

برز دور قتالي آخر للمرأة الصليبية حين بدأ عماد الدين زنكي حصاره لمدينة الرها الصليبية سنة539هـ/ 1144م وعند ذلك لم تتوان المرأة الصليبية في الدفاع عن المدينة ضد ذلك الحصار الشديد الذي فرضه زنكي حيث سد في وجه المحاصرين كل سبل الخروج أو الدخول للمدينة للحصول على أي مؤن، ووصلت قسوة تشديد الحصار إلى " أن الطائر لا

1 ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 222 ، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 19، ابن كثير، البداية و النهاية،ج7، ص 122، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 23، قاسم عبده قاسم، الجملة الصليبية الأولى، ص 25. ، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 119.

Setton , A History , Vol 1 , p 377 .

2 **طرسوس** : و تسمى كذلك بأنطرطوس وهي مدينة بين حلب وأنطاكية، كانت من الثغور و تقع على ساحل بحر الشام، **أنظر**: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص152، البغدادي ، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع ،ج3،ص883.

3 تاريخ الحملة إلى القدس، ص123.

4 عاشور، الحركة الصليبية ،ج1،ص404

5 فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس ، 196ص

6 Stevenson, the crusaders in the East , 114.

يكاد يقترب منها – الرها – خوفا على نفسه من صوائب سهام منازليها ويقظة المضيقين عليها "[1] فما كان من النساء إلا أن وقفوا جنبا إلى جنب مع الرجال وحملوا الحجارة والطعام لرهبان الجبل المدافعين عن أسوار المدينة إلا أن جهودهم ضاعت هباء حيث استطاع زنكي في نهاية الأمر أن يستولي عليها في 26 جمادى الآخرة 539هـ/ 23 ديسمبر 1144م[2].

إن ما حدث للرها جاء بعد أن توانى حاكمها جوسلين الثاني عن الدفاع عنها وآثر البقاء في تل باشر منتظرا المدد من أنطاكية وبيت المقدس ومعتمدا على تحصينات المدينة التي لم تفد إلا قليلا لعدم وجود من يدافع عنها خاصة وأن جوسلين لما تحرك تجاه تل باشر كان مصحوبا بمعظم رجاله البارزين من اللاتين في حاميته وأكثر رجاله شجاعة، في حين ترك الرها بدون حامية ومؤن كافية فكانت مهمة الدفاع عن المدينة للمسيحيين الوطنيين الذين كان أغلبهم تجارا تحت توجيه أساقفتهم، ما أجبر الكثير من النساء للتدخل والدفاع عن المدينة إلى جانب الرهبان[3].

ومن الأدوار التي أدتها المرأة الصليبية في القتال أنها قامت بمحاولة الدفاع عن بيت المقدس قبل تسليمها إلى صلاح الدين عام 538هـ/1187م، حيث تبرز قصة "مارغريت من بروفانس" التي قدمت إلى الأراضي المقدسة بصحبة أخيها زمن حصار صلاح الدين لبيت المقدس فاشتركت في الدفاع عن المدينة و شهدت تسليمها للمسلمين ودفعت الفدية عن نفسها للخروج من المدينة سالمة ومقدارها خمسة دنانير ثم انتقلت إلى طرابلس، وشاركت مع المقاتلين في حصار عكا وساهمت في جلب المياه للجنود المحاصرين لصلاح الدين عند الأسوار، كما ساعدت نساء الفرنج في جر آلات الحصار وملئ الخنادق بالماء، فأصيبت بجروح نتيجة لتعرضها لسهم من سهام المسلمين ثم وقعت في الأسر[4].

وقد أثرتنا المصادر العربية والإسلامية وسلطت الأضواء على الأدوار العسكرية التي أدتها المرأة الفرنجية من خلال مشاركتها في القتال إلى جانب الرجال، وفي هذا السياق أورد المؤرخ أسامة بن منقذ رواية طريفة تكشف عن جرأة المرأة الصليبية كمقاتلة ملخصها أنه كان من أمراء مصر رجل يقال له "ندى الصليحي" في وجهه ضربتان الأولى من حاجبه الأيمن إلى شعر رأسه والأخرى من حاجه الأيسر إلى حد شعره، فسألته عنهما فقال:[5]" كنت أنهض وأنا شاب في عسقلان وأنا راجل فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الإفرنج فصادفنا قوما منهم، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأة معها كوز خشب فيه ماء فطعنني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته فقتلته، فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي فجرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي ".

وفي سياق الأحداث التي أعقبت استرداد بيت المقدس من الصليبيين سنة 583هـ/1187م تحركت جيوش صلاح الدين لحصار عكا، وضمت حشود الفرنج عددا كبيرا من النساء اللاتي شاركن إلى جانب الرجال في قتال المسلمين وفي

---

[1] ابن القلانسي ، تاريخ دمشق،ص436.

[2] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص120.

3 علية الجنزوري، إمارة الرها ،ص306-307.

[4] Helen j. Nicholson , Women and the crusades ,p 8.

محمد عبد النعيم محمد عبده، دور المرأة الأوروبية العسكري في الحروب الصليبية، ص51.

5 أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 128-129.

هذا السياق يذكر ابن الأثير[1]" أنه قد عظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء وأنهم كانوا معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران"، كما ذكر ابن واصل[2] "أنه قد خرجت النساء من بلادهن متبرزات وسرن إلى الشام متجهزات"،أما ابن كثير[3] فقد ذكر في هذا الصدد " أن الفرنج خرجوا من بلادهم لنصرة دينهم ونبيهم ....حتى النساء المخدرات والزواني والزانيات الذين هم عند أهليهم من أعز الثمرات" ووصل الأمر مع اشتعال نار القتال وشدة وطيسها أن قاتلت النساء بضراوة غير عابئات بما يلحقهن من ضرر سواء من القتل أو من الأسر، ومما ترويه المصادر الإسلامية[4] في هذا الصدد أنه قد تم للمسلمين أسر ثلاثة من الفرسان كانوا يقاتلون بضراوة على ظهر الخيل فلما تكشف عنهم اللثام إذا بالمسلمين يتفاجؤون بكونهم ثلاثة من النسوة.

لفتت مشاركة المرأة الصليبية في الحروب انتباه المؤرخ الأصفهاني[5]، حيث أشار إلى أن النساء الإفرنجيات كن يقتدين بالفرسان ويقاتلن فلا يرتدين إلا السوابغ في أثناء الحروب وهو ما عبر عنه بقوله "وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس "وقال أيضا "وكن في زي الرجال، ويبرزن في حومة القتال ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال، وكل هذا يعتقدنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهن عادة"، كما أشار كذلك إلى فعالية مشاركة النساء الإفرنجيات أثناء حصار المسلمين عكا فقال" وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليست لهن سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سُبلن وعرين، ومنهن عدة أستبين وأشترين"، كما ذكر وجود النساء الصليبيات في أرض المعركة حيث قال " فركبت والقاضي بهاء الدين بن شداد لمشاهدة القتلى وهم صرعى بعد موقعة عكا ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة".

كما أكد ابن شداد[6] على مشاركة النساء الصليبيات في قتال المسلمين وانخراطهن في صفوف القتال إلى جانب الرجال، وأنهن دافعن بقوة من أجل الحفاظ على ما تبقى من أملاك الصليبيين خاصة بعد استرداد بيت المقدس من طرف المسلمين، وكان ذلك خاصة في روايته عن حصار عكا حيث نقل عن جندي مسلم شارك في المعركة " أن امرأة افرنجية كانت تقاتل المسلمين بضراوة وترتدي ملوطة خضراء (عباءة خضراء) فمازالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة، وتكاثرنا عليها، وقتلناها وأخذنا قوسها، وحملناها إلى السلطان صلاح الدين فعجب من ذلك عجبا عظيما".

ولم تغب في الروايات التاريخية الغربية قصص البطولات النسائية في الحروب، فنجد روايات عديدة تصف النساء وهن يتخفين بالزي الموحد للجنود الذي كان يخفي الاختلافات الجسدية بين الذكر والأنثى، كما أسهمت الخوذة في اخفاء شعرها وملامح وجهها حيث لم تكن تعرف إلا من شعرها في حال خلعت الخوذة – وهو ما أكدته المصادر

1 الكامل في التاريخ، ج10، ص183.

2 مفرج الكروب،ج2، ص333.

3 البداية و النهاية، ج 12،ص.269

4 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10،ص 185، ابن واصل، مفرج الكروب،ج2،ص308، النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب،ج28،ص419.

5 الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 188.

6 النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية، ص167.

الإسلامية سابقا – ما جعل قادة الفرق العسكرية لا يميزون الرجل من المرأة بين جنودهم[1] حيث يذكر المؤرخ المجهول[2] مشاركة النساء في الحروب ضد المسلمين حيث قال "حتى النساء حاربت كالرجال بجانب إخوتهن في السلاح، ولم يتوقفن إلا بعد أسرهن".

لم تنقطع وفود النساء الصليبيات إلى الشرق بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس، حيث وصلت إحدى السفن إل عكا أثناء حصارها وعلى متنها ثلاثمائة امرأة صليبية من أجمل النساء، خرجن بنية المشاركة في القتال وإلتزمن ألا يمنعن من أراد وطأهن من مقاتلي الفرنج زاعمات أن في هذا العمل قربة ما فوقها قربة، كما كان منهن من كانت قد استقلت السفن كي تكون راحة الغرباء لينكحوها في الغربة فيجدون راحة وخدمة وقضاء وطر[3].

كما وصلت من جهة البحر امرأة صليبية ذات شأن كبير بصحبتها خمسمائة فارس بكل ما يحملون معهم من معدات وخيول وأتباع وكانت تلك المرأة قد وهبت نفسها لخدمة ورعاية ذلك الحشد فأمدتهم بكل ما يحتاجون إليه من المؤن والعتاد موفرة لهم كل سبل الإقدام على القتال ويذكر الأصفهاني[4] ذلك بقوله:" ألقت الريح إلى ساحل الزيب[5] بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان النساء، وفيها امرأة محتشمة، غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت".

يتبين دور المرأة الصليبية عسكريا أيضا من خلال الدفاع عن القلاع والحصون ومن ذلك ما حدث في عام 583هـ/1187م قبيل معركة حطين عندما قامت الأميرة "إشيفا" صاحبة طبرية وزوجة ريموند الثالث كونت طرابلس بالدفاع عن طبرية في أثناء محاصرة صلاح الدين لها، ورغم ما بذلته الأميرة من جهود لتحصين المدينة ومقاومة سقوطها في يد المسلمين إلا أن صلاح الدين دخلها فاحتمت في قلعتها هي وأبناؤها[6]،و قد كان صلاح الدين يسعى من خلال اقتحام طبرية أن يجبر جيش الفرنج للتحرك نحوه ومحاولة انقاذ طبرية وأميرتها و بالفعل نجحت خطته ووقع الفرنج في الفخ الذي نصبه لهم صلاح الدين وتمكن من الانقضاض عليهم في معركة حطين الشهيرة[7]، أما الأميرة "إشيفيا" فقد استماتت

---

1 Nicolle.D, Medieval Warfare Source book : warfare in Western Christendom UK: Brockhampton Press,2004,p251

J.F Verbruggen, Women in Medieval Armies, Journal of medieval Military History, Vol VI, Boydell press,2006,p120,

عذاري بنت ابراهيم الشعيبي، دور المرأة الغربية في الحروب الصليبية من خلال كتابات المؤرخين الغربين، ص141.

2 الحرب الصليبية الثالثة،ج1،ص137.

3 ابن كثير، البداية و النهاية ،ج12،ص269-270.

4 الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص188.

5 **الزيب**: وهي قرية كنعانية عرفت باسم أكزيب، عرفها الفرنج باسم أمبرت نسبة إلى الفارس الصليبي الذي استولى عليها سنة 497هـ/ 1104م ، تقع على مسافة 14 كم شمال عكا، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج3، ص162.

6 Ernoul , La chronique d' Ernoul ,p 146, Natacha, op,cit,p122,

عاشور، الحركة الصليبية ،ج2،ص84.

7 ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج10،ص 146، ابن شداد ، النوادر السلطانية،ص127 ،ابن واصل، مفرج الكروب،ج1،ص196، أبو شامة، الروضتين، الروضتين، ج3،ص.179

استماتت في الدفاع عن قلعتها لكن الهزيمة الكبيرة للصليبيين في حطين جعلتها تسلم المدينة لصلاح الدين بالأمان بعد أن حصلت على الإذن بالخروج سالمة مع متاعها وحاشيتها واتجهت نحو طرابلس أين يتواجد زوجها ريموند الثالث[1].

ساهمت المرأة في أعقاب معركة حطين 583هـ/1187م في مقاومة الحصار الذي فرضه صلاح الدين وجيشه على مدينة بيت المقدس خاصة وأن عدد المحاربين كان قليلا فخاضت النساء حروبا عدة مع المدافعين عن أسوار المدينة، كما أصيب بعضهن في أثناء هذا الهجوم، ويبدو أن حروب الحصار هي الأكثر مناسبة لمشاركة المرأة القتالية المباشرة وذلك لأن طبيعة الحصار لأي مدينة محصنة يتطلب منع دخول أو خروج أي أشخاص أو مواد منها والنجاح في ذلك مرهون بعدد فارضي الحصار ومدى صبرهم ومعرفتهم بالمناطق المحيطة وسكانها فكلما زاد عدد المحاصرين كانت فرصتهم بالنجاح أكبر، وقد ساهمت النساء في زيادة عدد المتصدين للحصار[2].

إضافة إلى الدفاع عن القلاع والحصون، فمنذ قدوم المرأة الصليبية إلى الشرق لعبت دورا بارزا في ميادين القتال تمثل في الدعم العسكري المساند والمقصود به قيامها بأدوار مساندة في وسط المعركة وأثناء الحروب و ذلك في جوانب عدة منها ما قدمته للجنود الصليبيين من خدمات كمساعدة المحاربين في أثناء المعركة فيحضرن لهم الطعام ويجلبن الماء إلى ساحة القتال وهو أمر بالغ الأهمية لاسيما في مناخ الشرق الحار حيث يعد في كثير من الأحوال من أسباب نصر الصليبيين في بعض المعارك كحصار يافا سنة 517هـ/1123م مثلا، كما كن يسعفن الجرحى ويحثون المحاربين على القتال وكانت هنالك عاملات للغسيل والنظافة وتلبية الاحتياجات الجنسية للجنود إذا لزم الأمر[3].

ومن الأوجه الأخرى للدعم العسكري المساند ما قامت به المرأة الصليبية من المساعدة في تعبئة الخنادق التي كانت تحيط بالمدن المحصنة بالماء والتي كان ينوي الصليبيون اجتياحها وذلك لتسهيل وصول الجنود إلى جدرانها وقد سجل المؤرخ المجهول[4] حادثة وفاة امرأة كانت تعمل على خندق مدينة عكا فتحمل التراب وتسعى لطم الخندق حول المدينة ليسهل الاستيلاء عليها، ولم تقصر المرأة في عملها لكنها أصيبت بسهم جاء من ناحية رماة المسلمين فسقطت تتلوى من شدة الألم الذي أصابها فلحقها زوجها وكثير غيره من العاملين على الخندق فتحدثت إليهم بصوت واهن و توسلت إلى زوجها بحق رباط الزوجية المقدس الذي يربط بينهما منذ أمد بعيد ألا ينقل جثمانها من البقعة التي سقطت فيها وأنها لن ترتاح بعد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى يفرغ العمل الذي بين أيدينا الآن وطلبت أن لا ينقل جثمانها من ذلك المكان وأن يكون الخندق قبرا لها، وهذه الحادثة تبين الحماسة الدينية الكبيرة التي كانت تتشبع بها النساء الصليبيات.

أما النساء غير المحاربات والعجائز فقد لعبوا أدوارا هامة في الاستراتيجية المعنوية للحرب الصليبية وهو رفع الروح المعنوية وتحريض المحاربين على مواصلة القتال وبث الحماسة في نفوسهم، كما كانوا يتضرعون للرب بالدعاء بينما يحارب

1 الأصفهاني، الفتح القسي،ص48، ابن الأثير، الكامل، ج10،ص149،ابن واصل، مفرج الكروب،ج2،ص195-196،ابن خلدون،العبر،ج5،ص357، ألبير شاندور، المرجع السابق ،ص 214،محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية،ص134،أحمد الشامي، المرجع السابق،ص131.

2 عذاري بنت إبراهيم الشعيبي، دور المرأة الغربية في الحروب الصليبية من خلال كتابات المؤرخين الغربيين،ص151-152.

3 J.F Verbruggen, Women in Medieval Armies, Journal of medieval Military History ,p120.

4 الحملة الصليبية الثالثة،ج1، ص137.

الرجال اللائقون جسديا، بل كن يعتبرن المشاركة في القتال عبادة[1]،حيث يذكر الأصفهاني[2] عن هذا الصدد " أما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز، وهن يشددن تارة وينخين وقلن أن الصليبي لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء له إلا بالفناء، وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء".

ومن أبرز الأمثلة عن دور المرأة في تحفيز النبلاء والفرسان الصليبيين وإثارة حماستهم للقتال والاشتراك في الحملات الصليبية على الشرق ما قامت به الأميرة أديلا Adelea زوجة الأمير ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى عام490هـ/ 1096م، والذي كان قد فر من أنطاكية لدى حصار المسلمين لها سنة 491هـ/1097م وتقاعس عن واجبه المقدس – من وجهة نظرهم-[3]،بحجة طول فترة الحصار وأبحر إلى بلاده فرنسا وقد سجل فوشيه الشارتري[4] أسفه وحزنه لمغادرة ستيفن ميدان المعركة، حيث قال " ثم ترك ستيفن بلوا الحصار وأبحر إلى دياره في فرنسا، وقد أصابنا جميعا الأسى لذلك، لأنه كان رجلا عريقا نبيلا شديد البأس، وفي اليوم التالي لسفره استسلمت مدينة أنطاكية للفرنجة ولو أنه ثابر لأصابه فرح عظيم مع الآخرين إذ أن فعلته جلبت عليه الاحتقار، فالبداية الحسنة لا تجدي المرء إن لم ينته نهاية حسنة"، وعند وصوله لدياره أنبه العديد من الأشخاص على فراره فدفعته زوجته أديلا لمحو ذلك العار بالمشاركة في حملة صليبية جديدة على الأراضي المقدسة وذلك سنة 495هـ/ 1101م[5].

لقد لعبت الأميرة "أديلا" دورا هاما في تحفيز زوجها وحثه على العودة إلى الأراضي المقدسة مرة أخرى لينقذ سمعته وسمعة عائلته من العار الذي تلطخت به جراء فعلته، وأخيرا وتحت ضغوط أديلا و إلحاحها التحق ستيفن بمملكة بيت المقدس واشترك مع الملك بلدوين الأول في هجومه الثاني على الرملة[6] في شعبان 495هـ/ ماي 1102م وقد هرب الملك الصليبي وأوقع المسلمون بقيادة شرف المعالي بن الوزير الفاطمي الأفضل بالقوة الصليبية وأمعنوا فيها قتلا، فكان ستيفن كونت بلوا من بين القتلى، وبعد مقتل ستيفن في المعركة تغير الموقف تجاهه كليا فالذين هاجموه بعد فراره رثوه وأسفوا لمقتله، وأنه ينبغي عدم إثارة إثمه السابق ضده لأنه أنقذ سمعته بمثل هذه النهاية الرائعة ،فذكر فوشيه الشارتري[7] " " أه كم خسرنا من النبلاء والشجعان الفرسان في تلك الكارثة.....فقد قتل ستيفن بلوا الرجل الشجاع النبيل "، أما "أديلا" فبعد مقتل زوجها في ساحة المعركة بدلت خزيها فخرا وهدأت بالا وقرت عينا[8].

والملاحظ أن عدم تركيز المؤرخين المعاصرين على دور النساء الصليبيات العسكري يعود إلى تركيزهم على الانجازات العسكرية في ساحات القتال دون أعمال المساندة التي اختصت بها المرأة وذلك لأن مشاركة المرأة العسكرية المباشرة

1 حسن عبد الوهاب حسين، التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ص174.

2 الفتح القسي للفتح القدسي، ص349.

3 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج1،ص346، جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية، ص224.

4 تاريخ الحملة للقدس، ص57.

5 J.F Verbruggen, Women in Medieval Armies, Journal of medieval Military History ,p120.

6 **الرملة**: من أعمال فلسطين بينها و بين فلسطين ثلاثين كيلومتر تقريبا ، تمتعت بحصانة جيدة حيث كان لها سور حصين من الحجر و عليه أبواب حديدية، **أنظر**: ابن خرداذبة، المسالك و الممالك،ص117، العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 146.

7 تاريخ الحملة للقدس،ص123

8 Natasha R.Hodgson, Women , crusading and the holy Land , p36.

محدودة نسبيا إذا ما قورنت بالرجال، ومما يؤيد هذا الرأي إقرار معظم المؤرخين بدور المرأة في دعم الرجل نفسيا وتزويده بالماء و الغذاء والأعمال الإسعافية وهو دور لا يتعارض مع معتقداتهم الدينية، كما أن المرأة بطبيعتها لا تشكل مصدر قوة قتالية، وعليه قد يكون سبب عدم ذكر المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية لها بكثرة بسبب اعتقادهم بضعف تأثيرها على سير الأحداث وربما لأن أفعالها لا تتوافق مع ما يتوقع من المرأة المسيحية المحتشمة خاصة وأن عقيدة الكنيسة ترى النساء كائنا أقل درجة من الرجال وأن السبب وراء خروج غالبية النساء الصليبيات للقيام بالأعمال العسكرية في الشرق هو التعبد والتكفير عن الذنوب[1].

المبحث الثاني: الدور الاستخباراتي للمرأة الصليبية .

إن دور المرأة الاستخباراتي ساهم في إمداد المسلمين بالمعلومات اللازمة أو التآمر معهم لتحقيق بعض الطموحات الشخصية داخل الإمارات الصليبية أو لتحقيق مكسب مادي يساعد على تقوية سياسة مطالبة لمكاسب معينة ولعل خير مثال على ذلك هو دور الأميرة أليس الاستخباراتي، فعندما توفي زوجها بوهيمند الثاني أمير أنطاكية عام 525هـ/1130م صارت بدورها وصية على ابنتها "كونستانس" لكنها لم تتورع في اتخاذ كافة التدابير التي تقصي ابنتها عن الحكم طمعا في الانفراد بالسلطة، وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف وضعت يدها في يد الجانب الإسلامي ولو كان ذلك ضد مصالح قومها من الصليبيين فأخذت تراسل عماد الدين زنكي أتابك حلب سرا طمعا في مساعدتها في الاستيلاء على أنطاكية[2].

لقد تركزت خطة أليس على سرعة استنجادها بعماد الدين زنكي، الذي يعتبر من أبرز وأهم القوى في المنطقة وأن تسهل استيلاءه على أنطاكية وما حولها من قلاع نظير تسليمه مدينة أنطاكية لها، وأن يحدث هذا قبل وصول والدها بلدوين الثاني الذي كان سيصدها عن حكم أنطاكية وينزع منها السلطة على المدينة[3]، ومن هنا نستنتج أمرين، الأول أن أن استنجاد أليس بزنكي يعطي انطباعا بمدى القوة الإسلامية المتنامية وما وصلت إليه من البأس والخطورة على الجانب الصليبي، والأمر الثاني هو تغلب المآرب الشخصية للأميرة أليس على الصالح العام للصليبيين فبات تدخل النساء في توجه السياسة العامة للصليبيين والاستنجاد بالأعداء قد مهد لدخول الصليبيين لمرحلة الانحدار والانحطاط مما ساهم في الأضرار بالمصلحة العامة للحركة الصليبية .

أرسلت "أليس" أحد خواص خدمها إلى عماد الدين زنكي سرا وبرسالة شديدة السرية وحملت معه هدية كانت عبارة عن "جواد كالثلج في نصاعته مموها بالفضة التي كانت محتوى اللجام، والسرج من قشاش حريري أبيض"[4] إلا أن أحد الجنود الصليبيين اعترض سبيل ذلك الرسول وارتاب في أمره فساقه إلى الملك الذي كان في طريقه إلى أنطاكية فأقر

1 عذاري بنت ابراهيم الشعيبي، دور المرأة الغربية في الحروب الصليبية من خلال كتابات المؤرخين الغربين ،ص138-139.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2 ، ص649-650، رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص292-294.

Grousset, op, cit , p 104.

3 محمد عبد الحميد فرحات ، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى ،ص55.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج1،ص650.

بتفاصيل المؤامرة فأدرك بلدوين خطورة ما تنوي ابنته فعله وسارع بإخراجها من أنطاكية ونفيها إلى اللاذقية معينا جوسلين كورتناي كونت الرها وصيا على وريثة العرش الطفلة كونستانس[1].

مثال آخر على ما قامت به المرأة الصليبية من اتصالات مع حكام المسلمين يتمثل في شخصية الأميرة "سبيل" زوجة الأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية والتي لم تكن فوق مستوى الشبهات وأشيع عنها سوء الخلق والتدني ولم تتورع عن خيانة زوجها بوهيمند أو حتى عن خيانة قومها من الصليبيين[2] كانت جاسوسة لصلاح الدين ومثلت له مصدرا هاما لأخبار الصليبيين وأهم تحركات جيوشهم وخططهم[3]، وقد أشار ابن الأثير[4] إلى ذلك بقوله أنها كانت "تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثير من الأحول التي تؤثر" كما أكد ذلك ابن واصل[5] بقوله " زوجة البرنس صاحب أنطاكية كانت تهادي السلطان وتناصحه وتطالعه على أسرار الفرنج، وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا"[6].

وهنالك رأي آخر يرجح أن تعاون الأميرة سبيل مع صلاح الدين مرده انبهار هذه الأميرة بشخصية صلاح الدين مما سمعته عنه من شجاعة ونبل الأخلاق التي كانت عاملا مؤثرا في ميلها إلى جانبه فأحبته أكثر من حبها لزوجها، وزودته بكل ما أراد معرفته عن الفرنج[7]، لكن المتمعن في هذا الرأي يجد أن سبيل لم تكن بحاجة إلى أن تعرض نفسها إلى إلى خطر التعاون مع العدو من أجل بعض الهدايا والأموال فقد كانت أميرة لأهم إمارة صليبية وكان زوجها يغدق عليها بالهدايا و المجوهرات كما أنه فضلها عن زوجته البيزنطية السابقة، لكن أغلب الظن أن ما عرفت به هذه الأميرة من تدني الأخلاق وخيانة ليس بغريب عنها فقد –سبق و ذكرنا –كيف اتفقت مع ملك أرمينيا ليو الثاني على خيانة زوجها وتسليمه له مقابل أن يساعدها لكي يعتلي ابنها عرش أنطاكية بدل اخوته.

---

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص294.

2 عاشور، الناصر صلاح الدين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الأنباء و النشر، القاهرة ، 1965 ص140.

3 Natacha, Women Crusading,P131

4 الكامل في التاريخ،ج10،ص173

5 مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،ج2،ص267

6 كما سربت العديد من الفرنجيات أسرار الصليبيين مقابل الهدايا و المال و المجوهرات و من أمثال ذلك أنه عندما عزم الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا (617-648هـ /1220-1250م) على الخروج إلى بلاد الشام، أرسل فارسا من لدنه يستطلع له الأخبار وكان هذا الفارس على علاقة بامرأة فرنجية علمت منه بعض الأخبار، فأرسلت بها إلى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي (615-624هـ/ 1218-1227م) الذي كافأها بملابس حريرية مجوهرات و أشياء كثيرة، فلما عاد الفارس ووجد هذه الهدايا عندها سألها عن مرسلها فأخبرته، فذعر أول الأمر و لكنها مازالت تلاطفه و تتودد إليه حتى اتفقا ، فكان إذا أتاه خطاب بعد ذلك من الإمبراطور حمله إليها فترسله إلى الملك المعظم مختوما كما هو، و استطاع الملك المعظم من خلال هذه المرأة الإفرنجية أن يعرف كل شيء عن الإمبراطور حتى لا يأتي فجأة إلى البلاد، و قد اشتهر الملك العادل ببراعته في استمالة النساء الصليبيات بالمال و الهدايا من أجل الحصول على المعلومات الضرورية التي تساعد على صد الهجوم الصليبي المتوقع على الشام ، فقد اعتمد كذلك على بعض الفرنجيات في إبلاغه بأخبار الفرنج و أخبار إغارتهم على أراضي الدولة الأيوبية و ذلك عن طريق أنهن إذا سمعن او شعرن بخروج الفرنج من عكا فتحت المرأة طاقة بيتها المقابلة لجبل الكرمل و أشارت للمسلمين بعدد الجنود الصليبيين و المكان الذي سيقصدونه، و هو ما جعل الفرنج لا يقصدون مكانا إلا و يجدون عسكر الملك المعظم قد سبقهم إليه، **أنظر**: النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب،ج29،ص145، محمد عبد النعيم محمد عبده، دور المرأة الأوروبية العسكري في الحروب الصليبية، ص61-62.

7 Slaughter.G ,Saladin (1138-1193), New york ,1955,p185.

كان من جملة ما قامت به سبيل أنه عندما أخذ صلاح الدين في التأهب لإنزال ضربته الكبرى بالصليبيين في حطين قامت بارتكاب خيانة عظمى ضد القضية الصليبية ولم تهتم لكل تلك الشعارات الدينية الرنانة بل اهتمت فقط بتحقيق طموحاتها ومصالحها الخاصة، ذلك أنها دأبت عندئذ على إجراء اتصالات سرية مع صلاح الدين أطلعته فيها على خطط الصليبيين وتحركاتهم، ما ساهم في تقدمه بخطوة عنهم و نجاحه في الانتصار في أغلب المعارك التي خاضها خاصة في شمال الشام حيث تمكن من اخضاع أهم القلاع و الحصون التابعة لإمارة أنطاكية[1].

وردا لجميلها أطلق صلاح الدين سراح أختها وكذلك زوجها أمير برزية[2] وأولادهما الذين تم أسرهم أثناء فتحه لتلك المدينة إكراما للأميرة سبيل وهذا ما أورده ابن الأثير[3] في قوله" إن صاحب برزية قد أسر هو و امرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرق العسكر فأرسل صلاح الدين في البحث عنهم و اشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها".

ويؤكد يعقوب الفيتري[4] أن السبب الذي مكن صلاح الدين من السيطرة على بيت المقدس وملحقاتها هو انشغال الفرنج بشؤونهم الداخلية وتدخل النساء في الحكم، خاصة وأن بعض النساء الصليبيات كن سببا في حدوث المتاعب والمشاكل التي لحقت بالمملكة الصليبية كونها كانت عينا للمسلمين مقابل حصولها على الهدايا الكثيرة التي كانت تنقصها من حكام المسلمين.

من الجانب الآخر، فقد اعتمد الصليبيون على بعض النساء الصليبيات من أجل التجسس وأعمال المخابرات لصالح الفرنج[5] وذلك لما تمتلكه النساء من قدرات تجعلهن يقمن بأعمال لا يستطيع الرجال القيام بها في هذا المجال، فقد كان للعيون و الجواسيس دور مؤثر في العمليات الحربية وتوجيه المعارك أثناء الصراع الإسلامي الصليبي، وقد اعتمد الصليبيون على بعض النساء في أعمال التجسس و من مثال ذلك عندما قام لص مسلم بسرقة طفل رضيع من امرأة إفرنجية يبلغ ثلاثة شهور كان في إحدى خيام الصليبيين ولما افتقدته أمه حزنت عليه حزنا شديد، فعلم ملوكهم خبرها فسمحوا لها بالتوجه إلى السلطان صلاح الدين الذي كان معروفا عندهم بقلبه الرحيم[6].

1 محمد عبد النعيم محمد عبده، دور المرأة الأوروبية العسكري،ص59.

2 **حصن برزية**: أو برزوية، حصن قرب السواحل الشامية، على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج بالحصانة، كانت بيد الافرنج حتى فتحها صلاح الدين الأيوبي سنو 584هـ/ 1188م ، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1،ص383.

3 الكامل في التاريخ ،ج10،ص173

4 تاريخ بيت المقدس، ص134-135.

5 في أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر649هـ/ 1249م لم يتورع الملك لويس السابع ملك فرنسا عن استخدام النساء الفرنسيات كجواسيس لجمع المعلومات عن المعسكر الإسلامي في أثناء حصاره لدمياط، من خلال إغرائهن للجنود المسلمين بعد وقوعهن في الأسر بما لهن من سحر و فتنة، لكن الأمر لم يتم حيث كان الجنود المسلمون في مصر يقومون بقتل الأسيرات الإفرنجيات فور وقوعهن في أيديهم باعتبارهن محاربات يحل قتلهن، **أنظر**: جوانفيل، مذكراته،ص108

6 ابن شداد ، النوادر السلطانية،ص158.

ويذكر ابن شداد[1] الذي كان شاهد عيان على هذه الحادثة أن هذه المرأة الإفرنجية خرجت تستغيث وطلبت مقابلة صلاح الدين فأنفذها الجنود المسلمون لمقابلته، فجاءته و عفرت وجهها بالتراب وشكت له أمر ولدها وهي تبكي فرق قلب السلطان وأمر بإحضار ولدها، فجاءه الرد بأنه قد تم بيعه في السوق، فلم يجد صلاح الدين لرحمة تلك المرأة الصليبية إلا أن يشتري ذلك الطفل و يدفع ثمنه من ماله الخاص للمشتري وسلم الطفل لأمه فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها، وقد تأثر جميع الحاضرين من ذلك الموقف حتى أنهم بكوا لبكائها، ثم لم يلبث أن أمر السلطان بأن تحمل على فرس وتعود إلى ذويها سالمة [2].

كانت هذه المرأة أحد جواسيس الفرنج التي أرسلها ملوكهم مستغلين ما حدث لها للتعرف على أخبار المعسكر الإسلامي، وهو ما نجحت في وصفه بعد عودتها إلى ديارها مع ولدها، و الدليل على ذلك أنه لم يمض وقت طويل من ذلك اليوم الذي جاءت فيه المرأة الفرنجية إلى معسكر المسلمين حتى وصل الخبر لصلاح الدين بقيام الفرنج بالزحف نحو عكا، فعاد السلطان وركب في ساعته لمواجهتهم[3].

المبحث الثالث: الأسيرات الصليبيات:

أ- أوضاع الأسيرات الصليبيات وطرق معاملتهم :

تعرضت الكثير من النساء الصليبيات إلى الأسر بوقوعهن في قبضة المسلمين، ويبدو أن هذه المشكلة كانت منتشرة بشكل واسع، حيث كانت النساء تأخذ مع الأطفال والرجال كغنيمة من غنائم الحرب، ويعتبر أسر النساء في بعض الأحيان أهم من الرجال لأن العائد الاقتصادي كان أكبر حيث يمكن بيعهن أو استعبادهن أو استخدامهن للأعمال اليدوية ونادرا ما كانت النساء تقتل في الحروب وخاصة إن كن جميلات، وقد اختلفت الحالة الاجتماعية لتلك الأسيرات فمنهن ما كن أميرات أو ملكات أو حتى من عامة المجتمع الصليبي[4].

وتضم قوائم الأسيرات الصليبيات فئات عمرية واجتماعية متنوعة، فكما أن هناك أسيرات كثر من الشرائح الدنيا، فكذلك وجدت أسيرات نبيلات، لعل أبرز مثال على تنوع المكانة الاجتماعية للأسيرات هو ما حصل للكونتيسة" إدا" النمساوية Ida of Austria التي شاركت في الحملة الصليبية التي قدمت إلى الشرق سنة 495هـ/ 1101م ووقعت أسيرة في أيدي المسلمين، إضافة إلى ما قام به الأمير بلك بن أرتق أمير حلب سنة 516هـ/1122م عندما أسر زوجة جوسلين كورتناي أمير الرها وكذلك ابنة روجر أمير أنطاكية عندما كانت في طريقها إلى الرها لتلتحق بزوجها هناك فتم أسرها[5].

1 ابن شداد ، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية ،ص158.

2 ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص 158، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ،ج8، ص429.

3 مُحَمَّد عبد النعيم مُحَمَّد عبده، المرجع السابق،ص61.

4 منى حماد، الأسرى المسلمون و الصليبيون و طرق معاملتهم بين الإطار القانوني و الواقع التاريخي، مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية ،الأردن،ص66.

5 ابن العبري ،تاريخ مختصر الدول ، ص324.

كما أن مقاومة النساء الصليبيات أثناء حصار المسلمين والدفاع عن المدن الصليبية أو حتى أثناء المعارك يجعل الانتقام منهن أشد، ففي السنة الموالية أي 517هـ/1123م تمكن بلك بن أرتق كذلك من احباط محاولة فاشلة لهروب الملك بلدوين الثاني من أسره في قلعة خرتبرت، و أعاد السيطرة على القلعة و لم يظهر عندئذ شيئا من الرحمة لأن حريمه كانوا بالقلعة و جرى انتهاك الصليبيين لحرمة القلعة، فأمر أن يلقى من شرفات القلعة كل من دافع عنها من الفرنج و الأرمن، واستأصل شأفة الصليبيين منها وكانت النساء الصليبيات يبدين مقاومة كبيرة فلما اقتحم بلك بن الأرتق القلعة أعماه الغضب لما بدر منهن فقام بأسرهن ثم لم يلبث أن قام بذبح المقاتلات وتعليق رؤوسهن على أسوار القلعة[1].

وبالرغم من بشاعة ذلك التصرف الذي تأباه روح الدين الإسلامي فإننا نلتمس العذر في أن كلا الطرفين كان يشتد بالعصف بمن أمامه من المقاتلين رجالا ونساء، ولا يغيب عنا تلك المذابح التي أقامها الصليبيون ضد الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال من قبل حيث لم يبد الفرنجة أي تسامح أو رحمة تجاه المسلمين بعد سقوط بيت المقدس سنة 492هـ/1099م، فوحشية الفرنجة والمجازر التي ارتكبوها في بداية الحملات الصليبية أدت إلى رد فعل سلبي عند المسلمين فبدأ المسلمون باتباع مبدأ المعاملة بالمثل وهذا أمر أقره فقهاء ذلك العصر، حيث اقتضت الضرورة معاملة العدو الأسير كما يعامل الأسرى المسلمون لدى العدو[2].

في هذا الصدد، لما بدأ حصار عماد الدين زنكي لمدينة الرها الصليبية سنة539هـ/ 1144م[3] لم تتوان المرأة الصليبية في الدفاع عن المدينة ضد الحصار الشديد الذي فرضه زنكي، حيث حملن الحجارة الطعام للمدافعين، إلا أن زنكي استطاع افشال محاولاتهن هذه واستولى على المدينة وأخذهن أسيرات[4].

كان وقوع المرأة في الأسر يترتب عليه مباشرة الإساءة إلى سمعتها على اعتبار أن وقوع النساء في الأسر كسبايا كان يحمل دوما صبغة جنسية، فالمرأة التي تقع في الأسر لا يمكن أن تحافظ على شرفها وتبقى النظرة للمرأة التي تحافظ على شرفها حتى ولو قتلت في سبيل ذلك نظرة احترام وتقدير، ومن مثال ذلك نجد زوجة رينيه بروس Renier of Brus صاحب بانياس التي وقعت في أسر المسلمين لدى استيلاء شمس الملوك بوري حاكم دمشق على المدينة في سنة 532هـ/1137م ، و لما حدث التحالف بين الدماشقة و الصليبيين سنة 534هـ/ 1139م تم الاتفاق بينهما على رد الأسرى المأخوذين من مدينة بانياس[5]، وكان من بينهم زوجة "رينيه"، فلما عادت لزوجها اكتشف أنها لما كانت في الأسر الأسر سلكت سلوكا مشينا لا يتماشى مع المرأة الشريفة التي تحافظ على نفسها وكرامتها وشرف زوجها وأنها لم تحافظ على رابط الزواج المقدس، ويبدو أن ذلك المسلك الذي سلكته في الأسر قد شاع عنها وافتضح أمرها حتى أنها لم تستطع

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص262، محمود سعيد عمران، القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، دار النهضة العربية، (د.ت)،ص63.

2 الشيباني، القانون الدولي الإسلامي –كتاب السير للشيباني–، بيروت،1975 ، ص69.

3 ابن القلانسي ، تاريخ دمشق،ص436.

4 ابن كثير، البداية و النهاية،ج12، ص172.

5ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص426.

انكار ذنبها، ولكي تكفر عن ذنبها دخلت ديرا للنساء الطاهرات في القدس وأصبحت راهبة ونذرت نفسها للعفة لباقي حياتها، وبعد وفاتها قام زوجها بالزواج مجددا [1].

كان من الصعوبة أن تستطيع المرأة الأسيرة الحافظة على عفتها وشرفها في ظل الظروف الصعبة للأسر، فبعد عودة إحدى الأسيرات الصليبيات بعد فترة طويلة من الأسر وكانت تدعى مريم بادرت أمها بسؤالها إن كانت لا تزال بكرا، فاندهشت مريم من سؤال أمها، إذ كيف يمكن للمرأة أن تحافظ على موطن شرفها بعد سبيها وبيعها، وأخبرتها أن التاجر الذي اشتراها هددها وتوعدها وضربها وافتض بكارتها[2].

لقد اعتقد الفرنج أن أسر المرأة العفيفة أسوء من الموت لذا فقد كانوا يتخوفون من وقوع نسائهم أسيرات بأيدي المسلمين، فالحشود الصليبية التي تجمعت قبيل حطين أسرعت لإنقاذ الكونتيسة إشيفيا أميرة طبرية وزوجة الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس خوفا من وقوعها هي ومن معها في أسر صلاح الدين وجيوشه فهبوا لنجدتها دون مراعاة لعواقب ذلك عليهم وعلى الوجود الصليبي في بلاد الشام، خاصة وأن صلاح الدين كان يهدف من محاصرة طبرية اجتذاب الفرنجة وجيوشهم إلى أرض المعركة التي يتخيرها هو وأن يوقع بهم، وبعد هزيمة الفرنج في حطين 583هـ/1187م توجه صلاح الدين ثانية لطبرية وسمح لأميرتها إشيفيا أن تتوجه إلى زوجها في طرابلس ولم تتعرض لا هي ولا حاشيتها للأسر[3].

وأثناء حصار صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، عزم فرسان الفرنجة وعلى رأسهم باليان على القتال مهما كانت الظروف والنتائج، غير أن المدينة كانت خاوية من الفرسان لأن معظم الفرسان قد قتلوا في معركة حطين وأغلبية المتواجدين فيها كانوا من النساء والأطفال والشيوخ وأن مقاومة جيش صلاح الدين كانت مستحيلة وأن سقوطها في يده بات أمر وقت لا غير، لذا فقد نصحهم البطريرك هرقل Heraclius (576-587هـ/1180-1191م) بالتفاوض مع صلاح الدين بهدف انقاذ النساء الفرنجيات من الوقوع في الأسر والعبودية مع ما سيترتب على ذلك من تغيير دينهن و انتهاك شرفهن[4].

اشتدت محنة الأسر على النساء الصليبيات عندما أخذ المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي يستعيدون البلاد الواقعة تحت سيطرة الفرنجة، إذ نجم عن استعادة معظم الحصون و المدن وقوع أعداد كبيرة من نساء الفرنج في الأسر، وقد وقع العدد الأكبر من الأسيرات إثر استعادة بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م، وتقرر أن تكون فدية الرجل عشرة دنانير وأن تكون فدية المرأة نصف المبلغ خمس دنانير، وأن يستعبد كل من لم يستطع أن يفتدي نفسه، ولهاذا فقد تم استعباد حوالي خمسة عشرة ألفا[5] يفصلها العماد الأصفهاني[1] "أن الرجال فكانوا في تقدير سبعة آلاف وأحصيت النساء و الصبيان ثمانية آلاف فكم محجوبة هتكت، ومالكة ملكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت".

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص687-688، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص364، طه الطراونة، المرأة الصليبية ،ص83.

2 عبد الله المقدم، الأسيرات ،ص284.

3 الأصفهاني، الفتح القسي،ص48،ابن الأثير، الكامل، ج10،ص149،ابن واصل، مفرج الكروب،ج2،ص195-196،ابن خلدون،العبر،ج5،ص357، ألبير شاندور، صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام ،ص 214.

4 جوانفيل، مذكرات جوانفيل،ص149.

5 ابن شداد، النوادر السلطانية،ص136، أبو شامة، كتاب الروضتين ،ج2،ص115.

رغم ما قام به الصليبيون عند استيلائهم على بيت المقدس 1099م من تذبيح وتقتيل للمسلمين إلا أن صلاح الدين الأيوبي قد قدم درسا للفرنج عند استرجاعه للمدينة، فما إن دخل هو وجيوشه يوم 27 رجب 583هـ/ 12 أكتوبر 1187م حتى أحسن معاملة الأسيرات الصليبيات، مما جعل المؤرخين المعاصرين وغيرهم يشيدون بتلك المعاملة السامية[2]، فقد سمح لمن افتدين أنفسهن بالخروج من بيت المقدس مصطحبات حشمهن وأتباعهن مصطحبات أموالهن و متاعهن، وكانت سيبيلا زوجة جاي دي لوزجنان الأسير موجودة في بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر في نابلس فأذن لها، كما أطلق صلاح الدين سراح أميرة بيزنطية كانت قد اعتزلت حياة الملك وسلكت طريق الرهبة في أحد أديرة بيت المقدس، حيث كان هدفها الأسمى هو نشر المسيحية في بيت المقدس، فلما التمست من صلاح الدين السماح لها للخروج من المدينة فأذن لها بالخروج هي وأتباعها من الشمامشة والخادمات بكل متاعهن وأموالهن[3].

وإذا كان مصير عدد كبير من نساء العامة الفرنجيات هو الأسر، ومصير الفقيرات منهن هو العبودية ، فإن نساء الأسرة المالكة والبيوت الحاكمة حضين بمعاملة كريمة من قبل السلطان صلاح الدين، الذي من عليهن بإطلاق سراحهن ولحقن بمدينة صور بأموالهن ومتاعهن وأتباعهن[4].

يورد لنا أسامة بن منقذ[5] رواية عن مدى ما لعبته الجواري الصليبيات من دور في تلك الفترة حيث أورد أن والده مجد الدين أبي سلامة مرشد أمير شيزر (461-532هـ/1068-1137م) قد ساق إلى داره عددا من الجواري اللائي سبيهن، وكان بينهن جارية على قدر كبير من الجمال فأهداها إلى شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك أمير قلعة جعبر حيث كانت تربطهما صداقة قوية وحميمة، وكتب إليه "غنمنا من الإفرنج غنيمة فقد نفذت لك سهما منها"، فأعجبت الأمير تلك الهدية وبهرته واتخذها سريرة له، فأنجبت له ولدا يسمى "بدران" الذي تولى الحكم خلفا لوالده وصارت تلك الجارية وصية على ابنها الحاكم ومن ثم صار إليها الأمر والنهي في تلك القلعة، وعلى الرغم مما تمتعت به من جاه و سلطان فإنها آثرت الهروب، حيث تواعدت مع فئة من قومها فأخذوها إلى قلعة سروج التي كانت لا تزال في يد الصليبيين فلما صارت بين أهلها زوجوها من رجل صليبي يعمل إسكافيا مفضلة إياه على ما تركته من نعيم مقيم و ولد صاحب قلعة جعبر، مما يدل على مدى حنين الصليبيات لبني جنسهن مهما كانت الإغراءات.

أما عن طرق معاملة الأسيرات الصليبيات، فقد كان واجبا على المسلمين حسن معاملة الأسرى وعدم تعذيبهم و ذلك بناء على ما جاء في الشريعة الإسلامية فوجب الإحسان إليهم وإطعامهم وكسوتهم، لكن مدى التزام المسلمين بذلك كان متفاوتا من قائد لآخر ومن فترة زمنية لأخرى، فقد حظيت بعض الأسيرات بمعاملة إنسانية وعانت الأخريات

---

1 الفتح القسي، ص 76.

2 سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين،ص204-205.

3 أبو شامة، كتاب الروضتين،ج2،ص312، عاشور، الناصر صلاح الدين، ص206.

4 ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 136، الأصفهاني، الفتح القسي، ص128-251.

5 كتاب الاعتبار، ص130.

من سوء المعاملة التي وصلت إلى حد البيع في سوق النخاسة بل وحتى الموت، فالمسلمون كغيرهم من البشر قد تخلوا تدريجيا عن دبلوماسيتهم وتأثروا بطريقة معاملة الأسرى عند الفرنجة من منطلق مبدأ المعاملة بالمثل غير أن شخصية القائد كانت تلعب دورا هاما في تقرير مصير الأسرى و الأسيرات[1].

بوجه عام كان المسلمون أخلاقيين أكثر من الفرنجة في تعاملهم مع الأسيرات مما تؤكده الأحداث وينقله إلينا المؤرخون العرب المسلمون والفرنجة المعاصرون لها خاصة في زمن نور الدين وصلاح الدين الأيوبي فهناك العديد من الأمثلة التي تأكد ذلك ومنها أن وليام الصوري[2]قد أعجب بإنسانية نور الدين زنكي بعد أن استولى على بانياس عام 559هـ/1164م وسمح لجميع سكانها خاصة النساء بالمغادرة مع ممتلكاتهم دون أن يتعرض لهم بأي أذى، كما ضرب صلاح الدين مثلا في تعامله مع الأسيرات حيث كان صفحة رائعة في تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام فبعد هزيمة الفرنجة في حطين قام بإطلاق الكثير من الأسيرات اللاتي لم يدفعن الفدية خاصة العجائز منهن، وكان يطعمهن ويكسوهن و يلبي طلباتهن[3].

كان يتم فرز وتصنيف الأسيرات بحسب قدراتهن البدنية ومحاسنهن الجمالية وما يحسنه من الحرف والأعمال، فالأسيرات ذوات القدرات البدنية يسخرن للقيام بالأعمال الشاقة والأعباء المنزلية، ومن المؤكد أن كثيرا من الأسيرات الصليبيات قد قمن بالخدمة في بيوت سادتهن كطباخات وغسالات وفي كافة الشؤون والأعمال المنزلية واليدوية، أما الأسيرات ذوات الفطنة والذكاء، فكن يعملن كمدبرات للقصور ومربيات لأطفال سادتهن، وبالنسبة للأسيرات ذوات الطبائع الرقيقة واللاتي يتسمن بقدر عال من الحسن والجمال فقد تم استغلالهن في العزف والغناء والطرب وكل ما يتعلق بالترف والترفيه، كما كانت الأسيرات الجميلات يرسلن كهدايا للحكام والسلاطين والأصدقاء[4].

ب- طرق تحرير الأسيرات الصليبيات

إن طرق تحرير الأسيرات كثيرة ومتنوعة، فالمن والتبادل والفدية، كانت من أبرز الطرق والوسائل التي تحررت من خلالها الكثير من الأسيرات الصليبيات، ويقصد بالمن أن يطلق الآسر أسراه دون مبلغ مالي وبرغبة مطلقة منه ودون أيه مصالح مرجوة من ذلك، أما الفداء فيكون بدفع مبالغ مالية لقاء فك الأسر ويجري التفاوض على قدر المبلغ لكن الكلمة الأخيرة في ذلك تعود للآسر، أما التبادل فكثيرا ما يحدث عند عقد اتفاقات أو تحالفات بين الجانبين الصليبي والمسلم أو هدنة فيتم خلال ذلك تبادل الأسرى من الجانبين.

وقد تجلت طريقة المن بإطلاق الأسيرات خاصة أثناء فتوحات صلاح الدين الأيوبي وخصوصا عند فتح بيت المقدس حيث أطلق سراح كثير من الأسرى والأسيرات الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم[5].

---

1 منى حماد، الأسرى المسلمون و الصليبيون و طرق معاملتهم ، ص69، راغب حامد البكر، الأسرى المسلمون في الحروب الصليبية، جامعة الموصل كلية الآداب، المجلد 25، 1993،ص 251-265.

2 تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص 891.

3 ابن شداد، النوادر السلطانية،ص162، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص197.

4 عبد الله المقدم، الأسيرات في الشرق الأدنى، ص283.

5 الأصفهاني، الفتح القسي،ص76، ابن العبري، مختصر أخبار الدول،ص197، عاشور، الناصر صلاح الدين،ص206.

لقد وقعت الكثير من النساء الصليبيات في قبضة المسلمين عقب فتحهم للأراضي التي كانت تحت سيطرة الصليبيين، وقد ترتب عن أسرهن محاولات وإجراءات لافتدائهن[1] ومن لا يفتديها أحد تصير جارية "ملك يمين" للمسلمين المجاهدين حيث يقسمن ضمن الغنائم، ونتيجة للمخاطر الجمة التي تتعرض لها النساء الأسيرات أولى الصليبيون عناية خاصة بتحرير الأسرى، فقدمت الأسيرات في الفدية على الأسرى الرجال، حتى لا يفقدن حريتهن وتنتهك عفتهن ويفتن في دينهن[2].

أما عن فداء الأسيرات الصليبيات فقد راعى الحكام المسلمين الرحمة والشفقة معهن، حيث خفضوا قيمة فديتهن عن الرجال و أبرز مثال على ذلك أنه عندما استولى صلاح الدين على بيت المقدس 583هـ/1187م تم الاتفاق على الصلح بين المسلمين والصليبين على افتداء الأسرى الصليبيين فحددت القيمة بعشرة دنانير للرجل (يتساوى فيها الغني و الفقير) وخمسة دنانير صورية على المرأة ودينار واحد للطفل[3]، وحدث نفس الشيء عندما فتح صلاح الدين قلعة صهيون[4] حيث صالح أهلها على أن يدفع الرجال عشرة دنانير والنساء خمس دنانير[5].

يقودنا الحديث عن افتداء الأسيرات الصليبيات إلى الكلام عن أثمانهن والإتجار بهن، فقد تأرجحت أسعار الأسيرات وفقا لمواصفاتهن وكنتيجة طبيعية للعرض والطلب، إذ ارتفعت أسعارهن في أوقات السلم وانخفضت بعد اجتياح المدن ذات الكثافة السكانية، وفي أعقاب المعارك الكبرى بين المسلمين والصليبيين، ولاريب في أن المكانة الاجتماعية و المواصفات الجمالية والعقلية والبدنية لعبت دورا مهما في تحديد قيمة الأسيرات، ونتيجة لكثرة الأسرى والأسيرات الصليبيين بعد معركة حطين كان يباع الأسير الصليبي في أسواق دمشق بثلاثة دنانير وبما أن المرأة الأسيرة كان ثمنها نصف ثمن الرجل فقد كان سعرها لا يتجاوز الدينار ونصف[6]، تلك كانت أسعار الأسيرات العاديات، أما الأسيرات ذوات الحسن والجمال فلم يبالي الناس بارتفاع أثمانهن وكانوا يشترونهن بأي ثمن كان، وكانت النبيلات الصليبيات لا يعرضن في أسواق النخاسة وإنما يقوم سعرهن ويبقين في الأسر حتى يفتدين من أهلهن[7].

---

[1] من الملاحظ ندرة افتداء أسرى الصليبيين بالمال في بواكير الحروب الصليبية، ومرجع ذلك في الغالب إلى أن أولئك الأسرى خليط من أجناس وشعوب أوروبية مختلفة لم تنصهر في بوتقة واحدة بعد، بالإضافة إلى تفكك الروابط الأسرية والقومية و انعدامها بين الأوروبيين، كذلك كان إذا وقع فارس الإسبتارية أو الداوية في الأسر لم يجر افتداؤه وكان ذلك من تقاليدهم، وقد أتبع هذا التقليد في بداية الوجود الصليبي بالشام ولكن ذلك الأمر لم يستمر تبعا لتغير الظروف الخاصة بقوانين الهيئتين، **أنظر**: الحويري، الأوضاع الحضارية ،ص181.

2 محمد عبد الله المقدم، الأسيرات في الشرق الأدنى الإسلامي زمن الحروب الصليبية، مجلة المؤرخ العربي، العدد20 ، القاهرة، 2012، ص 279-323.

3 ابن شداد، النوادر السلطانية،ص136، أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2،ص 31

4 **قلعة صهيون**: قلعة حصينة من أعمال سواحل بحر الشام، و من أعمال حمص و تقع على طرف جبل، **انظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج 3، ص496.

5 الأصفهاني، الفتح القسي، ص 135-136، أبو شامة، الدولتين ،ج2،ص115 ،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،ج6،ص37.

6 أبو شامة، كتاب الروضتين،ج3،ص299،

Duggan, the story of the crusades (1097-1291), London, 1963, pp160-161.

7 هايد، التجارة في الشرق الأدنى،ج4،ص 58.

كانت النساء الصليبيات اللائي لم ينلن الفداء قد اتخذهن الولاة جواري في قصورهن ودورهن، ويورد ابن الأثير[1] أنه كانت بحوزته جارية صليبية أثناء تواجده بحلب وكانت تلك الجارية من ضمن السبايا اللاتي وقعن في قبضة المسلمين حين فتح الملك العادل يافا سنة 583هـ/1187م وكان في صحبة تلك الجارية طفل له من العمر سنة وحدث أن سقط الطفل من يدها فأثار هلعها، فبكت عليه بكاء مرا، فهدأت من روعها مبينا أن الطفل بخير فردت علي بقولها :" ما له أبكي إنما أبكي لما جرى علينا، فقد كان لي ستة إخوة هلكوا جميعهم و زوج وأختان لا أعلم ما حل بهم". كما أورد رواية أخرى تبين أنه شاهد لدى وجوده بحلب امرأة صليبية جاءت مع سيدها إلى باب فطرقه سيدها، عندئذ خرج مالك البيت ليفتح الباب وتحدث معها فإذا بامرأة صليبية أخرى تخرج من البيت فحين رأتها الأخرى "صاحتا وتعانقتا و هما تصرخان وتبكيان حتى سقطتا على الأرض ثم قعدتا تتحدثان" وتبين بعد ذلك أنهما شقيقتان قد باعدت بينهما الأيام.

وبالرغم من كل ضروب المعاناة التي تعرضت لها الأسيرات إلا أنه كان يتم أحيانا مراعاة بعض الجوانب الإنسانية كزيارة الأسرى وتفقد أحوالهم، وكان هذا السماح يتم بشكل شخصي أو بطرق رسمية، فقد سمح الحكام المسلمون للفرنجة بتفقد أسراهم في دمشق في عهد كل من مجير الدين أبق و صلاح الدين الأيوبي، كما تعاطف أفراد من المجتمع الإسلامي مع محنة الأسيرات الصليبيات بعد معركة حطين وسمحن لهن باللقاء والتزاور لتخفيف مصائبهن وأحزانهن، وفي المقابل سمحت بعض الفئات الصليبية الرسمية والشعبية للمسلمين بتفقد أحوال أسراهم لدى الجانب الصليبي، ولم يكن سماح الجانبين الإسلامي والصليبي بزيارة الأسيرات ذا جانب إنساني صرف بل تداخلت عوامل دينية ومادية في هذا الجانب، فأهالي الأسيرات خافوا نسائهم من التحول الديني، كما تطلع الآسرون أحيانا إلى الفدية المالية، وسمحوا بالزيارات من أجل هذا الهدف[2].

كما نظمت العديد من الهدن والمعاهدات والمفاوضات الدبلوماسية بين الدويلات الإسلامية والصليبية عملية تبادل الأسرى بين الجانبين، وبذلت جهود فردية ومجتمعية من أجل تحرير الأسيرات وافتدائهن بالأموال فالزوج كان ملزما دينيا و أخلاقيا بافتداء زوجته، حتى مع احتمال عدم استمرارية الحياة الزوجية نتيجة الانتهاكات التي تعرضت لها النساء أثناء فترة الأسر، ومثلما كان الأزواج ملزمين بفداء زوجاتهم فلا شك أن الآباء اهتموا بفداء بناتهم واهتم الإخوة بفداء أخواتهم و عماتهم وخالاتهم وسائر قريباتهم وأرحامهم، كما رأى الميسورون وأهل الثراء من الصليبيين أن من واجبهم إنفاق أموالهم في افتكاك الأسرى والأسيرات، كما أن أثرياء الصليبيين من أمراء وحكام ونبلاء في الشرق وغرب أنفقوا بسخاء على الجمعيات المهتمة بالأسرى والأسيرات[3].

1 الكامل في التاريخ،ج10، ص150-151.

2 منى حماد، المرجع السابق،ص 67-68.

3 محمد عبد الله المقدم، الأسيرات في الشرق الأدنى،ص287.

ج– الرهائن الصليبيات:

كما لجأ الصليبيون إلى أسلوب الرهائن لتوثيق العهود مع الطرف الآخر مسلما كان أو بيزنطيا وكذلك لإبرام صلح أو عقد أو أي اتفاق يقضي إثبات صدقه أو حتى لاستبدال رهائن بأخرى ذات ثقل اجتماعي أو سياسي، وقد أثبتت الوقائع التاريخية وجود العديد من النساء الصليبيات كرهائن عند المسلمين.

مثال ذلك أنه عندما تم لبك بن الأرتق أسر بلدوين الثاني في قلعة حلب سنة 517هـ/1123م[1]، بوفاة "بلك"سنة 518هـ/ 1124م خلفه تمرتاش بن إلغازي على قلعة حلب، وكان كارها لتحمل مسؤولية الأسرى الصليبيين وآثر فكرة الحصول على فدية كبيرة، وهنا توسطت الملكة مورفيا لدى الأمير سلطان بن منقذ أمير شيزر وتمت المداولات حول فك أسر الملك بلدوين مقابل فدية ضخمة وشروط أخرى ضمنية ومجموعة من الرهائن على رأسهم ابنة الملك الصغرى "يوفيتا " وكانت في الخامسة من عمرها لتكون رهينة لديهم حتى تتم دفع الفدية كاملة، وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثاني وغادر حران في أواخر 518هـ/1124م[2]،وفي شهر صفر519هـ/مارس 1125م سلم الملك بلدوين الثاني باقي مبلغ الفدية الذي كان يدين به لافتداء الرهائن فقبله أقسنقر البرسقي الذي أصبح حاكما للموصل وحلب وأعاد الرهائن إلى الفرنج وكان منهم ابنته "يوفيتا" و ابن جوسلين كورتناي ووريثه "جوسلين الثاني " الذي بلغ احدى عشر سنة وعشرة من أبناء النبلاء الصليبيين[3].

كذلك عندما توجه الإمبراطور البيزنطي "حنا كومنين " إلى الشام سنة 537هـ/ 1142م مطالبا بأنطاكية لتكون تحت السيادة البيزنطية، اتجه بعدها إلى تل باشر بجيش ضخم مما أثار عجب الأمير جوسلين الثاني أمير الرها، وقد فوجئ بطلب الإمبراطور الذي يأمره فيه بتقديم عدد من الرهائن يثبت بها ولاءه وخضوعه للإمبراطور البيزنطي وإزاء قوة الجيش البيزنطي وضخامة عدده وعتاده و إدراك جوسلين أنه لا يستطيع أن يصمد أمام جحافل الإمبراطور بادر بتقديم ابنته إزابيلا رهينة للإمبراطور إلى جانب بعض الرهائن الأخرى[4].

ثانيا : الحياة الدينية للصليبيات.

المبحث الأول : أوضاع الراهبات الصليبيات في المجتمع الصليبي.

أما عن أوضاع المرأة الصليبية في الحياة الدينية في المملكة اللاتينية، فقد كان هنالك أديرة خاصة بالنساء كما هو الحال في أوروبا، وبناء على المعلومات المتاحة فإن دوافع الالتحاق بالأديرة تختلف من امرأة لأخرى، فقد اختارت بعض الفتيات الصليبيات حياة الرهبنة والتنسك طواعية، وذلك لإشباع رغبة دينية أو تكفيرا عن بعض الأمور في حياتهن

1 ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص223، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج2،ص211.

[2] فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ،ص 219، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس ، ص30.

3 ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9،ص 230،ابن العديم، زبدة الحلب ،ج2،ص120، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص274-277.
Grousset, op, cit, p100.

4 علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، ص258.

وجعلن خدمة الرب هي أقصى غايتهن وأسمى أهدافهن، وذلك من خلال خدمة حجاج بيت المقدس وتطبيب الجرحى والمرضى وخدمة الدير بوجه عام[1].

اشترط فيمن تصبح راهبة شروطا ثلاثة يجب أن تتحلى بهم وهم : الطاعة والفقر والطهر، وكان تحقيق الشرط الثاني وهو الفقر يستوجب على الراهبة التخلي عن أي مظهر من مظاهر الملكية مهما تضاءل شأنه ولو عرف أنها امتلكت شيئا من عقارات أو أموال أو أملاك عينية أو نقدية تكون ارتكبت اثما كبيرا، كما وجب على الراهبة التحلي بالاستعداد الطبيعي لحياة الرهبنة، إلا في بعض الحالات التي كان الوالد هو الذي يقرر إمكانية دخول ابنته لسلك الرهبنة أم لا، و كان على الفتاة الراغبة في أن تصبح راهبة أن تبلغ السن الذي تتخذ فيه القرار بذلك بإرادة حرة ورغبة أكيدة وإن لم تبلغ الفتاة السن بعد كان يتحتم عليها أن تقضي بضع سنوات كراهبة مبتدئة حتى تبلغ السن الذي يؤهلها للاختيار [2].

1- الأنظمة المتبعة في الأديرة :

لم تختلف نظم الرهبنة في الأديرة اللاتينية بالشرق عن نظائرها بالغرب فقد اتسم كل دير بسمتين: الصفة الدينية والصفة الاجتماعية، فلو نظرنا إليه من الصفة الأولى وجدناه يمثل وحدة دينية فهو دارا للعبادة والتقوى والورع ومثلت الصلاة فيه واجبا أساسيا كان لزاما على الراهبات أن تؤدينه، فكن يصلين سبع صلوات في اليوم الواحد وتبدأ أولى هذه الصلوات في حوالي الساعة الثانية صباحا وهي صلاة السحر ولا شك أن الراهبات كن يعانين صعوبة كبيرة في الاستيقاظ في هذه الساعة ولقد توقع القديس بندكت[3] هذه الصعوبة فكتب في قواعده عندما يستيقظ الرهبان والراهبات لأداء الصلاة المقدسة فليشجع بعضهم بعضا، ويحثوهم بلطف على النهوض.

بعد صلاة السحر كانت الراهبات يعدن إلى مراقدهن ليستيقضن على الساعة السادسة صباحا فيقرأن قداس الفجر Prime، ويعقب ذلك خمس صلوات أخرى هم صلاة في التاسعة تسمى Tierce، وأخرى تسمى Sext والثالثة صلاة الظهر ثم العصر وأخيرا صلاة النوم وهي الصلاة الأخيرة التي كانت تؤدى في الساعة السابعة مساء في فصل الشتاء وفي الثامنة في فصل الصيف، وبعد تأدية هذه الصلاة تأوي الراهبات إلى مضاجعهن دون إبطاء[4]، وكان من

1 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي، ص241.

2 كولتون، الديرية، أسبابها و نتائجها، عرض عام للدور الاجتماعي و الثقافي الذي لعبه نظام الديرية في تاريخ العالم، ترجمة :جمال الدين الشيال ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد 11، 1957،ص192.

3 **القديس بندكت**: ولد القديس بندكت في أسرة لها مكانتها الاجتماعية ثم تلقى دراسته الأولى في روما ثم اعتزل في كهف و عاش فيه حياة قاسية، ومنذ القرن الثالث إلى القرن الخامس الميلادي ظهرت في أوربا رهبنة متزمتة، رغم أنها جماعية حتى نهاية القرن الخامس أين ظهرت رهبنة معتدلة أتى بها الراهب بندكتين Bendictus (480- 543م) سن فيها لائحة لحياة الرهبنة تنهاهم عن العزلة و تأمرهم بالعيش كأعضاء في مجتمع متعاون، و قد لقي هذا النوع من الرهبنة نجاحا و انتشارا واسعين في أوروبا **أنظر**: ل.ج.شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة: مجد الدين حفنة ناصف، مراجعة: علي آدم، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص91-92، كولتون، المرجع السابق،ص187-188.

4 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي ، ص243-244.

الواجب على الراهبات القيام بالصلاة لمدة أربع ساعات فضلا عن الصلاة الفردية أو التأمل الذي يفرضه الفرد على نفسه أما القداس فكان يقام عادة أيام الآحاد و في الأعياد الدينية الكبرى[1].

وكانت الراهبات يتناولن ثلاث وجبات في اليوم، الأولى هي وجبة الفطور وكن يتناولنها بعد صلاة الفجر وكانت غالبا ما تتكون من الخبز والبيرة ثم وجبة الغداء في منتصف النهار وكانت تصاحبها قراءة جهرية، والوجبة الأخيرة هي وجبة العشاء وكن يتناولنها بعد صلاة العصر في الساعة الخامسة أو السادسة مساء[2].

كان لزاما على الراهبة التزام الصمت، إذ كانت قوانين الرهبنة تفرض على الراهبات الصمت داخل الدير، ولم يكن المقصود الصمت التام غير أنه كان يطلب من الراهبات تحاشي المحادثات العامة سواء في الدير أو في أي مكان آخر، أما غرفة المحادثة Parlatorium التي كان يباح استعمالها لأوقات معينة أثناء النهار فهي تمثل تطورا جاء متأخرا في نظام الديرية وحدث هذا التطور بدافع الطبيعة البشرية، فأصبحت الراهبات يشغلن أنفسهن بجمع أخبار الأحداث الجارية و نقلها، وكن الشيء الذي لا شك فيه أن القديس بندكت لم يكن يجيز الثرثرة و المجون ويمنع لغو الحديث والكلمات المثيرة للضحك [3].

إن تجنب الأحاديث والتزام الصمت في الحياة الديرية اضطر الراهبات للتفاهم بينهن بلغة الإشارة، وقد كانت هنالك قوائم خاصة بالإشارات التي يتعين على الراهبة استعمالها داخل الدير تحاشيا للكلام، ووصل الحال إلى استخدام الإشارة حول موائد الطعام فمثلا إذا أرادت الراهبة ملحا فتنقر بطرف إبهام و سبابة اليد اليمنى على ابهام اليد اليسرى، ومن تريد سمكة يتعين عليها هز ذراعيها على هيئة تقلد فيها زعانف السمكة، أما من أرادت نبيذا فتحرك السبابة صعودا وهبوطا على نهاية الابهام أمام العين وإذا أرادت لبنا يجب عليها أن تسحب إصبعها بهيئة تشبه عملية الحلب وهكذا[4]، وقد احتوت القوائم الموضوعة للراهبات على ما لا يقل عن مئة وستة إشارة وقد كان نظام الراهبات ينص على أنه غير مسموح اطلاقا استعمال هذه الإشارات دون سبب مبرر ودون حاجة نافعة[5].

أما عن الصفة الاجتماعية للدير فتعني إقامة أعداد من البشر تتعاون فيما بينها لتوفير مستلزمات معيشتها، من إعداد الطعام وتوفير الكساء وإدارة مزرعة الدير ومراعاة أعمالها وأن تشارك الراهبات الرهبان في تلك الأعمال التي تدار بإشراف مسؤولات يطلق عليهن صاحبات الطاعة والانقياد الرهباني Obedientieries يخترن من بين الراهبات ذوات الخبرة وأهمهن جميعا خادمة الكنيسة أو "القندلفت" Sacristan التي يوكل إليها أمر ترتيب الكنيسة وإنارة الدير، ومنصب خادمات غرف النوم Chambresses اللائي يعتنين بملابس الراهبات وتخزين المؤونة، وتجدر الإشارة إلى أنه كان من

1 كولتون، المرجع السابق،ص191.

2 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي،ص244.

3 كولتون، الديرية، ص191-192.

4 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي،ص244-245.

5 كولتون، الديرية ، 192.

واجب النساء اللواتي انخرطن في المؤسسة الدينية في المجتمع الصليبي القيام بتدريس التعاليم المسيحية لصغار المسلمين الذين يقعون في الأسر[1].

كانت ملابس الراهبات[2] عبارة عن ملابس سوداء قاتمة وخمرهن تتدلى حتى تلامس حاجب العينين، ولم تتجمد الأزياء على تلك الوتيرة فمع مرور الوقت أخذت خطوط الأزياء الحديثة تغير من نوعية ملابس الراهبات حتى الصالحات منهن إلى درجة ارتداء الأثواب ذات الألوان الزاهية والمطرزة وذات الصدور المفتوحة، وقد تزينت الملابس بالأشرطة الحريرية والأحزمة الفضية والأحذية المزينة بالشرائط، ووصل الأمر إلى ارتداء الفراء الثمين ودبابيس الشعر الذهبية والقبعات العريضة المبطنة وكأنهن نساء دنيويات يتنافسن وراء أحدث خطوط الموضة مما يبين أن الكثير من الراهبات قد خرجن من خط الورع[3].

فقد وصف ابن القيسراني ملابس الراهبات والقديسات في كنيسة أنطاكية وقد ارتدين المدارع[4] وهي ثوب قصير من صوف وجبة مشقوقة المقدم وضعن في أوساطهن الزنانير يقول[5]:

كم بالكنائس من مبتَلـةٌ مثل المهاة يزينها الخَفَـــــــــرُ
من كل ساجدة لصورتـها لو ألصقت سجدت لها الصُورٌ
قديسة في حبل عاتقـــها طول و في زُنارها قصـــــــــــر
غرس الحياء بصحن وجنتها وردا سقى أغصانه النظـــــــر
وحكت مدراعها غدائرها فأراك ضعفي ليلة قمـــــــــر.

2- نماذج لبعض الراهبات الصليبيات:

كانت الفتيات اللاتي يلجأن إلى حياة الرهبة ويفضلن الحياة الديرية ينشدن من وراء ذلك زيادة تقربهن إلى الله، وأن يعشن بذلك حياة طاهرة منزهة عن شائبة الخطيئة والرذيلة ولعل ذلك يعلل التقشف الشديد والإقبال على العبادة بكل حواسهن علهن يكفرن عن حياة خاطئة كن يعشنها من قبل، و فوجدن في سلك طريق الرهبنة ما يعيد لنفوسهم الأمان و التوبة، ومنهن من كان العامل النفسي أو ممارستهن بعض الضغوط النفسية وراء اتخاذهن ذلك الطريق كأن يطلقها زوجها أو يتوفى عنها عائلها، وإجمالا نستطيع أن نُقر أن توتر الحياة الاجتماعية لدى هؤلاء النسوة كان العامل

1 فعلى سبيل المثال شن الفرنجة غارتين سنة614هـ/ 1217م على جبل الطور و الناصرة و أسروا عددا كبيرا من المسلمين، رجالا و نساء و أطفال و قام بطريرك عكا يعقوب الفيتري بتعميد الصغار و قسمهم بين الراهبات لتدريسهم تعاليم المسيحية ، **أنظر:** يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص163.

2 عن لباس الراهبات أنظر الملحق رقم (03) .

3 اسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوروبي، ص250.

4 **المدرع** : الدراعة و هي ثوب قصير من صوف و جبة مشقوقة المقدم ، أنظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط ،ج1،مؤسسة الرسالة للنشر ،ط8، بيروت ،2005، ص967.

5 ابن القيسراني ، ديوان القيسراني ،ج1 ، ص 215.

الأساسي وراء ترهبنهن، وهذا لا يعني أن كل من سلكن طريق الرهبنة كن على نفس الوتيرة بل وجد من عاش حياة مستقرة وسلك ذلك الطريق بغرض التقوى والتقرب إلى الله.

وكان من أهم أسباب دخول الكثير من النساء الصليبيات إلى سلك الرهبة التكفير عن الذنوب خاصة الزنا وخيانة الزوج، ومن أمثلة ذلك زوجة "رينيه دي بروس" صاحب بانياس التي أصبحت راهبة لتطهير نفسها من الخطيئة التي لوثت سمعتها ودنست بها شرف زوجها، حيث وقعت في أسر المسلمين لدى استيلاء شمس الملوك بوري حاكم دمشق على المدينة في سنة 532هـ/1137م، ولما حدث التحالف بين الدماشقة والصليبيين سنة 534هـ/ 1139م تم الاتفاق بينهما على رد الأسرى المأخوذين من مدينة بانياس[1]، وكان من بينهم زوجة" رينيه" التي مكثت في أسرها لعامين كاملين، فلما عادت لزوجها اكتشف أنها لما كانت في الأسر سلكت سلوكا مشينا لا يتماشى مع المرأة الشريفة التي تحافظ على نفسها وكرامتها وشرف زوجها وأنها لم تحافظ على رابط الزواج المقدس، ويبدو أن ذلك المسلك الذي سلكته في الأسر قد شاع عنها وافتضح أمرها حتى أنها لم تستطع انكار ذنبها، ولكي تكفر عن فعلتها دخلت ديرا للنساء الطاهرات في القدس وأصبحت راهبة ونذرت نفسها للعفة لباقي حياتها، وبعد وفاتها قام زوجها بالزواج مجددا [2].

لكن أمر الخيانة الزوجية لم يكن في غالب الأحيان حقيقة مؤكدة، فقد استغل الملك بلدوين الأول تلك التهمة حتى يُكره زوجته الأرمينية أردا على الانخراط في سلك الرهبة ليتخلص منها، وأجبرها على دخول الدير، ويبدو أن زواجه من الأميرة الأرمينية أردا كان زواج منفعة سعى من خلاله لتوطيد علاقته مع الأرمن حينما كان أميرا على الرها إضافة إلى طمعه في الثروة الكبيرة للأميرة من والدها ثوروس Thoros كبير النبلاء الأرمنيين[3]، وبعد فترة لم تتجاوز السبع سنوات قام الملك بلدوين الأول بتطليق زوجته أردا و ذلك سنة 498هـ/ 1104م متهما إياها بسوء سمعتها و فساد أخلاقها وباقترافها الزنا، و أجبرها على الانخراط في سلك الرهبنة في دير القديسة آن Saint Anne في الجزء الجنوبي الشرقي لبيت المقدس[4].

عاشت الملكة أردا عدة سنوات في ذلك الدير رغم أنفها وكانت تقطنه أربع نساء معوزات، ولما التحقت الملكة به وهبه الملك بعض المساعدات، ورغم تلك المساعدات لم تستطع الملكة تحمل تلك الحياة وانتهزت فرصة التقرب من الملك بلدوين الأول واتخذت من فقر الدير ذريعة للذهاب إلى القسطنطينية للحصول على بعض المساعدات لنزيلاته وزيارة بعض أقاربها هناك، وعندما وافق الملك على طلبها سافرت ولم تعد وهجرت بعد ذلك حياة الرهبنة واتخذت من القسطنطينية ملجأ وملاذا لها[5].

1ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص426.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج2،ص687-688، رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص364، طه الطراونة، المرأة الصليبية ،ص83.

3 علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها ، ص70.

4 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص 166، أسامة زكي زيد ، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ،ص32.

Grousset , op . cit , p 66 ,

5 Katherine Pangonis , Queens of Jerusalem the Women Who Dared to Rule ,Pegasus Books, New york, p21.

والواقع أن هناك العديد من الأسباب التي قيلت في شأن شرف وسمعة الملكة أردا، فقد أرجع المؤرخ اللاتيني جيبرت أوف نوجنت Guibert of Nogent المعاصر لأحداث تلك الفترة من الزمن أن انفصالهما قد تم نتيجة لحادثة الاغتصاب التي تعرضت لها الملكة من جانب بعض البحارة أثناء رحلتها من أنطاكية إلى يافا عام 494هـ/ 1101م للحاق بزوجها الملك بلدوين[1]، أما المؤرخ وليام الصوري فقد كان أكثر حرصا في اتهامه للملكة فقد اكتفى بنقل آراء الناس في سبب الانفصال دون ابداء رأيه ، فذكر أن بعضهم أرجع هذا للشك في إخلاص الملكة لزوجها، بينها رأى البعض الآخر أن السبب يرجع إلى رغبة الملك في الزواج من امرأة أخرى أكثر ثراء لمواجهة العجز المالي الذي تعاني منه المملكة اللاتينية في ذلك الوقت فأكره الملكة أردا على الانخراط في سلك الرهبنة[2]، والمؤسف في الأمر أن المؤرخ فوشيه الشارتري القس الخاص للملك بلدوين الأول قد سكت تماما عن ذكر أي رأي في هذا الموضوع ، رغم أنه المؤرخ الوحيد الذي يمكن أن تكون لديه المعلومات الكاملة.

مهما كانت الآراء، حول أسباب دخول الملكة إردا للدير وطالما أنه لا توجد أدلة قاطعة على عدم اخلاص الملكة ، فإننا نستبعد عامل الخيانة كسبب لذلك، خاصة وأن الملك بلدوين قد فكر في أواخر أيامه أن يعيد زوجته إليه مرة أخرى، ولعل الأسباب الحقيقية هي أسباب سياسية أكثر منها أخلاقية فإذا كان زواجه من الملكة أردا قد حقق له مزايا و مكاسب سياسية ومادية عندما كان حاكما على امارة الرها، فإن هذا الزواج صار غير ذي نفع بعد أن أصبح ملكا على بيت المقدس، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نفاذ ثروة الأميرة الأرمينة وعدم انجابها وريثا لعرش المملكة اللاتينة، كل هذا قد أدى بالملك إلى التخلص منها و التفكير في زواج جديد ، تمثل في الأمير الصقلية " أديلايد سالونا" كونتيسة صقلية[3].

إلى جانب البحث عن المغفرة، كان عدم وجود زوج مناسب عاملا آخر من عوامل اللحاق بالحياة الديرية، وقد كان هذا السبب هو الذي أدى بالأميرة جوفيتا Joveta الابنة الصغرى للملك بلدوين الثاني و التي أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين إلى اللحاق بدير القديسة حنة في بيت المقدس وقبلت التنازل عن صفتها الملكية و عاشت بين الراهبات وساوت نفسها مع أصغر راهبة في ذلك الدير البسيط[4].

لكن الملكة مليسند رأت أن الوضع لا يليق بأختها وأنها لا يجب أن تعامل معاملة الأشخاص العاديين من أهل المملكة ، لذلك قامت بنفسها بمسح كل أراضي المملكة و أخذت تبحث عن مكان مناسب لبناء دير ضخم فانتهى بها المقام إلى اختيار قرية بيثاني[5] وكانت أرضها تابعة لكنيسة القبر المقدس مقابل التنازل لهم عن قرية تقوع[1] بدلا عنها، وتمت

أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص24.

1 Guilbert of Nogent , The Deeds of God The Franks ,p95.

2 وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية،ج1، ص550.

3 أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص23.

4 Ernoul , La chronique d' Ernoul, p5, Katherine Pangonis , Queens of Jerusalem,p.58

5 **قرية بيثاني**: و هي قرية العيزرية، تقع في ضواحي بيسان على بعد حوالي خمس كيلومترات، جنوب جبل الزيتون و هي قرية مقدسة عند المسيحيين حيث يتواجد بها قبر القديس لعازر، و تعرف بقرية مارثا و مريم و ألعازر ،**أنظر**: يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص 84، رنسيمان، المرجع السابق ،ج2 ،ص373.

المبادلة بينها و بين رجال الدين في عام 532هـ/ 1138م، حيث قامت ميلسند بإنشاء التحصينات القوية المتمثلة في الأبراج العالية حول الدير للدفاع عنه ضد أية محاولة للاعتداء عليه نظرا لوقوعه على مشارف الصحراء، و هذا ما يجعله أكثر عرضة لهجمات الأعداء[2].

والسؤال المطروح لماذا قامت الملكة ميلسند بمبادلة أرض تقوع التابعة لهيئة القديس لازاروس[3]بأرض بيثاني التابعة لكهنة الضريح المقدس وجعلتها مقرا لدير خاص بجماعة فرسان لازاروس، و يتضح لنا أن أرض تقوع شهدت إبان العصر الصليبي انتعاشا روحانيا حيث حرص الصليبيون على إحياء الأديرة القديمة التي ترجع إلى العصر البيزنطي، و امتلكت كنيسة القديس لازاروس أراضي شاسعة فيها ، كما تم لرهبانها إقامة حياة ديرية خاصة بهم، و يرجح أحد الباحثين اهتمام المسيحيين بتقوع إلى اعتقادهم بقصة مفادها أنه عندما سمع هيردوس الكبير الذي كان يحكم فلسطين بمولد طفل بين اليهود وهو المسيح عليه السلام وشاع أنه سوف يملك البلاد ،فأمر بقتل عدد كبير من الأطفال ثم دفن أعدادا منهم في بلدة تقوع، وهذا ما يفسر لماذا وافق رجال الدين على مبادلة قريتهم بيثاني بتقوع في عام 532هـ/ 1138م مع الملكة ميليسند رغم أن خصوبة الأرض فيها كانت أقل[4].

أعلن البابا سلستين الثاني Celiestin Ⅱ (537- 538هـ/ 1143-1144م) عملية التبادل تلك وأكدها على جميع الأديرة ورؤساء الأساقفة وأساقفة العالم، حيث أورد أنه استجابة منا لرغبة الملك المحبوب فولك وزوجته الملكة ميليسند و فضلهم قد قررنا بالاتفاق الواجب نحو كنيسة القديس لازاروس وفيما يخص أسقفية البطريرك أرنولف الخاص بنا، كذلك التابع لذلك الملك المذكور قد وافق عليه لكم، وكذلك القرى الأخرى الواقعة في ضواحي تلك الكنيسة، وأضاف البابا سلستين بأنه لا يحق لأي شخص في الحاضر أو المستقبل أن يتدخل في ذلك وهو ما نقدره ونعرفه[5].

ثم شيدت الملكة ميليسند دير سان لازاروس، الذي أوقفت عليه مدينة أريحا وما حولها من ضياع وحدائق، كما أنفقت بسخاء على راهبات الدير فأغدقت عليهن الكثير من المنح و الهبات، وأهدت ميليسند للدير عددا كبيرا من

---

1 **قرية تقوع**: و هي احدى القرى القديمة في فلسطين، و تعرف باسم خربة تقوع و قد ورد اسمها في الوثائق الصليبية بأشكال مختلفة منها Tecue, Al-tugue, و قرية تقوع تقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم، و على نحو سبع كيلومترات منها ، **أنظر**: سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص241.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص730-731.

3 **هيئة القديس لازاروس** : كان القديس لازاروس مهتما بعلاج مرضى الجذام (البرص) و رعايتهم، و قد ساعده في ذلك مجموعة من المتطوعين المصابين بنفس المرض، فكانت هذه الجماعة هي النواة الأولى لتأسيس المستشفى في مدينة بيت المقدس لعلاج المرضى المصابين بالجذام و هو من الأمراض الجلدية المعدية التي كانت منتشرة في المجتمع الصليبي و كان ذلك حوالي عام 370م ، و قد اهتم ملوك بيت المقدس بعد ذلك بتقديم مساعداتهم لهذه الهيئة و قد جاءت العلاجات عند هيئة القديس لازاروس وفق النموذج العربي الإسلامي إما بالحجر الصحي أو باتباع طريقة التطعيم ضد هذا المرض و هي طريقة ابتدعها الأطباء العرب المسلمون و من ثم انتقلت تلك الطريقة إلى أوروبا، تحولت هيئة فرسان القديس لازاروس إلى هيئة دينية عسكرية مع البدايات الأولى للاحتلال الصليبي لبيت المقدس (492هـ/1099م) لكنها استمرت في تأدية دورها في علاج مرضى الجذام و الحجاج و الجرحى من الصليبيين، و رغم ما قدمته هذه الهيئة من خدمات إلا أنها تبقى هيئة صغيرة لا يمكن أن نضعها في موقع المقارنة بهيئة الداوية و الاسبتارية من حيث الثروة أو أهمية الدور الذي لعبته .، **أنظر**: سرور علي عبد المنعم، فرسان القديس لازاروس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، مجلة المؤرخ المصري،العدد 28، القاهرة ،2005، ص161-198

4 Ernoul, op,cit,p72

5 سرور علي عبد المنعم، فرسان القديس لازاروس، ص 168.

الأواني والصلبان الذهبية والشمعدانات الفضية والتحف المرصعة بالجواهر فضلا عن الأقمشة الحريرية كي يزين بها جوانب الدير إضافة إلى ملابس أخرى ثمينة، إلى جانب الأموال الطائلة، فأصبح الدير أغنى الأديرة في مملكة بيت المقدس[1].

وبعد كل هذه التجهيزات أصبح الدير جاهز ومهيئ للعبادة، وسار الجميع حسب تعاليم القديس بندكت، ثم أنزلت به الملكة مجموعة من الراهبات و قد حرصت الملكة ألا يكون الباعث لها من بناء الدير مكشوفا للجميع فلم تعين أختها إيفيتا رئيسة للدير بل عينت راهبة أخرى شديدة الصلاح و التقوى كبيرة في السن تدعى "ماتيلدا" Mathilda مما يجعل وفاتها وشيكة الوقوع ، ولم تلبث أن ماتت بالفعل بعد بضعة شهور وعندئذ قامت ميليسند بتعيين أختها رئيسة للدير بعد انتخابات شكلية وعينت جوفيتا ذات الأربعة و العشرين عاما رئيسة له بعد موافقة بطريرك بيت المقدس، و كأميرة و رئيسة لأغنى دير في المنطقة احتلت إيفيتا مكانة متميزة طوال حياتها[2].

ويبدو أن هذه الأميرة الراهبة كانت ذات نفوذ كبير في المؤسسة الدينية، فقد استطاعت أن تفرض مرشحها لمنصب بطريرك القدس إثر شغوره بوفاة البطريرك فولشر Fulcher سنة552هـ/ 1157م، و نتيجة لتدخل جوفيتا وسيبيلا الأخت غير الشقيقة للملك بلدوين الثالث، أنتخب أسقف كنيسة قبر السيد المسيح أمرليك Amalrich لذلك المنصب[3].

والحقيقة أن إيفيتا لم تنسى ما غمرتها بها أختها من إحسان فردت لها الجميل في مرضها الأخير الذي قضت فيه نحبها، فقد ظلت إيفيتا ساهرة على أختها تمرضها و تخفف من آلامها و تحنو عليها متضرعة لها بالرحمة حتى توفيت مما يشهد على رابطة المحبة التي جمعت بينهما، كما امتدت خدمات إيفيتا إلى حفيدة ميليسند الأميرة سبيلا فعهدتها بالرعاية و التنشئة في أحضان دير سان لازاروس حتى كبرت و أصبحت ملكة لبيت المقدس ، و قد ظلت إيفيتا رئيسة لدير سان لازاروس حتى توفيت سنة 573هـ/ 1177م[4].

كما شابه وضع الأميرة إيفيتا وسبب التحاقها بالحياة الديرة وضع ستيفانيا stephania التي شكلت مثالا آخر لالتحاق أميرة بالحياة الديرية، فهي ابنة جوسلين الأكبر كونت الرها، و قد التحقت بالدير لتعذر حصولها على زوج مناسب، و أصبحت رئيسة دير السيدة مريم الذي كان يقع بمواجهة قبر السيد المسيح في القدس، و قد شهد الجميع لتلك السيدة بطهارة النفس و التقوى و الجدير بالذكر أن السيدة ستيفانيا كانت من ضمن الهيئة الدينية التي فصلت في موضوع القرابة بين الملك عموري الأول و زوجته أجنس كورتناي، فقد تقصى المؤرخ وليام الصوري ذلك الموضوع لما وصله خبر طلاقهما بدافع تلك القرابة و استطاع الحصول على معلومات وثيقة من السيدة ستيفانيا حينما سردت عليه

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص730-731.

2 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص373، سرور علي عبد المنعم، فرسان القديس لازاروس، ص169.

3 ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص207، أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص43.

4 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص373، هامش رقم 1

نسب المطلقين بإسهاب شديد حتى وصلت به إلى أصل شجرة قرابتهما مما يدل على إلمامها بأدق تفاصيل الأنساب رغم كبر سنها[1].

اتجهت بعض النساء الصليبيات إلى حياة الرهبنة عقب وفاة شريك حياتها، ومثال ذلك ماتيلدا Matilda ابنة الملك فولك الأنجوي التي لجأت لحياة الرهبنة، حيث كانت قد خطبت إلى هنري ابن ملك انجلترا ولكنه عندما عاد مبحرا إلى وطنه إنجلترا لإعداد تجهيزات الزفاف غرقت سفينته فأقسمت ماتيلدا أن تبقى أرملة لبقية حياتها وترهبنت في دير مونتفرولت حيث عاشت حياة طاهرة حتى وافتها المنية[2].

لم تكن وفاة الزوج أو حتى عدم وجود زوج مناسب فقط ما دفع بعض النساء الصليبيات لاختيار حياة الرهبنة والابتعاد عن العالم المادي، فهنالك من النساء من تخلت عن الحياة الزوجية و آثرت العيش في كنف الدير، ومثال ذلك الأميرة "سبيل" ابنة الملك فولك من زوجته الأولى أريمبورج دوميين Aremburge du maine وقد تزوجت سبيل من ثيري Thierry أمير فلاندرز عام 522هـ/1128م، و قد حدث أن توجه ثيري مع زوجته سبيل لتأدية الحج إلى بيت المقدس عام 552هـ/ 1157، وهنا أحست سبيل بانجذاب نحو العالم الروحاني وضرورة الابتعاد عن العالم المادي الصرف فازداد حنينها للبقاء في كنف المكان الطاهر الذي يحمل ذكرى أبيها الملك فولك، فكان القرار الصعب الذي تخلت فيه عن كل شيء ورمته وراء ظهرها وقررت الدخول في سلك الرهبنة، واتجهت إلى دير القديس لازاروس في بيثاني وتخلت عن كل متاع الدنيا حتى أنها رفضت العودة بصحبة زوجها إلى إمارته و أصرت على البقاء في الدير، فلجأ زوجها ثيري إلى أخيها الملك بلدوين الثالث و البطريرك حتى يقنعاها على العدول عن قرارها إلا أنها أبت الرجوع عن قرارها فاضطر ثيري للخضوع لرغبتها، و يقال أن الراهبات عرضن عليها رئاسة الدير إزاء ذلك الموقف إلا أنها تعففت و أكدت للجميع أنها لا ترغب في أي منصب سوى أن تصير راهبة فقط، وظلت ماكثة في الدير حتى وفاتها عام 561هـ/1165م[3].

وهنا نرى أن ما قامت به الأميرة سبيل من تخليها عن زوجها و وضعها الاجتماعي في أوروبا و بقائها كراهبة في دير القديس لازاروس يعود إلى روح العصر زمن الحروب الصليبية والذي كان مشحونا بالدعاية الدينية فقد كان للأماكن المقدسة في بيت المقدس مكانة كبيرة لدى الفرد المسيحي في كل العالم ، كما نستقصي من التواريخ السابق ذكرها ان هذه الأميرة لم تكن صغيرة في السن فقد كان تاريخ زواجها عام 522هـ/1128م وحجت إلى الشرق عام 552هـ/ 1157، أي أنها قاربت العقد السادس من عمرها و أرادت اكمال ما تبقى من عمرها في الأراضي المقدس كراهبة حتى تحظى بالمغفرة، و بالفعل لم يطل بها العمر بعد ذلك و توفيت في الدير عام 561هـ/1165م.

كما لا يمكن اعتبار العوامل الاجتماعية هي العامل الوحيد لانخراط السيدات الصليبيات في سلك الرهبنة فكثير منهن اتجهن إلى سلك الرهبة منذ الصغر و اكتشفن أن ميولهن الدينية تغلب رغبتهن في التمتع بالحياة و مغرياتها الفانية، ومن

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص883.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص716.

3 Grousset, op,cit,pp 169-189.

أمثلة ذلك الراهبة أجنس Agnes و هي سيدة شريفة رومانية الأصل و نبيلة الدم، و التي كانت قد قدمت إلى بيت المقدس بعد غزو الصليبيين لها مباشرة و عاشت سنين فيها سالكة طريق الرهبنة حتى وكل إليها إدارة دير النساء و ارتقت في المناصب الإدارية حتى صارت رئيسة للدير، وأثبتت أجنس جدارتها و استحقاقها لمنصبها لما تمتعت به من صفات خلقية و طهارة النفس و الإخلاص الشديد لعملها كما التزمت العادات و الأعراف الكنسية التي طبقت كقوانين صارمة[1].

اهتمت أجنس بالفقراء وأحسنت إليهم بكل صدق وتفاني وقد ساعدها في ذلك جيرارد gerard المشرف العام على مستشفى القديس يوحنا، وقد كونا ثنائيا بذل كل ما في وسعه لخدمة الفقراء فكانوا يشرفون على المرضى و المحتاجين رغم فقرهم كما كانا يقومان بالصلاة و الصوم ويكثران من أعمال الرحمة وعاشا عيشة تمتاز بالتقشف والاقتصاد، وقد اعتادا على اعطاء خبز الحنطة للمرضى والاحتفاظ ببقايا الخبز للاستعمال الشخصي[2].

وعلى الرغم من تلك النفسية المتميزة التي امتازت بالحب والحنان و العطف فإن أجنس وجيرارد كانا شديدي القسوة أمام كل من اقترف الآثام و الخطايا خاصة من الرهبان فقد كان يعاقب بانتزاع الصليب من على ملابسه مما يجعله مثار احتقار الجميع و نبذهم و إذا زادت الخطيئة قيدوا المذنبين بالسلاسل و أودعوا بالسجن ومنهم من كان يحكم عليهم بتناول وجبات لا تسمن و لا تغني من جوع ملقاة على الأرض عند أقدام الرهبان حتى يؤدوا الكفارة المناسبة لأفعالهم، و قد ذاع صيت أجنس و جيرارد في أنحاء العالم المسيحي نظرا لما سمع من سيرتهما من قبل حجيج بيت المقدس فأغدقت عليهما المنح و الهدايا من قبل الملوك و الأمراء فضلا عن الصدقات التي كانت تقدم إليهما من كل أنحاء العالم مما أدى إلى ثرائهما في فترة قصيرة و امتلاكهما الكثير من الإقطاعات في مختلف القرى والمدن[3].

المبحث الثاني: الدور الكنسي للنساء الصليبيات :

فاق دور المرأة الصليبية الكنسي دور الرجال في هذا المجال فقد انشغل الرجال بتقوية دفاعات الإمارات الصليبية أو التوسع خارج حدودها بينما انصرف جهد المرأة في إقرار الدافع الديني من خلال الكنائس والأديرة، فنجد المرأة تؤدي دورها الكنسي ملكة كانت أو أميرة أو راهبة أو من عامة المجتمع الصليبي وعلى كافة المستويات صارفة جهدها بعزيمة صادقة لإقرار ذلك الدور الذي يجلب لها عظيم الامتنان والاحترام، ومما ساهم في بلورة ذلك الدور تلك المنح والإقطاعات التي وضعت رهن تصرف الكنائس.

وتأتي في مقدمة الأدوار الكنسية التي لعبتها المرأة الصليبية في المجتمع الصليبي ما قامت به حاجة ألمانية كانت قد قدمت مع زوجها لأداء الشعائر المقدسة في بيت المقدس، وأثناء رحلتهم لاحظوا المصاعب التي يعاني منها الحجاج الألمان الذين كانوا قلة ولم يستطيعوا التحدث بلسان أهل المدينة الذين كان أغلبهم يتكلمون الفرنسية، ففكروا في بناء أول كنيسة

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج1،ص 833-834.

2 يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص88.

3 يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس،ص89.

خاصة بطائفة التيوتون عام 512هـ/1118م، ثم تلى ذلك انشاء مستشفى خاص بهم من قبل الحجيج الألمان أيضا[1]، و يذكر الرحالة الألماني فورزبورغ[2] الذي زار بيت المقدس حوالي 571هـ/ 1175م أن تلك الكنيسة و المستشفى سميتا على اسم "السيدة العذراء"، كما كان المستشفى يسمى أيضا باسم "بيت الألمان" ذلك لأنها لا تضم سوى الألمان فقط، و لا تزال آثار الكنيسة و المستشفى في مدينة بيت المقدس إلى وقتنا الحالي، و هكذا أسهمت المرأة الألمانية في إقامة أول لبنة كنيسة من خلال الكنيسة التي عرفت باسم كنيسة القديسة مريم العذراء[3].

لقد تصدرت الملكة ميليسند بجدارة دور المرأة الصليبية الكنسي فلا نجد من يضاهيه لدى أي امرأة صليبية أخرى، حيث قامت بتشييد العديد من الأديرة و اعتنت عناية فائقة بالكنائس فأسبغت عليهم المنح و الهبات الكثيرة، كما أولت عنايتها و اهتمامها بجميع المؤسسات الكنسية اللاتينية في مملكة بيت المقدس، وكانت كلما تقدمت في السن زاد شغفها بأعمال البر و الاحسان[4] – فقد أسلفنا الذكر سابقا– أنها عندما أرادت أن تقيم ديرا للنساء أشأت دير بيثاني من أجل أختها إيفيتا و أوقفت لذلك الدير منطقة أريحا بجميع ضواحيها و ثرواتها، كما كانت كريمة مع راهبات الدير فأغدقت عليهم الهبات و الأموال و الأواني الذهبية و الفضية وعندما تولت أختها رئاسة الدير استمرت في إثراء الدير بالمنح و الهدايا طيلة مدة حياتها[5].

كما ظهر اهتمام الملكة ميليسند الشديد بدير بيثاني و لعل ذلك يعود إلى عاطفة الأخوة الشديدة التي كانت تكنها لأختها إيفينا و التي كانت تتمنى أن تحيطها بعطفها وأن تعيش في نفس المستوى الذي كانت ستعيش فيه إن لم نتخرط في سلك الرهبنة، ففي سنة 554هـ/ 1159م قامت الملكة ميليسند بعقد اجتماع في بيت المقدس تقرر فيه منح دير بيثاني الكثير من المنح والإقطاعات وذلك بعد مصادقة ابنها الملك بلدوين الثالث وحضور حشد من الأمراء و رجال الدين اللاتين في المملكة، وقد تم تأكيد توثيق تلك المنحة حين تم التوقيع عليها في شهر أكتوبر من نفس السنة و تم منح الدير قريتين على حدود نابلس[6].

و قد استمرت الملكة ميليسند و زوجها الملك فولك الأنجوي في إغداق المنح والإقطاعات على الكنائس و الأديرة اللاتينية في مملكة بيت المقدس الصليبية، كما كان الملك فولك يؤكد على المنح و الإقطاعات التي كان يقدمها الأمراء للمؤسسات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ففي يوم الأحد 29 ربيع الأول 533هـ / 4 ديسمبر1138م و خلال الاجتماع الذي عقده الصليبيون في مدينة عكا أكد الملك فولك الأنجوي بموافقة زوجته ميليسند وابنه الملك بلدوين الثالث على المنحة التي قدمها لامبرت الوس Lamgert Alsus لرجال الدين في كنيسة القيامة، و هذه الهبة كانت

1 يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص94.

2 وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص 75.

3 نبيلة ابراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص175.

4 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص372.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص730، سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص207.

6 ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص213، سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية،ص209.

عبارة عن بعض الأراضي في قرية تل ميماس[1] منحها لامبرت إلى بطرس رئيس كنيسة القيامة و بقية رجال الدين العاملين معه و قد تمت هذه المنحة في مدينة عكا بحضور البطريرك وليم الأول والملكة ميليسند ويوحنا أسقف عكا وروبرت رئيس الشمامسة و آخرون.

كذلك قام الملك فولك في ذات العام بمنح كنيسة القيامة عشرة منازل في حدود بيت المقدس، و قد تمت هذه المنحة بموافقة الملكة ميليسند وابنها بلدوين الثالث و بحضور حشد من كبار الأمراء و رجال الدين اللاتين في المملكة من أمثال البطريرك وليام الأول ووليم بور أمير الجليل وبلدوين إبلين سيد الرملة وأخرون، ويتضح من خلال المنح و الإقطاعات أن التي قدمت للمؤسسات الكنسية زمن الملك فولك و الملكة ميليسند أن كنيسة القيامة قد فازت بنصيب الأسد فيها.

و قد مست هبات الملكة ميليسند و زوجها الملك فولك العديد من الكنائس الأخرى بخلاف كنيسة القيامة، حيث قدم الملك فولك قطعة من الأرض في حدود بيت المقدس إلى كنيسة القديس العازر، و قد تمت هذه المنحة بموافقة الملكة ميليسند وابنهما بلدوين الثالث في عام 536هـ/1142م، و بعد ذلك بعامين أكدت الملكة ميليسند و ابنها بلدوين الثالث على استمرارية المنحة السابقة[2].

و لم تقتصر هبات وأعطيات الملكة ميليسند لكنيسة القيامة في عهد زوجها فولك، بل نجد أنها استمرت في ذلك حتى بعد وفاته، حيث قامت الملكة بالتوثيق و الموافقة على المنحة التي قدمها ابنها عموري كونت يافا إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس نظير ما قدموه من خدمات عسكرية و مساعدات مالية من أجل الاستيلاء على مدينة عسقلان، ففي يوم الأربعاء 29 ربيع الأول 555هـ/ 30 نوفمبر 1160م قام بمنح رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة قرية جلاديا Geladia الواقعة في حدود عسقلان كما منحهم منزلا و أرضا في مقاطعة عسقلان علاوة على ذلك منحهم أرضا في حدود قرية عين بدران القريبية من مستوطنة ألبيرة في حدود بيت المقدس، و كانت تلك المنح قد أعطيت كبدل لأرض الخصراء في عسقلان و التي كان قد تركها لهم البطريرك عموري أوف نسل، كذلك تم توثيق المنح المقدمة لكنيسة القيامة في مقاطعة يافا و قد تمت هذه المنح بموافقة المكلة ميليسند و الملك بلدوين الثالث و بحضور مجموعة من رجال الدين اللاتين في المملكة من بينهم رئيس دير جبل صهيون و رئيس دير جبل الزيتون و آخرون[3].

كما بذلت الملكة ميليسند الأوقاف لدير القديس "سابا" الأرثوذكسي المذهب و يرجع السبب في ذلك إلى أن أمها الملكة مورفيا أرثوذكسية المذهب ما جعل ميليسند تتقبل عنصر الاختلاف المذهبي، كما منحت ميليسند الهبات و العطايا لدير القديسة مريم سنة 547هـ/ 1152م ،و هي المنحة التي سبق و حصل عليها الدير من الملك بلدوين

1 **قرية تل ميماس**: تقع في الشمال من مدينة عكا، و على بعد عشرة كيلومترات منها، و ترتفع عن سطح البحر نحو خمسين مترا، و تحتوي القرية على صهاريج و معصرة نبيذ و مدافن و خزان مياه بالقرب من أحد الآبار، **أنظر**: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج7،ص360-361.

2 البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص208.

3 المرجع السابق، الممتلكات الكنسية، ص 209-210.

الثاني عام 525هـ/1130م، و قد كان لذلك الدير مكانة عزيزة على قلب الملكة ميليسند لوجود ضريح والدتها الملكة مورفيا بداخله[1].

وينعكس ذلك التسامح المذهبي الذي كانت تؤمن به ميليسند في سعيها لتحسين العلاقات بين الكنيستين اليعقوبية و الأرمينية، ذلك أن اليعاقبة قد هربوا إلى مصر قبل استيلاء الفرنج على بيت المقدس عام 494هـ/ 1099م وعندما عادوا وجدوا أن أملاك كنيستهم بفلسطين قد استولى عليها فارس من الفرنج اسمه جوفييه Gauffier و لما وقع هذا الفارس أسيرا في أيدي المصريين عام 498هـ/1103م ساعد هذا اليعاقبة في استرداد أراضيهم و استمروا يتمتعون بها حتى عام 532هـ/1137م إذ عاد جوفييه من أسره بعد أن ظن كل الناس أنه مات في الأسر فطالب بأملاكه، و لكن الملكة تدخلت تفاديا لما قد يحدث من صراعات دامية بين الطرفين لإصرار كلاهما على أحقيته في هذه الأراضي، فسمحت لليعاقبة بالاستقرار في أملاكهم و الاحتفاظ بها بعد أن يدفعوا لجوفييه تعويضا ماليا قدره ثلاثمئة دينار[2].

ومن الأعمال الخيرية التي تنسب إلى الملكة ميليسند تلك الهبات العديدة التي منحتها لجماعتي الفرسان الداوية و الاسبتارية، و يبدو أنها كانت تسعى من خلال دعمها لهذه الهيئات العسكرية شراء ودهم أو حتى حيادهم في الصراع الذي دار بينها وبين ابنها بلدوين الثالث على السلطة بعد وفاة الملك فولك، وكانت ميليسند قد منحت الاسبتارية قصر إليتوم Altum Castel و هي بمثابة مقر إقامة في مدينة بيت المقدس، كما منحتهم استراحة تقع أمام كنيسة يوحنا المعمدان مقابل التنازل عن الحمامات العامة التي تقع في شارع القديس ليونارد في عكا و ذلك سنة 544هـ/ 1149م، كما منحتهم كذلك قرية عصيرة Assera القريبة من قيسارية كإقطاع لهم، و" قرية بريث" Bereath القريبة من عكا سنة 545هـ/ 1150م[3].

ونتيجة لتأثر الملكة ميليسند بالجانب الديني وشغفها به فقد ألفت كتابا بعنوان "المزامير" و كانت قد كتبته من أجل سيرة أختها "إيفيتا" رئيسة دير بيثاني وتناولت حياتها من طفولتها حتى صارت رئيسة لدير النساء و لذلك فمن المرجح أن يكون هذا الكتاب قد ألف في حياة إيفيتا مما جعله يوضع ضمن الأعمال الدينية في حياة اللاتين، وفي ذلك المخطوط أعطتنا ميليسند إشارات طفيفة عن حياة الملك بلدوين الثاني والملكة مورفيا كذلك أوضح ذلك المخطوط صراعها المرير مع ابنها بلدوين الثالث على السلطة و كشفت فيه عن الأسباب الحقيقية لذلك الصراع الذي أفقدها سلطتها، و قد كتب الكتاب بواسطة ناسخ لاتيني، بينما غلب النمط البيزنطي على زخرفة الأوراق[4]، وقد عاش اسم

1 رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص374.

Mayer, Queen melsinde, p169.

2 رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص374، أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص35.

3Mayer, Queen melsinde, pp 139-140.

4 رنسيمان، المرجع السابق،ج3، ص650،

Mayer, Queen melsinde, p178.

الملكة ميليسند طويلا في أوقافها الدينية وفي مجموعة المزامير النفيسة المحفوظة في المتحف البريطاني، و يشهد التزيين الممتاز الذي حظيت به هذه المجموعة على رفعة الذوق الفني لدى نساخ القدس[1].

ومن بين النساء الصليبيات اللاتي ذكر اسمهن في دور المرأة الصليبية الكنسي كونتيسة طبرية "أرمنجارد" Ermngard حيث قدمت هذه السيدة في يوم الجمعة 10 ربيع الأول 540هـ/ 31 أوت 1145م منحة إلى كنيسة القديس العازر في طبرية و كانت عبارة عن قطعة أرض قريبة من الكنيسة، و قد تمت هذه المنحة بحضور بعض أمراء الجليل، كما استمرت هبات أميرات الجليل للكنائس اللاتينية حيث حظيت كنيسة القيامة باهتمام أميرة الجليل إشيفيا و زوجها والتر Walter ففي عام 560هـ/1165م أكد والتر و زوجته إشيفيا على المنحة التي سبق أن حصلت عليها كنيسة القيامة من وليم بور عام 526هـ/1132م و القاضية بحصول الكنيسة على قريتي جبول و هيلكار و جميع الأراضي المحيطة بهما في إمارة الجليل و تم توثيقها في سجلات الإمارة الخاصة[2].

كذلك أولت الملكة ميلسند اهتماما خاصا بالكنيسة و رجال الدين إذ حثت زوجها فولك أن يجعل لكنيسة القيامة هبات و إقطاعات كثيرة من الأراضي، كذلك ظلت تشيد – و على نطاق واسع – طوال حياتها العديد من المؤسسات الدينية ولعل أهم ما يذكر لها بالعرفان ، ما حققته من تحسين في العلاقات بين الكنيستين اليعقوبية و الآرمينية، وكذلك كتاب المزامير ، و يحوي صورا على النمط البيزنطي[3] .

و كان للأميرة أليس ابنة الملك بلدوين و ابنتها كونستانس دور كنيسي لا يستهان به، فقد منحت الأميرة أليس في رمضان 528هـ/ جوان 1134م لدير القديسة مريم أراضي في جُبيل و كانت هذه المنحة من أملاك أليس و ابنتها كونستانس[4].

وبادرت جيلتديس Geltidis زوجة روهارد أحد نبلاء بيت المقدس بتقديم منحة إلى كنيسة القيامة كانت عبارة عن محصول الكروم من أراضي قرية راماتيس، و التي أصبحت مركزا استيطانيا لرجال الدين، و قد أكدت الملكة ميليسند بموافقة أبنائها الملك بلدوين الثالث و عموري أمير يافا على ذلك في وثيقة رسمية وجهتها للكهنة الذين كانوا يقطنون تلك المنطقة و قد تم ذلك الاتفاق عام 547هـ/1152م[5].

وقد لعبت الرحالة الروسية إيو فروزين Euphrosine (1162-1172م) دورا كنسيا لا يستهان به أثناء زيارتها لمملكة بيت المقدس في النصف الثاني من القرن الثاني عشر/ القرن السادس الهجري، حتى أن المؤرخين يعتبرونها ذات بصمة واضحة في تاريخ المرأة الكنسي، و ذلك من خلال تدعيمها للكنائس اللاتينية في بيت المقدس والمساهمة بكل ما بوسعها لمساعدتها و لعل ذلك الأمر يرجع إلى نشأتها الدينية فقد سلكت طريق الرهبنة منذ نعومة أظافرها، ثم ما

1 ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص214.

2 سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص 208-211.

3 عبد اللطيف عبد الهادي السيد، بلدوين الثالث، ص65-66.

4 البيشاوي، الممتلكات الكنسية،ص205.

5 المرجع نفسه، ص225.

لبثت أن قامت ببناء دير آخر صارت هي رئيسته مما أشاع صيتها في مجال الرهبنة في روسيا فصارت لها مكانة سامية في الأواسط الدينية، وقد أجادت الكتابة و القراءة و قامت بنسخ كتب عديدة و أنفقت من مالها الخاص في الأعمال الخيرية كرعاية المرضى والمحتاجين، و في أعوامها الأخيرة تطلعت للقيام برحلة الحج نحو أماكن المسيحية الأولى والأراضي المقدسة في مملكة بيت المقدس وخلال رحلتها الروحية أثرت كنائس بيت المقدس بتلك المنح والهبات العظيمة التي أسبغتها على كنائسها، كما وضعت أيو فروزين مصباحا من الذهب الخالص عند الضريح المقدس إظهارا للمحبة و للتبرك به و ليكون رمزا قائما هناك[1].

ولم يقتصر دور النساء على الهبات والعطايا بل هنالك من باعت بعض أملاكها للكنائس لغاية أو لحاجة و من أمثال ذلك عندما باعت "أليوس" Alios زوجة أحد التجار الصليبيين متجرين إلى كنيسة القيامة بقيمة مائة و سبعين بيزنت و ذلك بتاريخ 17 جمادى الآخرة 550هـ/ 18 أوت 1155م، و قد اشترى رجال الكنيسة العقارين لأنها كانا يقعان على شارع رئيسي من الناحية الشرقية بالقرب من مدخل كنيسة القيامة الغربي و يحدهما من الجهة الجنوبية منزل أحد رجال الدين اللاتين.

كما باع "يوحنا جوثمان" Jean Gothman بالاتفاق مع زوجته أمان دالا Aman dala إلى هيكل كنيسة القيامة ببيت المقدس بعض القرى التي كان يملكها في مملكة بيت المقدس وهي (بيت عطاب و دير شرف و دير حسان و خربة أم القلعة و جاتين) بمبلغ ألف و أربعمائة بيزنت، و قد صرح جوثمان و زوجته أن البيع كان من منطلق الحاجة الماسة في مقابل الحرية والاعفاء من الأسر و بمشورة وموافقة الملك بلدوين الثالث، حيث أن جوثمان كان قد أسره المسلمون سنة 552هـ/ 1157م و كان مضطرا لبيع القرى الخمس إلى رجال الدين في كنيسة القيامة من أجل الحصول على الأموال لكي يدفع الفدية للمسلمين لتحرير نفسه من الأسر[2].

المبحث الثالث: الصليبيات ورجال الدين :

لقد برز في المجتمع الصليبي تلك العلاقة التي ربطت رجال الدين بالنساء الصليبيات بصفة مباشرة أو غير مباشرة فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه قد كان للمرأة دور لا يستهان به في تكوين الهيكل الكنسي، وذلك من خلال تدخلها في تعيين من يشغل المناصب العليا من رجال الدين وفقا لأهوائها و مصالحها، كما كان لرجال الدين أيضا تأثيرهم الواضح في تعيين ملكات بيت المقدس من خلال تأييد موقف بعض الملكات و تعزيز موقفهن أمام معارضيهم أو معارضة اختيار بعضهن، كما لا نخفي رغبة الكثير من رجال الدين بالاستئثار بالسلطة في الإمارات الصليبية لأنفسهم و ذلك بالسيطرة على وريثات العرش وتسيير أمور الحكم تحت ستار منهن.

كما تظهر سلطة رجال الدين و علاقتهم بالأميرات الصليبيات في إمارة أنطاكية الصليبية فبعد أن تمكن الملك فولك الأنجوي من كبح جماح الأميرة أليس من السيطرة على السلطة في إمارة أنطاكية و الاستيلاء على حق ابنتها كونستانس في وراثة العرش –كما ذكرنا سالفا– أعادها إلى ممتلكاتها في اللاذقية و أخذ الوصاية على إمارة أنطاكية

1 محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس،ص144-145.

2 البيشاوي، الممتلكات الكنسية،ص216-217.

و عين البطريرك برنارد نائبا عنه في 526هـ/ 1131م ، ولكن برنارد لم يلبث طويلا في ذلك المنصب و توفي في نفس السنة، فبادر الناس في اختيار الأسقف اللاتيني "رادولف دومفرون" الذي تميز بفصاحة خطابه و تأثيره على سامعيه ليخلفه في البطريركية دون انتظار الانتخاب الكنسي، ولم يرغب "رادولف" أن يسيطر عليه الملك فولك و رجاله العلمانيون لذا فتح باب المفاوضات مع الأميرة أليس التي لا تزال تقيم بأملاكها باللاذقية، والتي بدورها رأت في ذلك فرصة لن تتكرر لاسترجاع سلطتها في أنطاكية فاستنجدت بأختها الملكة ميليسند التي أقنعت زوجها الملك فولك بالسماح "لأليس" بالعودة إلى أنطاكية على أن تبقى الوصاية على العرش بيد الملك و أن تشترك الأميرة" أليس" و البطريرك "رادولف" بطريرك أنطاكية في تسيير شؤون الحكم[1].

لكن تهور الأميرة أليس ورغبتها في الحفاظ على سلطتها دون التفكير في عواقب ذلك ألب الرأي العام في أنطاكية عليها، ففي نهاية سنة530هـ/ 1135م أرسلت "أليس" إلى القسطنطينية لتعرض زواج ابنتها "كونستانس" من الأمير البيزنطي مانويل كومنين، و أدرك البطريرك "رادولف" أن "أليس" قررت إقصائه عن منصبه، فبتحالفها مع البيزنطيين سيحل مكانه بطريرك يوناني لامحالة، فقرر أن يكون في صف الملك فولك و بارونات أنطاكية الذين قرروا تزويج الأميرة كونستانس من الأمير ريموند دي بواتيه [2]وكان ذلك بالفعل، حيث تم زواج كونستانس من ريموند – كما أسلفنا ذكر ذلك سابقا – عن طريق مكيدة حاك خيوطها البطريرك "رادولف " والتي تمكن من أن خدع بها أليس مقنعا إياها أن ريموند دي بواتيه يرغب بالزواج منها فهدأ بالها و في تلك الأثناء تمكن رادولف من إتمام مراسيم زواج ابنتها كونستانس من ريموند و اضطرت أليس للتسليم بالأمر الواقع، و قد كانت تلك الخطوة هزيمة نكراء لحقت بالأميرة أليس لأنه لم يكن لديها أي سلاح تقاوم به زواجا شرعيا فعادت إلى اللاذقية لتمضي بقية حياتها[3].

استمرت علاقة رجال الدين بأميرات أنطاكية الصليبيات زمن الأميرة كونستانس، حيث شارك بطريرك أنطاكية "إيمري" في إدارة شؤون الإمارة إلى جانب كونستانس التي أصبحت وصية على ابنها بوهيمند الثالث عقب مقتل زوجها ريموند بواتيه سنة 544هـ/ 1149م[4]، وحتى يبلغ بوهيمند الثالث سن الرشد راح إيمري يدير الإمارة في وقت المحنة،ونظرا لثرائه الواسع فقد أمد أنطاكية بما تحتاجه من مال وعتاد وتجنيد القادرين على الدفاع عنها ، غير أن العلمانيين من أمراء و بارونات الإمارة كرهوا فكرة أن يتولى الوصاية أحد رجال الدين، هذا في الوقت الذي كان فيه ابن خالتها الملك بلدوين الثالث أصلح وصي على بوهيمند الثالث لا باعتباره سيدا أعلى بل لأنه كان أدنى الأقارب الذكور للأميرة كونستانس[5].

غير أن ذلك كان عبئا ثقيلا على الملك بلدوين الثالث الذي ناشد الأميرة "كونستانس" الزواج من أحد الأمراء اللاتين كي يعول عليه في إدارة الإمارة وحمايتها، غير أنها لم تقبل أحدا ممن رشحهم لها بلدوين الثالث للزواج منها نظرا

1 رنسيمان، المرجع السابق، ص314-315.

2 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص678.

3 Stevenson,op ,cit, p135 , Archer And Chales .L. Kinsford, The Story Of The Crusades ,p191

4 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص533، عاشور،الحركة الصليبية،ج1،ص505،

Setton ,op, cit, Vol Ⅱ ,p 408.

5 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص 792-793.

لرغبتها في الانفراد بالسلطة، تلك السلطة التي سيسلبها من قبضتها الزوج الذي ستقبله[1]، ويرجح وليام الصوري[2] المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث أن تحريض البطريرك "إيمري" للأميرة و تشجيعها لرفض الزواج من أحد الأمراء الصليبيين هو ما جعلها تتشبث برأيها، و السبب هو خوف البطريرك من فقدان سلطانه و مكانته الدينية في الإمارة.

تدخلت كل من الأميرة "سبيلا " أخت الملك بلدوين الثالث و خالته "إيفيتا" اللتان كانتا راهبتين في تعيين البطريرك "عموري أوف نسل" Amaury of Nesle كبطريرك لبيت المقدس بعد وفاة البطريرك السابق "فولشر أنجولم" Fulcher of angoulem عام 552هـ/1157م، و كان عموري يعمل كقيم لكنيسة القبر المقدس منذ 538هـ/1143م، و كان قرار تعيينه قد صدر من طرف الملكة ميليسند من نابلس، رغم النزاع الذي كان بينها و بين ابنها الملك بلدوين الثالث وانتهى بتقليص سلطتها إلى مدينة نابلس فحسب، و هو خير دليل على أن الملكة الأم كانت تمارس سلطانا فعليا في الأمور الهامة المتعلقة بمملكة بيت المقدس خاصة وأن منصب البطريرك يعتبر من بين المناصب المهمة و الخطيرة في مستقبل و مصير المملكة[3].

وقد كان للملكة ميليسند دور هام و بارز في تعيين المستشار الملكي رالف Ralph رئيسا لأساقفة صور، فحينما توفي وليم بطريرك بيت المقدس سنة 540هـ/ 1145م أختير "فولشر" رئيس أساقفة صور ليخلفه في منصبه، وبذلك خلا منصبه في كنيسة صور وتوجب اختيار شخص مناصب ليشغل المنصب، وهنا اجتمع كل من ميليسند وابنها بلدوين الثالث بالبطريرك الجديد في صور لغرض محدد هو تعيين رالف رئيسا لأساقفة صور[4].

انقسم الرأي العام حول رالف إلى فريقين، الفريق الأول يؤيد تعيين رالف في ذلك المنصب وقد ساند هذا الرأي الملكة ميليسند و ابنها بلدوين الثالث ورجال البلاط، ويعتبرون أن رالف كان على قدر كبير من العلم و الثقافة وهو الرجل الأجدر بهذا المنصب، أما الفريق الثاني المعارض فقد برروا وجهة نظرهم في أن رالف كان منغمسا في المسائل الدنيوية التي لا تليق وذلك المنصب الديني الجليل، وقد تزعم ذلك الفريق يوحنا John كبير شمامسة صور وبرنارد Bernard أسقف صيدا و يوحنا أسقف بيروت، مما يعني أن معظم المعارضين كانوا من رجال الدين الذين أعربوا عن رفضهم لهذا الترشيح وقاموا بإصدار فتوى ضد من يؤيد ترشيح رالف حتى يوقفوا كل المساعي الرامية لترشيحه من السلطة الملكية[5].

ونظرا للضغط الملكي الذي مارسته الملكة ميليسند وابنها بلدوين تم تعيين رالف رئيسا لأساقفة صور، وهنا نرى أن ذلك التدخل الذي مارسته الملكة ميليسند سببه رغبتها في أن تكون الكنيسة حليفة لها سياسيا، وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد لذلك كانت تغدق عليها الهدايا الثمينة والمنح المتنوعة، لكن بعد أن استقر "رالف" في منصبه تم سحب وظيفة

1 عاشور،الحركة الصليبية ،ج2،ص 505،عبد اللطيف عبد الهادي السيد، عصر بلدوين الثالث، ص125

2 تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص804

3 ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص207، أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص43.

4 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص756-757.

5 Mayer, , Queen melsinde, p126.

المستشار الملكي منه والراجح أن الملكة ميليسند هي من قامت بذلك حتى لا تجتمع عنده السلطة السياسية والروحية و تصبح بيده قوة كبيرة يصعب السيطرة عليها لاحقا[1].

هنالك أيضا "أجنس دي كورتناي" والدة الملك بلدوين الرابع والتي كان لها دور بارز في اختيار هرقلHeraclius كبطريرك لبيت المقدس رغم الاعتراضات الشديدة على تعيينه في أكبر سلطة دينية وأخطرها في المملكة، فعندما مات البطريرك "عموري دي ناسل" في جمادى الأولى 576هـ/ أكتوبر 1180م تم اختيار هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليخلف عموري في البطريركية رغم ما عرف عنه من صفات سوء السلوك و عدم الشرف والفسق[2]، و كان من أشد المعارضين لتعيينه الأسقف وليام الصوري وقد بذل قصارى جهده ليحول دون وصوله إلى منصب البطريرك خاصة و أنهما قد ترشحا- وليام الصوري و هرقل — من طرف رجال الدين في كنيسة القيامة للوصول إلى هذا المنصب، ثم يتم عرضهم على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع فإما يقر التعيين باختيار أحد المرشحين أو يرفضهم وتتم عملية اختيار مرشحين آخرين[3].

وقد سعى وليام الصوري للوصول إلى هذا المنصب بخطى حثيثة ورغب أن لا تتم المفاضلة بينه وبين هرقل رئيس أساقفة قيسارية، فحاول بكل ما يملك من مقدرة على اقناع القائمين على القبر المقدس أن لا يضعوا اسم هرقل وحذرهم من أن ينتخبوا رجلا يندمون على اختياره فيما بعد وتتأذى به المملكة، وعلى الرغم من حديث وليام الصوري لهيئة الاختيار فقد تم الاختيار بينه و بين هرقل وكان كلا المرشحين له هيكل وظيفي متشابه لكن هرقل تفوق لما كان له من حظوة عند أجنس والدة الملك بلدوين الرابع[4].

لقد تدخلت "أجنس" بكل ما لديها من تأثير وطالبت من رجال الدين ضرورة انتخاب هرقل لمنصب البطريرك، لذلك فعندما توجهوا إلى اجتماعهم الذي عقد في كنيسة القبر المقدس ضربوا بالنصائح والتحذيرات التي أطلقها وليام الصوري عرض الحائط، وصدر قرارهم بانتخاب هرقل بطريركا لمملكة بيت المقدس وتم تقديم الترشيح للملك بلدوين الرابع للمصادقة عليه، غير أن "أجنس" كانت قد علمت بقرار اللجنة و توجهت إلى ابنها الملك وراحت تتوسل إليه أن يصادق على اختيار هرقل بطريركا لبيت المقدس، فوافق الملك نزولا عند رغبة والدته ورجائها[5].

غير أن السؤال المطروح هنا، ما الدافع الكبير الذي جعل أجنس تنحاز إلى "هرقل" وتدعمه وتبذل كل تلك الجهود حتى يظفر بمنصب البطريرك للمملكة، وقد أرجعت عدة مصادر[6]تمسك أجنس بتعيين هرقل بالكرسي البطريركي إلى

---

1 وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج2،ص757.

2 Eracle, op,cit,p58,

أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس،ص52

3 عز العرب أحمد سليمان، البطريرك هرقل ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، (1180-1190م)،ص207.

4 المؤرخ المجهول، ذيل وليام الصوري، ترجمة :حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2002،ص78.

5 Eracle, op,cit, p58

المؤرخ المجهول، ذيل وليام الصوري، ص79.

6 Eracle, op,cit, p57-59, Ernoul, le chronique d’Ernoul, p82-83.

وجود عاطفة من الود العظيم نحوه، وأنها على علاقة غير شرعية مع البطريرك هرقل إذ كانت تعشقه لجماله ووسامه[1]، و لكن هل يعقل أن يتقبل الملك بلدوين الرابع هذه الشائعات دون أن يكون كارها أو رافضا لطلب أمه مهما كان تأثيرها عليه ؟.

لذا فإننا نرى أن تاريخ هرقل باعتباره مكملا لتاريخ وليام الصوري أو حتى المؤرخ المجهول وكتابه ذيل تاريخ وليام الصوري قد نقلوا هذا الرأي عن وليام الصوري، والمتضمن الحقد و الكراهية لأجنس لأنها كانت السبب في ابعاده عن منصب البطريركية الذي كان تواقا إليه بتأييدها لهرقل، وأن ما قامت به "أجنس" من مساندة لهرقل حتى يظل تابعا مخلصا يدين بالولاء التام لآل كورتناي لتأييدهم الشديد له وفضلهم عليه في التعيين في منصب البطريرك، عكس وليام الصوري الذي كان يتمتع برأي مستقل وشخصية مستقيمة وكان من الصعب على أجنس أن تفرض عليه الطاعة و الولاء أو تأثر في رأيه.

ويظهر ولاء البطريرك هرقل جليا لآل كورتناي بذلك الدعم الكنسي الذي قدمه إلى الأميرة سيبيلا ابنة أجنس و أخت الملك بلدوين الرابع فبعد وفاة ابنها الملك بلدوين الخامس الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره عاد نشاط البطريرك هرقل إلى الظهور مرة أخرى خاصة في الدور الذي لعبه في تتويج جاي لوزجنيان وزوجته سيبيلا ملكان على عرش بيت المقدس سنة 582هـ/1186م حيث استطاعت سيبيلا أن تتغلب على مناوئيها من الحزب المعارض بقيادة كونت طرابلس ريموند الثالث، كما أكد لها هرقل مساندة المؤسسة الكنسية لها و لزوجها[2].

وهنا يمكن التقرير أنه كان من مصلحة هرقل وجود سبيلا وزوجها على رأس المملكة فهذا معناه استمراره في منصبه، لذلك لا غرابة في إسراعه لتتويج سيبيلا ملكة على القدس ليقطع الطريق أمام رجل قوي مثل ريموند الثالث أو غيره من الأمراء الأقوياء الطامعين في العرش، ولا شك أن هذا التتويج كان سببا من أسباب اضمحلال وسقوط مملكة بيت المقدس في حطين على يد صلاح الدين 583هـ/1187م.

1 المؤرخ المجهول، ذيل وليام الصوري،ص79.

2 Ernoul, op,cit,p27 , Eracle, op, cit, pp 27-28.

الخـــاتمة

توصلنا بفضل من الله سبحانه وتعالى وعلى امتداد الفصول السابقة إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو التالي:

* بعد أن تأسست الإمارات الفرنجية في بلاد الشام تمتعت المرأة الفرنجية بذات الحقوق التي تمتعت بها المرأة في أوروبا ، إلا أن المتاعب التي جابهتها فاقت تلك التي عانت منها المرأة الأوروبية، بسبب الطبيعة الحربية للمجتمع الصليبي حيث كانت حرية النساء اللواتي وصلن إلى السلطة محدودة جدا، لأن مجتمعا حربيا يحتاج إلى محاربين فكن ينتقلن مع التاج أو مع الإقطاع من زوج لآخر على كره منهن.

* كانت الأرستقراطية الفرنجية مضطرة للتزاوج من بعضها البعض بالرغم من ضيق دائرتها، فقد كان من الصعب تجنب الزواج بين الأقارب، الأمر الموضح والمحدد في القانون الكنسي، وأصبح إلغاء الزواج أمرا في غاية السهولة، أما النساء في الطبقة العامة قد عانين من الفقر والأسر والعبودية ،وتحملت المرأة بسبب الأفكار السائدة عند الفرنجة وِزر انتكاساتهم واخفاقاتهم، وباعتبارها التجسيد المادي للإثم والرذيلة .

* لقد كان تاريخ المرأة الفرنجية سلسلة من المصاعب والإهانات فرضت بعضها الأفكار التي انتقلت مع الفرنجة من أوروبا، وفرضت البعض الآخر الضرورات العسكرية والأوضاع غير العادية التي عاشها الصليبيون في الشرق.

* في بدايات الحروب الصليبية صنعت المرأة الفرنجية الفرق ولعبت دورا هاما في بناء وتثبيت الكيان الصليبي في أرض الشام، ولكنها في المقابل كانت السبب الرئيسي في اقتلاع هذا الجسد الغريب من الأرض الإسلامية، باستهتارها ورغبتها الجامحة في تقلد السلطة وامتلاك الثروة وانحرافها الأخلاقي.

* كان لنظام الحكم في المملكة اللاتينية دور كبير في سقوط بيت المقدس، فتوريث المرأة للعرش دون قدرتها على تأدية الواجبات الإقطاعية استعجل في سقوط المملكة الصليبية بسبب الطامعين.

* إن الحماس الديني الذي ألهب القارة الأوروبية في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والذي أفرز الحركة الصليبية قد جرف معه النساء الأوروبيات اللاتي رافقن الحملات العسكرية إلى الشرق الإسلامي و واجهن العديد من المصاعب، كالقتل والسبي على يد أعداء الفرنجة، أو الإبعاد عن المعسكر على يد الفرنجة أنفسهم.

* إن قدوم النساء الأوروبيات إلى المشرق الإسلامي بعامة والأرض المقدسة بخاصة بصحبة الرجال، سواء كانوا أزواجهن أو إخوانهن أو أبنائهن، لم يكن وليد الحملة الصليبية الأولى بل سبق ذلك بعقود طويلة طلبا لزيارة الأماكن المقدسة وأداء الشعائر الدينية، والتخلص من كل الذنوب والخطايا، وقد لعبت هذه الزيارات دورا مهما في اندفاعهن نحو مشاركة الجيوش الصليبية في الحملة الصليبية الأولى وتقديم المساعدات في الميادين الانسانية والعسكرية، من لحظة مغادرتهن لأوطانهن في أوروبا وحتى بلوغهن الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، من أجل بناء مجتمع جديد وسط محيط إسلامي واقتلاع سكانه الأصليين من بلادهم وأراضيهم، ونهب ثروات البلاد ومقدراتها.

* إن رغبة الصليبيين في استقدام أعداد كبيرة من النساء الأوروبيات في حملاتهم الصليبية إلى بلاد الشام يدل على رغبتهم في الاستيطان على أرضها وتكوين أُسر مستقرة ومجتمع صليبي حقيقي يكون للمرأة فيه دور كبير، فرغم ادعاء الصليبيين أن حملاتهم على الشرق كانت مقدسة ودينية ولغرض تحرير القبر المقدس وتقديم الخلاص للمسيحيين الشرقيين إلا أن رغبتهم في الاستقرار والتوسع كانت واضحة منذ البداية، وما استقدام النساء إلا أكبر دليل على ذلك، حيث حرص

أغلب قادة الحملة الصليبية الأولى على استقدام زوجاتهم، كما رافقت النساء الجيوش المتقدمة نحو الشرق وسعت المرأة الصليبية إلى تكوين مجتمع متماسك بثت فيه الحماسة الدينية وربت أبناءها على ذلك.

* قدمت المرأة الصليبية مختلف الخدمات للجنود الصليبيين وساعدت المحاربين في المعارك وفي تحضير الطعام وجلب الماء واسعاف الجرحى ومداواة المرضى ورفع الروح المعنوية للمحاربين وتشجيعهم على التجلد والثبات أمام الخصم وتحفيزهم على القتال، هذا بالإضافة إلى توفير وسائل الترفيه للمحاربين وتلبية احتياجاتهم ومطالبهم الجنسية.

* تفاوتت دوافع مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى بين إعانة زوجها على مشاق الحملة، والخوف عليه من الغواية خاصة بعد تطوع الكثير من بنات الهوى للترويح – كما يزعمن — عن المقاتلين الذين أخلصوا للمشروع الصليبي الذي صُبغ بالدين وذلك رجاء إرضاء ربهن ، وكان مألوفا منذ الحملة الصليبية الأولى أن تصاحب النساء أزواجهن، وقد شاركت بعضهن بدافع حب الاستطلاع أو المغامرة أو بدافع الفضول وإما للخلاص من حياة الفقر التي كن يحيينها في بلادهن في ظل النظام الإقطاعي أو للتخلص من ديونهن الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ،أو طلبا لغفران الذنوب.

* اندفعت النساء من مختلف فئات المجتمع الغربي للمشاركة في الحملات الصليبية، متزوجات يرافقن أزواجهن وغير متزوجات طاهرات عفيفات وراهبات وعاهرات وبغايا ونساء ذات وضع مبهم، ما أسهم في توفير مناخ الانحراف داخل صفوف الجيش الصليبي وعلى ما يبدو أن كثيرا من هاته النسوة لم تلبين دعوة الحرب المقدسة لتكفير عن خطاياهن بل لكي يقترفن خطايا جديدة.

* ما أن استقرت الصليبيات في بلاد الشام حتى اكتشفن أنه لكي يعشن في هذه البلاد لابد من الأخذ بأساليب الحياة الشرقية إلى حد ما، ولاسيما أن التأثر بالسكان الأصليين كان أمرا حتميا وتجلى ذلك التأثير في أساليب الحياة اليومية والسلوكات على الرغم من تمسكهن ببعض المظاهر التي تأكد انتسابهن لثقافة وحضارة المجتمعات البعيدة التي وفدن منها.

* كما أن مسألة حقوق الملكية التي تمتعت بها المرأة الصليبية أوجدت العديد من المشاكل في مسألة الزواج في المجتمع الصليبي فالفتاة التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية لم يكن لها رأي في اختيار شريك حياتها إذ كانت المصالح المادية هي صاحبة الرأي الأول والأخير، فالزواج بين الصليبيين أنفسهم بغرض إقامة تحالفات سياسية ومصالح اقتصادية كان الأكثر انتشارا، حيث أعتبر زواج الأرامل أو الفتيات الأرستقراطيات أو صاحبات الإقطاعيات أحد عناصر ربط الصلات بين الإمارات الصليبية وتدعيم أواصرها وبخاصة بين مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية أو بين الإمارات الصليبية فيما بينها، وذلك عكس الفتاة من الطبقة الدنيا والتي كانت تختار زوجها بمحض ارادتها لعدم وجود أي اعتبارات أخرى.

* أما فيما يخص المظاهر الاجتماعية للمرأة في المجتمع الصليبي باعتبارها مرآة أكثر إيضاحا لطبيعته وميوله، فقد تأثرت مثلها مثل كافة أفراد المجتمع الصليبي بعادات الشرق وقد برز ذلك خاصة في الملبس والمأكل وأدوات الزينة وغيرها من العادات التي لم تكن تألفها في الغرب الأوروبي خاصة الاستحمام.

* إن انتشار الزنا والدعارة في كافة طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام ودور المرأة الصليبية في ذلك ساهم في تفكك هذا الكيان وانتشار الأمراض الاجتماعية المختلفة فيه ما عجل في سقوطه.

* كما ساهمت المرأة الصليبية منذ وصولها إلى بلاد الشام في العمل العسكري جنبا إلى جنب مع الرجال من أجل تثبيت الوجود الصليبي في المنطقة، فحملت السلاح و دافعت عن الحصون وشجعت المحاربين على القتال، كما قدمت الدعم العسكري المساند والمتمثل في اعداد الطعام للمحاربين وجلب الماء في أوقات الحرب المساعدة في حفر الخنادق وكذا رفع الروح المعنوية للمحاربين و غيرها...

* وقد استنتجنا من الدراسة أن الأديرة آنذاك كانت تمثل الملاذ الآمن للعديد من النساء الصليبيات اللائي لجأن لسلك الرهبة ليتطهرن من دنس الانحطاط الأخلاقي وليتخلصن من أوزارهن، وهذا لا يعني أن الأديرة حوت تلك النوعية فقط من النساء بل كان يقيم بها نساء طاهرات وهبن أنفسهن لها دون ماض ملوث بأوزار غير شريفة.

الملاحق

الملـحق 1: حجة الملك فولك الأنجوي الخاصة بمنحه منازل في مدينة القدس لكنيسة القبر المقدس1.

بسم الثالوث الأقدس الواحد الأب والابن والروح القدس آمين .

منعا لأي ادعاء أو مطالبة أو أي نوع من الازعاج من قبل المنكرين انا فولك الملك الثالث للاتين في القدس بموافقة ميليسند الملكة زوجتي وبلدوين ولدي، قررت أن أسجل تأكيدي وأعلن حاضرا ومستقبلا أني بمخض ارادتي وبدافع الدين لا غير، أمنح لكنيسة القبر المقدس ورئيسها وجميع مجلس الأخوة المقيمين فيها في خدمة الله المنتظمة الحاضرين منهم والآتين فيما بعد، أمنحهم هذه المنازل الآتي ذكرها الكائنة داخل أسوار القدس وهي: منزل الكاهن بطرس برناردوس Bernardus والكاهن ايفرادوس Evradi وكذلك منزل الكاهن ايراردوس Erradi ومنزل ماينارودوس Meinardi ومنزل جارسيونوس Garsionis ومنزل جالتيريوس لينترونيور Galterii Lentronior ومنزل برناردوس بورساريوس Brnardi Bursarii ومنزل هرلوين Herluini ومنزل روجيريوس Rogorii ومنزل مابيليا Mabiliae وهو أخو الكهنة المذكورين وكذلك مقر جويلليلم باستاردوس.

والقطعة التي كان يملكها جويلليلم Guillelmi لموائد الصيارفة وذلك لراحة نفوس أسلافنا الملوك ونفوسنا نحن ووالدينا وجميع الموتى المؤمنين لاسيما الذين سفكوا دماءهم لحيازة الأراضي المقدسة، ثم إني أنا فولك أمنح هذه المنازل خالصة ومستوفاة الحقوق وأثبت ملكيتها و حيازة أملاكها بحق أبدي للكنيسة المذكورة وكهنتها معفاة من أي ضرائب ماعدا العدالة الملكية التي تقضي ببذل الصدقة التي يهبها الملك للكنيسة المقدسة، و لكي تبقى هذه المنحة ثابتة ومستقرة للأبد، أحببت أن أرفق هذه الوثيقة بختمي الملكي و تأكيدها بتوقيع الشهود ذوي الشهادة الصادقة وأسماؤهم كالتالي:

جويلليلموس بطريرك القدس	Guillemus
روبرتوس المنتخب في الناصرة	Robertus
جاوفريدوس أنبا المعبد	Gaufridus
جويلليلموس دي بوريس	Guillemus de Buris
رانيريوس بروني	Rainerius
باري سانوتي	Bari saute
بلدوين رامنسيس	Balduinus Ramensis
راوردوس نائب كونت القدس	Roardus
أنسيلموس دي بريا	Anselmus de Bria

1 Assises de jerusalem, op, cit , pp 493-494.

Gervasius Burgundiensis	جرفاثيوس بورجنديسيس
Ulricus	أولريكوس نائب كونت القدس
Bernardus Vacers	برنردوس فاسرس
Joannes Camerarius	يوحنا الخادم
Meinardus de Porta	ماريناردوس دي بورتا
Nichola	نيقولا

الملحق رقم 2 : إقطاعات الأميرات والملكات الصليبيات في بلاد الشام قبل سقوط بيت المقدس (583هـ/1187م)

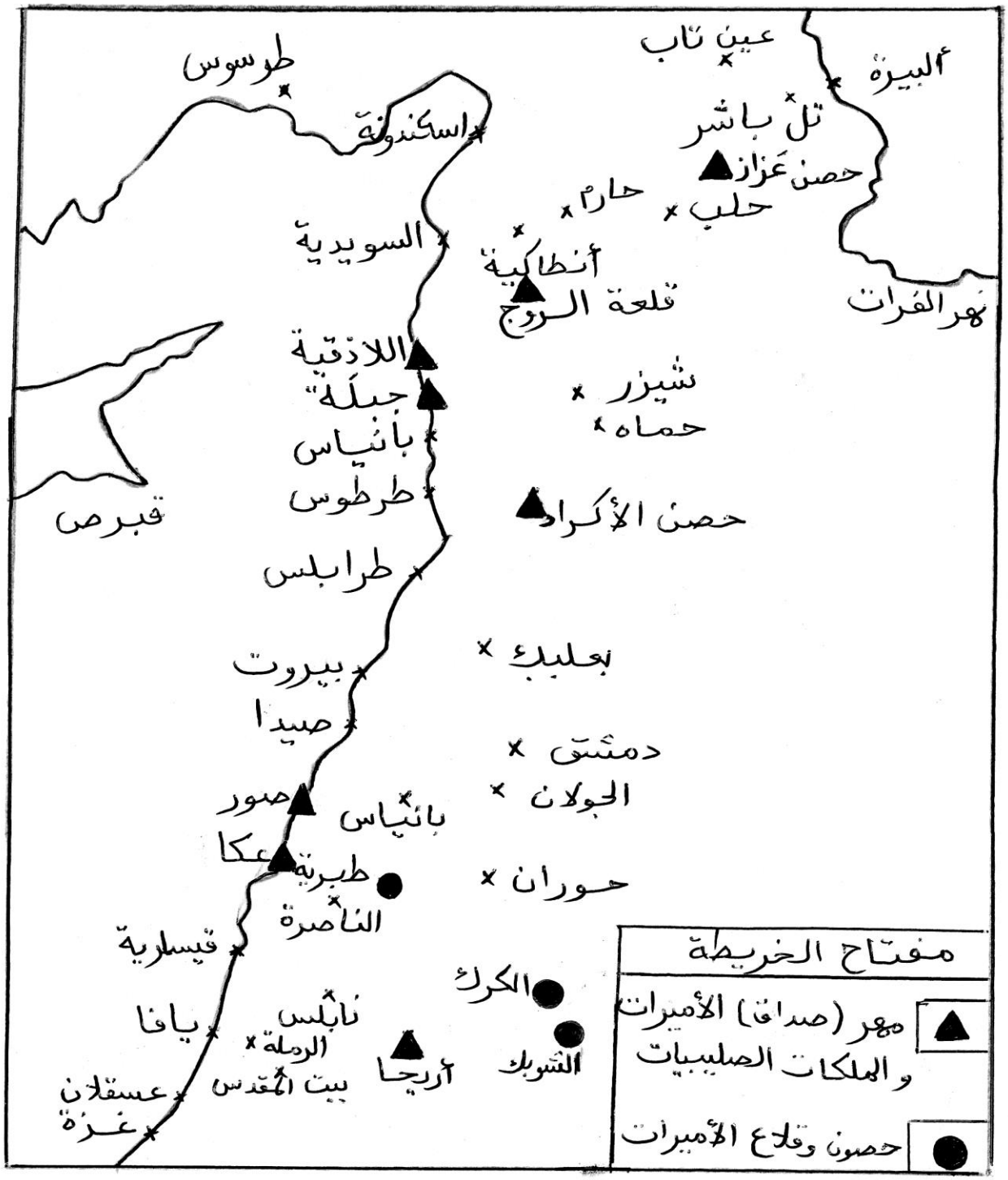

<u>الملحق 03</u>: لباس الراهبات في المجتمع الصليبي، نقلا عن:
Carl Kohler, A History of Costume, New York G. Howard Watt, 1930p, P137.

1- رباط الرأس.
2-غطاء الرأس.
3- تاج الراهبة.
4- غطاء الرقبة.
5- مخمل.
6- لباس الذراع.
7- الحزام.
8- لباس الكتف.
9 - بدائل الحزام

الملحق04 : لباس الأخوات في المنظمات الدينية، نقلا عن:
Carl Kohler, A History of Costume,P137.

<u>الملحق رقم 05</u>: لباس المرأة الصليبية من العامة، نقلا عن:
Carl Kohler, A History of Costume,P142.

الملحق 06 : لباس ملكات وأميرات المجتمع الصليبي، نقلا عن :
Carl Kohler, A History of Costume,P143.

الملحق رقم 07 : لوحة لزواج الملكة ميليسند والملك فولك الأنجوي وتتويج ميليسند لفولك ملكا على بيت المقدس، نقلا عن:

Therese Martin, The Art a Reigning Queen as Dynastic Propaganda in Twelfth-Century Spain, Speculum 80,2005,p 1146.

الملحق رقم 08 : لوحة زواج الملكة ميليسند والملك فولك الأنجوي، نقلا عن:
Therese Martin, The Art a Reigning Queen as Dynastic Propaganda in Twelfth-Century Spain, p 1147.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

1/ *قائـمة المـصادر :*

- القرآن الكريم.

أ- المصادر العربية و المعربة:

1- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت:630هـ / 1232م)،التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، 1963.

2 ـــــــــ،الكامل في التاريخ، الجزءان 9-10، مراجعة و تصحيح: مُحَمَّد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية،ط4 ، بيروت،2003.

3- ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله،(ت:732هـ/1331م)،كنز الدرر وجامع الغرر،ج6،تحقيق :صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961

4- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي،(ت:874هـ/1469م)،النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة،ج5، تقديم:مُحَمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ،ط1 ،بيروت،1992.

5- ابن جبير، مُحَمَّد بن أحمد،(ت:614هـ/1217م)، الرحـلة، تقديم: مُحَمَّد مصطفى زيادة، مركز ودود للمخطوطات ،(د.ت).

6- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد،(ت:597هـ/1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، ج17،تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة: نعيم زوزو،دار الكتب العلمية ،ط1، بيروت،1992.

7- ابن حوقل، أبو القاسم مُحَمَّد بن علي الموصلي،(ت:367هـ/977م) ،المسالك و الممالك، مطبعة بريل، ليدن ، 1872.

8ـــــــــــ، صورة الأرض، القاهرة،(د.ت).

9- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله،(ت:280هـ/893م)،المسالك و الممالك، مطبعة بريل، ليدن ، 1889.

10- ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون الحضرمي،(ت:808هـ/1405م)، ديوان المبتدأ والخبر، في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج2، مراجعة: سهيل زكار وخليل شحادة، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع ،بيروت،2000.

11- ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر ،(ت:681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء 3،تحقيق:إحسان عباس،دار صادر، بيروت، (د.ت).

12- ابن رشد، (ت: 595هـ/ 1198)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار المعرفة ، بيروت ،ج2، 1982.
13- أبو شامة، الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي مُحَمَّد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ،(ت:665هـ/1267م) ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ،الأجزاء 1، 2، 3، 4،تعليق:إبراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ت).
14- ابن شداد، بهاء الدين،(ت:632هـ/1234م)، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة،1994.
15- ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن علي بن إبراهيم،(ت:684هـ/1285م) ،الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة،ج2، تحقيق: يحي عبارة، دار صادر، بيروت،(د.ت).
16- ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت : 962هـ/ 1451م)، الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر،ط1، الرياض،1965 .
17- ابن العبري، غريفوريوس أبو الفرج بن أهون المالطي، (ت:660هـ/1262م)، تاريخ مختصر الدول، تصحيح : الأب أنطوان صالحاني، الرائد اللبناني للنشر،ط2، لبنان،1994.
18- ابن العديم ،كمال الدين أبي القاسم عمر ابن أحمد بن هبة الله ، (ت:660هـ/1261م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، جزآن 1،2،تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي،ط1،دمشق ،1997.
19ـــــــــــ، الوصل إلى الحبيب في وصف الطيبات و الطيب، ج1،2، تحقيق : سليمي محجوب و درية الخطيب، منشورات جامعة حلب، 1986.
20- ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن مُحَمَّد الحنبلي ،(ت:1089هـ /1678م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد5، تحقيق: عبد القادر أرناؤوط، دار ابن كثير،ط1 ، بيروت،1989.
21 - أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، (ت:732هـ/1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).
22 ـــــــ،المختصر في أخبار البشر، الأجزاء 1، 2، 3، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، القاهرة، (د.ت).
23- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن مُحَمَّد،(ت:555هـ/1160م)،تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر،ط1، دمشق،1983.
24 - ابن القيسراني، (ت: 548هـ/ 1153م)، ديوان القيسراني، ج1، جمع و تحقيق : عادل جابر ، الوكالة العربية ، الزرقاء،1990.
25- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي،(ت:774هـ/1373م)،البداية و النهاية، الأجزاء 1،5،7، تحقيق، جودة مُحَمَّد جودة و حسيني الشعراوي، دار ابن الهيثم ، ط1، القاهرة،2006.
26- ابن واصل، جمال الدين مُحَمَّد بن سالم (ت:697هـ/1298م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزآن 1، 2،تحقيق: جمال الدين الشيال،(د.ت).

27- أسامة بن منقذ بن مرشد بن علي ،(ت:584هـ/1188م)،كتاب الاعتبار، تحرير: فيليب حتي ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،(د.ت).

28- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد الفارسي ،(ت:350هـ/960م)، المسالك والممالك، مطبعة بريل ، ليدن،1879

29- الأصفهاني، العماد الكاتب، (ت:597هـ/1200م)،تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط3،بيروت،1980.

30ـــــــــ،الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار،ط1، 2004.

31- ألبرت أوف آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة و تحقيق :سهيل زكار ، دمشق ،2007، ج 51.

32- آنا كومينين، ألكسياد، ترجمة : حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، ط3، القاهرة، 2004.

33- بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين مُحَمَّد عطية، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ،2001.

34- البنداري، الفتح بن علي،(ت:643هـ/1245م)،سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة،1959.

35- بنيامين التطيلي، الرحلـة (561- 569هـ/ 1165-1173م)،ترجمة: عزرا حداد،دار الوراق للنشر،ط1، بغداد،2011.

36- بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي، مراجعة وتحقيق : مصطفى الحياري،ط1،دار الشروق، عمان، 1995.

37- البغدادي،(ت738هـ/1337م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، تحقيق وتعليق: علي مُحَمَّد البجاوي، م1، دار الجبل، ط1، بيروت، 1992.

38- جوانفيل، مذكراته عن القديس لويس حياته و حملاته على مصر و الشام، ترجمة و تعليق: حسن حبشي،دار المعارف،ط1، القاهرة، 1968.

39- دانيال الراهب ،وصف الأراضي المقدسة في فلسطين للحاج الروسي دانيال الراهب (1106-1107م)، ترجمة: سعيد عبد الله البيشاوي و داود إسماعيل أبو هدبة ، دار الشروق للنشر و التوزيع، ط1، الأردن،2003 .

40- الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قيماز أبو عبد الله، (ت:748هـ/1347م)، تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، الجزء 35،تحقيق:عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي،ط1، 1994.

41ـــــــــ،العبر في خبر من غبر،ج3، تحقيق:أبو هاجر مُحَمَّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ت).

42- الرهاوي المجهول، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (المصادر السريانية) ، ج5، دمشق،1995.

43- ريموناجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين مُحَمَّد عطية، دار المعرفة ،الإسكندرية،2000.

44- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان،ج8، تحقيق: مُحَمَّد رضوان عرقسوي، دار الرسالة العلمية، ط1، دمشق، 2013.

45- السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة ، 2005، ج1.

46- الشيباني، القانون الدولي الإسلامي –كتاب السير للشيباني-، بيروت.

47- العمري، شهاب الدين بن فضل الله(ت:749هـ/1348م)، مسالك الأبصار و ممالك الأمصار (المسالك والآثار و الأقاليم)،الجزء 1،تحقيق:عبد الله بن يحي السريحي، دار الكتب الوطنية ،أبو ظبي ،2003..

48- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس،ترجمة: زياد العسلي، دار الشروق للنشر و التوزيع ط1،عمان ،1990.

49- القلقشندي، أحمد بن علي (ت:821هـ/1418م)،صبح الأعشى في صناعة الإنشا،الجزآن 1، 4،دار الكتب المصرية،القاهرة،1922.

50- القزويني، زكرياء بن مُحَمَّد بن محمود، (ت:682هـ/1283م)،آثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).

51- القديس أوغستين، مدينة الله، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق،ج3 ، ط1، بيروت ،2006.

52- ماركو بولو،(ولد حوالي 643-724هـ/1245-1324م)،رحلات ماركو بولو،الجزء1،ترجمة:عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2 ،القاهرة ،1995.

53-المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة،(د.ت).

54- مؤرخ مجهول، ذيل وليام الصوري، ترجمة :حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1،القاهرة، 2002.

55- المؤلف المجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000،ج1.

56- متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي (الإفرنج الصليبيون ، المسلمون و الأرمن)، ترجمة و تعليق : محمود مُحَمَّد الرويضي و عبد الرحيم مصطفى، مؤسسة حمادة للدراسات، الأردن ،2009.

57- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، بالتنبيه و الإشراف، مطبعة بريل ،ليدن ،1893.

58- المقدسي، شمس الدين أبي عبد اله مُحَمَّد بن أحمد ،(ت387هـ/997م)،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل،ط2،ليدن،1909.

59- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (ت:845هـ/1441م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: مُحَمَّد حلمي مُحَمَّد أحمد ،القاهرة، 1971

60ـــــــــــــ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: مُحَمَّد حلمي مُحَمَّد أحمد ،القاهرة، 1971.

61 ـــــــ، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء1، تحقيق:مُحَمَّد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت، ،1997.

62- ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ترجمة : مار غريغوريوس صليبا شمعون ، منشورات دار الرها، ج3 ، ماردين.

63- ناصر خسرو، (ت:463هـ/1087م)،سفر نامة، مكتبة المصطفى، (د.ت).

64- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ،(ت:733هـ/1332م)،نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء 19، تحقيق: عبد الحميد ترجاني و عماد علي حمزة، دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،2004.

65- الواقدي، مُحَمَّد بن عمر،(ت:207هـ/826م)،فتوح الشام، دار الجيل، بيروت،(د.ت).

66- وليام الصوري ،تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003. ج1.

67- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله،(ت:626هـ/1228م)،معجم البلدان5 أجزاء ، دار صادر، بيروت ،1977.

68- اليعقوبي،(ت: 292هـ/ أحمد بن أبي يعقوب جعفر بن دهب بن واضح ،(ت:284هـ/ 879م)، البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).

69- يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، ط1، الأردن ،1998.

70- يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين ، ترجمة : سعيد عبد الله البيشاوي ، دار الشروق ،ط1، الأردن، 1997.

71- يوحنا كيناموس، أعمال يوحنا ومانويل كومينوس ،ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية دمشق، 1997، ج29.

ب – المصـــادر الأجـنبية:

1- Eracles , l'estoir d'Eracles et de conquest de la terre d'outremere (R.H.C),paris , 1859.

2- Ernoul , La chronique d' Ernoul et de Bernard Le Trèsorier Sociètè de l'Histoire de France , Paris, 1871.

3- Grégoire le prêtre , Chronique de Grégoire le prêtre (R.H.C) Arm ,TT, paris, 1869.

4- Guilbert of Nogent , The Deeds of God The Franks ,Translated : Robert Levine , Copyright Blackmask Online ,2002.

5- Jacques de vitry , History of Jerusalem ,Trans , by Aubrey Stwart ,P.P.T , London , 1896.

6- Kinnanos, Deeds of John and Manuel comneuus , New York, 1976

7- Livre des Assisees de Jerusalem , ed . Bugnot (Lois) ,R,H,C , Paris, 1843.

8- Livre au roi, CF. Assises de jerusalem, T.I,Paris,1841 .

2/ المـــراجع العربيـة و المعـربة:

1 – أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى،1977.

2– أحمد عبد الله أحمد، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن 6–7هـ/ 12–13م،دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة،2016.

3– أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي و الفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).

4– أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : علي السيد علي ، المركز القومي للترجمة ، ط1، القاهرة ،2010.

5– أرشيبالد.ر.لويس، القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط (500–1100م)،ترجمة:أحمد مُحَمَّد عيسى ، مراجعة:مُحَمَّد سفيق غربال،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،(د.ت).

6– أرنست باكر، الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، ط2،دار النهضة العربية ، لبنان ،(د.ت.).

7– أسامة زكي زيد ، الصليبيون و إسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ،1980.

8 – اسحق تاوضروس عبيد، روما و بيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (869–1204م) ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1970.

9– اسمت غنيم، دراسات في تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج1، دار المعارف ،1998 .

10– أشرف صالح مُحَمَّد سيد ،حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، مجلة الفسطاط التاريخية ، القاهرة ،2007.

11– ألبير شاندور، صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن ،مراجعة و تحقيق: نديم مرعشلي، عين للدراسات، دمشق، 1988.

12– إمام الشافعي مُحَمَّد حمودي و أشرف صالح مُحَمَّد السيد ، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية (1095–489/1291–690هـ) ، دار البشر للثقافة و العلوم ، (د،م،ن) ،(د،ت).

13– أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط1 ،القاهرة، 1992.

14- بطرس مراياتي و آخرون ،دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة (الكنائس الشرقية الكاثوليكية)،م2،دار المشرق ، بيروت،(د.ت).

15– توماش ماستناك، السلام الصليبي ،ترجمة : بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2009.

16– جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية،1984.

17-ـــــــــــــــــــ، العرب و الروم و اللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط3، بيروت ، 1981.

18- جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة : مُحَمَّد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة ، 1999.

19-ـــــــــــــــــــ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (1050-1310 م) الترجمة: صبحي الخالبي ، طلاس للدراسات و الترجمة و النشر ط1،دمشق.

20- حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، ط1، القاهرة، (د.ت) .

21- حسن حبشي، نور الدين و الصليبيون، دار الفكر العربي ،(د.م.ن) ،(د.ت).

22- حسن عبد الوهاب حسين، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ،1997.

23- حسنين مُحَمَّد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983

24- حسين العويدات ، العرب النصارى (عرض تاريخي)،الأهلي للطباعة و النشر و التوزيع ،ط1،دمشق،1992.

25- حسين مُحَمَّد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمين (1171-1268م/ 567-666هـ)، دار المعرفة الجامعية، ط1، بيروت، 1989.

26- حسين مؤنس، نور الدين بن زنكين فجر الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، جدة، ط2، 1984.

27- دندل جبر، الزنا، مكتبة المنار، ط2، الأردن ،1987.

28- ر.سي.سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر(1079-1193م)،ترجمة: مُحَمَّد وليد الجلاد ،دار طلاس،ط1،دمشق،1985.

29- رأفت عبد الحميد ،قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية،ط1، القاهرة، 1998.

30- رأفت مُحَمَّد النبراوي، النقود الصليبية في الشام ومصر، مكتبة القاهرة، 2004.

31- زينب عبد المجيد عبد القوي، الانجليز و الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط1،(د.م.ن)، 1996.

32- زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ،دار صادر، بيروت، 1964.

33- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، ج1، دار الثقافة ، بيروت ، 1997.

34- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط4،القاهرة ،1986، ج1.

35-ـــــــــــــــــــ، أوروبا العصور الوسطى النظم و الحضارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1959 ،ج2.

36-ـــــــــــــ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، 1972.

37-ـــــــــــــ، ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام ، مركز دراسات الوحدة العربية ،مج 10، 1987.

38-ـــــــــــــ، الناصر صلاح الدين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الأنباء و النشر، القاهرة ، 1965.

39- سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية الروايات الأوروبية الاغريقية و اللاتينية، مجموعة هافنسيس، تاريخ المورة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،ج10.

40- السيد الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) ، دار النهضة العربية ، بيروت.

41-ـــــــــــــ، نمو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ،المجلد 20،العدد 2، القاهرة ،1958.

42- السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية.

43- سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1291م/ 492-690م)، دار الشيماء للنشر و التوزيع ،ط3، فلسطين ، 2016.

44- عبد الحافظ عبد الخالق، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، القاهرة، 2007.

45- عبد الحفيظ مُحَّد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية 1131-1187م، دار النهضة العربية، ط1، 1984.

46- عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث (1143-1163م)،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية،2006.

47- عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، مراجعة : أحمد خاكي، دار الثقافة، ط2، القاهرة.

48- عز العرب أحمد سليمان ، البطريرك هرقل و دوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية (1180-1190م)، د.ت.

49- علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط1،القاهرة،1996.

50- علية عبد السميع الجنزوري، جريجوري التوري وقيام دولة الفرنجة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، (د.ت).

51-ـــــــــــــ، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2001 .

52-ـــــــــــــ، المرأة في الحضارة البيزنطية، مكتبة الأنجلو المصرية،ط1، القاهرة،1982.

53- فتحي عبد العزيز مُحَّد و أشرف صالح مُحَّد سيد ، الكنيسة و دورها في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م)، دار ناشري للنشر الإلكتروني ،ط1،الكويت ،2013.

54- فولفغانغ مولر فينر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: مُحَمَّد وليد الجلاد، مراجعة : سعيد طيان، دار الفكر، ط2، دمشق، 1982.

55- فيليب حتي، تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ترجمة :جورج حداد و عبد الكريم رافق،مراجعة:جبرائيل جبور،دار الثقافة،ط3،بيروت،(د.ت).

56- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع – النتائج) ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، القاهرة ، 1993.

57-ـــــــــــــــ،الحملة الصليبية الأولى نصوص و وثائق ،عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ،القاهرة، 2001.

58- قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق و الغرب خلال القرن الثاني عشر و الثالث عشر الميلادي، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، ط1،بيروت، 1992.

59- القديس أوغستين، مدينة الله، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق،ج3 ، ط1، بيروت ،2006.

60- كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر،ط1، القاهرة، 1995.

61- كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية،ج1، حلب، 1923.

62- ل.ج.شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة: مجد الدين حفنة ناصف، مراجعة: علي آدم، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).

63- مُحَمَّد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشنهابي للطباعة والنشر الإسكندرية، 1998.

64- مُحَمَّد حمزة حسين و لبنى رياض عبد المجيد ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار غيداء للنشر و التوزيع ، ط1 ،2015..

65- مُحَمَّد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

66- مُحَمَّد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م) ، مكتبة مدبولي،ط1،القاهرة، 1992.

67-ـــــــــــــــ، في الصراع الإسلامي الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية) (541-569هـ /1146-1174م)،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،القاهرة،1988.

68-ـــــــــــــــ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1،القاهرة،2000 .

70- مُحَمَّد كرد علي، خطط الشام، أربعة أجزاء، المطبعة الحديثة، دمشق ،1925

71- مُحَمَّد أحمد محمود حسين، اليهودية التبشيرية في الكتب المقدسة و إلى اليوم ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (د.ت).

70- مُحَمَّد عبد الحميد فرحات، قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى دار الوفاء لدنيا الطباعة والنش، ط1، الاسكندرية، 2014.

72- محمود سعيد عمران، المؤرخ جريجوري التوري وتأريخه للملك كلوفس من خلال كتاب تاريخ الفرنجة، بيروت ،1980.

73-_____، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربي ،ط1، القاهرة،1985

74_____، تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291م، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000.

75_____، القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، دار النهضة العربية، (د.ت).

76_____، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول (1143-1180م) ، دار المعرفة ،1985.

77- محمود مُحَمَّد الحويري، الأوضاع الحضارية لبلاد الشام في القرن الثاني عشر والثالث عشر ميلادي ،دار المعارف ،القاهرة،1979.

78- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ج7،ط2، 1986.

79- مصطفى مُحَمَّد الحناوي، عصر الحروب الصليبية الفرسان الإسبتارية ودورهم في الصراع الاسلامي الصليبي، مكتبة الرشد، الرياض ،2004.

80- مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة، مكتبة عمان، عمان ،1998

81- ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم ،موسكو،1986 .

82- ميشيل بالار، الحملات الصليبية و الشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة : بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط1، القاهرة ،2003.

83- ناجلا مُحَمَّد عبد النبي، المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية في ضوء مجموعة قوانين المملكة، الاسكندرية ، (د.ت).

84- نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر، مطبعة جامعية القاهرة للكتاب الجامعي، القاهرة،1994.

85- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط2، دمشق.

86- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية و النهاية ،ترجمة و تعليق : قاسم عبده قاسم، عين للدراسات و البحوث الإنسانية، ج1، ط5،القاهرة ،1998،

87- نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، دار العالم العربي ،ط1، القاهرة ، 2008.

88- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى،ج1،ترجمة:أحمد محمد رضا ،مراجعة و تقديم:عز الدين فودة،ج1،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د.ت)،1985.

89- هنادي السيد محمود ، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول ، دار العالم العربي ، ط1، القاهرة ،2008.

90- هانس ابراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة:عماد الدين غانم (د.م.ن)،1985.

91- هنري بيرين ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية و الاجتماعية)، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

92- ويلتر ،الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع المسيحية ، ترجمة : جمال سالم ، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت، 2007.

93- ول وايريل ديورانت ، قصة الحضارة (عصر الايمان) ،ترجمة:محمد بدران ،دار الجيل بيروت ، لمجلد 4،ج2.

94- يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية ، ترجمة : عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات و البحوث الاجتماعية، القاهرة،ط1، 2001.

95ـــــــــــ، عالم الصليبيين، ترجمة : قاسم عبده قاسم و محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط1، القاهرة ، 1999.

3/ المـــراجع الأجـــنبية:

1-Archer And Chales .L. Kinsford,The Crusades "The Story Of The Latin Kingdom of Jerusalem G.P Putnaméssons , London,1947.

2- Aubé , p , Baudouin Ⅳ de Jerusalem , le roi le preux , paris , 1981.

3- August.c.Krey ,the first crusades, the Account of eye – witnesses and participants, princeton press university, london ,1921.

4- Carl Kohler, A History of Costume, New York G. Howard Watt, 1930.

5- Charles Donahue ,Jr. Law , Marriage , and Society in The Later Middel Age , Cambridge University Press , New York , 2007.

6-Coulton , Life in Middle ages , Cambridge the university press ,1925.

7- Claud Cahen , La Syrie du Nord à l'époque des Croisades , paris ,1940.

8-Carl Stephenson , Mediaeval Feudalism ,Cornell University Press , new york , 1942.

9- D. H. GREEN , Women and Marriage in German Medieval Romance, Cambridge University Press ,New York.
10- Delavile le Roulx , cartulaire General de l'ordre des Hospitaliers de st . Jean de Jerusalem (1100-1310) 4 vol , Paris 1894.
11- Duggan (A) , The story of the crusades (1097- 1291) , London ,1963.
12-Emilia Amt , womens Lives in medieval Europe A sourcebook , Routledge Taylor,and Francis Group ,London annd New yourk, 1993
13- Grousset, l'épopée des croisades, librairie Académique Perrin, Paris, 1995.

14- Helen J.nicholson , women and the crusades ,Hereford Historical Association ,2008 .
15- James .M.ludi.w.DD.LHD,The age of the crusades,New york, Cables scribners sons,1914.
16-James A , Brundage ,Law , Sex , and Christian Society in Medieval Europ , The University Of Chicago press Chicago and London , 1990.
17- James A , Brundage , Marriage Law in the Latin Kingdom of Jerusalem , Oxford , 1964.
18- Katherine Pangonis , Queens of Jerusalem the Women Who Dared to Rule ,Pegasus Books, New york.
19- La Monte , feudel monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291 America , 1932.
20- Matilda Tomaryn ,Laurie Shepard, Sarah White, Songs Of The Women Troubadours ,Garalnd Publishing,INC , Amember of The Taylor and Francis Group ,New yourk ,2000.
21- Marsy , fragment d'un cartulaire de l'order de st.Lazare en terre sainte ,Cf.A.O.L,t II, paris , 1884
22- Mayer ,H., Studies in the History of Queen Melisend of Jerusalem ,CF .D.O.P.,26,1972.

23- Natasha R. hodgson , women crusading and the holy land in historical narrativa ,the boydell preer , woodbridge, Great Britain,2007.
24- Nicolle.D, Medieval Warfare Source book : warfare in Western Christendom UK: Brockhampton Press,2004.
25- Oman,The Byzantine Empire , London,1908.
26- Paul Deschamps, chevaliers et femmes de France aux croisades , bulletin de l'association Guillme Budé.
27- Possidius Bishop of Calama , the life of saint Augustine ,intro and notes :cardinal michele pellegrino , edited : john E Rotelle , O,S,AAugustinian press, 1988.
28- Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem,T.L ,1969 .
29- Richard .K . kerchoff , Marriage and middle age ,National Council on Family Relation , 2015
30-Ronni Ellenblum, crusader castles and Modern History, Cambridge University press, new York, 2007.
31-Setton,k.M, A History of the crusades, Pennsylvania University, New york,Vol I ,1955.
32-Stevenson, M.A, the crusaders in the East, Cambridge at the university, press, 1907 .
33- Slaughter (G), Saladin (1138-1193) , New york , 1955.
34-Zoé Oldenbourg , The crusades ,New york ,1967.

4/ الرسائل الجامعية:

1/ أحمد مسيلي، دور البابوية في الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي (488- 588هـ/ 1095-1192م) ، أطروحة ماجيستير غير منشورة، جامعة الجزائر2، الجزائر ، 2016.
2/ تغريد عبد الحميد جبر الختاتنة، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول كما أرخ لها وليام الصوري مقارنة بالمصادر الأخرى (1162-1174م / 558-569هـ) ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة مؤتة ، الأردن، 2002م.

3/سرور علي عبد المنعم علي، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي (1131-1143م/526-538هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، القاهرة،2000.

4/ سمر مُحَمَّد مُحَمَّد أبو سلمية دور المرأة ومكانتها زمن الصراع الإسلامي الفرنجي (491-691هـ/ 1098-1291م) ،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة غزة، فلسطين، 2013م.

4/ عبد العزيز محمود عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،1971.

5/ كمال بن مارس، الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة) (491-588هـ/1096-1192م) رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة ، 2004.

6- محمود مُحَمَّد فالح الرويضي، إمارة الرها الصليبية (1097-1155م/ 490-550هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، 1997.

5/الدوريـــــات:

أ-الدوريات العربية:

1- أسامة زكي زيد، ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ، مجلة كلية الأداب جامعة طنطا ، ع8 ، 1995

2- أشرف صالح مُحَمَّد السيد ، حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، مجلة الفسطاط التاريخية ،القاهرة ،2007

3- جلال حسني سلامة، دور النساء الأوروبيات في الحملة الصليبية الأولى على الأرض المقدسة (488هـ/ 1095م)، مجلة جامعة النجاح للأبحاث – العلوم الانسانية ، مجلد: 28، عدد 12، فلسطين ، 2014.

4ـــــــــــــ ، التهجير القسري لسكان فلسطين في العهد الصليبي في الفترة الواقعة بين (492-551هـ/ 1099- 1156م)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث و الدراسات، العدد 13، 2008

5- جمال مُحَمَّد حسن الزنكي، تطلع المرأة الصليبية للسلطة و صراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية (524-556هـ/ 1130-1161م) في ضوء ما كتبه المؤرخ الصليبي وليام الصوري، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الحولية 29، الرسالة 286، الكويت ،2008.

6- حسين عطية، مجلس نابلس 23 يناير و أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حولية التاريخ الوسيط، كلية الآداب جامعة عين شمس، م1، القاهرة، 2000-2001.

7- راغب حامد البكر، الأسرى المسلمون في الحروب الصليبية، جامعة الموصل كلية الآداب، المجلد 25، 1993.

8- سرور علي عبد المنعم، فرسان القديس لازاروس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، مجلة المؤرخ المصري،العدد 28، القاهرة ،2005.

9- طه الطراونة، ملكات أوروبا و الحركة الصليبية ، مؤتة للبحوث و الدراسات ،مج: 25 ،العدد 5 ،2010.

10ـــــــــــــ، المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، مجلة مؤتة للبحوث و للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد 8، العدد 1، الأردن، 1993.

11- عباس عاجل الحيدري، البابوية و ظاهرتا الحج و الحرب المقدسة و أثرهما في قيام الحرب المقدسة ، حولية المنتدى ،المجلد2،العدد3،العراق،2009.

12- مُحَمَّد عبد الله المقدم، الأسيرات في الشرق الأدنى الإسلامي زمن الحروب الصليبية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 20 ،القاهرة ، 2012.

13 - فواز نصرت توفيق، دور المدن التجارية الإيطالية في الحروب الصليبية (جنوة – بيزا- البندقية) ،مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية ،م16،العدد10، 2009.

14- كولتون، الديرية، أسبابها و نتائجها، عرض عام للدور الاجتماعي و الثقافي الذي لعبه نظام الديرية في تاريخ العالم، ترجمة :جمال الدين الشيال ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد 11، 1957.

15- مُحَمَّد عبد النعيم مُحَمَّد عبده ، دور المرأة الأوروبية العسكري في الحروب الصليبية (1096-1291م)، مجلة المؤرخ المصري ،ج1،العدد 55، 2019.

16- مُحَمَّد مرسي الشيخ ،حملة بطرس الناسك في ضوء كتابات أنا كومنينا ،مجلة كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود ، العدد 2، السعودية ،1978.

17- منى حماد، الأسرى المسلمون و الصليبيون و طرق معاملتهم بين الإطار القانوني و الواقع التاريخي، مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية ،الأردن، (د.ت).

18- نبيلة إبراهيم خليل، حقوق المرأة الصليبية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية 1097-1291، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة قناة السويس، العدد الرابع ،2013.

ب- الدوريات الأجنبية:

1-J.F Verbruggen, Women in Medieval Armies, Journal of medieval Military History, Vol V,IBoydell press,2006.

2- Therese Martin, The Art a Reigning Queen as Dynastic Propaganda in Twelfth-Century Spain, Speculum 80,2005.

6/ الموسوعات و المعاجم :

1- ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم (ت: 711هـ/ 1311م)، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت،1994.

2-أمين واصف بك ،معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية،تحقيق:أحمد زكي باشا،مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).

3- خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقيين)، ج5،دار العلم للملايين،ط15،بيروت،(د.ت).

4- صبحي حموي اليسوعي، معجم الإيمان اليسوعي، دار المشرق، بيروت 1998

5- الفيروز آبادي، القاموس المحيط ،ج1،مؤسسة الرسالة للنشر ،ط8، بيروت ،2005.

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

- أ -

أتارد : 72،
إتيان: 12،
أجنس دي. كورتناي: 61،67، 74، 101،125، 140، 147، 219، 230، 231، 232،
أجنس الراهبة: 221،
إدا النمساوية : 203،
أدليد سالونا: 75، 76، 77، 79، 83، 84، 98، 99، 100، 125، 217،
آدم عليه السلام: 2،
أديلا زوجة الأمير ستيفن كونت بلوا: 25، 198، 199،
أردا زوجة بلدوين الأول: 64، 75، 77، 79، 98، 99، 100، 125، 175، 176، 215، 216، 217،
أرمنجارد كونتيسة طبرية : 225،
أرنولف: 75، 76، 77، 80، 125، 131، 218،
إرين الإمبراطورة البيزنطية : 69،
أريمبورج دومبين زوجة الملك فولك الأولى: 220،
إزابيلا بنت الملك عموري الأول: 75، 83، 145، 147، 148، 153.
إزابيلا بنت الأمير جوسلين الثاني: 211.
اسحق كومنين : 72.
إشيفا أميرة طبرية : 64، 96، 102، 152، 184، 185، 186، 196، 205، 226.
إفتخار الدولة:37.
أقسنقر البرسقي: 211.
ألفيرا: 25،
إلغازي: 63.
ألكسيوس كومنين: 31.
إليانور الأكتانية: 91، 92،93.
أليس: 64، 68، 81، 89، 135،149، 150، 151، 166، 167، 168، 169، 174، 199، 200، 226، 228.
إليناند بورس أمير الجليل: 177.
أليناند أمير الجليل: 159.

أليوس: 227،
إما : 80،
أمان دالا: 227،
إمري بطريك أنطاكية : 123، 170، 171، 228، 229،
أميرياس: 23،
أندرونيكوس كومنين: 69، 122.
أنطونيوس: 83.
أوتو دي هنبرج: 152،
أوتو الأول: 13
أوتو سانت أمنت: 74،
أود أوتو ريزبرج: 70،

أورجليز: 123،
أوغستين: 2، 9، 17، 18.
إيزابيلا صاحبة تبنين: 67.
إيثيريا: 9.
إيدوسيا: 9.
أيمر دي ليموج بطريرك أنطاكية: 189.
إيو فروزين الرحالة الروسية: 226.

– ب –

البابا أوربان الثاني:18، 20، 26، 47، 191،
البابا باسكال الثاني: 77،
باسيل الأول: 84،
باسكيه دي ريفري: 105، 125 ،
باليان إبلين: 80، 148، 154، 205،
باليان أوف دبلين: 140، 145،
باليفانوا: 62،
برنارد فاشر: 180،

برنارد أسقف صيدا: 230،
برنارد بطريك أنطاكية: 228،
بارثاليمو مارشال أنطاكية: 188، 189،
بطرس الناسك: 22، 23، 30،
بطرس لاتيناتور: 167،
بلدوين الأول:25، 34، 43، 46، 65، 66، 75، 76، 77، 79، 81، 84، 98، 99، 100، 117، 125، 130، 175، 176، 198، 215، 216،
بلدوين الثالث:61، 68، 69، 70، 71، 72، 80، 86، 101، 113، 121، 137، 152، 155، 156،158، 159، 160، 161، 162،163، 164، 165، 166، 170، 171، 173، 174، 180، 182، 183، 187، 220، 223، 224، 225، 227، 229، 230،
بلدوين الثاني:59، 60، 63، 66، 67، 81، 84، 86، 87، 116، 117، 135، 136، 137، 149، 156، 166،167، 169، 174، 176، 177، 200، 203، 210، 217، 224، 225،
بلدوين الرابع: 60، 83، 101، 102، 125، 139، 140،141، 142، 143، 144، 145، 146، 230، 231، 232.
بلدوين الخامس: 139، 143، 144، 145، 232.
بلدوين أوف إبلين: 139،140، 147، 223.
بلك بن أرتق: 86، 87، 176، 203، 204، 210.
بندكت القديس: 218.
بونز بن برتراند : 63، 79، 90، 91، 149، 168، 169،
بوهيمند الأول: 149،
بوهيمند الثالث: 61، 71، 73، 122، 123، 141، 143، 151، 166، 169، 170، 171، 172، 187، 188، 200، 228.
بوهيمند الثاني:60، 63، 68، 81، 135، 149، 166، 167، 174، 199.
بياتريس:67، 172، 173، 186، 187.
بيرتراند:90، 124.

– ت –

التونتاش:178، 179، 180، 181.
تمرتاش بن إلغازي: 87، 176، 210.

تنكرد: 33، 38، 45، 63، 79، 90، 117، 148، 149، 168، 176.
تيتوس: 8.

– ث –

ثوروس: 33، 98، 215،
ثيوفيلاكت الايطالي: 69،
ثيودورا كومنين زوجة بلدوين الثالث: 72، 80، 86، 121، 122،
ثيودورا كومنين زوجة بوهيمند الثالث: 123،
ثيري أمير فلاندرز: 220،

– ج –

جاك مندليه: 152،
جاي لوزيجنان:60،61، 91، 102، 116، 140، 141، 143، 145، 147، 148، 184، 185، 206، 232،
جبريل الأرميني: 66، 81،
جريجوار الثالث الكاثوليكوس الأرميني: 186،
جوتيريا: 25،
جودفري البويوني: 33، 38، 175،
جورج باليولوجوس: 74،
جوسلين دي كورتناي: 64، 66، 81، 86، 152، 168، 176، 200، 203، 211، 219،
جوسلين بيسيلوس: 72.
جوسلين الثاني: 67، 101، 123، 152، 157، 158، 159، 160، 168، 172، 177، 178، 186، 193، 211،
جوسلين الثالث: 67، 144، 145، 172،
جوفييه: 224،
جيلتديس زوجة روهارد: 226.
جي أمير بيروت: 161.
جيرارد الراهب: 221.
جيروم: 9.
جيرارد دي ريدفور: 62، 145، 146.

جيرفيس بيرتو: 117.
جيرموند: 130.

– ح –

الحاكم بأمر الله:13.

– ر –

رادولف دومفرون بطريرك أنطاكية: 228.
رالف بطريرك أنطاكية: 150، 169.
رالف مستشار ملكي: 159.
رالف رئيس أساقفة صور: 229، 230.
روبرت الفلاندرزي: 16.
روبين الثالث: 188
روجر بن ريتشارد: 60، 63، 64، 80، 149، 203.
روجر الثاني: 76، 77، 79، 88، 100.
روجيه دي مولان: 146.
ريموند الثاني: 70، 71، 79، 89،90، 173، 187.
ريموند الصنجيلي:124.
ريموند الثالث:62، 64، 70،102، 140، 141، 143، 144، 147،146،145، 152، 153، 174، 184، 185، 186، 196، 197، 205، 232،
ريمون الرابع: 25،
ريموند بن بوهيمند الثالث: 188، 189،
ريموند بواتيه: 61، 68، 91، 92، 150، 151، 157، 158، 166، 169، 178، 228،
رينير دي بورس صاحب بانياس: 121، 204، 215،
رينو دي ماسويه: 169،
رينالد سيد صيدا: 102،
رينو دي شاتيون: 62، 69، 70، 71، 145، 146، 153، 170، 171،

– س –

سبيلا ملكة بيت المقدس : 60 91، 101، 102، 116، 139، 140، 141، 143، 145، 146، 147، 148، 184، 206، 229، 232.
سبيل: 67، 123.
ستيفانيا الراهبة : 219.
ستيفاني أميرة إقطاع ما وراء الأردن: 62، 67، 152، 153، 183،
ستيفن كونت بلوا : 25، 30، 198، 199،
سيجفريد: 16،
سلستين الثاني: 218،
سلطان بن منقذ: 87، 176، 211،
سيسيليا: 79،63، 90، 117، 148، 168،
سيبيل زوجة بوهيمند الثالث: 73، 187، 188، 189، 200، 201،
سيلفيا: 9.
سيمون أمير الجليل: 160،
سيبيل بنت الملك فولك الأنجوي: 220،

– ش–

شارلمان: 12.
شرف المعالي بن الوزير الفاطمي الأفضل: 198.
شمس الملوك بوري:121، 204، 215.
شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك أمير قلعة جعبر: 206.

– ص –

صلاح الدين الأيوبي: 48، 83، 91، 93، 95، 96، 102، 123، 129، 132، 141، 143، 148، 153، 183، 184، 186،185، 188، 194، 195، 196، 200، 201، 202، 205، 206، 207، 209، 232.

–ع –

العادل الملك الأيوبي: 184، 209.
عماد الدين زنكي: 90، 158، 167، 177، 178، 186، 193، 199، 200، 204.

عموري الأول: 74، 75، 80، 101، 122، 145، 147، 154، 162، 163، 165، 219، 224، 226.
عموري دونيسلي: 101.
عموري أوف نسل: 165، 224، 229، 230.
عيسى عليه السلام: 7.

– ف –

فولك الأنجوي: 81، 87، 90، 116، 135، 136، 137، 138، 155، 156، 166، 168، 169، 218، 220، 224، 226، 228.
فولشر بطريرك بيت المقدس: 162، 163، 164.
فولشر أنجولم: 229.
فيليبيا: 122.
فيليب الأول: 63، 79.
فيليب أوف فلاندرزو: 139، 140.
فيليب دي ميلي: 152.
فيليب سيد نابلس: 177.

– ق –

قسطنطين الكبير:8،
قسطنطين الثامن: 14،
قسطنطين التاسع: 14،
قسطنطين كولومان: 171،
قلج أرسلان: 31،

– ك –

كربوغا: 35.
كليوباترا: 83.
كونراد الثالث امبراطور ألمانيا: 182.
كونستانس: 61، 62، 68، 70، 71،149، 150، 151، 166، 168، 169، 170، 171، 172، 199، 200، 226، 228، 229.

– ل –

لامبرت الوس: 223.
ليو الأول:66.
ليو الثاني ملك أرمينيا: 187، 188، 201.
لويس السابع ملك فرنسا: 91، 92، 93، 182،
لويس السادس: 135.

– م –

ماتيلدا بنت الملك فولك الأنجوي: 220.
ماري: 64.
ماري بنت كونستانس: 69، 71، 171.
ماريا بنت حنا كومنين: 75، 80، 101، 145، 147، 148، 154.
مارغريت من بروفانس: 194.
مانويل ألكسيوس: 72،
مانويل كومنين:68، 69، 71، 73، 74، 80، 122، 169، 171، 173، 178، 186، 228.
مجد الدين أبي سلامة مرشد أمير شيزر: 206.
مجد الدين أبي سلامة مرشد أمير شيزر: 206.
مُحَمَّد صلى الله عليه و سلم:7.
مريم العذراء: 2، 222.
مسعود الأول بن قلج أرسلان: 172، 186،
المسيح عليه السلام: 2، 7، 16، 218، 219.
معين الدين أنر: 157، 178، 179، 180، 181، 182،
مناسيس كندسطبل بيت المقدس: 163، 177،
منسيس هيرج: 155،156،
موسى عله السلام: 7.
مورفيا: 66، 81، 84، 86، 116، 135، 176، 177، 211، 224، 225،
ميلون دي بلانسي: 153،
ميليسند بنت ريموند الثاني: 69، 70، 71، 89،

ميليسند ملكة بيت المقدس: 70، 81، 87، 88، 89، 116، 135، 136،137، 138، 156،155، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 168، 174، 177، 178، 179، 182، 183، 217، 218، 222، 223، 224، 225، 226، 228، 229، 230.

– ن –

ندى الصليحي: 194.

نسطوريوس: 46.

نور الدين محمود: 72، 74، 122، 123، 151، 157، 158، 171، 172، 173، 179، 180، 181، 182، 183، 186، 187، 207.

– هـ –

هادريان: 8،

هرقل بطريرك بيت المقدس : 125، 131، 141، 143، 145، 146، 205، 230، 231، 232.

هارون الرشيد: 12.

همفري الكونستابل الملكي:72،

همفري دي تورون:145، 146، 153، 183،

همفري الثالث: 83

همفري أمير تبنين: 161، 165،

هيثوم حاكم سيس: 188،

هيرونسيوس: 74،

هيو الثاني: 87، 89،

هيو دي إبلين: 101،

هيو أمير الجليل: 96،

هوديرنا: 64، 70، 89، 90، 135، 174،

هيلدا كونتيسة سوابيا: 12

– و –

وليم كونت بواتيه: 30،

وليم بيوري: 135،

وليم دوريل: 62،
وليم دو باري: 72،
وليم بور أمير الجليل: 223،
والتر أمير الجليل: 226،
وليم الأول بطريرك بيت المقدس: 223،
وليام مونتفرايت: 139،141 ، 143،
وليم أفيرسا: 167

– ي –

ياغي سيان:53.
يوحنا المتصدق:51.
يوحنا المعمدان:9.
يوحنا كومينين الامبراطور البيزنطي: 67، 68، 150، 211.
يوحنا أسقف بيروت: 230.
يوحنا روجر: 69.
يوحنا كونتوستيفانوس:69.
يوحنا أسقف عكا: 223.
يوحنا جوثمان: 227.
يوحنا كبير شمامسة صور: 230.
يوديث دوقة بافاريا: 13.
يوستاش الثاني:87.
يوفيتا: 87، 135، 177، 211، 217، 219، 222، 223، 225، 229.

فهرس الأماكن الجغرافية

– أ –

الأناضول: 21، 30.
الأثارب: 177،
أثينا: 9.
أرمينيا الصغرى: 66.
أرمينيا: 81،
أريحا: 10، 80، 222،
آسيا الصغرى:172،
إقليم الجليل: 64، 152، 161، 162، 177، 226.
إقليم الأردن: 153، 183.
إقليم ما وراء النهر: 153.
إقليم الجولان: 180.
أكويتين: 9،
أكتانيا : 92.
ألبيرة: 224.
ألمانيا: 182.
أمبرت: 113.
انجلترا: 220.
أنطاكية: 25، 28، 34، 35، 36،41، 42، 45، ،46، 50، 61، 63، 64، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 75، 79، 81، 90، 91، 92، 106، 109، 117، 122، 123، 127، 130، 134، 135، 141، 148،150، 151، 153، 157، 158، 161، 166، 167، 168، 169، 170،171، 172، 175، 176، 177، 181، 187، 188، 189، 193، 198، 199، 200، 211، 214، 216، 228.
أنطرطوس:44، 104.
إيليا: 8.

– ب –

البارة: 36.
بانياس: 74، 121، 204، 207، 215.

بترون: 62.
البحر الميت:46،
البحر الأدرياتيكي: 12.
برزية: 201.
بُصرى :178، 179، 180، 181، 182،
بغداد: ص48
بلغاريا:13.
البلقان: 12،
البندقية:27، 32، 39، 42.
بواتيه: 92.
بيت المقدس: 7، 9، 10، 26، 27، 29، 35، 36، 37، 39، 41، 42، 43، 44، 45، 47، 49، 52، 57، 59، 63، 64، 67، 72، 73، 75، 76، 77، 83، 89، 90، 91، 97، 111، 116، 118، 122، 125، 126، 129، 130، 132، 134، 135، 137، 139، 141، 143، 145، 146، 147، 148، 153، 157، 158، 160،159، 161، 162، 163، 164، 168، 169، 175، 177، 178، 180، 182، 183، 184، 187، 191، 192، 193، 194، 196، 197، 198، 202، 204، 205، 206، 209، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 224، 226، 227، 229، 230، 232.
بيت لحم: 8، 10، 49، 53.
بيروت: 122، 144، 169.
بيزا: 32،27، 39، 42، 165،
بيزنطا:12.

– ت –

تبنين: 67، 83.
تل باشر: 33، 45، 172، 173، 177، 186، 187، 193، 211.

– ج –

جاتين: 227.
جاسكوني: 92.
جبل الزيتون:8، 10.

جبال الأناضول: 10.
جبلة: 79، 167،
جبل الكرمل:97،.
جبيل: 226
الجزر: 177.
جزيرة كريت: 12.
جنوة: 27، 32، 42.

- ح -

حارم: 74،
الحجاز: 153،
حران: 177، 211.
حصن الأكراد: 79، 90،
حصن عزاز: 81،
حصن بغراس: 188،
حطين: 181، 184، 186، 196، 197، 205، 207، 232.
حلب: 63، 86، 91، 106، 151، 167، 171، 176، 180، 210، 211،
حماة: 151.
حمص: 74، 151،
حوران: 74، 179، 180، 181.

- خ -

خربة أم القلعة: 227.
خرتبرت:79، 203.
خلقيدونية: 32.

- د -

درعا: 180، 181،
دمشق: 49، 74، 121، 122، 157، 158، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 204، 209، 215،

دير حسان: 227،
دير شرف: 227،
دير مونتفرولت: 220،

– ر –

الراوندان :33، 187، .
روما: 63، 77،
الرملة: 80، 147، 175، 176، 198،
الرها: 45، 50، 63، 64، 65، 66، 74، 79، 81، 86، 123، 157، 158، 161، 168، 172، 173، 175، 176، 177، 178، 182، 183، 186، 193، 204، 211، 217، 219،
الرينة: 53.

– ز –

زردنا: 177

– س –

السويدية: 71،

– ش –

شامبني: 104.
الشوبك: 154، 183، 184،
شيزر:87، 91، 151، 176، 211،

– ص –

صحراء تراقيا: 33.
صرخد: 178، 179، 180، 181، 182.
صفورية: 185.
صقلية:75، 76، 77، 79، 84، 88.
صنجيل: 53.
صور: 74، 81، 106، 113، 119، 136، 161، 162، 165.

صيدا: 80، 87، 90، 128.

– ض –

ضورليوم:32،

– ط –

طبرية: 10، 64، 74، 145، 152، 180، 184، 185، 186، 196، 205، 225.
طرابلس: 41،44، 50، 63،71، 79، 89، 90، 91، 104، 124، 134، 135، 144، 152، 168، 169، 184، 186، 194، 196، 197، 205.
طرسوس: 25، 90، 192.
طور سيناء:9.

– ع –

العريش: 53.
عزاز: 106، 177، 186.
عسقلان: 88، 91، 141، 143، 165، 184، 192، 193، 224.
عكا: 76، 80، 81، 122، 126، 129، 132، 135، 136، 143، 145، 157، 161، 162، 182، 185، 194، 195، 196، 203، 223، 225،
عينتاب: 187،
عين بدران: 224،

– غ –

غزة: 160،

– ف –

فرنسا: 182، 198.
الفلاندر: 16، 104.
فلسطين: 7، 9، 12، 16، 29، 46، 49، 53، 218، 224.

– ق –

القاهرة: 48.

قبرص: 71.
قرية بريث: 225.
قرية بيت عطاب: 227.
قرية بيثاني: 217، 220، 222، 223.
قرية تل ميماس: 223.
قرية تقوع: 217، 218.
قرية جبول: 226.
قرية جلاديا: 224.
قرية راماتيس: 226،
قرية هيلكار: 226،
قرية عصيرة: 225،
القسطنطينية: 13، 21، 26، 30، 34، 72، 74، 76، 169، 178، 216، 228.
قلعة أرزغان: 168.
قلعة بارين: 90، 91.
قلعة جعبر: 207.
قلعة خرتبرت: 86،
قلعة الداروم: 143.
قلعة الروج: 79، 168.
قلعة الروم: 186.
قلعة سروج: 207
قلعة صهيون: 209.
قلعة القرين: 152،
قلعة ميرابل: 163.
قليقيا:33، 45، 66، 122،
قونية: 33، 172،
قيسارية:88، 225.

– ك –

الكرك: 82، 154، 183، 184.

كفر طاب:177.
كنيسة القيامة: 8، 10، 14،11.
كليرمونت:26، 47.

– ل –

لبنان: 111.
اللاذقية: 151، 167، 169، 200، 228.

– م –

ماردين: 63.
مارسيليا : 129.
مرقب: 169.
مرقية: 90.
مرعش: 25.
المسجد الأقصى: 82،
مصر: 9، 11، 74، 141، 153، 165، 184، 186، 224.
معرة النعمان:36، 113
ملطية: 66، 81.
الموصل: 167، 211،

– ن –

نابلس: 59، 78، 80، 91، 125، 130، 131، 145، 146، 147، 148، 152، 154، 162، 163، 164، 166، 184، 206، 223، 229.
الناصرة: 10، 72.
نهر الأردن: 8، 10، 180.
نهر الدانوب: 12.
نهر الراين: 22.
نهر العاصي: 158.
نيقوميديا: 32.
نيقية: 30، 31، 32، 34، 127، 191.

– و –

وادي موسى: 156.
وادي اليرموك: 180.

– ي –

يافا: 87، 141، 143، 162، 165، 175، 176، 192، 193، 197، 209، 216، 224.
يبنى: 193.

فهرس الموضوعات

المقدمة ....(أ – ك)

الفصل الأول: دور المرأة في تأسيس المجتمع الصليبي.....(13-57)

المبحث الأول : وضع المرأة في المجتمع الأوروبي في القرن 5هـ/11م.....(13-17)

1- نظرة المجتمع الأوروبي للمرأة.....(13-14)

2 - المظاهر الحياتية للمرأة في المجتمع الأوروبي.....(15-17)

المبحث الثاني: مشاركة المرأة الأوروبية في حملات الحج قبل الحروب الصليبية.....(18-28)

المبحث الثالث: موقف المرأة الأوروبية من الدعاية الصليبية . ..... (29-32)

المبحث الرابع: دور المرأة الأوروبية في الحرب الصليبية الأولى.....(32-45)

1- دوافع المشاركة في الحملة الصليبية الأولى.....(32-36)

2- مساهمة المرأة في الحملة الصليبية الأولى وأعباء الرحلة حتى سقوط بيت المقدس.....(36-45)

المبحث الخامس: المجتمع الصليبي في بلاد الشام.....(34- 46)

1- عناصر السكان في المجتمع الصليبي.....(45-53)

2- طبقات المجتمع **الصليبي في بلاد الشام**.....(53-57)

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية للمرأة الصليبية في بلاد الشام .....(**59-121**)

المبحث الأول: الزواج في المجتمع الصليبي .....(59-82)

1- طريقة اختيار الزوج .....(59-64)

2- الزواج بين الصليبيين.....(64-66)

3- بين الصليبيين و الشعوب الأخرى.....(66-77)

4- الصداق (المهر) ....(77-80)

5- تقاليد الأفراح الصليبية.....(80-82)

المبحث الثاني: الحياة الأسرية في المجتمع الصليبي.....(83-93)

1- علاقة المرأة بزوجها .....(83-90)

2- علاقتها بأبنائها.....(90-92)
3- الأسرة الصليبية .....(92-93)
المبحث الثالث : عادات الطلاق ....(93-98)
1- الاختياري.....(94-95)
2- الجبري.....(95-96)
المبحث الرابع : المظاهر الاجتماعية للمرأة في المجتمع الصليبي والتأثيرات الإسلامية الشرقية عليها (98-110)
1- الألبسة وأدوات الزينة.....(98-102)
2- الأطعمة والأشربة.....(102-105)
3- النظافة والاستحمام .....(105-107)
4- حقوق المرأة الصليبية .....(107-110)
المبحث الخامس: الزنا والانحراف الجنسي عند الصليبيين.....(110-121)
1- الدوافع و أسباب الانتشار.....(110-113)
2- الزنا في طبقات المجتمع الصليبي العليا..... (113-115)
3- عند رجال الدين .....(115-117)
4- في الطبقات الدنيا .....(117-121)
الفصل الثالث : المرأة الصليبية ودورها في الحياة السياسية .....(123-173)
المبحث الأول: المرأة الصليبية كوريثة على العرش .....(123-142)
أ- على مملكة بيت المقدس.....(123- 135)
ب- على إمارة أنطاكية .....(135-140)
ج- على الحكم في المقاطعات الصليبية الأخرى.....(140-142)
المبحث الثاني: المرأة الصليبية كوصية على الحكم.....(142- 159)
أ-عرش بيت المقدس.....(143-153)
ب-إمارة أنطاكية .....(153-157)

ج- إمارة الرها.....(157-158)
د- إمارة طرابلس.....(158-159)
المبحث الثالث: دور المرأة الصليبية في النزاعات الخارجية.....(159-173)
أ- علاقتها بالمسلمين.....(160-170)
ب- البيزنطيين والمرأة الصليبية..... (170-172)
ج- النساء الصليبيات و الأرمن.....(172-173)
الفصل الرابع : مساهمة المرأة في الحياة العسكرية والدينية للصليبيين.....(**173-210**)
أولا : الدور العسكري للمرأة الصليبية . .....(175-192)
المبحث الأول : المرأة الصليبية في ميادين القتال .....(175-182)
المبحث الثاني : دورها الاستخباراتي .....(182-185)
المبحث الثالث : الأسيرات الصليبيات .....(185-192)
1- أوضاع الأسيرات وطرق معاملتهم.....(185-189)
2- طرق تحرير الأسيرات الصليبيات.....(189-199)
3- الرهينات الصليبيات..... 192
ثانيا: الحياة الدينية للصليبيات في المجتمع الصليبي.....(192-210)
المبحث الأول: أحوال الراهبات الصليبيات .....(192-201)
1- الأنظمة المتبعة في الأديرة .....(193-195)
2- نماذج لبعض الراهبات.....(195-201)
المبحث الثاني: الدور الكنسي للنساء الصليبيات.....(201-206)
المبحث الثالث: الصليبيات ورجال الدين.....(206-210)
الخاتمة .....(212-214)

الملاحق.....(216-224)

قائمة المصادر و المراجع.....(226-241)

فهرس الأعلام.....(244-253)

فهرس الأماكن الجغرافية.....(255-262)

فهرس الموضوعات.....(264-267)

الملخص.....(268-272)

الملـخص:

تتناول هذه الدراسة العلمية موضوع دور المرأة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت المقدس (491-583هـ/ 1096-1187م)،فتُبرز في بدايتها دور المرأة الأوروبية القادمة بحماسها الديني الملتهب إلى البلاد الشام لتأسيس مجتمع صليبي قادر على تثبيت جذوره في أراضي المشرق الإسلامي، وقدوم النساء الصليبيات إلى الشرق لم يكن وليد الحملة الصليبية الأولى بل سبق ذلك بعقود طويلة طلبا لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وأداء الشعائر الدينية والتخلص من كل الذنوب والخطايا، وقد لعبت هذه الزيارات إلى جانب تحريض البابوية لأتباعها في الغرب الأوروبي دورا هاما في اندفاعهن نحو مشاركة الجيوش الصليبية في الحملة الصليبية الأولى، وتقديم المساعدة في مختلف الميادين الحياتية من لحظة مغادرتهن لأوطانهن في أوروبا وحتى بلوغهن الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، من أجل بناء مجتمع صليبي جديد وسط محيط إسلامي واقتلاع سكانه الأصليين من بلادهم وأراضيهم ونهب ثرواتهم ومقدراتهم.

كان للمرأة الصليبية دورها البارز والجوهري في المجال الاجتماعي، فقد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في بلورة الهيكل الاجتماعي للصليبيين في بلاد الشام، باعتبارها الأكثر تأثيرا بالمجتمع والمتعابشة مع ظروفه والمنتجة لأهم قواه وهو العنصر البشري، غير أنه ما أن استقرت الصليبيات في بلاد الشام حتى اكتشفن أنه لكي يعشن في هذه البلاد لابد من الأخذ بأساليب الحياة الشرقية إلى حد ما، لاسيما أن التأثر بالسكان الأصليين كان أمرا حتميا، وتجلى ذلك التأثير خاصة على الحياة اليومية والمعاملات والسلوكات التي مستها مختلف التأثيرات الشرقية كالألبسة وأدوات الزينة ومختلف الأطعمة والأشربة واقبالهم على الحمامات الشرقية وغيرها....،غير أنهن تمسكن ببعض المظاهر التي بقيت ثابتة ولم تتغير لتؤكد انتسابهن لحضارة المجتمعات البعيدة التي وفدن منها، كعادات الزواج والطلاق وتربية الأبناء وغيرها...

تدرج دور المرأة الصليبية في الحياة السياسية في المجتمع الصليبي، فقد استغلت قوانين الوراثة الصليبية وحقها في وراثة الإقطاعات وحتى الإمارات والممالك لتتدخل في اتخاذ القرار السياسي إلى جانب الرجال، كما جاء تدخلها من خلال وراثتها للعرش والوصاية على أولادها من الأمراء والملوك فمارست كامل صلاحيات الحكم داخليا، إلا أنه لم يكن بمقدور أي منهن أن تحكم منفردة بسبب الظروف الخاصة بالمجتمع الإفرنجي التي تؤكد على وجود وصي ذكر عليها، فمجتمع كهذا بحاجة إلى حاكم محارب قبل كل شيء، كما لعبت النساء الصليبيات دورا هاما في النزاعات الخارجية مع الأطراف المجاورة من مسلمين وأرمن وبيزنطيين، حيث أخذ ذلك الدور يتشكل تبعا لطبيعة العلاقات مع جيران الإمارات الصليبية وما تتسم به تلك العلاقات من تعاد أو توافق.

أما المشاركة القتالية للمرأة الصليبية فقد ظلت مثار جدل بين المصادر التاريخية، التي ركزت على دور الرجال وإنجازاتهم في ساحات القتال وحصروا دور النساء في إشارات متناثرة هنا وهناك عبرت عن بعض الأدوار الثانوية لها والمساعدة للرجل، غير أنه منذ بداية الدعاية للحروب الصليبية على يد البابا أوربان الثاني والنساء تتوافد مع الحملات الصليبية القادمة للشرق، حيث كانت أولى مشاركاتهن في حصار نيقية سنة 491هـ/ 1097م وكذا حصار بيت

المقدس 492هـ/1099م ومن ثم توالت مشاركات الصليبيات في حصار المدن والحصون أو الدفاع عنها من أي خطر يحدق بها.

وبالنسبة لأوضاع المرأة الصليبية في الحياة الدينية، فقد كان هنالك أديرة خاصة بالنساء في المجتمع الصليبي كما هو الحال في أوروبا، حيث اختارت بعض الفتيات الصليبيات حياة الرهبنة والتنسك طواعية، وذلك لإشباع رغبة دينية أو تكفيرا عن بعض الأمور في حياتهن وجعلن خدمة الرب هي أقصى غايتهن وأسمى أهدافهن، وذلك من خلال خدمة حجاج بيت المقدس وتطبيب الجرحى والمرضى وخدمة الدير بوجه عام، كما فاق دور المرأة الصليبية الكنسي دور الرجال في هذا المجال حيث انصرف جهد المرأة في إقرار الدافع الديني من خلال الكنائس والأديرة، فنجد المرأة تؤدي دورها الكنسي ملكة كانت أو أميرة أو راهبة أو من عامة المجتمع الصليبي وعلى كافة المستويات، وقد تصدرت الملكة ميليسند بجدارة دور المرأة الصليبية الكنسي فلا نجد من يضاهيها لدى أي امرأة صليبية أخرى، حيث قامت بتشييد العديد من الأديرة واعتنت عناية فائقة بالكنائس فأسبغت عليهم المنح والهبات الكثيرة، كما أولت عنايتها واهتمامها بجميع المؤسسات الكنسية اللاتينية في مملكة بيت المقدس.

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية، المرأة، المجتمع الصليبي، بيت المقدس، بلاد الشام.

Summary:

This Scientific Study addresses the topic of the role of women in Crusade Society in the Levant from the first Crusade until the fall of Jerusalem (491-583H/ 1096-1187ad), At its beginning, it highlights the role of European women coming with their burning religious enthusiasm to the Levant to establish a Crusader society capable of establishing its roots in the lands of the Islamic East, The arrival of the crusader women to the East was not the result of the first Crusade, but rather preceded to visit the holy places in Palestine , perform religious rituals, and get rid of all sins and transgressions,These visits,along with the papacy's incitement to its followers in western Europe played an important role in their push towards the participation of the Crusader armies in the first Crusade, and providing assistance in various fields of life from the moment they leave their homelands in Europe until they reach the lands under Islamic rule, in order to build a new Crusadez society in the midst of an Islamic environment, uprooting its original inhabitants from their countries and lands, and plundering their wealth and capabilities in the country.

The Crusader woman had a prominent and essential role in the social field, She influenced, directly or indirectly, the crystallization of the social structure of the Crusaders in the levant, As it has the greatest influence on society, coexists with its condition, and produces its most important force which is the human element, However, as soon as the Crusaders settled in the levant, they discovered that in order to live in this country, they must adopt Eastern ways of life to some extent. Especially since being influenced by the indigenous population was inevitable, this influence was evident, especially on daily life, transactions, and behaviors that were affected by various Eastern influences, such as clothing, decorative tool, various foods and drinks, and their desire for Eastern perfumes and other, However, they adhered to some aspects that remained constant and did not change to confirm their affiliation with the civilization of the customs of marriage, divorce , raising children, and others…

The role of the Crusader woman gradually increased in the political life of the crusader society, she took advantage of the crusader inheritance laws and her right to inherit fiefdoms and even emirates and kingdoms to intervene in decision- making alongside men, Her

intervention also came through and guardianship over her children and from the prince and kings, so kalmal exercised the powers of governance internally but none of them was able to rule alone due to the special circumstances of the Frankish society that emphasized the presence of a male guardian over her, A society like this needed a warrior ruler before anything else crusader women also played an important role in foreign conflicts with neighboring parties, including Muslims, Armenians, and Byzantines. That role began to take shape according to the nature of the relations with the neighbors of the crusader Emarates and the hostility or agreement that characterized those relations.

As for the combat participation of crusader women, it has remained a matter of controversy among historical sources, wich focused on the role of men and their achievements on the battlefields and limited the role of women to scattered references here and there that expressed some of their secondary roles and assistance to men. However since the beginning of crusader propaganda on the hand of Pope Urban Ⅱ and women joinedthe crusades coming to the East, as their first participation was in the siege of Nice in the 491H /1097ad, as well as the siege of Jerusalem in the year , and from there the crusades continued to participate in the seige of cities and fortresses or defending them from any danger threatening them.

Regarding the conditions of crusader women in religious life, there were special monasteries for women in crusader society, as is the case in Europe,where some crusader girls voluntarily chose a life of monasticism and asceticism in order to satisfy a religious desire or atone for some matters in their lives, and they made serving the lord their mission. This is through serving the pilgrims of Jerusalem, treating the wounded and sick, and serving the monastery in general. The Ecclesiastical role of women also surpassed that of men in this field, as women's efforts were devoted to approving the religious motive through churches and monasteries. We find women performing their ecclesiastical role, whether queen or princess. Or law from the general population of the crusader community at all levels, Queen melisende deservedly took the lead in the role of Ecclesiastical crusader women we do not find anyone comparable to her among any other crusader women. She built many monasteries and took great care of churches, bestowing upon them many grants and gifts. She also devoted her care

and attention to all the Latin Ecclesiastical institution in the kingdom of Jerusalem.

Keywords: crusades, women , crusader society , Jerusalem, levant.